

عبد الحميد المهاجر

الرَّسُولُ وَأَهْلُ بَيْتِهِ
أَسْمَاءٌ لَا تُنْسَى

المجلد الثاني

مكتورات
مؤسسة الأمل للطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب. ٧١٢٠

الرَّسُولَ وَأَهْلَ بَيْتِهِ
اسْمَاءُ لَا تُنْسَى

عبد الحميد المهاجر

الرَّسُولُ وَأَهْلُ بَيْتِهِ أَسْمَاءٌ لَا تُنْسَى

الجزء الثاني

شبكة كتب الشيعة



منشورات
مؤسسة الأعلی للطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب ٧١٢٠

shiabooks.net

رابطہ بدیل < mktba.net

الطبعة الأولى
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

مؤسسة الأعلّمي للمطبوعات :

ببيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة - ملك الاعلي - ص.ب. ٧١٢٠
الهاتف : ٨٣٣٤٥٣ - تليفاكس : ٨٣٣٤٤٧ .

مواقف رائعة من حياة
الإمام علي بن الحسين عليه السلام

مواقف من سيرة الإمام زين العابدين عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾^(١).

صدق الله العليّ العظيم

لقد ضمن الله سبحانه وتعالى نصر الإسلام وانتصار القرآن الذي سيصبح منهجاً للإنسانية جمعاء، فحكم المؤمنون الأرض كلها، وهذا ما أكّده جميع الأنبياء عليهم السلام. أما فترة الظلم والظلام والفساد التي تعاني منها الإنسانية في أيامنا، فما هي إلا فترة عابرة. لأنّ النصر في النهاية لا يكون إلا للحقّ، فكلمة الله هي العليا. والذين استمسكوا بعروة الله الوثقى لا بدّ منتصرون.

إنّ الحياة ترينا الغثّ والسمين، وترينا النافع والضارّ. وإذا ما أمعنا النظر لرأينا بوضوح أنّ كلّ ما ينفع الناس أصيل. وكلّ ما يضرّهم عرضيّ وزائل. فبين الصّحة والسلامة وبين المرض. الصحة والسلامة أصلان

(١) سورة التوبة؛ الآيتان: ٣٢ و ٣٣.

أصيلان والمرض عرضي زائل، لأنَّ منفعة الناس في الصَّحة والسلامة، وضررهم في المرض. وعندما يصرخ الإنسان متألماً لعلَّة أصابته، فصرخته نذير بتعطل منهج من مناهج الله تعالى. وقس على ذلك الغنى والفقر، والعلم والجهل. ﴿أما الزبد فيذهب جفاء﴾^(١). والزيد في قوله تعالى رمز لكلِّ عرضي كالمرض والجهل والخيانة والاستهتار والظلم. إنَّ كلَّ تلك العوارض فقاعات فارغة لا تلبث أن تنفجر وتبخر. ولا يبقى إلَّا الذي ينفع الناس. ﴿أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾^(٢).

فاعلموا أيها المؤمنون، في مشارق الأرض ومغاربها أن المستقبل للقرآن وأن الإسلام هو دين العالم. فصوت الحقَّ سيدوي عبر الآفاق، واسم الحبيب المصطفى ﷺ سيكون على كلِّ شفة ولسان مشفوعاً بالصلاة والسلام. ومن ضمانات القرآن على ذلك قوله تعالى في سورتي الصف والتوبة: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾^(٣). فهل الذي يحمل الهدى والهداية للناس هو الذي يضيع؟ أم يضيع الذي يتخبط في الحياة على غير هدى وبيّنة؟ لا يمكن أن يضيع من يحمل الهدى والحقَّ، ولا يمكن أن يستمرَّ من يتخبط في الضلال والباطل. إنَّ حملة الحقَّ خالدون في القلوب والعقول. وأهل الباطل مندثرون في غياهب الظلمات والنسيان. وما ازدحام الناس وتزاحمهم في مجالس تقام لذكر رسول الله وأهل البيت ﷺ. إلَّا دليل على خلود رسول الله وأهل البيت في قلوب وضمائر الناس، أمَّا أولئك الذين انتهجوا سبل الباطل فقد اندثروا يوم قبروا. أين بنو أمية؟ وأين بنو العباس؟ وأين يزيد بن معاوية الذي وضع الجامعة في عتق الإمام زين العابدين ﷺ.

(١) سورة الرعد؛ الآية: ١٧.

(٢) سورة الصف، الآية: ٩. وسورة التوبة؛ الآية: ٣٣.

أن يقوم أحد المضللين بتزوير كتاب في فضائل يزيد لا يضلّل الناس، بل يزيدهم من الكاتب والكتاب وممن كتب لأجله نفوراً. لأنّ التزوير والتزويق لا يحوّل الشوك ورداً ولا الحنظل عسلاً. والشيء لا يكون هو وضده في آن، فيزيد بن معاوية هو يزيد بن معاوية... والأمويّون هم الأمويّون.

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّ ولو كره المشركون﴾ إنّ المشركين والكفرة لن يرحّبوا بالإسلام ولكنّه سينشر رغماً عن أنوفهم؛ تلك هي إرادة الله ولا رادّ لها، ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلّا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون﴾^(١). ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره ولو كره الكافرون﴾^(٢).

فالله تعالى يكرّر ضماناته تأكيداً لها، فبالرغم من المؤامرات والدسائس التي يحيكها أعداء الإسلام، فإنّ العالم الإسلامي يشهد صحوة تبشر بقرب تحقّق إرادة الله في انتصار الإسلام بشكل نهائي وحاسم وشامل، كنّا قبل سنوات إذا دخلنا مسجداً، أو أحيينا مجلساً في ذكر رسول الله وأهل البيت عليهم السلام لا نجد في تلك المساجد والمجالس إلّا شيوخاً طاعنين في السنّ. أما اليوم فإنّ المساجد والمجالس الإسلامية تغصّ بالشباب، هذا ما نراه بأنّ أعيننا في كلّ أنحاء الأرض من الخليج إلى سائر بلاد العرب والمسلمين، إنّنا نرى ذلك حتّى في أوروبا وأميركا، فالشباب يزدهمون في المساجد والمجالس الحسينية كما يزدهم الفراش على الزهر ليتمتّع الرحيق.

(١) سورة التوبة؛ الآية: ٣٢.

(٢) سورة الصف؛ الآية: ٨.

العلم يتوجه نحو الإسلام لأنه يرى فيه طريق الخلاص

لماذا يتوجه العالم نحو الإسلام؟ لماذا يرى فيه الخلاص؟. لأن جميع الأحزاب والأنظمة والنظريات فشلت فشلاً ذريعاً. ولم يبق سوى الإسلام وحده. لقد تفنّن اليهود في تشويه المضمون الإنساني للإنسان، من داروين الذي رأى في الإنسان قرداً متطوراً. إلى ماركس الذي رأى فيه آلة صماء لا تتعدى نطاق المادّة. إلى فرويد الذي لم ير في الإنسان إلّا طاقة أو غريزة جنسية راح يفسّر الإنسان على ضوءها، وقد رأى أنّ الطفل الذي يتشبّث بثدي أمّه إنّما يفعل ذلك بحافز جنسيّ، فتأمّلوا!

ولكن أين داروين وماركس وفرويد وأمثالهم اليوم؟ إن طروحات ونظريات كلّ من داروين وفرويد عفا عليها الزمن واستبعدتها كلّ الجامعات الراقية، وهم إذ يأتون على ذكرها، إنّما يفعلون ذلك للبرهان على بطلانها، وأما نظريات وطروحات ماركس فقد تهاوت وتساقطت كما تساقط أوراق الخريف الذابلة.

فالبريّة اليوم متجهة إلى الإسلام والقرآن، وفي الولايات المتحدة الأميركية نفسها يصدر كتاب في المئة الأوائل الذين غيّرنا مجرى التاريخ ومصير الإنسانية. فكان أوّل أولئك الأوائل محمد بن عبد الله ﷺ. إنّ الحضارة الماديّة وتقدّمها التكنولوجي لم يوفرنا للإنسان الأمان النفسيّ. فراكب الكونكورد، يبحث عن السلامة والأمان قبل أن يهتمّ بسرعة الطائرة وضخامتها.

إنّ الحضارة الماديّة التي أنتجت جهازاً يحلّ في دقيقة مسائل رياضية تحتاج لحلّها ستين سنة. ولكن هذا الجهاز الذي يسمّونه كومبيوتر وقد أسموه بالعربيّة حاسوباً. هل حلّ مشاكل الإنسان النفسيّة؟. لا وألف لا. لماذا؟ لأنّ الحضارة الماديّة المعاصرة منقطعة عن الله كافرة به فهي بالتالي كافرة بالإنسان وقيمه وحقوقه.

إنّ الإعلام البريطاني مثلاً، يقيّم عالياً جهود وبراعة طبيب استطاع أن يحرك آلياً قلب طفل رضيع لمُدّة ثلاثة أشهر. وهذا رائع جدّاً، والإسلام يكبر بل يقدّس عملاً كهذا. وقد مات الطفل بعد انقضاء الأشهر الثلاثة ونعاه التلفزيون البريطاني وانتهى الأمر. ولكنّ هذه الحضارة التي تخرّج ذلك الطبيب البارِع، وتصنع التلفزيون الذي يروّج لعلمه الإنساني الباهر ويشني عليه. هذه الحضارة هي ذاتها التي تصنع أسلحة الدمار الشامل من قنابل نوويّة وهيدروجينيّة وجراثيميّة وكيميائيّة تشحن الطائرات والغوّصات بها وترسلها في أرجاء المعمورة لتفني الشعوب المستضعفة وتنهب خيراتها بعد أن تدمّر كلّ معالم الإنسانيّة فيها. ومثل هذه الحضارة مثل أب يقتل كلّ عناية شوكة من جسم ولده. ثم يأخذ سكّيناً فيقتلع عين ولده الآخر. فهل هذا أب عاقل؟ لا اعتقد أن أحداً يتردّد في الحكم عليه بالجنون. والحضارة التي تهتمّ بقلب طفل رضيع من جهة. وتتفنّن في ابتكار أساليب الدمار والعدوان، ولا تتردّد في ممارستهما، هي حضارة مجنونة بلا جدال. وأنا إذ أقول ذلك؛ إنّما أقوله كي لا ننهر بمنجزات الحضارة الماديّة التي كان الإنسان آخر اهتماماتها، لذلك مقتها الإنسان العاقل وازدراها وأقبل على الإسلام يتلمّس فيه خلاصه.

الإمام زين العابدين عليه السلام يحفظ

الإسلام وينشره

يمثّل الإمام زين العابدين عليه السلام النموذج الرائع الفذّ للشخصيّة التي تستقي هديها من وحي الله سبحانه وتعالى. فالوحي كلّ تمثّل في سيرة الإمام السجّاد عليه السلام، كما سبق وتمثّل في سنة الرسول وسيرته عليه السلام.

إنّ الناس متفاوتون بمدى إيمانهم وفهمهم وقدرتهم على استيعاب الحياة. ولا يُعرف الإنسان إلّا من خلال عمله، ومن خلال عمله نعرف إن كان مؤمناً أو كافراً، أميناً أو خائناً، صادقاً أو كاذباً، فاختيارك لطريقك في

الحياة يكشف عن حقيقتك.

قد نتصور الإمام القائد زاهداً في الدنيا والحياة، منزلاً يعبد الله في صومعته، وهو منصرف إلى هذا الجانب من الحياة دون غيره. إن الانصراف إلى جانب واحد من الحياة وعدم الاهتمام بسائر جوانبها الكثيرة يعني قيادة أرضية محدودة. وهي دون قيادة أهل البيت للإنسانية والحياة. فقيادة الأئمة الطاهرين عليهم السلام قيادة متكاملة شاملة. ونموذجها الرائع الإمام زين العابدين عليه السلام.

عندما صعد الإمام زين العابدين عليه السلام المنبر في مجلس يزيد بن معاوية سبق إلى ذلك قوله ليزيد: «إذن لي أن أصعد هذه الأعواد فأتكلم بكلمات فيهنّ الله رضى. ولهؤلاء الجالسين أجر وثواب». ونحن إذ نخصّص هذا المجلس للحديث عن الإمام زين العابدين عليه السلام إنّما نفعل ما يرضي الله وينفعنا. ولحصول ذلك لا بدّ أن نركّز على الأمور التالية:

- ١ - الزمن الذي عاشه الإمام السّجّاد عليه السلام.
- ٢ - الإنجازات الضخمة التي حقّقها لحفظ الإسلام ونشره.
- ٣ - ربطه الناس بالله سبحانه وتعالى.
- ٤ - وضعه القواعد الأساسية لمدرسة الإمام الصادق عليه السلام.

الزمن الذي عاشه الإمام السّجّاد عليه السلام

في الحديث عن الزمن الذي عاشه الإمام السّجّاد زين العابدين عليه السلام لا بدّ أن نركّز على النقاط المهمّة في ذلك معتمدين على الوقائع التاريخية الصحيحة.

لقد بدأ زمن الإمام زين العابدين عليه السلام مع حكم يزيد بن معاوية. فكم سنة حكم يزيد وكيف كان حكمه؟ حكم يزيد بن معاوية ثلاث سنوات

توزعت عليها مآثمه كما يلي : في السنة الأولى من حكمه كانت مجزرة الطفّ التي استشهد فيها ريحانة رسول الله واسبيحت حرماته، وأُحرقت ديار أهل بيته، ورُفعت رؤوس أبنائه على أسنة الرماح، وسيقت بناته سبايا إلى الشام، يعانون من الجوع والعطش ووعثاء السفر. حتّى إنّ إحدى زوجات الإمام الحسين عليه السلام أجھضت جنينها، فأسمته زينب الحوراء «المحسن». إحياء لذكرى أخيها المحسن الذي أسقط بين الحائط والباب. وقد حدث ذلك على مقربة من حلب. فلمّا علم المؤمنون بذلك. هُرعوا فبنوا للمحسن ضريحاً وأقاموا عليه مشهداً يزورونه ويتبرّكون به ويتقرّبون إلى الله بذلك. ولم لا أليس المحسن الذي لم تتعد إقامته في بطن أمه ستة أشهر جنيناً من نطفة الحسين عليه السلام .

أما في السنة الثانية من حكمه، فقد أباح يزيد مدينة رسول الله ﷺ ثلاثة أيام لجيش من الفجرة يقوده مجوسيّ مهتّك آثم اسمه مسرف بن عقبة. وقد ذكر المؤرّخون أن اسمه مسلم بن عقبة، والإسلام بريء منه. تصوّر نفسك جالساً في بيتك مع حريمك وبناتك، وإذ بجنود تسوقهم غرائزهم يقتحمون عليك بيتك فيهتكون الأعراض، ويقتلون الناس ويدمّرون الديار. نعم في مدينة رسول الله ﷺ هتك جيش يزيد أعراض العذارى، فكان الأب، بعد تلك الفعلة الشنعاء يستحي ممن يخطب إليه ابنته.

أمّا في السنة الثالثة من حكمه، فقد هدم يزيد كعبة الإسلام ودكّها بالمنجنيقات دكّاً لم يبق منها حجراً على حجر. وقد انتقم الله منه فجعله طعمة للكلاب الشاردة المتناحرة في الصحراء. وفي عصرنا خاطبه بولس سلامة قائلاً:

رافع الصوت داعياً للفلاح أخفض الصوت في أذان الصباح

وترفّق بصاحب العرش مشغولاً
 عن الله بالقيان الملاح
 ألف الله أكبر لا تساوي بين
 كفي يزيد نهلة راح
 تنلّظي في الكأس شعلة خمر
 مثل ضوء اللمب في المصباح
 عننت في الدنان بكرأ
 فلم تدنس بلثم ولا بماء قراح
 أيها المبكر المؤذن لا تهتف
 وإن شئت فاعتصم بالنباح
 فالشاعر يطلب إلى المؤذن أن يخفّض صوته لأنّ الأذان يزعج شارب
 الخمرة يزيد.

بعد يزيد بدأت حكومة آل مروان. مروان بن الحكم. هذا اللعين ابن
 اللعين على لسان رسول الله ﷺ.

من آل مروان عبد الملك بن مروان الذي كان يخطب في الجمعة
 قائلاً للناس: «والله لا يأمرني أحد منكم بتقوى الله إلّا ضربت عنقه
 بسيفي هذا».

وفيه وفي أمثاله من الطفلة المتجبرين يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ
 اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسِبْهُ جَهَنَّمَ﴾^(١).

بعد عبد الملك، الوليد بن عبد الملك، فسلیمان بن عبد الملك
 فيزيد بن عبد الملك، فهشام بن عبد الملك. وهؤلاء جميعاً كما هو واضح
 من نسل مروان اللعين. وقد عاصرهم الإمام زين العابدين عليه السلام. ومتى

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٦.

عرفتم كيف ساس هؤلاء المسلمين، وكيف عاثوا في الأرض فساداً، وكيف حرّموا على المسلمين أن يذكروا أهل البيت بما هم عليه من طهر وإيمان وتقوى. متى عرفتم كلّ ذلك فهمتم الدور العظيم الذي لعبه الإمام زين العابدين عليه السلام في حفظ الإسلام. نعم لقد منع أولئك المروائيون الناس من الحديث عن فاطمة الزهراء وزوجها الإمام عليّ بن أبي طالب وابنيهما الحسن والحسين عليهم سلام الله جميعاً. لقد منعوا حتّى الحديث عن رسول الله ﷺ. وكانوا إذا حدّثهم أحد عن الرسول وأهل بيته ﷺ، قالوا: «حسبنا القرآن» وهم بقولهم ذلك إنّما يرمون إلى إهمال سنة رسول الله وأهل بيته. وهناك من يقول اليوم بهذا القول المنحرف عن الإسلام الصحيح. وحتّى القرآن الكريم لم يسلم من شرّ الأميين. فها هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك يفتح القرآن سكران فيقرأ فيه: ﴿واستفتحوا وخاب كلّ جبار عنيد﴾^(١).

فيجعل القرآن هدفاً على سنّ الرمح يرميه بنباله ويخاطبه قائلاً:

تهدّد كلّ جبار عنيد
فها أنذاك جبار عنيد!!
إذا ما جئت ربّك يوم حشر
فقل يا ربّ: «مزّقني الوليد»

والوليد هذا من شعراء الخمرة الكبار، وقد اعتبره الدارسون أستاذاً لأبي نواس في هذا المضمار. وقد كان قصره مسرحاً للفسق والمجون. وكانت السباحة لا تطيب له إلّا في حوض الخمرة، حتّى إذا تعتقه السكر خرج من الحوض وأخذ يطوف حوله مردّداً قائلاً: «يا دار دؤريني، يا قرقر أمسكني». ويطوف ويردّد وراءه سرب من الجوّاري الساقطات اللواتي

(١) سورة إبراهيم؛ الآية: ١٥.

يحيين لياليه الحمراء. وكان يستمرّ في ذلك ويستمررن، حتّى يسقط ويسقطن. تصوّروا أنّ إنساناً كهذا يقود العالم ويسوسه سياسة يا دار دوريني، يا قرقر إمسيني! عودوا إلى كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني تلاحظوا إنّ هذه الفترة كانت من أخطر الفترات التي مرّت على الإسلام، ولو لم يقبّض الله للإسلام إماماً حافظاً هو الإمام زين العابدين عليه السلام لما ترك الأمويّون للإسلام ذكراً ولا أثراً.

كيف كان الإمام زين العابدين ينشر الإسلام

لقد أغرق الأمويّون العالم الإسلاميّ في الظلم والظلام. فكان الخطيب يوم الجمعة مجبراً على أن يبدأ خطبته بسبّ عليّ بن أبي طالب. بدلاً من أن يبدأها بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله وأهل البيت عليهم السلام. وكانت مجالس الغناء الماجن الداعر قائمة على قدم وساق. وهذه سياسة أعداء الله حتّى يومنا هذا. فهم إذا أرادوا تمزيق شعب ودفعه في طريق البوار والهلاك. أشاعوا فيه الغناء الماجن الداعر. هكذا تصدّر إلينا أمريكا أغاني مايكل جاكسون وأضرابه من دعاة الفسق والفجور. ومع الأسى والأسف ينزلق بعض شبابنا الساذجين في هذا التيار وهم لا يعرفون أنّهم يأكلون السمّ فيما يحسبونه عن جهل دسماً.

وهم لا يكتفون بسماع أغاني مايكل جاكسون بل يتخذونه شعاراً فيلبسون قمصاناً مطبوعة عليها صوره. لقد رأيت يوماً أحد هؤلاء الشباب فلم أتمالك نفسي من البكاء متسائلاً قائلاً: «من غرّر هؤلاء المساكين فدفعهم في طريق المجون في زمن يشهد صحوة إسلاميّة وتوجّهاً عالمياً نحو الإسلام، أين المؤسسات الإسلاميّة التي تعصم هؤلاء الأغرار من طوفان الفساد؟ أين أصحاب الضمائر الذين يشمّرون عن سواعدهم وينقذون أولئك الشباب فينقلونهم من الظلمات إلى النور؟. ليس ذلك على الله بعزيزه.

بعد واقعة الطفّ واجه الإمام زين العابدين عليه السلام مؤامرة أمويّة خبيثة

على الإسلام بفرض القضاء عليه بعد تشويهه وتحريفه. هذه المؤامرة التي أشارت إليها بطله كربلاء العقيلة زينب يوم خطبت في يزد الطاغية قائلة: «فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تمت وحيناً، وهل رأيك إلا فند، وجمعك إلا بدد، وآبائك إلا عدد؟ يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين. فكذلك، واسع سعيك، وناصب جهلك، فوالله ما فريت إلا جلدك، ولا حزرت إلا لحمك».

لقد تصدّى الإمام زين العابدين عليه السلام لتلك المؤامرة بعلمه وعمله، فالمؤامرة خطيرة وكبيرة والناس منقطعون عن الله. فرأى الإمام عليه السلام بشاقب نظره ووافر علمه وهديه أنّ خطوته الأولى في مسيرة التصديّ للمؤامرة هي ربط الناس بالله. وذلك لا يكون إلاّ بهدايتهم وإنارة قلوبهم بالإيمان وبث الوعي في ضمائرهم والرشد في عقولهم. ولكن ذلك لا يتم إلاّ عن طريق المدارس والمعاهد والجامعات الإسلامية التي تخرج الخطباء والمبشرين. فقرر أن يجمع في شخصه تلك المدارس والمعاهد والجامعات. وهكذا أخذ يشتري العبيد بالألوف ويسكنهم معه في دار بني هاشم وهي أكبر الدور في المدينة، فلا يمضي عليهم الحول حتى يصنع منهم وبدورة تربويّة مكثفة، علماء، مبشرين ومبشرين وسادة، يطلقهم في أرجاء العالم المعروف يومئذ ليلبّغوا الإسلام ويردّوا الناس إلى سواء السبيل. إنّه عمل جبّار من أعمال الإمام زين العابدين العظيمة التي ومع الأسف، لمّا يتناولها الدارسون بالتفصيل الذي تستحقّ، في إحدى السنين اشترى الإمام ومن أمواله الخاصّة أربعة آلاف عبد أسكنهم معه، يلقي عليهم في اليوم الواحد محاضرتين أو ثلاثاً. فلا يمرّ الحول حتّى يخرج بهم إلى جبل عرفات ليلقي فيهم محاضرة توديع يركّز فيها دورهم الرساليّ. ثمّ يقول لهم: «لقد بقيتم معي قرابة سنة، ومن المحتمل أن يكون قد بدر منّي ما يسيء إلى أحدكم، فهل تعفون عنيّ وتسامحونني، وتطلبون من الله تعالى العفو لعليّ بن الحسين»!! فيجيبه التلاميذ قائلين: «نحن في خدمتك يا بن رسول الله،

لم ييدر منك يا سيّدنا إلّا كلّ الخير». فيعيد عليهم القول: «لا، بل ارفعوا أيديكم على جبل عرفات وقولوا: «اللهم اغفر لعليّ بن الحسين، اللهم اغفر لعليّ بن الحسين». ثم يحرّره بعد ذلك ويزوّد كلّاً منهم بمالٍ يسدّ به رمقه ويحفظ ماء وجهه.

يقول جرجي زيدان وآخرون من المؤرّخين أنّ عدد الحجّاج في أيّام الإمام زين العابدين عليه السلام بلغ أربعة آلاف ألف أي أربعة ملايين، فلا جواز سفر ولا فيزا ولا هم يحزنون.

فالمسلمون رجالاً ونساء يلبّون الأذان بالحجّ، «وأُذن في الناس بالحجّ يأتوك رجالاً وعلى كلّ ضامر يأتين من كلّ فجّ عميق»^(١).

إنّهم يُهرعون لتلبية الأذان بالحجّ مشياً على أقدامهم، أو راكبين على جمل ضامر يقطع بهم الفيافي والقفار، فيجتمع على جبل عرفات أربعة ملايين حاج وحاجة. فإذا أطلق الإمام السّجاد بينهم أربعة آلاف عالم مبلغ أي بمعدّل ألف عالم لكلّ مليون. فإنّ هؤلاء العلماء والملايين من الحجّاج سيبتشرون بعد الحجّ في الأفاق من الهند والصين إلى إفريقيا وسائر أرجاء المعمورة. فتأملوا أيّها الإخوة والأبناء كيف عمل سيّد الساجدين وزين العابدين على حفظ الإسلام ونشره. عودوا إلى التاريخ تجدوا أنّ نور الإسلام لم يدخل الهند إلّا بسعي الإمام زين العابدين عليه السلام. وأنّ إفريقيا لم تهتد إلى الإسلام إلّا بهدي الإمام السّجاد عليه السلام. وحتىّ يومنا هذا تطالعا حيث جينا في إفريقيا قلوب مفعمة بحبّ أهل البيت عليه السلام وتقديرهم حقّ قدرهم. وسيبقى ذلك ما دام المسلمون حافظين لإسلامهم متشبّثين بإيمانهم. ولأنّني في هذا المجلس، وفي كلّ مجلس أدعو أغنياء المسلمين للاقتداء بالإمام زين العابدين عليه السلام في حفظ الأموال في حفظ الإسلام ونشره.

(١) سورة الحج، الآية: ٢٧.

والناس في إفريقيا، على ما علمت من تجربتي الشخصية عطاش إلى الهداية الإسلامية. ينتظرون من أثرياء المسلمين وقادتهم أن يرسلوا لهم عالماً إسلامياً وأن يبنوا لهم مؤسسة إسلامية يقوم عليها الفقهاء والمبلغون، وسبب ذلك أن التبشير بالمسيحية قائم على قدم وساق وأن الصليب يطالملك حيثما اتجهت. ومع ذلك فإن الإسلام، دين الفطرة ينتشر في إفريقيا انتشار النور في الظلام. والأمر يحتاج إلى غيارى على الإسلام غير الإمام زين العابدين عليه السلام.

لقد شهدت شخصياً إسلام الكثيرين من شباب وشابات إفريقيا، إنهم يصطفون في طوابير طويلة، ينتظر كل منهم دوره بشوق ليمر أمام المبلغ بالإسلام ويقول له بلهفة «Please change my name». أذكر أن فتاة إفريقية شهدت بعونه تعالى إسلامها، طلبت مني أن أغير اسمها، فغيرته إلى «فاطمة»، فأطرقت تلك الفتاة برأسها، وكانت فتاة جامعية مثقفة مؤدبة، وقالت لي في استحياء: «أعتقد أنني أستحق هذا الاسم، إنه لشرف عظيم لي أن أسمى باسم بنت النبي».

تأملوا بالله حال هذه الفتاة، وقارنوها بحال أولئك الذين يتهافتون على الأسماء الغربية يختارونها لأبنائهم وبناتهم، أليس عيباً بل حراماً ما يفعله هؤلاء؟!

نعم، والحمد لله، شهدت شخصياً آلاف الأفارقة رجالاً ونساء، مثقفين وعاديين يشهرون إسلامهم على يدي بعون الله. كانوا يشهرون إسلامهم دون السؤال عن سنة أو شيعة. ودون أن نطلب منهم إشهار الإسلام على مذهب معين. فنحن لا نعترف بالفرقة بين سنة وشيعة. فكل المسلمين على سنة رسول الله وأهل البيت عليهم السلام. وكلهم أشياخ متابعون مناصرون رسول الله وأهل البيت عليهم السلام. إنني أسأل الله تعالى أن يحبط أعمال الدسّاسين الذين يسعون إلى تمزيق الإسلام والمسلمين. إنهم

المنافقون الذين ما فتشوا يكيدون للإسلام والمسلمين، منذ عهد الرسول ﷺ وإلى يومنا هذا. إنهم أعداء الله وحلفاء الشيطان مصيرهم جهنم وبئس المصير.

لقد تعرّف في إفريقيا على رجل هو الشيخ محمد المصطفى، وهو من مشايخ لاغوس عاصمة نيجيريا. أخذني إلى مدرسة أسسها لتخريج المبلّغين بالإسلام. وهو يخرج من مدرسته كلّ عامين حوالي مئة شاب ينشرهم في أرجاء إفريقيا للتبشير بالإسلام. إنه شيخ محبّ لأهل البيت أشدّ الحبّ، مؤمن برسالتهم أعمق الإيمان. قال لي يوماً: «أتعرف لماذا أحتاج إلى ستين كي أخرج هؤلاء الشباب وأطلقهم في أرجاء إفريقيا؟». قلت: «لماذا؟» قال: «لأنني لست زين العابدين الذي كان يبعث لنا بالوف المبلّغين الأشداء كل سنة، وقد هداني الله إلى الإسلام ببركات الإمام زين العابدين». فقلت له: «هنيئاً لك يا شيخ، إنني أقرأ نور الإيمان في عينيك». قال: «إنني مشهور في لاغوس. بحلال المشاكل. قلت له: ولم ذلك؟». قال: «إن آلاف المشاكل التي يعاني منها كثير من الأسر، لا تجد من يتصدّى لحلّها غيري، والناس يقصدونني لذلك» حتّى أنّهم يقصدونني إذا أصابهم مرض ويطلبون منّي أن أعمل على شفائهم». قلت له: «ماذا تفعل لشفائهم؟» قال: «إنني لا أزيد على دعائي قائلاً: اللهمّ إنّي أقسم عليك بأحبّ الخلق إليك محمد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين إلّا شفيت هذا المريض». قلت: «ماذا يحدث لهم بعد ذلك؟» قال: «يشفون بإذن الله». إنني أخبركم بذلك أيّها الأخوة والأبناء وأنا أمل أن يصل كلامي هذا إلى الشيخ محمد المصطفى إن على شريط كاسيت وإن في كتاب. إنني لن أنسى ذلك الشيخ الذي يبكي لذكر أهل البيت ﷺ.

لقد أميت الجماعة في لاغوس في صلاة الجمع. فكان بعضهم يصلي وقد أسبل يديه. وكان بعضهم الآخر يصلي مكتوف اليدين، والجميع

يقفون في صفٍّ واحدٍ موجهين وجوههم للذي فطر السموات والأرض. ودون أن يدخلوا في جدل حول أيِّ صلاة هي الأصح. ودون أن يعرفوا أن تكثيف اليدين في الصلاة ليس واجباً، بل هو مستحبٌّ عند الشافعي والمالكي. بينما يرى سائر الفقهاء أن الإسهال هو الأفضل والأصح، وقل ذلك بالنسبة للجمع في الصلاة، وقد جاء في صحاح البخاري ومسلم والترمذي أنّ الرسول ﷺ كان يجمع الصلاة في السفر والحضر. ونحن عندما نجمع الصلاة إنّما نتبع سنة رسول الله ﷺ. فإذا شئت أن تصلي كلّ صلاة في وقتها فلا بأس. علماً بأنّ القرآن الكريم يشير إلى ثلاثة أوقات للصلاة وذلك في قوله تعالى: ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إنّ قرآن الفجر كان مشهوداً﴾^(١).

وقوله تعالى ﴿لدلوك الشمس﴾ يعني للزوال.

إذن بينما كان الحكّام والملوك الذين أسموهم خلفاء غارقين في مجونهم ولهوهم. كان الإمام زين العابدين عليه السلام مستغرقاً في حفظ الإسلام ونشره وعقد مجالس الدعاء التي أنتجت الصحيفة السجّادية وهي زبور أهل البيت. في هذه الصحيفة ما يزيد على ألف علم، أهمّها وأدقّها علم التوحيد. وسنعرض لعلوم الصحيفة السجّادية قدر الإمكان في محاضرة خاصّة، نضع فيها أمام أعين شبابنا حقائق علميّة اكتشفها الإمام زين العابدين عليه السلام منذ ألف وثلاثمائة وخمسين عاماً ولمّا يكتشفها العلم الحديث حتّى اليوم.

الإمام زين العابدين عليه السلام ربط الناس

بالله تعالى

في مسعى الإمام زين العابدين عليه السلام لربط الناس بالله تعالى كان

(١) سورة الإسراء؛ الآية: ٧٨.

مركّزاً على إبعادهم عن مجالس البطّالين، وقد ذكر ذلك في دعائه فقال: «إلهي، لعلّك عن بابك طردتني، وعن خدمتك نحيتني، أو لعلّك رأيتني مستخفّاً بحقك فأقصيتني، أو لعلّك وجدتني آلف مجالس البطّالين فبيني وبينهم خلّيتني، أو لعلّك فقدتني من مجالس العلماء فخذلتني».

كان في المدينة مهرّج يضحك الناس ويسخر من الدين ويستهزيء بالمؤمنين، وقد قال يوماً: «لقد سخرت من كلّ الناس إلّا هذا الرجل، فقد أعياني» وهو يقصد بكلامه هذا الإمام زين العابدين عليه السلام وذات يوم كان الإمام السجّاد ماشياً في أحد شوارع المدينة، وإذا بذلك المهرّج يركض فيجانب الإمام ويحاول انتزاع عباءته، فلم يلتفت الإمام إليه بل التفت إلى أصحابه وسألهم عنه. فقالوا: «إنه رجل بطّال يضحك الناس، واسمه بطّال». فقال الإمام: «قولوا له إنّ الله موقفاً يسخر فيه من المبطلين، وأخبروه أنّ له بين يدي الله موقفاً يخسر فيه المبطلون، ويعرف التالون ما أسس الأولون. إنّهُ الجدّ لا اللعب، والصدق لا الكذب». لقد كان سلام الله عليه ضد البطالة والمبطلين، وكان ضد اللهو واللاهين. وكان يوجّه الناس إلى الله بالأدعية. وثمّة ذنوب تحبس الأدعية كما يُفهم من دعاء كميل: «اللّهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء». ولعل أكبر الذنوب التي تحبس الدعاء النفاق والغيبة والنظر إلى أعراض الناس، هذه الذنوب وأمثالها تميّت القلب فيفقد قدرته على بث موجة الدعاء التي تصل صاحبه بالله تعالى. «يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم»^(١). فعلى المؤمن أن يحرص أشدّ الحرص على سلامة قلبه بصحّة الإيمان. وفقدان تلك السلامة هي الرزية العظمى.

وكما كان الإمام السجّاد يوجّه الناس إلى الله بالدعاء، فإنّه كان يوجّههم إليه بالعبادة. يُروى أنه كان يملك بستاناً من خمسمئة نخلة. ولأنّه

(١) سورة الشعراء؛ الآية: ٨٨ و٨٩.

كان منشغلاً بإدارة العباد والبلاد ونشر الإسلام وقضاء حوائج الناس، كان لا يجد دائماً متسعاً من الوقت يتفرغ فيه لصلاة تكون درساً للناس وتوجيهاً، فإذا توافر له الوقت لذلك، كان يصلي عند كل نخلة ركعتين ويفسر ذلك بأن بقاع الأرض تشهد للمؤمن الذي صلى عليها. لاحظوا كيف يعطينا الإمام السجّاد صورة ديناميكية للصلاة. فالصلاة عنده ليست حركات جوفاء ولا عبادة جامدة. وكان يصلي صلاة مودّع، أي يضع نصب عينيه احتمالاً يفترض أنه يصلي آخر صلاة. سئل الإمام الصادق عليه السلام: «ما بال الموتى الذين نغسلهم، عيون بعضهم مفتحة، وعيون البعض الآخر مغمضة؟» فقال: «إن الذين ترون عيونهم مفتوحة، جاءهم ملك الموت في لحظة كانت عيونهم مفتحة فيها ولم يعطهم ملك الموت فرصة لإغماضها. أما الذين تجدون عيونهم مغمضة فإن ملك الموت جاءهم في لحظة كانت عيونهم مغمضة فيها ولم يعطهم ملك الموت مجالاً لتفتيحها».

وفي هذا المعنى سأل رسول الله ﷺ سلمان قائلًا: كم ترجي يا سلمان؟ أي كم تتوقع أن تعيش؟ - فقال سلمان: «إذا أصبحت فلا أجد نفسي بالمساء، وإذا أمسيت فلا أجد نفسي بالصباح». فقال الرسول ﷺ: «يا سلمان أما إنك لطويل الأمل». فقال سلمان: «كيف يا رسول الله؟». فقال الرسول ﷺ: «أما أنا يا سلمان. إذا أغمضت عيني فلا أجد نفسي بفتحها. وإذا فتحتها فلا أجد نفسي بإغماضها». أين نحن من أولئك آيها الإخوة والأبناء؟ إننا مستغرقون في المادّة متشبّثون بالدنيا وكأننا لسنا على سفر وشيك.

يقول الزهري: «رأيت الإمام زين العابدين يطرق الصحراء وحيداً في ليل بارد غزرت فيه الأمطار. فقلت له: «يا سيدي، أنت زين العابدين بن الحسين؟ إلى أين؟ أتحمل شيئاً؟ دعني أساعدك في حمله». فقال لي: «إنني أحمل زاداً أعده لسفري». فقلت: «إذن أنت في سفر يا سيدي».

قال: «نعم إني على سفر وهوذا زادي الذي أعدّه وأحمله لذلك السفر». فعادت القول: «سيدي دعني أساعدك». فقال الإمام: «والله ما كنت لأعطيك زاداً أحتاجه لنجاة نفسي». ويتابع الزهري روايته فيقول: «بعد يومين رأيت الإمام في مسجد جدّه رسول الله، فدنوت منه وقلت: «سيدي، قبل يومين قلت لي إنك تستعدّ لسفر؟». فقال: «ليس الأمر كما ظننت يا زهري. إنما قصدت سفر الآخرة، والزاد الذي أعدته وحملته لذلك السفر هو تقوى الله وبذل الخير للناس». فقد كان دأب الإمام السّجّاد عليه السلام أن يحمل الطعام ليوزّعه ليلاً على المحتاجين الذين لم يكونوا يعلمون شيئاً عن شخصيّة من يحمل الطعام إليهم ليلاً، لأنّه عليه السلام كان يطرق أبوابهم ملثماً.

لقد عانت مدينة رسول الله ﷺ الأمرين من جور بني أمية، وخاصّة بعد وقعة الحرّة حيث زاد الأمويون من تضييقهم وضغوطهم على أنصار رسول الله ﷺ. فنكّلوا بهم وقطعوا أرزاقهم. وكانت الفتيات يتداولن للصلاة، كلّ أربعة عبادة واحدة. فكان الإمام زين العابدين عليه السلام مفرّج الهموم وجابر الخواطر في تلك الظروف العصيبة. وهذا هو معنى الصلاة ومعنى الدين والإيمان، وإلا فما صلاتي وصومي وسائر عباداتي إذا كنت لا أتحمّس آلام المحرومين وأفقد الفقراء والمساكين وأعين قدر طاقتي على حلّ أزمت ومشاكل الناس؟ ولم يعرف فقراء المدينة أن الذي كان يحمل إليهم الطعام ليلاً هو الإمام زين العابدين عليه السلام إلا عندما مات الإمام وانقطع طارق الليل الذي يحمل الطعام للفقراء. كان عليه السلام، إذا مالت الشمس للغروب في رمضان المبارك. ينصب القدور مليئة بالطعام، ثم ينادي قائلاً: «املأوا لآل فلان... اغرفوا لآل فلان... إيعثوا لآل فلان». حتى إذا فرغت القدور أخذ رغيف خبز وجبات من التمر وبعض البقول الصحراوية طعام إفطار له، فإذا حان وقت الإفطار وقف متردداً قائلاً: «آكل أم أشرب؟ آكل وقد قتل ابن رسول الله جائعاً؟ أم أشرب وقد قتل ابن

رسول ظمآن؟». وكان عليه السلام إذا دخل في صلاته اهتزت فرائضه من خشية الله. فكان يقال له بعد الصلاة: «ما بال وجهك قد تغير واصفر، ماذا حدث يا سيدنا؟» فيجب قائلًا: «إنكم لا تعلمون بين يدي من أقف؟ أنا أقف بين يدي الله...».

روى الفقيه طاووس قال: دخلت الكعبة ذات يوم ليلاً، فرأيت الإمام السَّجَّادَ منهمكاً في الطواف، فتواريت وراء عمود من أعمدة الحرم بحيث أرى الإمام ولا يراني. وبعد منتصف الليل رأيت الإمام يلتفت يميناً وشمالاً، فلما لم ير أحداً، أمسك بأستار الكعبة ورفع بصره إلى السماء وقال: «إلهي غارت نجوم سمواتك، وهجعت عيون عبادك، إلهي أغلقت الملوك أبوابها ووضعت حراسها، وبابك مفتوح للسائلين، وعينك تحرس الأنام يا رب العالمين. إلهي، وحقك يا مولاي ما عصيتك إذ عصيتك، وما أنا لنكالك جاحد، ولا لعقوبتك متعرض، ولكن سؤلت لي نفسي وعزني سترك المرخي عليّ. فأنا الآن، من عذابك من يستغفرك، ومن أيدي الخصماء من يخلّصني؟.. قال الفقيه طاووي: ثم سقط الإمام مغشياً عليه. فدنوت وأخذت رأسه في حجري وصرت أبكي، فتساقطت دموعي على وجهه ففتح عينيه وقال: «من هذا الذي أشغلني عن ذكر ربّي؟» قلت: «سيدي أنت ابن رسول الله، أنت ابن فاطمة الزهراء، أنت أبو الباقر، تدعو الله بهذا الشكل، فكيف بنا نحن؟». فقال عليه السلام: يا طاووس دعك من أمي وجدّي. إنّ الله تعالى خلق النار لمن عصاه ولو كان سيّداً قرشياً، وخلق الجنة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشياً، أما قرأت قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾^(١).

يُروى أنّ جارية له كانت تصبّ ذات يوم الماء على يديه، فأخذتها

(١) سورة المؤمنون ؛ الآية : ١٠١ .

هيته فسقط الإبريق من يدها فشجَّ جبهة الإمام عليه السلام . اضطربت الجارية عندما رأت الإمام ينظر إليها والدماء تسيل من جبهته، فحسبت أنه سيضربها فقالت: «سَيِّدِي، والكاظمين الغيظ».

فردَّ عليها الإمام قائلاً: «قد كظمت غيظي».

قالت: «مولاي والعافين عن الناس».

قال الإمام عليه السلام: «إي بنية، قد عفوت عنك».

قالت: «سَيِّدِي، والله يحبَّ المحسنين».

قال: «فأنت حرّة لوجه الله».

وكما يُروى أيضاً عن حلمه أنّ غلاماً له أتى لضيوف عند الإمام بسقود عليه لحم مُشوَّى أخرج تَوّاً من التَّور وهو حارٌّ كالجمر. فسقط هذا السقود بقله وحرارته الشديدة على طفل للإمام فقتله في الحال، فصرخت أم الطفل صراخاً عالياً، فسمعها الإمام عليه السلام، فترك ضيوفه ليرى ما الأمر ويسكت زوجته في كلّ حال. فلما رأى ولده يرتجف كسعة النخل، وبدا واضحاً أنه مائت لا محالة. التفت الإمام إلى الغلام وقال له: «لا أظنّك تعمّدت قتل هذا الطفل». فقال الغلام: «الله يعلم يا سَيِّدِي أنّي لم أتعمد ذلك». فقال الإمام: «إنّني أعلم أنّك ما تعمّدت قتله، انصرف فقد عفوت عنك، إنّ في بقائك هنا حرج، فخذ هذه خمسة آلاف دينار استعن بها على حياتك، امض في سبيلك فأنت حرّ لوجه الله». ثم قام فغسل ولده وصلى عليه ودفنه ثم عاد إلى ضيوفه وكأنّ شيئاً لم يكن. وعندما سأله ضيوفه عمّا حدث أجابهم قائلاً: هديّة أخذناها من الله سبحانه وتعالى». ولم يزد. وبعد انصراف ضيوفه علموا بتفاصيل ما جرى. فأدركوا أنّ الإمام عليه السلام فعل ما فعل حرصاً منه على راحتهم وانشراحهم.

ومن مواقفه التربويّة أنّ غلاماً له أفسد بتقصيره بستان نخل وزرع

للإمام عليه السلام ، فاستاء الإمام منه وقال له : لماذا استهنت بحقوق الناس وحقوق الله؟! ثم ضربه بسوط كان في يده ضربة غير شديدة ، وبعد أيام استدعاه . فظنّ الغلام أنّ الإمام سيضربه ثانيةً . ولكنّ الإمام قال له عندما حضر : «يا هذا قد بدر مني في حقك ما لا أرضى به . لقد آلمني تفريطك بحقوق الناس والله فضربتك بالسوط ، أرجوك أن تأخذ سوطي الذي ضربتك به وتضربني» . فقال الغلام : «سيدي ، والله قد عفوت عنك» . فقال الإمام : «إذا عفوت عني فالبستان لك ، وأنت حرّ لوجه الله تعالى» . ولم تكن رحمته مقصورة على الناس بل شملت البهائم أيضاً . كان يوماً على ناقته وولده الباقر في صحبته . فالتفت إلى ولده وقال : «أي بني لقد حججت على ناقتي هذه عشرين حجّة وما ضربتها بسوط قطّ» . وكان إذا تباطأت الناقة في سيرها ، يرفع السوط وقبل أن يهوي به عليها يقول : «آه لولا القصاص» . فهو يرفع السوط لا ليضرب الناقة ، وإنّما ليبين للحكّام الظالمين أنّ الإسلام يمنعنا من ضرب بهيمة ، فكيف لنا أن نضرب إنساناً؟! . ومواقف الإمام هذه مستقاة من مدرسة والده عليه السلام . فأبوه الإمام الحسين عليه السلام ما شرب الماء في عاشوراء قبل أن يسقي فرسه قائلًا : «أنت عطشان وأنا عطشان ولا أشرب قبل أن تشرب» .

تلك كانت مدرسة أهل البيت عليه السلام ، وذلك كان منطقهم ، فماذا كان منطق الأمويين؟ . دخل زيد بن الإمام زين العابدين عليه السلام على عبد الملك بن مروان وألقى عليه كلاماً يليق به . فقال له عبد الملك : «أنت ابن أمة وقد بلغني أنّك تريد الخلافة ، وما أنت والخلافة؟» فقال له زيد عليه السلام : «إنّ الأمّهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات . لقد كانت أمّ إسماعيل أمة لسارة أمّ إسحاق ، ولكنّ ذلك لم يمنع إرادة الله في ابتعاث إسماعيل نبياً وجداً للعرب . وقد أخرج من صلبه سيّد الأنبياء محمد ﷺ» . فماذا كان ردّ فعل عبد الملك على هذا الدرس التربويّ؟ لقد صلبه في كناسة الكوفة بعد أن خاناه أهلها وأسلموه لعبد الملك . وقد تركه على عود الصليب أربع سنوات

فعمّشت الفاختة في جوفه، وكانت زوجته تنظر إليه وتقول: «أما آن لهذا الفارس أن يترجل؟» ثم تقرأ القرآن وترجع إلى بيتها منتحبة باكية. وفي صلب زيد بن زين العابدين يقول شاعر لبني أمية شامئاً مفاخراً:

صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة
ولم نر مهدياً على الجذع يُصلب

فتأمل مواقف ومنطق أهل البيت، وقارنها بمواقف ومنطق الأمويين. من كلّ ذلك نستنتج أن الإمام زين العابدين عليه السلام ربط الناس بالله بعبادته لله وبأدعيته له وبسيرته في الناس.

الإمام زين العابدين عليه السلام

يضع قواعد الأساس لمدرسة

الإمام الصادق عليه السلام

ومن إنجازات الإمام زين العابدين العظيمة وضعه القواعد الأساسية لمدرسة الإمام الصادق عليه السلام، هذه المدرسة العظمى التي غطت كل العلوم المتعلقة بالتطور التكنولوجي وكلّ علوم الدين والدنيا. فالإمام زين العابدين عليه السلام أول إمام يؤسس جامعة علمية في الإسلام، وقد جاءت استمراراً لجامعة جديده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومحمد رسول الله ﷺ. وقد انطلق منها ابن الإمام زين العابدين الإمام محمد الباقر ليتسلمها بعده بحر علوم الدين والدنيا الإمام جعفر الصادق الذي كان جامعة حيّة شموليّة موسوعيّة، وسنخصّ جامعة الإمام الصادق بمحاضرة خاصّة إن شاء الله.

المزيد من أنوار الإمام زين العابدين عليه السلام

هو الإمام عليّ زين العابدين بن الإمام الحسين بن الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام. فهو الإمام الرابع في سلسلة الأئمة الإثني عشر المعصومين الطاهرين. وقد لقّب بالسّجّاد لإكثاره من الصلاة وإطالة السجود لله تعالى..

ولد سنة ثمانٍ وثلاثين للهجرة، أي قبل استشهاد جدّه الإمام عليّ عليه السلام بستين. ولدته أم من معادن الفضل والمعرفة والسيادة، وأبوه سيّد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام. وكانت سكينه أخته التي تكاد لا تفارقه. سكينه العزيزة الحبيبة على قلب أبيها الإمام الحسين عليه السلام الذي كان يناديها بالقول: يا خيرة النسوان. وخيرة النسوان هذه لم تسلم من مزوري التاريخ، والسنة الأفاكين، فقد زعموا أنّها كانت صاحبة صالون تستقبل فيه المغنّين، ومن المؤسف أن تأخذ وسائل الإعلام الغربي والإسلامي بتلك الأباطيل فتعرض المسلسلات التلفزيونية والأفلام السينمائية التي تصوّر تلك الافتراءات وكأنّها حقائق تاريخية. متى استقبلت سكينه المغنّين؟ قبل واقعة الطف أم بعدها؟؟؟ إنه الحقد الأموي والعياذ بالله.

سكينه بنت الحسين الطاهرة التي جاء ابن عمها عبد الله بن الحسن ليخطبها. فقال له عمّه الإمام الحسين عليه السلام: «لقد اخترت لك إحدى ابنتي هاتين؛ فاطمة أو سكينه، أما سكينه فقد غلب عليها الاستغراق في الله فلا تصلح لك زوجة. وأما فاطمة فإنّها تصوم النهار وتقوم الليل كلّ، وأما جمالها، فهي تشبه الحور العين». وكلّ أهل البيت تميّزوا بالمهابة والجمال، فالإمام زين العابدين كان كالقمر الزاهر جمالاً وهيبه.

سئلت جارية للإمام زين العابدين عليه السلام عن حياة سيدها، فقالت: اختصر؟ أم أطنب؟؟ فقال السائلون: «بل اختصري». فقالت: «ما وضعت له طعاماً في نهار قطّ، ولا فرشت له فراشاً في ليل قطّ، فهو قائم الليل كلّ، صائم النهار. وكان رخيم الصوت في قراءة القرآن». أيها الأبناء والبنات، شبّاناً وشابات، عليكم بقراءة القرآن. فالإمام زين العابدين عليه السلام يأمرنا بقراءة خمسين آية في صباح كلّ يوم. كما يأمرنا بعدم النوم بين الطلوعين، لأنّ الله تعالى يقسم الأرزاق بين طلوع الفجر وطلوع الشمس. ومن الثابت علمياً أنّ النوم قبل طلوع الشمس يسبّب الركود في

الدورة الدموية والكسل في هيموغلوبين الدم. لاحظوا أن الذي ينهض متأخراً من نومه كيف ينهض متأخراً متكاسلاً، بينما الذي ينهض فجراً ينشط إلى وضوئه فصلاته وفي الحالين حركة ورياضة.

كان الإمام زين العابدين عليه السلام يركز على قراءة القرآن فجراً إن قرآن الفجر كان مشهوداً. يُروى أن السقّاتين كانوا يتعمّدون المرور ببَيْتِهِ صباحاً ليسمعوها قراءته القرآن. وربما وقع الإثنين أو الثلاثة منهم على الأرض من خشية الله. لقد حفظ الإمام زين العابدين عليه السلام، وكان ذلك بإرادة الله وحكمته. ذلك أن الإمام السجّاد كان مريضاً يوم عاشوراء فسقط عنه التكليف والجهاد. ولو كان معافى في ذلك اليوم لوقع عليه الجهاد وقاتل حتى استشهد، فينقطع باستشهاده نسل محمد ﷺ. إلا أن المرض لم يخفف من حميّه لنصرة أبيه ولا سيّما عندما سمعه ينادي قائلاً: واقلة ناصراه. فقال لعنّته زينب العقيلة: عمّة عليّ بالعصا والسيّف. قالت زينب: «ما تصنع بهما يا بن أخي؟» قال: عمّة، أمّا العصا فاتوكّا عليها، وأمّا السيّف فأقاتل به دون أبي. فأعطته عمّة ما أراد، ولما رآه والده الإمام الحسين عليه السلام خارجاً من الخيمة نادى قائلاً: «أخيّه زينب أرجعيه إلى الخيمة لئلا ينقطع نسل آل محمّد». فأرجعته زينب إلى الخيمة.

عندما أراد الإمام الحسين عليه السلام توديع ابنه السجّاد، قال له: «بني، هذه آخر كلمة تسمعها مني». قال السجّاد: «وما هي». قال الإمام الحسين عليه السلام: «بني إياك وظلم من لا يجد عليك ناصراً إلا الله». وبهذه الوصيّة أوصى الإمام السجّاد عليه السلام ولده الباقر، فقال له: «بني أوصيك بالوصيّة التي أوصانيها أبي الحسين يوم عاشوراء. إياك وظلم من لا يجد عليك ناصراً إلا الله» الظلم ظلمات في الدنيا والآخرة، إننا نعوذ بالله من الظلم ومضاعفاته.

يوم الحادي عشر من محرّم رأى الإمام السجّاد جسد أبيه الحسين وسائر أجساد شهداء كربلاء فصار يجود بنفسه. فحاطبته عمّة زينب عليه السلام قائلة:

«مهلاً مهلاً يا ابن أخي». فقال لها: «عمّة، كيف لا أجود بنفسي وأنا أرى الشمس تقهر جسد حجة الله؟». وفي الكوفة سأله أبو حمزة الثمالي قائلاً: «سَيِّدِي يا ابن رسول الله، أيّ المصائب أمرّ عليك؟» فاجابه الإمام السّجّاد قائلاً: «الشام... الشام... الشام. لقد هُتكتنا في الشام، فبنات رسول الله بلا حجاب موثقات بالحبال». بعد ذلك بأيّام دخل عليه أبو حمزة الثمالي فقال له: «سَيِّدِي أراك دائم البكاء... إنك لا تشرب الماء. إلّا ممترجاً بدموعك». فقال له الإمام عليه السلام: «يا أبا حمزة، إنّما أشكو بني وحزني إلى الله، وأعلم من الله ما لا تعلمون، يا أبا حمزة، والله إنّني ما ذكرت مصارع بني فاطمة إلّا وخنقتني العبرة، وما مررت على دور آل عقيل إلّا وخنقتني العبرة لأنّي أراها خاوية إلّا من الأرامل واليتامى». وكان الإمام السّجّاد يتألم أشدّ الألم لمصرع أخيه الرضيع، فكان يقول للمنهال بن عمرو: «كيف خلّفت حرمة؟». فيجيبه المنهال قائلاً: «تركته حيّاً في الكوفة». فيقول الإمام ثلاثاً: «اللهم اذقه حرّ الحديد». فقال المنهال: «لماذا يا سَيِّدِي؟» فقال الإمام عليه السلام: «لأنّ حرمة أحرّ قلوبنا وقتت أكبادنا». وكان يردّد هذا الكلام في حرمة كلّما ذكر الرضيع الصريع.

كان الإمام زين العابدين عليه السلام يقيم مجالس العزاء على أبيه الإمام الحسين عليه السلام. لأنّه كان يرى، شأنه في ذلك شأن سائر أهل البيت عليه السلام، أنّ المجالس الحسينيّة مدارس إسلاميّة يتخرّج منها المبلّغون المتمرّسون في تبليغ الرسالة المحمديّة. ذات يوم خرج الإمام السّجّاد من داره في المدينة فصادف رجلاً يقول بصوت عالٍ: «أنا غريب، أطعموني». فقال له: «تفضّل إلى الدار». وبعد أن أدخله داره أطعمه وسقاه ثم قال له: «بالله عليك أنت غريب؟». فقال الرجل: «إي والله يا سَيِّدِي، أنا غريب». فقال الإمام: «لقد قلت: أطعموني فأطعمناك. فهل تصوّر أنّك لو متّ هنا قضاء وقدرًا، سيتركك أهل المدينة من دون غسل ولا كفّن ولا دفن؟». قال الرجل: «لا والله سَيِّدِي، إنّهم أهل خير». فقال الإمام: «إذن أنت لست غريباً. إنّما الغريب أبو عبد الله الحسين الذي بقي ثلاثة أيّام على رمضاء كربلاء! هذا هو الغريب».

وقد ودّع الإمام زين العابدين عليه السلام أباه الإمام الحسين عليه السلام بهذه الكلمات: «أباه، أما الدنيا فبعدك مظلمة، وأما الآخرة فبنور وجهك مزهرة». في فجر الخامس والعشرين من محرّم من سنة ٩٥ للهجرة كان الإمام زين العابدين عليه السلام يوصي ولده الإمام الباقر عليه السلام قائلاً: «بني، إذا أنا قضيت نحبي، فتولّ تجهيزي، نور عيني، وادفني في البقيع عند قبر عمّي الحسن صلوات الله وسلامه عليه، وبعد أن أتمّ كلامه هذا، فاضت روحه الطاهرة. فقام الإمام الباقر عليه السلام فنقذ وصيّة أبيه، وكان زرار بن أعين وبعض أصحاب أبي حمزة الثمالي يساعدون الإمام الباقر عليه السلام في جلب الماء إلى المغتسل. وبعد أن فرغ الباقر عليه السلام وصحبه من غسل وتكفين الإمام زين العابدين عليه السلام. انتحى الإمام الباقر جانباً وأخذ يبكي، فأقبل عليه أبو حمزة الثمالي وقال: «سبيدي أبا جعفر... أتبكي فراق أهلك؟ وأنت الذي تعلّمنا الصبر. كلنا بك لفراقه، ولكن بكاءك قد طال؟» فقال الإمام الباقر عليه السلام: «يا أبا حمزة، لما وضعت أبي على المغتسل وجردته من ثيابه. رأيت آثار الجامعة في عنقه وآثار الغلّ في يديه والقيّد في ساقيه». فقال أبو حمزة: «يا أبا جعفر، لقد أشفتك على أهلك أن ترسم تلك الآثار على جسمه المبارك، فكيف بك لو رأيته يشكو من تلك الآثار؟».

خطبة الامام زين العابدين عليه السلام

في مجلس يزيد بن معاوية

بعد وقعة الطفّ أعلن يزيد أنّ البلاد في عيد، فتعطلت الأعمال وعمّت الأفراح قلوب الضالّين والمضللين. فكان لا بدّ للإمام زين العابدين عليه السلام من صعود المنبر لردّ الناس إلى الصواب وتوجيههم إلى الله وتذكيرهم بالآخرة. ولكنّ الإمام لم يطلب إلى يزيد مباشرة أن يأذن له بالخطابة وإنّما ربط ذلك برغبة الجماهير. قال: ليزيد: «ما ظنّك برسول الله إذا رآنا على هذه الحال ونحن بين يديك؟» فأمر يزيد بالحبال فقطعت من أرجل وأعناق وأيدي الأطفال والنساء. وأمر برفع جامعة الحديد من عنق الإمام، فلمّا رفعوها بالضغط والشدّة سالت الدماء من

عنى الإمام عليه السلام . تصوّروا بالله عليكم حالة الإمام زين العابدين عليه السلام أسيراً مريضاً جائعاً عطشان، ومعه عمته زينب وأختاه سكينه وفاطمة وسائر بنات رسول الله وفيهن طفلة اسمها رقية تصرخ من حين إلى آخر طالبة أباهما الحسين . وجميعهن يعانين من الجوع والعطش والحزن وقد حبسن في إحدى الخرائب . أراد يزيد أن يعمي قلوب الناس عن الواقع المرير، فأمر خطيباً مسحوق الضمير بصعود المنبر وشم علي وفاطمة والحسين، فامثل ذلك الخطيب للأمر . فالتفت إليه الإمام زين العابدين عليه السلام وقال له : «أيها الخطيب، لقد اشتريت مرضاة المخلوق في معصية الخالق ! فتبوا مقعدك من النار، فالله يكبك على منخريك في نار جهنم . هذا منبر رسول الله، وأنت حامل أمانة عليك أن تؤذيها ولكنك خنتها . فارتج على الخطيب وتلعثم لأنه سمع كلاماً لا يصدر إلا عن أنبياء، لذا كان شديد الوقع عليه فأخذته الهيبة ونزل من على المنبر . وكى لا يصعد خطيب ثان على المنبر، ويكون على شاكلة الخطيب الأول، فإن الإمام زين العابدين عليه السلام تدارك الأمر فقال ليزيد : «أتأذن لي أن أصعد هذه الأعواد، فأتكلم بكلمات فيهن رضا ولهؤلاء الجالسين أجر وثواب؟» . أبى يزيد في بادىء الأمر أن يأذن له . ولكن معاوية بن يزيد التفت إلى أبيه وقال له : «لم تأذن له؟» . فقال يزيد : «إذا صعد المنبر فإنه لا ينزل إلا بفضيحتي وفضيحة آل سفيان» . وكان أعيان البلاد في المجلس فالتحوا على يزيد بالسماح للإمام بصعود المنبر قائلين : ما قدر ما يحسن هذا الفتى ؟! وهو عليل مريض ؟ إنه وبمجرد صعوده المنبر ومواجهة أبصار الناس وهي ترمقه، سيرتعش ويتلعثم ولن يقوى على البيان فينزل فقال لهم يزيد : «إنكم لا تعرفونه . إنه من أهل بيت قد زفوا العلم زفاً كبيرهم لا يقاس، وصغيرهم جمرة لا تداس» . وقد أراد يزيد بهذا الكلام أن يقلل من حماسة الحضور لسماع الإمام زين العابدين عليه السلام . ولكن الأمر كان على خلاف ذلك تماماً . فقد زاد إلحاح الناس على يزيد ليأذن للإمام زين العابدين عليه السلام بصعود المنبر، فأذن له، فصعد الإمام المنبر وخطب في الناس قائلاً : «الحمد لله الذي لا بداية له،

الَّذِي لَا نَفَاذَ لَهُ، الَّذِي لَا أَوَّلَ لِأَوَّلِيَّتِهِ. وَالْآخِرَ الَّذِي لَا آخِرِيَّةَ لَهُ، قَدَّرَ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامَ، وَقَسَمَ فِيمَا بَيْنَهُمُ الْأَقْسَامَ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ الْمَلِكُ الْعَلَّامُ.

أَيُّهَا النَّاسُ أَحْذَرُكُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا فَلِئِنَّهَا دَارُ فَنَاءٍ وَزَوَالٍ، تَتَنَقَّلُ بِأَهْلِهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، قَدْ أَفْنَتِ الْقُرُونُ الْمَاضِيَةَ وَالْأُمَمَ الْخَالِيَةَ الَّذِينَ كَانُوا أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَارًا وَأَكْثَرَ مِنْكُمْ أَثَارًا. أَفْتَنَهُمُ أَيُّدِي الزَّمَانِ، وَاحْتَوَتْ عَلَيْهِمُ الْأَفَاعِي وَالْدِيدَانُ. أَفْتَنَهُمُ الدُّنْيَا فَكَانَهُمْ مَا كَانُوا لَهَا أَهْلًا وَلَا سَكَنًا، أَكَلِ التُّرَابَ لِحُومِهِمْ، وَبَدَّدَ أَوْصَالَهُمْ، وَغَيَّرَ شِمَائِلَهُمْ، وَأَزَالَ مُحَاسِنَهُمْ، أَفْتَضِعُونَ بِالْبَقَاءِ بَعْدَهُمْ؟ هِيَئَاتِ! لَا بَدَّ لَكُمْ مِنَ الْحَقِّ بِهُمْ، فَتَدَارَكُوا مَا بَقِيَ مِنْ أَعْمَارِكُمْ بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ. كَأَنِّي بِكُمْ وَقَدْ نُقِلْتُمْ مِنْ قُصُورِكُمْ إِلَى قُبُورِكُمْ، فَرَقَيْنِ غَيْرَ مُسْرُورِينَ. فَكَمْ مِنْ فَرَحٍ قَدْ اسْتَكْمَلْتَ عَلَيْهِ الْحَسَرَاتِ، حَيْثُ لَا يُقَالُ نَادِمٌ وَلَا يَبْعَانُ ظَالِمٌ، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا، وَمَا يَظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا، فَهَمُّ فِي مَنَازِلِ الْبُلُوِّ هُمُودٌ، وَفِي عَسَاكِرِ الْمَوْتِ خُمُودٌ، يَنْتَظِرُونَ صَبِيحَةَ الْقِيَامَةِ. وَحُلُولُ يَوْمِ الطَّامَةِ، لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنِ.

أَيُّهَا النَّاسُ أَعْطَيْنَا سِتًّا وَقُضِّلْنَا سَبْعَ، أَعْطَيْنَا الْحِلْمَ وَالْعِلْمَ وَالسَّمَاحَةَ وَالْفَصَاحَةَ وَالشُّجَاعَةَ وَالْمَحَبَّةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ. وَقُضِّلْنَا بِأَنَّ مَنَا النَّبِيَّ الْمُخْتَارَ مُحَمَّدًا ﷺ، وَمَنَا الصَّدِيقَ وَمَنَا الطَّيَّارَ وَمَنَا أَسَدَ اللَّهِ وَأَسَدَ رُسُولِهِ وَمَنَا سَبْطَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَمَنَا سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ وَمَنَا مُهْدِيَهَا.

أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَرَفَنِي فَقَدْ عَرَفَنِي، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفَنِي، أَنَا أَعْرِفُهُ بِنَفْسِي، أَنَا ابْنُ مَكَّةَ وَمَنْى، أَنَا ابْنُ زَمْزَمَ وَالصَّفَا، أَنَا ابْنُ مَنْ حَمَلَ الرُّكْنَ بِأَطْرَافِ الرَّدَا، أَنَا ابْنُ خَيْرٍ مِنْ طَافَ وَسَعَى، أَنَا ابْنُ مَنْ حُمِّلَ عَلَى الْبَرَاقِ فِي الْهَوَاءِ، أَنَا ابْنُ مَنْ بَلَغَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، أَنَا ابْنُ مَنْ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، أَنَا ابْنُ مَنْ صَلَّى بِالْمَلَائِكَةِ مِثْقَلِ ثَمْنِي، أَنَا ابْنُ مَنْ أَوْحَى إِلَيْهِ الْجَبَلُ مَا أَوْحَى، أَنَا ابْنُ مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى. أَنَا ابْنُ عَلِيٍّ الْمُرْتَضَى، أَنَا ابْنُ مَنْ ضَرَبَ خِرَاطِيمَ الْخَلْقِ حَتَّى قَالُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَنَا ابْنُ مَنْ ضَرَبَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ بِسَيْفَيْنِ، وَطَعَنَ بِرَمَحَيْنِ، وَبَايَعَ الْبَيْعَتَيْنِ، وَقَاتَلَ بِيَدِهِ وَحْنَيْنِ وَلَمْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ طَرَفَةَ عَيْنٍ، أَنَا ابْنُ

صالح المؤمنين ويعسوب المسلمين، ونور المجاهدين وزين العابدين وأصبر الصابرين وأفضل القاتلين من آل يس من آل رب العالمين. أنا ابن المؤيد بجبرائيل المنصور بميكائيل، أنا ابن المحامي عن حرم المسلمين، وحرمة من كربلاء إلى الشام تهدي! أنا ابن يعسوب الدين سخي بهي، بهلول بهي، أبطحي رضي، صابر صوام، مقدم همام، قاطع الأصلاب ومفرق الأحزاب، أربطهم عنانا وأمضاهم عزيمة وأشدّهم شكيمة، أسد باسل يطحنهم في الحروب إذا ازدلفت الأسنة واقتربت الأعنة طحن الرحي، ويذروهم فيهاذرو الرياح للهشيم، ليث الحجاز وكبش العراق، مكّي مدني، خيفي عقي، شجري مهاجري، من العرب سيدها ومن الوغى ليها، وارث المشعرين وأبو السبطين الحسن والحسين، ذاك جدّي عليّ بن أبي طالب.

أيها الناس، أنا ابن المرمّل بالدماء، أنا ابن المذبوح في كربلاء، أنا ابن من رأسه بأرض وجسمه بأخرى. ولم يزل عليه السلام يقول: أنا. أنا حتّى ضجّ المجلس بالبكاء وعلت الأصوات من كلّ مكان. فقال يزيد للمؤدّن أذن وذلك كي يقطع على الإمام كلامه. فامتثل المؤدّن لأمر يزيد وأذن قائلاً: «الله أكبر» فقال الإمام: «كبرت كبيراً لا يقاس ولا شيء أكبر منه». فاستأنف المؤدّن قائلاً: «أشهد أن لا إله إلا الله». فقال الإمام السجّاد: «شهد بها لحمي ودمي وعظمي وشعري وجلدي ومخي، وما أقلت الأرض منّي الله رب العالمين». فتابع المؤدّن قائلاً: «أشهد أن محمداً رسول الله». فقال الإمام السجّاد وكان لما يزل على المنبر وقد دمعت عيناه: يا يزيد أسألك، محمّد هذا جدّي أم جدك؟! فإن قلت أنه جدك فقد كذبت وأثمت، وإن قلت أنه جدّي فلم تقتل أبي الحسين وسبيت عياله وأطفاله؟. ثم نزل عن المنبر فاحتوشه الناس من كلّ جانب وأحاطوا به من كلّ ناحية. هذا يقبله، وذاك يقع على قدميه ويقول: «سيدنا يا ابن رسول الله، ما عرفناك يا ابن رسول الله... معذرة إلى الله وإليك».

يقول المنهال بن عمرو ثمّ خرج الإمام زين العابدين من المسجد فتبعته

لَاتَحَدَّثْ مَعَهُ بِحَدِيثٍ ، فَإِذَا بِامْرَأَةٍ خَرَجَتْ مِنْ خَرِيبَةٍ بَعِيدَةٍ وَاتَّجَهَتْ نَحْوَ الْإِمَامِ وَقَالَتْ لَهُ : « يَا بَنَ أَخِي ، لَقَدْ تَعَبَ الْأَطْفَالُ مِنَ الْإِنْتِظَارِ ، أَخَوَاتُكَ فِي تِلْكَ الْخَرِيبَةِ فَاذْهَبِ إِلَيْهِنَّ . إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ يَا حَمَانَا ؟ إِلَى أَيْنَ يَا بَقِيَّةَ الْخَلْفِ ؟ » . يَقُولُ الْمُنْهَالُ بْنُ عَمْرٍو : ، فَتَرَكْنِي الْإِمَامُ وَأَسْرَعَ إِلَيْهَا . فَسَأَلْتُ عَنْهَا ، فَقِيلَ لِي : « هَذِهِ عَمَّتُهُ زَيْنَبُ » .

أَيُّ كَلَامٍ عَظِيمٍ قَالَهُ الْإِمَامُ زَيْنُ الْعَابِدِينَ ع فِي هَذِهِ الْخُطْبَةِ . هَذَا الْكَلَامُ الَّذِي دَلَّ عَلَى أَنَّ الْإِمَامَ السَّجَادَ لَا يَخَافُ فِي الْحَقِّ طَاغِيَةَ عَتِيَّا . شَأْنُهُ فِي ذَلِكَ شَأْنُ سَائِرِ أَهْلِ الْبَيْتِ ع . لَقَدْ مَضَى فِي خُطْبَتِهِ غَيْرَ هَيَّابٍ وَلَا وَجَلَ مُسْتَهْدِيًا بِنُورِ الْأَنْبِيَاءِ وَهَدْيٍ وَحْيِ السَّمَاءِ . فَأَنْشَدَ النَّاسُ إِلَيْهِ أَثْنَاءَ الْخُطْبَةِ ، وَكَانَ مِنْهُمْ مَا كَانَ بَعْدَهَا .

«اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ أَعْمَالَنَا»



الإمام السجاد رجل الفكر والعقيدة

زين العابدين عليه السلام^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأنَّ سعيه سوف يرى، ثمَّ يُجزَّاء
الجزاء الأوفى، وأنَّ إلى ربِّكَ المتصي﴾^(٢).

صدق الله العظيم

مصير الإنسان بيده

من عظمة الحقِّ سبحانه وتعالى وتكريمه للإنسان أن جعل مصير
الإنسان وحرَّكه وهدفه بيد الإنسان نفسه.

وهذا يعتبر فاصلاً حضارياً يفصل بين الإنسان الذي يعيش في ظلِّ
الحضارة الإسلامية والإنسان الذي يعيش في ظلِّ حضارة أجنبية مادية بعيدة
عن الله سبحانه وتعالى.

إنَّ الأديان القائمة على الأرض، ما عدا الدين الإسلامي، هي أديان
منقطعة عن الله. فالإسلام نسخ الأديان جميعاً. ﴿ومن يتنَّغ غير الإسلام

(١) أُلقيت هذه المحاضرة في الثامن صفر سنة ١٤١٢ هـ.

(٢) سورة النجم؛ الآيات: (٣٩ و ٤٠ و ٤١ و ٤٢).

ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين»^(١).

إنَّ الأديان، باستثناء الإسلام، تقيّم الإنسان بموازين ماديّة بحتة، إنَّها لا تندلر إليه من خلال علاقته بالله تعالى، بل تقيّمه من خلال ماله ووظيفته وموقعه في المجتمع، أي أنَّ تقييمها للإنسان ينطلق من الأرض لا من السماء. بينما تقيّم الإنسان إسلامياً يكون بموازين سماويّة أسمى من التقييم الماديّ الحسّي. وفي هذا تكريم للإنسان وسموّ به إلى ما هو أعظم وأكرم من المادّة. وقد قلنا أنَّ من مظاهر تكريم الله للإنسان أن جعل مصير الإنسان بيد الإنسان نفسه. إنَّك تلبس الحياة كما تلبس الثوب الذي تختاره. أمّا قول الرسول ﷺ «السعيد من سَعِدَ في بطن أمّه، والشقيّ من شقيّ في بطن أمّه» فإنّه يشير إلى التناظر والاتصاف القائم بين الأمّ والجنين. فالجنين يتخلّق بأخلاق أمّه وعلى ذلك ترتب سعادته أو شقاؤه. ولهذا قال الرسول ﷺ «تخيروا لنطفكم إنَّ العرق دَسّاس». إنَّ الله لا يكتب علينا ونحن في الأرحام السعادة أو الشقاء، بل يكتب لنا حرّيّة الاختيار، فإما أن نهتدي إلى الصراط المستقيم وننتقل إلى الجنّة، وإما أن نتخبّط في طُرُق ملتوية تقودنا إلى النار. «فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره»^(٢). «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى»^(٣) فسعيك في الحياة هو الذي يقدّر مصيرك إن في الجنّة وإن في النار. «الناس نيام وإذا ماتوا انتبهوا». في لحظة الوفاة تنكشف الحقائق. إنَّ الله أودع في الإنسان نفساً وطاقات عظيمة، وأمره أن لا يظلم نفسه قدر شعرة فتكون له جنّة عرضها السماوات والأرض.

فالإنسان يمشي إلى المسجد أو يمشي إلى السينما، يشرب العصير أو يشرب الخمر، يصافح بيده أو يبطش بها، يقول الصدق أو يقول

(١) سورة آل عمران؛ الآية: (٨٥).

(٢) سورة الزلزلة؛ الأيتان: (٧ و ٨).

(٣) سورة النجم؛ الآية: (٣٩).

الكذب، يحفظ الأمانة أو يخونها. هل هذه الأعمال سواء؟ طبعاً لا. ﴿إِنَّا نَحْنُ
نَحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ
مُّبِينٍ﴾^(١) - إِنَّ آثار أقدامك مكتوبة محفوظة محصية. فإذا مشيت إلى صلاة أو
مجلس علم أو في عمل خير، فَإِنَّ الملائكة يتبركون بتراب أقدامك. أما إذا
مشيت إلى لهو أو لغو أو في فتنة. فَإِنَّ آثارك ستشهد عليك يوم القيامة.
﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بِصِيرَةٍ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾^(٢) - ولنيسط الأمور،
تصوّروا مدير مدرسة مدرك لدوره التربوي، إِنَّ هذا المدير لا يفتأ يؤكد
لتلاميذه أَنَّ نجاحهم أو سقوطهم هو أمر عائد إليهم. لأنّه بأيديهم. وهذا ما
يحفزهم على زيادة اجتهادهم، كما يبعث في نفوسهم مزيداً من الاحترام
والتقدير لمديرهم. وتصوروا مديراً آخر مستبدّاً جاهلاً دوره التربوي. إِنَّ
هذا المدير لا يكفّ عن إرهاب تلاميذه والتصريح لهم أَنَّ نجاحهم
وسقوطهم بيده دون غيره. إِنَّ ذلك يثبّط من عزائمهم ويدمر طاقاتهم. وقل
ذلك بالنسبة لحاكم عادل مستنير رحيم، وحاكم مستبدّ جاهل ظالم يسوس
الناس بالحديد والنار والظلم والطغيان. إِنَّ الحاكم الأوّل يفجر في شعبه
الطاقات الخيرة البناءة فيعمّ الخير والسلام والمحبة ممّا يزيد من محبة الشعب
لحاكمه ويرسخ تعلّقه به واحترامه له. أمّا الحاكم الثاني فإنه يكسر النفوس
ويدمر المواهب فيعمّ البلاء ممّا يزيد في كره الناس لحاكمهم فيصبح همّهم
الأوّل هو الخلاص منه.

بالعقل نعرف الله

كلّنا نعلم أَنَّ ستالين - لعنه الله - أحرق علماء الدين ودمّر المساجد
والمدارس الإسلامية في خمس جمهوريات إسلامية قائمة في الإتحاد
السوفياتي يسكنها ما يناهز مئة وخمسين مليوناً من المسلمين. لقد أرسل

(١) سورة يس؛ الآية: (١٢).

(٢) سورة القيامة؛ الآية: ١٤ و ١٥.

ستالين إلى سمرقند، وهي عاصمة جمهورية أوزبكستان، موفداً كلّفه بهدم المساجد والمدارس وكلّ ما له علاقة بالدين وبالله. وصل ذلك الموفد إلى سمرقند وجمع أهلها المسلمين وفي مقدّمهم علماء الدين، ليعلمهم بقرار ستالين، أحد العلماء كان فطناً، وقد قال الرسول ﷺ «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنَ الْفَطْنَ» لقد أدرك هذا العالم الفطن بحدسه ما هو غرض موفد ستالين وما هو البلاغ الذي سيبلغه لأهل سمرقند. فقرّر أن يجابه الموفد بإجابة عمليّة. قال موفد ستالين: «أيّها الناس، أيّها المسلمون، لقد تأكّد لدينا أنّ الله غير موجود. إنّها بشرى أزعجتكم لتراتحوا من الصوم والصلاة وسائر العبادات. إنّ أباكم ستالين قد رفع عنكم كلّ تكليف ديني. فلا دين ولا عبادة بعد اليوم. فلو كان الله موجوداً لوجب أن نراه بأعيننا، أو نلمسه بأيدينا، أو نتذوّقه أو نشمّ رائحته أو نسمع صوته. وبما أن حواسنا الخمس لا تؤكّد وجود الله، فالله غير موجود. لقد تفضّل عليكم ستالين وخلّصكم مما ورطكم فيه الدين. وعليه فسوف نهدم المساجد والحسينيّات والتكايا والمدارس الدينيّة وسائر ما يمتّ إلى الدين بصلّة، لا شيء اسمه الله بعد اليوم. لا شيء سوى ستالين والطبيعة، فالطبيعة هي ربكم وستالين هو نبيكم». وما كاد موفد ستالين يتمّ كلامه حتى انبرى له ذلك العالم الفطن وقال له: «هل تسمح لي بسؤال أطرحه عليك؟» قال الموفد: «سل ما بدا لك». قال العالم: «لقد جئت من قبل ستالين، وأكّدت أنّ الله غير موجود لأنّ الحواسّ الخمس لا تدركه». ثمّ أخرج العالم من تحت عباءته كرتين مدهونتين بلون واحد، وضعهما أمام موفد ستالين وقال له: «أمامك كرتان بحجم واحد ولون واحد، إحداهما من خشب والأخرى من حديد، فاستعمل حواسك الخمس واخبرنا أيّتهما من خشب وأيّتهما من حديد». قال الموفد: «إنّ النظر واللمس والشمّ والذوق والسمع حواسّ لا يمكنها تحديد أيّ من الكرتين من حديد وأيّ منهما من خشب. ولكنّ عقلي يقول لي ارفعهما بيدك فتعرف أيّهما من حديد وأيّهما من خشب». قال العالم: «إذن

رجعت إلى العقل، لأنّ حواسك الخمس عجزت عن معرفة الحقيقة. ونحن عندما نرجع إلى عقولنا، ندرك أنّ الله سبحانه وتعالى موجود، وهذا هو الفرق بيننا وبينكم يا جماعة ستالين. لقد انقطعتم عن الله وسجنتكم أنفسكم في حدود حواسكم الخمس. أمّا نحن فالعقل عندنا موجود وكذلك الروح والقلب والتوجّه إلى الله. وإذا سألتني أين الله؟ قلت لك: إنّه في قلبي».

لقد حدث هذا منذ خمسين أو أربعين سنة. ودارت الأيام وأثبتت فشل ستالين وبطلان الشيوعية التي اندحرت وانهارت. وأنا أبشركم ومن القرآن الكريم، أنّ المستقبل للإسلام. وصدّقوا، سينطلق الإسلام من إفريقيا ليعمّ العالم أجمع وفي فترة قصيرة لا تتعدى سنوات قليلة، ترفرف بعدها بيارق الإسلام في كلّ مكان، وتجلجل شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً عبده ورسوله في كلّ أرجاء المعمورة. سيتمّ ذلك بإرادة الله ولا رادّ لإرادته.

• إن الله أتى الرسول وأهل البيت عليهم السلام

والصالحين من عباده القدرة على التنبؤ

بالمستقبل

ذات يوم، وبينما كان الإمام عليّ عليه السلام على منبر الكوفة. التفت إلى يمينه وقال: أيّها أبا وزحة، الذّيال الميآل، ثم يسكت. والوزحة هي الخنفساء، ودارت الأيام فتبين أن أمير المؤمنين يشير بقوله إلى الحجاج بن يوسف وقد جاء بعد الإمام عليه السلام بما يزيد عن نصف قرن. ولكنّ الإمام رأى الحجاج ذيّالاً ميآلاً مترنحاً كالخنفساء. وقد سلّط الله على الحجاج وزحة أي خنفساء لسعته في رجله فأشعلت بدنه نارا، ولم يعصمه طغيانه وسفكه للدماء.

أيّها الإخوة والأبناء، أقرأ وأكتب الملاحم والفتن. إنّي، والله، عندما

أقرأها، أعلم أَنَّ الإمام عليّ عليه السلام قد تحدّث عن آيأنا هذه وكأنّه يعيشها، لقد تحدّث بدقّة متناهية عن حرائق الخليج وسحب الدخان وزلزال بغداد وتشتّت المسلمين وتمزّق الأمة العربيّة. لقد تحدّث عن كلّ ذلك إن في كتابه لمالك الأشر وإن في خطبة البيان وسائر ما أثر عنه. إنَّ أقلّ ما يقال في الإمام عليّ عليه السلام إنه عالم اجتماع عظيم يدرك بعلمه وهديه قوانين المجتمع وقواعده فيعرف ما سيؤول إليه.

والإمام الحسين عليه السلام يقول لعمر بن سعد: «الآن، أنا تورّطت بهذه الكلمة، ولا أقدر أن أتركها، فلنمش فيها، وإذا تركتها تبكون عطشانين». لاحظوا المسألة. قد يقول قائل: «علم الغيب لله وحده». «قل لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير». - الأعراف (١٨٨) - هذا صحيح، الغيب المطلق لله سبحانه وتعالى. لكنّ الله تعالى يُطلع على غيبه أنبياءه ورسله والأوصياء والأولياء من عباده الصالحين. ألم يتحدّث الرسول ﷺ بالغيب؟ ألم يخبر بأمور ستقع ووقعت فعلاً؟ عندما كان يحفر الخندق ضرب بفأسه صخرة فتطاير الشرر، فقال ﷺ: «لقد رأيت قصور الروم، ورأيت قصور فارس وقصور اليمن». ألا يعني هذا أَنَّ الرسول ﷺ يتنبأ عن انطلاق الإسلام وانتشاره في العالم؟. كلّنا نعلم أَنَّ الرسول ﷺ قال لعمار بن ياسر: «يا عمار، تقتلك الفئة الباغية، وآخر شرابك من الدنيا ضياح من لبن». فلمّا استشهد عمار في وقعة صفّين. وكان أهل الشام يعرفون حديث الرسول ﷺ في مقتل عمار. قالوا: «إذن نحن الفئة الباغية». فخرج إليهم عمرو بن العاص وقال: «إن حديث الرسول في مقتل عمار صحيح. ولكنّ الإمام عليّ هو الذي قتل عماراً لأنه أخرجه معه». وجاز هذا الكلام الخبيث على أهل الشام.

ذات يوم كان الرسول ﷺ يغسل يديه وحوله أربع من زوجاته؛ أم سلمة وعائشة وحفصة وزينب بنت جحش، فقال لهنّ: «إيه آيتكن صاحبة

الجمال الأذنب، تنبها كلاب الحوَاب، فتزلّ على الصراط يوم تخفّ عليه الأقدام؟». فصارت كلّ واحدة منهم تنظر إلى الأخرى. وتوالت الأيام بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وتطوّرت الأحداث وتفاقت وكانت وقعة الجمال، وإذا في الحوَاب عائشة وطلحة والزبير، وإذا بكلاب الحوَاب تنبهم. فقال طلحة: «قاتل الله الحوَاب ما أكثر كلابها». فقالت عائشة: «عجيب؟ هذه هي الحوَاب؟» فقالوا لها: «بلى». فقالت: «ردّوني.. ردّوني..». لقد سمعت رسول الله يقول لنا: «أَيَكُنْ صاحبة الجمال الأذنب تنبها كلاب الحوَاب؟» إذن، هذا الحديث ينطبق عليّ. وحار أصحاب الجمال في أمرهم، كيف يردّونها وعلى أيّ أساس؟ فأتوا لها بأربعين شاهداً ليشهدوا أمامها أنّ ذلك الماء ليس ماء الحوَاب. وكان ذلك. والحوَاب ماء قبيل البصرة، وحادثته هذه مذكورة في مراجع السنّة ومراجع الشيعة على حدّ سواء.

ميثم التّمَار وحبيب بن مظاهر تلميذان من تلاميذ الإمام عليّ عليه السلام. وميثم هذا إفريقيّ، وقد أوصى الرسول ﷺ عليّاً به يوم احتضاره قائلاً له: لا تنس صاحبنا ميثم. وتمضي الأيام، وذات يوم يستدعي الإمام عليّ عليه السلام الأصمغ بن نباتة ويقول له: اذهب إلى باب دار الرزق في الكوفة، وهناك تجد امرأة عندها غلام أسود، هذا الغلام صاحبنا، اشتريه منها، فيذهب الأصمغ ويشترى الغلام الأسود من المرأة. إن ذلك الغلام هو ميثم الذي أوصى به الرسول ﷺ. وقد انصرف إلى صحبة الإمام عليّ عليه السلام فارتقى إلى أعلى درجات العلم والصلاح. وكان لميثم دكان يبيع فيه التمر. فكان الإمام عليّ عليه السلام يدور في السوق ليتفقد أحوال الناس، وبعد أن يفرغ من طوافه في السوق يذهب إلى دكان ميثم. وكثيراً ما كان ميثم يذهب إلى بيته لبعض أموره. فيبقى الإمام عليّ عليه السلام في الدكان يبيع التمر لميثم. وفي هذا يروي ابن أبي الحديد المعتزليّ أنّ امرأة اشترت تمرّاً من دكان ميثم، وقد باعها الإمام ذلك التمر. وانصرفت، لكنّها لم تلبث أن عادت بعد فترة وجيزة وقالت

للإمام عليه السلام : «يا هذا، إنَّ هذا التمر حامض وقد اشتريته منك». فقال لها الإمام عليه السلام : «إذا كان التمر حامضاً، فالدرهم الذي دفعته ثمناً له مزيف. فلما أراها درهمها تبين لها أنَّه مزيف فعلاً. إلّا أنَّ بيع التمر لميشم أثناء غيابه لم يكن ليشغل الإمام عليه السلام عن النظر في أمور الناس والكتابة إلى الولاة. وكان تلميذه حبيب بن مظاهر يوافيه إلى دكان ميشم فيأخذ عنه ويتعلّم منه.

التقى يوماً ميشم بحبيب بن مظاهر في مجلس لبني أسد، فقال حبيب لميشم : «يا ميشم إنّي لأعرف رجلاً له ضفيرة طويلة يُقتل في محبة عليّ أمير المؤمنين ومن أجل ولايته، فيصلب على الخشب وتقطع يداه ورجلاه» فقال له ميشم : «وإنّي لأعرف رجلاً يبيع البطيخ عند دار الرزق في الكوفة - وكان لحبيب دكان يبيع فيه البطيخ عند دار الرزق - يخرج لنصرة ابن بنت نبيّه، فيُقتل هناك ويُقطع رأسه ويأتي برأسه معلّقاً على رقبة الفرس، فتضرب الفرس رأسه بركبتيها». فسخر أهل المجلس من قولهما ورموهما بالكذب. وبعد أن انصرف ميشم وحبيب من المجلس انضمّ إليه تلميذ آخر من تلاميذ الإمام عليّ عليه السلام . هذا التلميذ هو رشيد الهجريّ. وقد ابتدر أهل المجلس بالقول : «هل مرّ عليكم حبيب بن مظاهر وميشم؟» فقالوا : «بلى» ثم قصّوا عليه ساخرين ما قال كلّ من حبيب وميشم، فقال رشيد : «رحم الله ميشماً لقد نسي نقطة مهمّة». قال أهل المجلس : «وما عسى أن تكون هذه النقطة المهمّة؟» فقال رشيد : «لقد نسي أن يقول أنَّ عطاء الذي يأتي برأس حبيب سيزاد مئة دينار». فقال أهل المجلس : «هذا أكذبهم».

ومرّت الأيام والليالي، وشهد من حضر ذلك المجلس في بني أسد، أنَّ الأحداث جاءت مصدّقة لما قاله كل من ميشم وحبيب بن مظاهر ورشيداً الهجريّ.

كان الإمام الجواد عليه السلام ، ذات يوم، يمشي على ضفة دجلة، فجاءه أحد العلماء المخالفين له وسأله قائلاً : «هل صحيح، يا بن رسول الله أنكم تزعمون

أَنَّ الإمام المعصوم يعلم الغيب؟» فأجابه الإمام عليه السلام بالإيجاب، فقال العالم: «أو يعلم عدد قطرات ماء دجلة؟» قال الإمام: «إِنَّ عدد قطرات ماء دجلة في علم الله، أليس هذا صحيحاً؟» قال العالم: «نعم، هذا صحيح». قال الإمام: «إذا شاء الله أَنْ يجعل هذا العلم في رأس بعوضه، ألا تَتَمَّ مشيئته؟» قال العالم: «نعم تَتَمَّ مشيئته». قال الإمام: «إِنَّ الإمام أعظم عند الله من بعوضة ومن سائر الكائنات، فلماذا تستكثر أَنْ يَمَنَّ الله عليه بالقدرة على التنبؤ؟ لا تستكثر هذا إِنَّ الله على كُلِّ شيء قدير».

«إنما يحتاج إلى الظلم الضعيف»

من الذي يتخذ الظلم نهجاً في الحياة؟ من هو الظالم؟ إننا الليلة في حضرة الإمام زين العابدين عليه السلام. وقد حسم هذه المسألة بقوله: «إنما يحتاج إلى الظلم الضعيف». الضعيف الخائف هو الذي يظلم، أما القوي الذي لا يخاف فإنه لا يظلم. إِنَّ الطواغيت الذين يتوسلون بالظلم نهجاً وسياسة، إنما يفعلون ذلك لأنهم ضعفاء خائفون. أما الأقوياء فهم العادلون، ويمكن أن يكون الإنسان عادلاً حتى ولو لم يكن مسلماً، فعندما اشتدَّ أذى كفار قريش للمسلمين الأوائل، قال الرسول ﷺ لهؤلاء المسلمين: «اذهبوا إلى الحبشة فإنَّ فيها ملكاً لا يُظلم عنده أحد». إِنَّ في هذا القول بعداً حضارياً إنسانياً قلماً يتبته إليه الناس. ويزداد هذا البعد وضوحاً عندما نلقي نظرة فاحصة على السياسة الدوليَّة في عصرنا. إنَّها وكما يعلم الجميع سياسة قائمة على الخبث والدجل والنفاق وسفك الدماء وهدمك الأعراض وحجز الحريَّات والتفنن في تعذيب الناس. وإنَّ المبادئ هي آخر ما يفكر فيه ساسة اليوم، إنَّهم لا يفكرون إلَّا بالمصالح والمصالح فقط، وبفرض النظر عما تلاقيه الشعوب من عنت وإرهاق بسبب ذلك. لنفترض أنَّ نزاعاً نشب بين الصين واليابان، ولأن سياسة حكومتيهما منقطعة عن المبادئ ولا تعرف الله، فإنَّ الصينيين المتواجدين في اليابان، واليابانيين المتواجدين في

الصين، هم الذين يتحملون نتائج النزاع بين حكومتي الصين واليابان، أما السياسة في الإسلام فإنها قائمة على المبادئ والمبادئ فقط. وانطلاقاً من هذا المفهوم أشار الرسول ﷺ على المسلمين الذين عانوا من أذى الكفار بالهجرة إلى الحبشة، فعل ذلك وهو يعرف أن ثمة علاقات متينة بين نجاشي الحبشة وكفار قريش وعلى رأسهم أبو لهب وأبو جهل وأبو سفيان. وقد كلف هؤلاء وفداً يرثه عمرو بن العاص بالذهاب إلى الحبشة والطلب إلى ملكها تسليم جعفر بن أبي طالب ومن معه من المهاجرين. وقد حسب كفار قريش أن ملك الحبشة لن يرّد طلبهم نظراً لما بينه وبينهم من علاقات طيبة، وذهب الوفد فعلاً وطلب إلى ملك الحبشة أن يسلمه من هاجر إلى الحبشة من المسلمين وهم خمسمئة، وفي بعض الأخبار ألف مهاجر بين رجل وامرأة وطفل. وقد شفعوا طلبهم بتذكير ملك الحبشة بالعلاقات الطيبة بينه وبينهم. إلا أن ملك الحبشة رفض طلبهم قائلاً: «كيف أسلمكم إليهم؟ إنهم ضيوف عندي، أكلوا وشربوا على تراب وطني، وأنا عادل فلا بدّ لي من أن أستمع إليهم». ثم أرسل فاستدعى وفداً من المسلمين، فجاء الوفد على رأسه جعفر بن أبي طالب. فقال الملك لجعفر: ما هذا الدين الذي تدينون؟ حدّثنا عنه. فانطلق جعفر شارحاً مبادئ الإسلام في التوحيد والعدل والإحسان وسائر المبادئ الإسلامية السامية. ثم قرأ على مسامع الملك آيات من سورة مريم، وكان النجاشي يفهم العربية فعرف من جعفر مكارم الأخلاق التي يبشر بها الإسلام، كما عرف منه تكريم الإسلام لمريم وابنها عيسى عليه السلام. وقد تأثر بالآيات التي قرأها جعفر عليه حتى سالت دموعه. فالتفت إلى عمرو بن العاص وقال له: «يا عمرو إن سياستي تقوم على مبدأ العدل وليس على المصلحة، وأنا لا أبالي بغضبيكم، فالمهاجرون ضيوف عندي وهم يدينون بدين عظيم. والله لو أعطيتهموني ملء الدنيا ذهباً ما سلّمتكم شعرة من هؤلاء». ثم التفت إلى جعفر بن أبي طالب وقال له: «انطلق يا جعفر، أنت ومن معك، وعيشوا على أرضي

بسلام، إلى أن يأذن الله لكم بالعودة». وبينما عفى التاريخ على ذكر مشات الملوك والحكام الظالمين، فقد خلّد ملك الحبشة ومجد موقفه من مهاجري المسلمين وعدله وسياسته القائمة على المبادئ الشريفة وليس على الانتهازية والمصلحة.

إن المسألة في الإسلام، هي رفع الظلم عن الإنسان وحفظ حقوقه انطلاقاً من الإنسان نفسه.

﴿وَأَنْ لِّسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ ﴿وَأَنْ سَمِيعَهُ سَوْفَ يُبْرَى﴾ ﴿ثُمَّ يَجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾ ﴿وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمَتَى﴾^(١) أيها الإنسان، إنك متته إلى الله فتبصر في أمرك. ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا بِسِرِّ اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^(٢) فالله تعالى يدعونا إلى العمل، ولكن ليس كل عمل، إنه يدعونا إلى العمل الذي يثبنا عليه بجنة عرضها السموات والأرض. ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾^(٣). - فالسعي المطلوب هو السعي في رضوان الله. ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٤). فلنعد إلى التاريخ ونأخذ منه مثالين من حكم بني أمية وبعدهم حكم بني العباس. إننا نعرف أن أحداً من ملوك الأرض لم يصل إلى مستوى بذخهم وبطرحهم، فهارون الرشيد مثلاً، وكان يخاطب السحابة قائلاً: «أمطري حيث شئت فإنّ خراجك عائد إليّ». فالرشيد هذا وما كان برشيد كان عنده في دار الرقيق أحد عشر ألف غلام، فضلاً عن الخدم والموظفين الذين كانوا يستمنهم «الشاكريّة» وألوف الجوّاري اللواتي كنّ يملأن قصر الخلد لهواً وصخباً

(١) سورة النجم؛ الآيات: ٣٩ - ٤٠ - ٤١ - ٤٢.

(٢) سورة التوبة؛ الآية: (١٠٥).

(٣) سورة الإسراء؛ الآية: (١٩).

(٤) سورة القصص؛ الآية: (٨٣).

ومجوناً. وقصر الخلد هذا يصفه المؤرخون فيما يزيد على مئتي صفحة.
بالمقابل كان الإمام موسى بن جعفر عليه السلام يسكن في كوخ. لكن الحق كان
في هذا الكوخ وليس في قصر الخلد.

بغداد يومك لا يزال كأمسه
صوراً على طرفي نقيض تجمعُ
يطغى النعيم بجانب وبجانب
يطغى الشقاء، فمرقه ومُضِيعُ
في القصر أغنية على شفة الهوا
والكوخ دمع في المحاجر يلذعُ
ويد تُكَبِّل وهي مما يفتدى
ويد تُقَبِّل وهي مما يُقطعُ
ولكنَّ الظلم قطع يد أبي الفضل العباس، إلا أنَّ ذلك لم ينقص من
قدره شيئاً، وقد تحدَّى الظالم بقوله:

والله لو قطعتُم يميني
إنني أحامي أبداً عن ديني
فالمبدأ هو الأصل. وأهل البيت عليهم السلام قدسوا التضحيات الجسام من
أموالهم وأنفسهم للحفاظ على المبادئ والقيم الإسلامية .
لقد عفى الزمن على الرشيد وسائر العباسيين، وبقي الإمام موسى بن
جعفر باباً للحوائج .

هياً بنا لربى الزوراء نسألها
عن ثلثين هما موتى وأحياء
فقد مشت وبني العباس سامرة
في ألف ليلة حيث العيش سرّاء
دار الرقيق وقصر الخلد طافحة
بما يلذ فأنغم وصهباء

تجيبك أن ديار الظلم خاوية
 وأن للمتقين ديار الخلد ما شاؤوا
 ومل إلى الكرخ وانظر قبة سمعت
 تجاذبتها الشريا فهي شماء
 وحي إماماً من أنامله
 سحابة الفضل والإنعام وكفاء

وأيّن اليوم معاوية وسائر بني أمية؟ لم يبق لهم أثر. لكن سيول
 الزائرين لا تنقطع عن المقام العظيم الجديد الذي أقيم لطفلة يتيمة لا
 يتعدى عمرها السنوات الثلاث. يقصدها الناس من شتى بقاع الأرض وكلهم
 ينادي قائلاً: «يا بنت سيد شباب أهل الجنة، يا بنت سيد الشهداء، أيتها
 الدامعة الصافية الساكنة. يا رقية». إنها بابهم إلى الله... إلى الحق. وإن
 موقفهم هذا هو علامة الحق دنيا وآخره. والمستقبل للحق وللحق وحده،
 دنيا وآخره.

الامام زين العابدين عليه السلام

يهز جماهير المؤمنين

فتح الإمام زين العابدين، عليه السلام، عينيه على مجتمع راكد
 متخاذل فهزه بالدعاء والصلاة والصحيفة السجادية. كما هز الحكام الخونة
 المستبدين برسالة الحقوق، وعلى كل مؤمن أن يقرأ هذه الرسالة ويتفهم
 أبعادها، وقد وضع العلامة السيد حسن القنجي تفسيراً لهذه الرسالة
 العظيمة في مجلدين ضخمين، وقد جاء هذا التفسير علمياً دقيقاً مركزاً
 على الجوانب الحضارية لهذه الرسالة.

مما يقوله الإمام زين العابدين عليه السلام في رسالة الحقوق :

«واعلم أن الله قد جعل لنفسك عليك حقوقاً وأنتك يجب أن تستوفي
 هذا الحق في نفسك، فوجب عليك أن تؤدّي حق سمعك وبصرك وحق
 لسانك ونطقك وحق يدك وحق رجلك» .

إنه عليه السلام يجعل لكل عضو من أعضاء الإنسان حقاً خاصاً. وهذا

ما لا تجده إلا عند أهل البيت عليهم السلام. ومنهم تعرف ماذا يجب أن تصنع بيدك وأن تنظر بعينك وأن تسمع بأذنك وأن تنطق بلسانك وأن تسعى بقدمك فلا تصنع حراماً ولا تنظر أو تسمع أو تنطق حراماً، ولا تسعى إلى حرام. بل تستعمل كل عضو من أعضائك فيما يرضي الله سبحانه وتعالى.

لقد هز الإمام السَّجَّاد عليه السلام جماهير المؤمنين أيضاً بمجالس العلم والمعرفة وبالجامعة الإسلامية التي أرسى قواعدها وأورثها لابنه الإمام الصادق عليه السلام ومنها انطلقت المذاهب الأربعة.

كما أن الإمام زين العابدين لم يوفر جهداً ولا مالاً في نشر الإسلام وحفظه. كان يشتري العبيد بالآلوف ويقيم لهم الدورات التعليمية التربوية المكثفة ثم يحرّرهم ويسلطهم بين الحجيج ومعه ليحملوا إلى أرجاء المعمورة صورة صحيحة للإسلام والفكر الإسلامي وفيهما خلاص الإنسان وسعادته دنيا وآخرة.

لقد تابع الإمام السَّجَّاد رسالته في حفظ الإسلام ونشره على الرغم من أن المصائب التي مرت به لم تمر بأحد سواه أبداً. إننا في هذه الأيام نذكّره مع عمّاته وأخواته، يدور من بلد إلى بلد، ومن أرض إلى أرض، وعيناه شاخصتان إلى رأس أبيه الحسين عليه السلام وإلى عمّته زينب وإلى سائر أخواته عليهن السلام.

إن كل ذلك لم يمنعه من متابعة مسيرته التي حفظت الإسلام وحفظت القرآن الكريم.

بعد أن أتم الإمام السَّجَّاد مع من تبقى من أهل البيت عليهم السلام زيارتهم لكربلاء، التفت إلى أصحابه وأهل بيته وقال: «قوموا بنا إلى المدينة». فقالوا له: «دعنا نرتد». فقال: «إنكم لا ترون ما أرى» قالوا: «ما الخبر؟» قال: «والله إنني أخشى على عمّتي زينب أن تموت، إنها لا تقفأ تقوم من عند قبر وتجلس عند قبر».

آبِهَا الْأُخُوَّةُ وَالْأَبْنَاءُ . إِنِّي عِنْدَمَا أَرَى الْمَآسِي وَالْمَحَنَ الَّتِي تَعَصِفُ
بِالْمُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَصِيَّةِ ، لَا أَلُومَ الْعَقِيلَةَ زَيْنَبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . عِنْدَمَا
أَرَى الدَّمُوعَ الْجَارِيَةَ فِي كُلِّ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الْمُؤْمِنِينَ عَامَّةً وَفِي كُلِّ بَيْتٍ مِنْ
بُيُوتِ شِيعَةِ الْعِرَاقِ خَاصَّةً ، أَتَذَكَّرُ آلامَ وَدُمُوعَ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾^(١) - كُنْتُ
فِي إِيرَانَ عِنْدَمَا تَدَقَّقْتُ عَلَيْهَا حَشُودَ النِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ وَالشُّيُوخِ النَّاجِينَ
بِأَرْوَاحِهِمْ مِنَ الْمَجَازِرِ الَّتِي ارْتَكَبَهَا النِّظَامُ الْحَاكِمُ فِي الْعِرَاقِ . وَقَدْ خَرَجْتُ
مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِاسْتِقْبَالِ هَذِهِ الْحَشُودِ وَمَوَاسَاتِهَا . إِنْ أُنْسَى لَا
أُنْسَى طِفْلَةً لَا يَتَعَدَّى عُمُرُهَا السَّنَاتِ السَّبْعَ ، كَانَ الذِّعْرُ وَالْأَسَى بَادِيَيْنِ فِي
عَيْنَيْهَا وَقَدْ سَأَلَتْ مِنْهَا الدَّمُوعَ . وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّهَا فَقَدَتْ أَهْلَهَا وَهَامَتْ عَلَى
وَجْهِهَا بَيْنَ حَشُودٍ لَا تَعْرِفُ فِيهَا أَحَدًا . اقْتَرَبْتُ مِنْهَا وَسَأَلْتُهَا قَائِلًا :
«حَبِيبَتِي ، مَا اسْمُكَ؟» فَأَجَابَتْنِي قَائِلَةً : «اسْمِي دُمُوعٌ» . قُلْتُ : «لَا إِلَهَ إِلَّا
اللَّهُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، إِنَّ اسْمَكَ آيَتُهَا الْيَتِيمَةِ الْمَظْلُومَةِ يَعْكُسُ
وَيَصُورُ الْمَآسَاةَ الَّتِي نَعِيشُهَا . لَكِنَّ الْفَرَجَ قَرِيبٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ» .

آبِهَا الْأُخُوَّةُ وَالْأَبْنَاءُ :

إِنْ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ الشَّعْبِ الْعِرَاقِيِّ يَعَانُونَ مِنَ التَّعَسُّفِ وَالظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ ،
مِمَّا حَفَزَهُمْ عَلَى الْإِنْتِفَاضَةِ ضِدَّ النِّظَامِ الْمُسْتَبَدِّ الظَّالِمِ . طَبَعًا يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ
نُمَيِّزَ بَيْنَ الْمُجَاهِدِينَ الشُّرَفَاءِ وَبَيْنَ الْمَجْرِمِينَ الَّذِينَ يَسْتَغْلَوْنَ الْإِنْتِفَاضَةَ
لِأَهْدَافِهِمُ الدُّنْيَا . قَالَ تَعَالَى : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾^(٢) .

إِنَّ الْقَلَمَ وَاللِّسَانَ لِيَعْجِزَانِ عَنْ وَصْفِ الْفُظَّائِعِ وَالْمَجَازِرِ الَّتِي ارْتَكَبَهَا
جَلَاوِزَةُ النِّظَامِ الْحَاكِمِ فِي الْعِرَاقِ . لَقَدْ مَحَوْا كَرْبِلَاءَ وَدَمَّرُوا النِّجْفَ وَقَتَلُوا

(١) سُورَةُ الْحَجِّ ، آيَةُ : (٣٩) .

(٢) سُورَةُ فَاطِرٍ ، آيَةُ : (١٨) .

أهلهم. كما طوّقوا بدباباتهم سائر المدن والقرى في جنوبيّ العراق، وأخصّ منها بالذكر السماوة والرمثة فمنهما انطلقت ثورة سنة ١٩٢٠ ضد الاستعمار البريطانيّ. لقد دكّوا تلك المدن والقرى بالمدافع وأبادوا أهاليها.

إنّ شرور صدام حسين لن تنسينا العتبات والمقامات المقدّسة للإمام عليّ أمير المؤمنين ولابنه الإمام الحسين ولأبي الفضل العباس وللالئمة موسى بن جعفر والجواد والهادي والعسكري سلام الله عليهم أجمعين.

إنّ الفظائع التي يرتكبها النظام الحاكم في العراق لن تنسينا مرجعيتنا وعلماءنا المحاصرين والمُسجونين. والمقتولين بعد أن دُمّرت بيوتهم وهُتكت أعراضهم. إنّ الفظائع التي ارتكبتها صدام حسين في الكويت إن هي إلّا نموذج لما ارتكبه ولا يزال يرتكبه في العراق منذ خمس وعشرين سنة. والله لا أحبّ أن أذكر اسم هذا السّفاح على منبر الحسين عليه السلام ولكنّ ذكر المحنة جرّني إلى ذكر اسمه.

لقد هتفت لي إحدى الفتيات وقد شرقت بدموعها قائلة لي: «هل تذهب إلى العراق؟ فقلت لها: «والله، يابيتي، إنك تذكّرني بسكينة بنت الحسين. فالظلم واحد، والمظلومية واحدة، وحظ أهل البيت وحظّ شيعتهم واحد».

أيّها الأخوة والأبناء:

لا يضلّلنكم الإعلام الكافر المزيف فتختلط عليكم الأمور وتلتبس المبادئ. اعلّموا علم اليقين من الذي زحف بالدبابات ودّمّر مقام الإمام الحسين عليه السلام. ثم رشّ البنزين على آلاف الفتيات اللواتي تجمّعن في صحن المقام فأحرقهنّ بلا شفقة ولا رحمة.

إنكم أهل غيرة وحمية تثورون للكرامة والعرض، ولن تسكتوا على تلك الفظائع. إنّ الحكّام الظالمين الخونة زائلون والحقّ باق والنصر

للعشوب المظلومة. لا ندعوا دسائس الاستعمار تفرّقكم وتبعدكم عن مقدّساتكم ومرجعيتكم. إنّ العراق لا بدّ أن يعود إلى أصلاته، إلى عليّ أمير المؤمنين عليه السلام، إلى التقوى، إلى مواكب العزاء في أربعين عاشوراء، إلى الحسين عليه السلام، فلا تتخذوا بالأقلام الضالّة المضلّة التي تتغذّى بالحقد وبث السموم، اقرأوا ما تكتبه الأقلام الصادقة المؤمنة. لا تشمتوا بمن حلّت بهم المصيبة فتحشروا يوم القيامة مع الظالمين والمجرمين الذين يضطهدون شيعة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام. ولكن لا بدّ لهذا الليل من آخر. وأنا من على منبر الحسين أبشركم بالفرج القريب إن شاء الله. والتحرير سيكون شاملاً كاملاً وليس للكويّ فقط إنّما لكلّ شعوب المنطقة، فكأنّا مسلمون ونحن لا نفرّق بين سنّة وشيعة، إنّني أقول هذا وقد قلته وسأظل أقوله لأنني مؤمن به، وأنا إذ أخصّ الشيعة بالذكر فلاّتهم في العراق عامّة، وفي جنوبه خاصّة مظلومون مسحقون، والإنسان الذي لا يهتمّ بهم ويؤازرهم سيفضربه الله في الدنيا قبل الآخرة، وضربة ربّ العالمين لا يثبت عليها شعر أبداً. وأنا أتوجّه بكلامي إلى العالم لأنّ رسالتي في نصرة الحقّ ليست محصورة في مجلس أو شعب أو فئة اجتماعية أو طائفة أو مذهب إنّني أرثي لأولئك الجنود الجهلة الخونة الذين بنعلوا من أنفسهم آلات عمياء بيد الحاكم الطاغية، تماماً كما رثي الإمام الحسين عليه السلام لأعدائه لأنهم لا يعلمون ما يفعلون، وعملهم سيودي بهم إلى النار وبئس المصير. إنّ الإمام الحسين عليه السلام يعلمنا كيف ننظر إلى الناس، كلّ الناس من زاوية إنسانيّة رحيمة.

دعنا نتزود ونشبع وداعاً

عندما طلب الإمام زين العابدين من أهل بيته وصحبه أن يعودوا إلى المدينة بعد أن أتمّ زيارته لكربلاء، قالوا له: «دعنا نتزود ونشبع وداعاً». فقال لهم: «إنكم لا ترون ما أرى». قالوا: «وما الخبر؟» قال: «إنني

أخشى على عمّتي زينب أن تموت، إنّها لا تنفك تقوم من عند قبر ونجلس عند قبر آخر». فقالوا للسيدة زينب عليها السلام: «قومي يا عمّة». فقالت: «إلى أين؟». قالوا: «إلى المدينة». قالت: «ومن الأقي فيها؟ هل بقي لي أحد في المدينة؟ لأذهب إليها؟». ثم التفتت إلى مرقد الحسين عليه السلام وقالت:

شو تشور يا بن أمي عليّا أنا أمشي يا ظل بالغاصريّة
ولكنّ الإمام زين العابدين عاود القول: «قومي يا عمّة إلى المدينة». فكان ذلك. فلما وصلوا إلى المدينة نادى شاعر كان معهم أهل المدينة قائلاً:

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها قُتل الحسين فادمعي مدرار
فلما سمع أهل المدينة ذلك خرجوا صغاراً وكباراً لاستقبال الموكب الحزين، وكان فيهم محمد بن الحنفية الذي سمع الصوت والصرخة فسأل قائلاً: «ما الخبر؟» ف قيل له: «قد جاء أخوك الحسين» وابن أخيك زين العابدين ينتظرك في ظاهر المدينة. فخرج محمد يتوكأ على أولاده لأنّه كان مريضاً. فلما سمع صرخات واحسيناه وعباساه، وقع على الأرض مغشياً عليه. فعلم الإمام زين العابدين بذلك، فأقبل على عمّه وأخذ رأسه ووضعه في حجره وبكى، فتساقطت دموعه على وجه عمّه الذي فتح عينيه وقال للإمام السّجاد عليه السلام: «أنت علي ابن أخي؟».

قال الإمام: «نعم يا عمّ». قال محمد بن الحنفية: ولدي، أين أبوك الحسين؟ قال الإمام السّجاد:

محمّد يا عمّي جيتك يتيماً ومامن معي غير الحريم
فالتفت محمد بن الحنفية إلى زينب وقال: «كيف أنت يا زينب؟». فقالت:

أجيتك لا ولد عندي ولا خوي عفتهم جثث بأرض الغاصريّة
إلهنا تقبل أعمالنا

الامام الباقر عليه السلام
محبوب الرسول صلح الله عليه وسلم

الإمام الباقر عليه السلام^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾^(٢).

بحثنا هذه الليلة يحتاج إلى مقدمة قصيرة. وكما تعلمون فإن هذه الليلة تختص بجامعة العلم والفكر والثقافة، وإمام التقى والصلاح والهدى، الإمام محمد بن علي الباقر - صلوات الله وسلامه عليه -.

هذا الرجل الذي حمل ألوية الإسلام، وحمل صوت جدّه الرسول، إلى كل بقاع العالم.

سنعيش هذه الليلة في مدرسة الإمام الباقر - صلوات الله وسلامه عليه - لكننا بحاجة إلى مقدمة تهيئنا للدخول في رحاب هذا الإمام العظيم. خلق الله - سبحانه وتعالى - الإنسان، وميّزه عن سائر المخلوقات. وأول ما تميّز به الإنسان، هو العقل. والعقل منطلق القلب، وبالعقل

(١) أقيمت هذه المحاضرة ليلة السادس والعشرين من المحرم سنة ١٤٠٩ هـ .

(٢) سورة القصص؛ الآية: ٨٣.

والقلب معاً، ندرك أن الإنسان خلق مزوداً بوسائل تمكّنه من العلم والمعرفة في حين أن بقية الكائنات لم تزود بهذه الوسائل. وأغرب ما في الإنسان - أيها الأحبة - أنه يتلقى العلم، فيتفاعل هذا العلم في ذهن المتلقي ليتحول ذهن الإنسان إلى ما يشبه أمواج البحر! أمواج العلم والفكر.

هذه الحالة لا وجود لها عند الجنّ، ولا عند الملائكة... فالملائكة تتلقى المعلومات بحدود ضيقة، ويأتي الإنسان فيعلم الملائكة.

﴿فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين: قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا...﴾^(١)

أي أن العلم الذي تتلقاه الملائكة - سرّ الله سبحانه وتعالى - يبقى كما هو، فلا يتفاعل ولا يتكاثر ولا ينمو، وهنا يأتي الإنسان بدوره المميّز. فهذا الإنسان، الذي أمر الله الملائكة بالسجود له، يحمل طاقة وقدرة ومؤهلات ليست موجودة لدى الملائكة.

﴿قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾^(٢).

الإنسان إذن هو معلّم الملائكة. لماذا؟ - لأنه يملك هذه القدرة، في حين أن الكائنات الأخرى لا تمتلك مثلها، وليس بمقدورها أن تمتلكها أبداً. وعلى سبيل المثال: هل يمكن لأحدنا أن يقوم بتعليم الكلب اقتفاء آثار السارق؟

- بالطبع لا. فلماذا؟ - لأن الله سبحانه وتعالى - زود الكلب بحاسة شمّ تمكّنه من اقتفاء أثر السارق بقوة هذه الحاسة لديه ومن دون حاجة إلى تعلّم ذلك. لكن، هل يقدر هذا الحيوان على نقل تلك المعلومات لكلب آخر؟ - كلاً بالتأكيد. بدليل أننا نعتد على كلب مدرّب

(١) سورة البقرة؛ الآيتان: ٣١ - ٣٢.

(٢) سورة البقرة؛ الآية: ٣٣.

للقبض على اللصوص، لأن الكلب غير المدرب لا يقدر على اكتساب نفس مهارات الكلب المدرب، ما لم يتم الإنسان بتدريبه.

يقول الإمام علي - أمير المؤمنين - صلوات الله وسلامه عليه - : «لابن آدم فضيلتان: عقل ومنطق. فبالعقل يستفيد، وبالمنطق يفيد».

ثمة كلمة صغيرة يقال لها هنا، هي كلمة صغيرة لكنها مدرسة وجامعة. فأنك لديك القدرة على الأخذ والعطاء، تأخذ وتعطي. والطفل الذي وُلد لتوه، يولد خالي الذهن من العلم ومن المعلومات، إلا أنه يولد مجهزاً بأجهزة دقيقة لاكتساب العلم.

﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾^(١) فالعلم لا يولد مع الطفل وكل ما في الأمر أنه يملك الاستعداد والفرائض. لاحظوا - أيها الأخوة - رحمة رب العالمين بنا، فقد خلق فينا الاستعداد لتلقي العلم، من دون أن يرهق رؤوسنا - منذ الطفولة - بهذا الكم الهائل من المعلومات. فإذا انطلق الإنسان في مراحل الوعي، تفاعلت المعلومات التي حصلها، وعملت على توجيهه في واحدٍ من طريقين: طريق الخير - إن كانت صحيحة وصالحة - أو طريق الشر إن كانت خاطئة، فاسدة. الطفل يحتاج إلى امتصاص ثدي أمه، منذ اليوم الأول لولادته. فلو أنه وُلد من دون معرفة طريقة امتصاص الثدي، لاحتاج الأمر إلى وقت طويل ليتعلم هذه الطريقة، في حين أنه بأمس الحاجة إليها، ومنذ اللحظة الأولى من أجل أن يعيش.

لكن الله زوّد الإنسان بهذه الفطرة وبهذه الغريزة، من دون حاجة إلى التعلم. فما أن يولد الطفل حتى يلتقم ثدي أمه ويبدأ بممارسة عملية الامتصاص، وتلك فطرة فطر عليها ولا دخل له بها، والقرآن يؤكد ذلك بقوله:

(١) سورة النحل؛ الآية: ٧٨.

﴿الله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً. وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾^(١).

إذن الله أعطاك وسائل العلم، أعطاك السمع والبصر، وهذه الوسائل هي المخزن الاحتياطي الذي يتجمع فيه العلم. فأنت - في الواقع - تنظر بعينك وتسمع بأذنك، فتحصل لك معلومات تنقلها إلى قلبك، وعملية النقل تتم عن طريق العقل. وبهذا الخصوص يقول أمير المؤمنين علي - صلوات الله وسلامه عليه - : «وإنما قلب الحَدث كالأرض الخالية، ما ألقي فيها من شيء إلا قبلته».

من هنا فإن مسألة التربية هي من أخطر المسائل في الإسلام. فالطفل هو كالصفحة البيضاء، والأب هو بمثابة القلم الذي يكتب ما يشاء في تلك الصفحة. فإن أنت زرعت في قلب طفلك حنظلاً فلن تجني سوى الحنظل، أما إذا زرعت فيه تفاحاً فإنك سوف تجني التفاح.

لاحظوا إذاً كيف أن مسألة التربية هي من أدقّ المسائل. لماذا؟ - لأن الله ميّز الإنسان بالإسلام، وفضيلة الإسلام إنه دين علم وعلماء. ولقد نطقت بذلك الآية الأولى من آيات القرآن الكريم:

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾^(٢).

وهذه النقطة هي نقطة أساسية وهامة جداً، يجب أن نلتفت إليها حتى نعرف حقيقة الإمام الباقر، فلقد سمي باقراً لأنه باقر العلوم ومفجرها في العالم.

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾^(٣).

(١) سورة النحل؛ الآية: ٧٨.

(٢) سورة العلق؛ الآية: ١.

(٣) سورة العلق؛ الآية: ١.

الإمام الباقر: إمام العلم والإيمان

القراءة: لا تكون باسم التربية، لأن العلم التربوي الذي يصوغني صياغة ربّانية - يجب أن يكون ممزوجاً بالإيمان - أما إذا بعد العلم عن الإيمان فإنه لن ينتج سوى علماء تجردوا من الإيمان وحينها لن تكون نتيجة علومهم إلا كنتيجة من يصنع القنبلة الذرية لتدمير الكون.

فالعلوم الطبيعية إذن، ليست كافية بحد ذاتها، دون أن يسعفها الإيمان. فهي لا تشبع جوع الإنسان العقائدي والفكري، وهي بحاجة أيضاً إلى من يغيثها ويرشدها ويهديها سواء السبيل، والإيمان هو المؤهل للقيام بهذه المهام من هنا حاجة العلوم الطبيعية إلى الإيمان.

العلوم الطبيعية - أيها الأخوة - ثابتة لا يختلف عليها اثنان فالمعادلة الرياضية المعروفة $2 + 2 = 4$ ، هي معادلة ثابتة لا خلاف عليها وليست خاضعة للتغيير ولا للتبديل. إذ لن يأتي يوم نكون فيه أكثر تقدمة، مما نحن عليه الآن، لنقول: إن هذه المعادلة باتت عتيقة بالية، وإنها كانت صحيحة في ما مضى، أما اليوم، وبعد أن تقدمنا في ميدان المعارف والعلوم، فإن المعادلة يجب أن تكون: $2 + 2 = 5$!! فهل يعقل أن يحدث هذا؟

- كلاً بالطبع. لأن المعادلة المذكورة هي معادلة علمية، يؤكد العقل صحتها، فإذا تصدى أحدٌ لتعديلها، زيادةً أو نقصاناً، فإن العقل يعترض على هذا التعديل ويرفضه.

القوانين، أعني القوانين الطبيعية، قائمة وموجودة في الكون. فلكل فعلٍ ردّة فعلٍ مساوية له في القوة ومعاكسة له في الاتجاه. وهذا قانون من قوانين الفيزياء، ومن غير الممكن أن يتغير هذا القانون بتغير الأمكنة أو الأزمنة.

الكرة الأرضية فيها قوة جذب تسحب الأجسام من الأعلى إلى الأسفل، فلو رميت حجراً من سطح مرتفع لسقط إلى الأرض، منجذباً إلى الأسفل لا إلى الأعلى. وجلو سكم على الأرض الآن، إنما هو من بركات هذه القوة الجاذبة، إذ لولا وجودها لكُنّا الآن - نحلّق في الفضاء بدل جلوسنا على الأرض. ولذلك فإن رائد الفضاء لا يتمكن من السيطرة على حركته حين يكون فوق سطح القمر إلّا بعد أن يحمل على جسده بعض الأثقال. وهذا ما يجعل حركته ضعيفة وبطيئة.

هذه، قوانين موجودة وثابتة، وهناك الكثير الكثير منها. فبالنسبة للماء - على سبيل المثال - هناك قانون عُرف باسم قانون أرخميدس، وهذا القانون اكتشفه الإمام علي - أمير المؤمنين - صلوات الله وسلامه عليه - ، وقد أكّده الإمام الباقر، ومن بعده أكّده الإمام الصادق أيضاً، وهذا من بين الكثير من القضايا الدقيقة التي توصلوا إليها - صلوات الله وسلامه عليهم - ولم يتوصل العلم إليها إلا مؤخراً.

ففي الماء عكس الله - سبحانه وتعالى - قانون الجاذبية، بحيث جعل الماء يدفع الأجسام من أسفل إلى أعلى، بدل أن يجذبها من أعلى إلى أسفل. لماذا؟ - لأن الله شاء أن يسخر لنا البحر للركوب، ولولا هذا القانون لما تمكّنّا من السير بالسفن على ظهر البحر. ويأتي القرآن ليلفت أنظارنا فيقول: إذا ركبتم في البواخر أو السفن فاذكروا نعمة الله عليكم.

﴿وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره﴾^(١). فحين ننظر إلى السفن وهي تشق عباب البحر، يتوجّب علينا أن نذكر الله - سبحانه وتعالى - الذي غيّر لنا القانون حتى يحفظ النظام هذه القوانين الطبيعية لا يختلف في أمرها الشيوعي مع غير الشيوعي ولا الملحد مع غير الملحد،

(١) سورة إبراهيم؛ الآية: ٣٢.

ولا يختلف فيها الكافر والمؤمن، إذ الكل مُجمِع عليها، مسلّم بوجودها وبصحتها. على أن الاختلاف إنما هو في العقيدة. لماذا؟ - لأن حكمة الله شاءت أن يكون مجال العقيدة حراً. ولهذا فإنك ترى أن الولايات المتحدة، والاتحاد السوفياتي قد انطلقا من قوانين مشتركة واحدة في الفيزياء، فهما هي السفن الفضائية تنطلق، ومن كلتا الدولتين وفقاً لنفس القانون، فلا يقول الشيوعيون بأن القانون الفيزيائي يجب أن يكون عندنا مغايراً لما هو عليه عند الأمريكيين. أبدأ. القانون هو ذاته، رغم اختلاف الدولتين والنظامين، لكن ما إن تنتقل إلى ميدان الاقتصاد حتى يظهر الفرق الشاسع بين الطرفين، وكذلك يختلف النظام بين الدولتين اختلافاً واضحاً أيضاً. والسبب في هذا الاختلاف يعود إلى حرية الإنسان في اتخاذ القرار في مجال دائرة الفكر والعقيدة.

يأتي الإسلام - منهاج الأنبياء ورسَل السماء - ليقول لنا: مخاطباً كل فرد منا: أيها الإنسان، إن النظام الذي تتبعه والذي يحركك في هذه الحياة، يجب أن ينطلق من الله الذي خلق هذا الكون وابتدع هذا النظام الكوني. إنك تحمل فكراً ولديك القدرة على التعلّم، لكن العلم الذي تتلقاه يجب أن يمتزج بالإيمان، لأن علمك إن خلا من الإيمان أو ابتعد عنه فإنه يتحول إلى جريمة. لاحظ الجامعات في العالم، اليوم، إنك تجد فيها العلم، لكنك لن تجد فيها الإيمان. ولذا فإنه من الممكن أن يتخرج من تلك الجامعات، عالم في الفيزياء، أو دكتور في الكيمياء، أو في الرياضيات، لكنك لن تجد واحداً منهم يحمل ذرة من الأخلاق، واستمع إلى هذه الحادثة التي قد تبدو غريبة وغير محتملة الوقوع، مع أنها حدثت فعلاً، وفي مكان عشت فيه فترة من الزمن.

كلنا يعلم أن الطبّ هو في خدمة الإنسانية، فهذا هو واجبه والمفترض فيه أن يؤديه، وهذا ما تعارف عليه الناس واتفق فيه الجميع،

والطبيب حين يفتح عيادة فإنما يفتحها بهدف معالجة الناس، لا لتكون مجزرة لهم - ولحسن الحظ فإن معظم الأطباء هم من الصنف الأول. والطبيب عندما ينتهي من تشخيص داء المريض فإنه يعمد فوراً إلى وصف الدواء الذي يراه ملائماً لعلاج علة هذا المريض، فإذا احتاج الأمر إلى إجراء عملية جراحية، لم يعمد الطبيب إلى المماطلة والتسويق طمعاً في جني المزيد من المال من جرّاء تأخير العلاج وإطالة أمد المرض، فوظيفة الطبيب وظيفته إنسانية، من قبل أن تكون وظيفة مادية معيشية يتقاضى عليها صاحبها أجراً أو مرتباً، لأن قضايا الإنسان لا تقدر بثمن، والفكر لا تقدر قيمته بالمال، لذلك فإن كل من يبيع فكره بالمال أو بمنفعة مادية، ساقط نافه لا قيمة له. ومن هؤلاء الساقطين، طبيب جاءه ذات يوم مريض فقير، وكانت حالة هذا المريض تستدعي إجراء عملية جراحية دقيقة في بطنه. لم يتوان الطبيب عن القيام بإجراء العملية بأكملها، لكنه ما إن فرغ منها، وعاد المريض إلى غرفته، حتى أعدّ فاتورة الحساب التي لحقت بالمريض المسكين إلى غرفته، وفوجيء هذا بالمبلغ المترتب عليه دفعه فالتفت إلى الممرضة قائلاً بأنه لا يملك نقوداً البتة، وهو بالتالي ليس قادراً على دفع نفقات العملية! ونقلت الممرضة الخبر إلى الطبيب، فأهمل مريضه. علام تدل هذه الخطوة التي خطاها الطبيب؟.

إنها النتيجة الفعلية لعلم من دون الإيمان.

فالعلم من دون الإيمان - أيها الأخوة - لا قيمة له أبداً. فهذا الطالب الذي يتوجه إلى أمريكا، ويدخل كلية الطب في إحدى جامعاتها، ثم يتخرج بعد ذلك طبيباً من دون أخلاق ومن دون أن يحمل ذرة من ضمير أو وجدان، أي فائدة ترجى منه؟؟

وما قيمة كل علومه؟ فالعلم وحده لا يكفي لأن العلم - أيها الأخوة - إنما يقول لنا كيف نصنع هذا الشيء؟ كيف نصنعه فحسب، أما

الإيمان فهو الذي يدلنا على الغاية من وراء صنع ما نصنعه. الإيمان هو الذي يقول لنا لماذا نصنع هذا أو نعمل ذاك؟ العلم يقول لنا كيف نصنع القنبلة الذرية، لكن الدين هو الذي يقول لنا لماذا نصنعها؟ الإبادة البشرية لإحيائهم؟ العلم هو الذي يقول لنا كيف نجزيء الذرة؟ وكيف نفصل الخلية؟ وكيف نطلق بالتطور التكنولوجي وعلوم «الفلسفة»، لكن الدين والإيمان هما اللذان يقولان لنا لماذا نقوم بهذا كله؟!

فالمقياس هو: هل إن ما نصنعه هو في صالح الإنسان ومن أجل نفعه؟ أم أنه ضده ومن أجل الإضرار به؟ لأن كل شيء فيه ضرر للإنسان، ساقط في نظر الإسلام ومحرم وفق شريعته. إذ أن القاعدة التي نسير عليها هي تلك التي وضعها الرسول وحددها قوله: «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام».

كلكم تعلمون قصة سمرة بن جندب. فالقصة معروفة متداولة. كان سمرة هذا، يملك نخلة في بستان الأنصاري، وكان منحنط الأخلاق، فكان يدخل بستان الأنصاري دون إذن بالدخول، وكان للأنصاري نساء وبنات مقيمات في ذلك البستان، فكلم الأنصاري سمرة بهذا الأمر قائلاً له: صحيح يا هذا أن لك نخلة في بستانني وأنه يحق لك الدخول من أجل نخلتك تلك، لكن الواجب يقضي بأن تطرق علينا الباب قبل دخولك. فقال سمرة: ما كنت مستعداً لأطرق الباب عليكم!!

قال الأنصاري: يا سمرة، قبل أن تدخل صبح بقول من مثل: يا الله، لتنبه البنات وتتحجبن، فليليت حرمة، والعائلة لها حرمة، وأنت بعملك هذا تهتك حرمتي بدخولك عليّ هكذا.

قال سمرة: وما شأني وحرمتك؟ وما الذي يهمني من ذلك كله؟ كل ما يعنيني أن لي نخلة هناك وأن من حقي دخول البستان في أي وقت أرتأي وأشاء، حتى وإن كانت بناتك في الطريق.

وكان الأنصاري رجلاً عاقلاً رزيناً، فتوجه قاصداً رسول الله ﷺ - وكان الرسول في مسجده، جاءه الأنصاري وقال له: يا رسول الله، سمرة هذا له نخلة في بستانني وهو يدخل عليّ عنوة من دون أن يطرق الباب ومن دون أن يعلي صوته ويعلمنا بقدومه. التفت الرسول إلى سمرة وخاطبه قائلاً: لك الحق في دخول البستان لأنك صاحب نخلة فيه، لكن هذا صاحب بستان، ولديه عائلة مقيمة في بستانه، فليسبق دخولك عليه رفع الصوت ب: يا «الله» مثلاً أو طرق الباب لإعلامهم حتى تتنبه نساؤه وبناته فيتحجبين وتدخل.

قال سمرة: أنا لست مستعداً لأن أفعل ذلك.

- غريبٌ أمر سمرة هذا، يقف أمام الرسول بكل هذا الصلف، وبكل رعونة، فلنلاحظ - أيها الأخوة كيف يكون سلوك الإنسان المنقطع عن الله.

قال الرسول: حسناً. إذا كنت غير مستعدٍ لذلك، بَعُ نخلتك.

أجاب سمرة: لا أبيع نخلتي.

قال الرسول: بعها إذن بخمسة أضعاف سعرها.

قال: لا أفعل.

قال الرسول: خذ ألف دينار وبيع نخلتك.

قال: لا أبيعها.

قال له الرسول: إذن، اشترِ بستانه.

قال: لا أشتري.

عندها قال الرسول: لا ضرر ولا ضرار.. أيها الأنصاري اذهب واقطع نخلة سمرة وارم بها في قارعة الطريق. فالحرية ضرورية، وهي موجودة ومكفولة في الإسلام، والحقوق هي كذلك أيضاً، لكن هذا لا

يكون على حساب الآخرين. فالإسلام ليس ديناً مقفلاً، الإسلام دينٌ فُطِنَ، هو دين الفطنة والذكاء والإنسانية الحقّة والتوجه السليم ورجاحة العقل وسمرة ذاك، هو، في الحقيقة، بعيد عن التوفيق، لأن رسول الله قال له حين كان يحاوره: اعط نخلتك للانصاري وأنا أضمن لك نخلة في الجنة، فرفض ذلك قائلاً: لا أريد نخلةً في الجنة!!

لاحظ كيف يكون تعيس الحظ، المنكود، إنه كمثل سمرة بن جندب وأمثاله.

﴿إن الإنسان خلق هلوعاً. إذا مسّه الشرّ جزوعاً وإذا مسّه الخير منوعاً. إلّا المصلين﴾^(١).

أما حال المؤمن فمختلف تماماً ومغاير لحال سمرة وأمثاله. فللمؤمن توجه إلى الله وله مكانة عالية عند رب العالمين.

إذن لا ضرر ولا ضرار في الإسلام أبداً.

وبالعودة إلى مسألة العلم والإيمان نقول إن الإسلام يسأل العالم: أيها العالم هل في علمك نفع للآخرين وخدمة لهم أم لا؟ لأن أهم شيء من وجهة نظر الإسلام، هو خدمة الناس ونفعهم ورعاية مصالحهم.

﴿وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾^(٢).

فالعالم المؤمن، الذي يخشى الله يكون مثله كمثل الذين عنتهم الآية ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾^(٣) أما من عصى الله فإنه ينطبق عليه قول الشاعر:

(١) سورة المعارج؛ الآيات: ١٩ - ٢٠ - ٢١ - ٢٢.

(٢) سورة الرعد؛ الآية: ١٧.

(٣) سورة فاطر؛ الآية: ٢٨.

لو كان في العلم من دون التقوى شرف
لكان أشرف خلق الله إبليس

فالعلم يحتاج إلى الإيمان والتقوى، لأن العالم يكون موضع ثقة
الناس الذين يحيطون به، فهم يثقون بكلامه، فإذا لم يكن على علاقة
متصلة بالله فهو يتحول إلى أتون ملتهب، وجحيم يحرق الأخضر واليابس.

بعض مواقف الإمام الباقر عليه السلام

في زمن الإمام الباقر - صلوات الله وسلامه عليه - كُتِبَت الأفواه،
وحُصِر العلم، وقُتِنَ الكلام بحدود ما يخدم السلطة الحاكمة. فنهض الباقر
بمهمة العلم وكان المؤسس للجامعة الإسلامية، ووضع ركائز الجامعة
العلمية، التي انطلقت بها من بعده ولده الإمام جعفر الصادق - سلام الله
عليهما - هذه الجامعة التي سطع نورها في أرجاء العالم، في وقت كانت لا
تزال فيه أوروبا غارقة في غياهب ظلمات الجهل، يوم كانت الكنيسة تعاقب
العلماء وتعذب كل من يتجرأ منهم على إعلان نظرية علمية جديدة.
والشواهد كثيرة على ما نقول. غاليليو عُدَّب وأُعدم بسبب إعلانه أن الأرض
ليست ثابتة، كما كان يسود الاعتقاد آنذاك، بل إنها تدور حول الشمس
وحول نفسها. والآلاف من العلماء لقوا المصير ذاته الذي لقيه غاليليو. في
حين نرى الإسلام يرفع من مكانة العالم، والله سبحانه وتعالى يضع العالم
الذي يقرن علمه بالإيمان في مرتبة أعلى من مرتبة الملائكة، كما أن العلم
لدينا - نحن المسلمين - فريضة على كل واحد منا، على كل مسلم ومسلمة
«اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد».

﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾^(١).

فهذا الموقف، موقف الإسلام، وموقف رسول الله ﷺ شكّل دعماً

(١) سورة الزمر؛ الآية: ١٨.

قوياً ومستمراً للعلم وللعلماء .

في زمن الباقر - سلام الله عليه - كان العلم خافت الصوت، لا بل إن ما كان مسموحاً به منه كان منحرفاً . فالحاكم - آنذاك - أموي ظالم، يخشى العلم ويخاف من انتشاره بين الناس وهذا موقف الظالمين عامة، ولهذا فإنكم تلاحظون تركيز وسائل الإعلام في العالم - اليوم - على اللهو والغناء وتجاهله العلم، بغية تجهيل الجماهير ومن أجل الإبقاء على الجهل، لتعزز بذلك قدرة الخونة على السيطرة على مقاليد أمور الناس .

لكن هذه الخطط لا تنطلي على أهل البيت - سلام الله عليهم - ولهذا فقد اندفع الإمام الباقر لدفع المحنة عن العالم الإسلامي، واعتبر بذلك أول من أنقذ العالم الإسلامي من محنة كبرى . وسوف نرى لاحقاً ما قام به من أجل إنقاذ العالم الإسلامي .

عاصر الإمام الباقر من ملوك بني أمية، عبد الملك بن مروان، وأبناءه الذين خلفوه في الحكم وصولاً إلى عمر بن عبد العزيز .

ولقد صرتم على بَيِّنَةٍ من الطريقة التي اعتمدها حكام بني أمية . منهجاً لحياتهم، وكيف كانوا يحيطون أنفسهم بعلماء السوء، عديمي الضمير، فاقد المبدأ، السائرين في طريق الجهل والضلال . فعبد الملك أحاط نفسه بثلة من هؤلاء العلماء وقد ظهرت في أيامه سلسلة الكذابين، الذين عملوا إلى تفتيق الكثير من الأحاديث ونسبتها إلى رسول الله ﷺ حتى كثرت الأحاديث كثرة مفرطة وبيات من الممكن، في تلك الأيام، الحصول على مئة حديث لقاء فلسين!! وإذا كنا قد خصصنا هذه الليالي للمعصومين الأربعة عشر، فذلك من أجل التعرف إلى الإسلام الصحيح، وإلى تلمس الإسلام من ثلة الطيبين هؤلاء، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، لأنك لن تجد الإسلام عند غيرهم نقياً، بل مشوهاً مَرَقاً!!

وقد زرع عبد الملك بن مروان عقيدة الجبر في نفوس عامة الشعب، وعمل على إقناع الناس بأنهم مسيرون في حياتهم، بغية شل قدراتهم على مواجهته وذلك اقتناعاً منهم بأن الله أراد لهم أن يكون عبد الملك - لا سواه - هو الحاكم عليهم، وبالتالي فليس عليهم سوى التسليم والقبول لأن تلك هي إرادة الله. هذه العقيدة المزيفة، ركّز الأمويون جميعاً تركيزاً شديداً على تثبيتها في نفوس الناس. وكانوا يعودون إليها في كل مناسبة، فيزيد بن معاوية كان يضع رأس الحسين - عليه السلام - بين يديه ويضربه بالسوط ويردد:

﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾^(١) فقد كان يردد الآية الكريمة في محالة منه للإيهام بأن الله شاء له أن يكون ملكاً وشاء للحسين أن يُقتل !!.

وعقيدة الجبر هذه - لا تزال إلى يومنا هذا - عقيدة الكثيرين من البشر. فلو سألت واحداً من تاركي الصلاة، لماذا لا تصلي؟ فإنه يجيبك: لو كان الله يريدني أن أكون من المصلين، لكنت واحداً منهم، لكن الله لا يريد لي ذلك، ولذا فإنه لم يوفقني للصلاة.

عجيبُ أمر هذا الإنسان!!

الله لم يوفقه للصلاة!! ترى هل بين الله وبينك عداً يا هذا؟؟ أولم يهبك الله عقلاً وفطرة وهدى؟ أولم يبعث إليك بمئة وأربعة وعشرين ألف نبي؟ أولم يحذرك من الشيطان ومن الشهوات؟ فكيف - بعد هذا كله - تقول بأن الله لم يوفقك للصلاة؟؟

عقيدة الجبر، وهي من مخلفات الأمويين لا تزال كما تلاحظون - قائمة حتى يومنا هذا، وجميع الظالمين يعملون جاهدين على

(١) سورة آل عمران؛ الآية ٢٦.

إحيائها وتعميمها من أجل شلّ قدرة المظلومين على الوقوف في وجه ظالمهم. ولكي أدلل على وجودها - حتى يومنا هذا - فإني سوف أعرض لبعض الشواهد والأدلة.

سمعت. ولا شك بالأبراج. وبعضكم شاهد صفحة الأبراج في هذه الصحيفة أو تلك وفي هذه المجلة أو تلك.

ما برجك؟ - برج الدلو (سلام الله على الدلو)!!

وأنت من مواليد أي برج؟ - برج الثور

وهذا من مواليد برج الأسد، أما ذاك فبرجه العقرب (أعانا الله على العقرب وحمانا من لسعته).

ما الذي تعنيه هذه الأبراج؟ وماذا يعني أن يشتري شخص ما جريدة ليقراً برجه صبيحة كل يوم؟!!

ماذا يقول لك برجك اليوم؟ - رسالة عاطفية هي في طريقها إليك!! وأنت بماذا ينبئك برجك؟ - الأجواء الداخلية مؤاتيه. (انتهاز الفرصة هناك أفلام تجارية لا تفوت الفرصة) وبعد هذا يخبرك البرج أنك تتوافق مع برج الأسد، ويصدق مولود هذا البرج ما يقال له فينتظر برج الأسد!!

وهكذا فإن برج الأسد وبرج العقرب، يسيران هذا الإنسان (العظيم) من الصباح إلى المساء!! أو تنتظر هذه الجريدة أو تلك لتسيرنا؛ أم إن رب العالمين هو الذي يسيرنا؟ وأين دور القرآن إذا؟ أين مناهج الأنبياء؟ وأين الإيمان؟ وأين الإرادة؟ فلماذا يفكر الإنسان على هذا النحو وبهذه الطريقة؟ أليس هذا التفكير هو نتاج عقيدة الجبر؟ فهل أدركم - الآن - ما عنيته بقولي إن هذه الآراء والعقائد هي ترسبات لسياسة الأميين؟

إنها ترسبات سياسة الخيانة والظلم من أجل شلّ قوى الإنسان وتفكيره، حتى يبقى عاجزاً عن التفكير والتقدم نحو الأفضل.

والبعض من الناس لديهم عقائد عجيبة من مثل اعتقاد الناس بالأبراج
وصدقوني، إن قلت لكم إن اطلاعي على مشاكل الناس، كشف لي عن
الكثير من الاعتقادات الباطلة، التي تسير عدداً من البشر. وإني أسأل الله
أن يحل مشاكل الناس، بحق محمد وآله الطاهرين، فهل تصدقون، مثلاً،
إن بعض المشاكل التي تحصل بين الزوجين، والتي يصل بعضها إلى حدّ
الصراع فيما بينهما، إنما تعود إلى اعتقاد البعض بالأبراج؟

الكثير من الناس، يتصلون بي هاتفياً، وبعضهم يأتي لزيارتي، ثم
يعرضون مشاكلهم أمامي سعيّاً لحلّها. وأسأل هؤلاء ما سبب الصراع؟
ولماذا يحتلم الجدال بينكما- بين الزوج وزوجته؟ أوتدرون بماذا كان
يجبني بعضهم؟ - يقول: شيخنا، إن برج زوجتي لا يوافق برجي. صدّقوني
إن هذا البلاء قائم وموجود.

أسأل هذا الرجل: ما معنى هذا الكلام؟ وكيف أن برجها لا يوافق
برجك؟ فيجيني: في الحقيقة، هي من مواليد برج العقرب، وأنا من
مواليد برج الثور. فالبرجان متباعدان، وكيف يمكن لمولود برج الثور أن
يقف مع مولود برج العقرب؟

يسكت الزوج، وأبقى أنا في حيرة من أمري.

الزوج مثقف، والزوجة المسكينة واثقة من صحة ما تعتقده، والأطفال
المساكين يدفعون الثمن.

انتظرت قليلاً ثم خاطبت الزوج قائلاً: أنتظر الجريدة أو المجلة
لتخبرك إن كان هناك توافق بينك وبين زوجتك؟ ووجهت بعد ذلك حديثي
إلى الزوجين معاً: أوتعلمان ما هو برجكما؟ قالوا: لا. - قلت: برجكما هو
القرآن الكريم. فالله - سبحانه وتعالى - يقول ﴿ومن آياته أن خلق لكم من
أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجمل بينكم مودة ورحمة﴾^(١).

(١) سورة الروم؛ الآية: ٢١.

فالمودة والرحمة موجودتان . وما لنا وللأبراج؟ التفتوا إلى بيوتكم وإلى أطفالكم واعتنوا بتربية هؤلاء الأطفال .

حين سئل الإمام الحسين عن سبب اصطحابه لنسائه وبناته وأخواته إلى العراق أجاب - سلام الله عليه - : « شاء الله أن يراني قتيلاً وأن يراهن سبائياً » فمشيئة الله هنا، مختلفة عن مشيئته كما يراها الحاكم الظالم من مثل يزيد بن معاوية . مشيئة الله لا تتحقق إلا بإرادة أبي عبد الله الحسين، لأنه يجب أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وأن يضحى من أجل الحق، ومن أجل إعلاء كلمة الله، ومن أجل توضيح الإسلام الصحيح للناس .

فالجبرية كانت إذن متفشية في زمن الإمام الباقر، وكان علماء ذاك الزمان يشيعون بين الناس أن الإنسان مسير لا مخير . وحقيقة الأمر أن الإنسان عندما يمعن النظر فإنه سوف يجد نفسه مخيراً في أمور عديدة، ومسيراً في أمور أخرى غيرها . ففيما يخص لون بشرته وطوله وعرضه ودولاب الأجهزة في بدنه هو مسير لا يملك خيار تغيير أيٍّ منها . لكنه حرٌّ مخيرٌ في اختيار طريقه في الحياة واختيار النهج الذي يسلكه، إذ لو كان الإنسان مسيراً فلماذا يبعث الله الأنبياء؟ ولو كان الإنسان مسيراً مجبراً على أفعاله، فأَيُّ معنى يكون لكل الأوامر والنواهي التي اشتمل عليها القرآن وضَمَّها بين دفتيه؟ فالقرآن حافل من بدايته حتى نهايته بأوامر ونواهي من مثل: افعل، ولا تفعل، « أقم الصلاة » « آتِ الزكاة »، إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر، فما معنى ذلك كله؟ - معناه أنك مخيرٌ .

أمامك فانظر أي نهجين تنهج طريقان شتى : مستقيم وأعوج

الإمام الباقر - صلوات الله وسلامه عليه - ركّز على هذا الجانب وبدأ بنشر العلم، العلم المضيء المشرق، الذي صوّره أحد الأدباء قائلاً: « ولو

صُورُ الجَهِلِ لأضواءِ معه الليل، ولو صُورَ العلمُ لأظلمت معه الشمسُ».
وفحوى هذا القول أن الجهل أكثر ظلمة من الليل وأن العلم أكثر ضياءً وإشراقاً من الشمس.

انطلق الإمام الباقر في حركة التعليم، من أجل حفظ التراث الإسلامي، والفكر الإسلامي، مستفيداً من الفرصة السانحة التي لم تتح لسواه من الأئمة، ما عدا ولده جعفر الصادق وسلفهما الإمام زين العابدين - سلام الله عليهم أجمعين -. وهذه الفرصة السانحة التي حظي بها الإمامان الباقر والصادق، هي معاصرتهم لسقوط الدولة الأموية التي بدأت ترنح تحت ضربات الإمام الحسين بن علي، إلى أن سقطت أخيراً وقامت على أنقاضها دولة أخرى باسم الحسين وأهل البيت! لكن هذه الدولة الثانية، لم تكن سوى الدولة العباسية - دولة الخونة - حيث كان شعارهم (الحكم للرضا من آل محمد) ستاراً تختفي تحته نواياهم الخبيثة. وقد كانت الفترة الممتدة ما بين سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، فترة سانحة للإمامين الباقر والصادق من أجل إعداد العلماء الذين سيتولون مهمة القضاء على موجة الجهل الطاغية:

وهكذا فقد بدأت جامعة الإمام الباقر تستقطب العلماء، وقد تحرك الآلاف من هؤلاء باتجاه مركز حركة التعليم، باتجاه الإمام الباقر عليه السلام. فبرز منهم كثيرون من أمثال، إبان بن تغلب، وأبو بصير، والفضل بن يسار، وزرارة بن أعين، ومؤمن الطاق، هؤلاء الأبطال، الذين لو درس شبابنا سيرة حياتهم، ولو عرضت لتلك السيرة أفلام سينمائية تبين مدى تضحياتهم في سبيل الإسلام والقرآن، وسنة النبي، لكنا الآن بألف خير.

انتشر هؤلاء العلماء في العالم، وأخذ كلُّ منهم يذيع ما تلقاه عن الإمام الباقر عليه السلام وينقل الأحبار عن الإمام. وكان الإمام الباقر أحسن أهل زمانه هيئة، كان إذا جلس في مجلسٍ التفت أكابر العلماء حوله، أو كما

يقول الفضل بن يسار: جلسوا بين يديه كما تجلس العصافير الصغيرة، إجلالاً لهيئته وقوة حجته.

وقد تخرّج من جامعة الباقر علماء أعلام، ما طُرِح سؤال على واحدٍ منهم إلا وأجاب عنه بأسرع من البرق، والإمام الباقر نفسه، بأبي وأمي أنت يا إمام - ما اعتذريوماً عن الإجابة عن سؤال أبداً. وأذكر - ها هنا - أن أحد المنحرفين أراد أن يخرج الإمام فقال: يا ابن رسول الله، لديّ سؤال، أيمكنك أن تجيبني عنه؟ قال: تفضل هات ما عندك. قال: لديّ - في الواقع - عدة أسئلة، وإنّي لأخشى أن لا يسمح الوقت بطرحها كلها أو أن تتلكأ في الإجابة!! (لم يدِر أنه باقر العلوم).

فقال له الإمام: تفضل الآن لتنظر في أسئلتك.

- قال: حدّثني عن أخوين ولدا في يوم واحد، وماتا في يوم واحد، فكان عمر أحدهما خمسين عاماً وعمر الآخر مئة وخمسين! فردّ الإمام على الفور: هما عُزَيْر وعُزَيْرَة. منهما توأمان ولدا في يوم واحد، وعندما بلغا الخامسة والعشرين مرّ عُزَيْر - وكان على ظهر حماره - على قرية انقلبت إلى مقبرة فقال: ﴿أَتَى يَحْيَى هَذِهِ اللَّهِ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾^(١) ثم بعثه فيكون عمره إذ ذاك مئة وخمسة وعشرين عاماً، لكنه لا يزال شاباً في الخامسة والعشرين، رجع إلى منزل أخيه وطرق الباب فخرج أخوه وكان عمره مئة وخمسة وعشرين عاماً. وعاش الأخوان بعد ذلك خمسة وعشرين عاماً، ثم ماتا - إثر حادث - في يوم واحد. فكان عُزَيْر في الخمسين من عمره في حين أن أخاه قد أتمّ المئة والخمسين عاماً.

وهذا السؤال - كما تلاحظون - لغير أراد به صاحبه أن يختبر الإمام.

بعد ذلك قال له الإمام: أَعْنَدُكَ شَيْءٌ آخَرُ؟

(١) سورة البقرة؛ الآية: ٢٥٩.

قال: نعم لديّ سؤال ثان!

- قال فما سؤالك؟

- قال من هو الرسول الذي أرسله الله ولم يكن من الإنس ولا من الجنّ ولا من الملائكة؟

فقال الإمام: هو الغراب الذي بعثه الله ليعلم قابيل كيف يوارى سوء أخيه.

﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يوارى سوء أخيه﴾^(١) فهذا الغراب هو الرسول من الله ولم يكن من الجن ولا من الإنس ولا من الملائكة.

عندها قال السائل موجهاً كلامه إلى الإمام: إليك السؤال الثالث: من هو النذير الذي خاطب قومه وأنذرهم ولم يكن من الإنس ولا من الجن ولا من الملائكة؟ فقال الإمام: هذا النذير هو النملة التي كلمت قومها وقالت: ﴿يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾^(٢).

فهل بقيت لديك أسئلة أخرى؟

- قال: والله أنا خجلٌ منك، لكن بقي لديّ سؤال أخير.. قال: تفضل، قل ما هو؟

- قال ما هي الصلاة التي تؤدي من دون وضوء، مع أنها صلاة مفروضة؟ ومن هو الصائم الذي صام دون أن يمتنع عن الطعام أو الشراب؟ فقال الإمام: أمّا الصلاة التي تؤدي من دون وضوء، وهي مفروضة،

(١) سورة المائدة؛ الآية: ٣١.

(٢) سورة النمل؛ الآية: ١٨.

فهي الصلاة على محمد وعلى آل محمد - صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين - وأما الصائم الذي صام ولم يمتنع عن الطعام ولا عن الشراب فمريم العذراء. قالت: ﴿إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً﴾^(١).

عندها تنحى هذا السائل جانباً وهو يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته.

فجهايلذة العلم والفكر كانوا يحيطون بالإمام وكانت الأسئلة تنهال عليه بغزارة، وكانت الإجابات تنطلق منه بسهولة ويسر.

أما عن موقف الإمام من الملوك فإننا سنعرض له من خلال موقفين له مع اثنين من ملوك بني أمية، أما الموقف الأول فقد كان مع عبد الملك بن مروان في حين كان الثاني مع عمر بن عبد العزيز.

وعمر بن عبد العزيز هو الذي ألغى شتم علي بن أبي طالب من على منابر بني أمية. وهذا التدبير اتخذ في زمن الإمام الباقر - صلوات الله وسلامه عليه -

كتب عمر بن عبد العزيز - يوماً رسالة للإمام الباقر يقول فيها: يا ابن رسول الله أوصني، عظمي، فانا أحب أن أسير على الطريق القويم. فكتب له الإمام: (أوصيك بتقوى الله وأن تتخذ صغير المسلمين ولداً وأوسطهم أخاً، وكبيرهم أباً. فارحم ولدك، وصيل أخاك، وبرّ أباك، وإذا صنعت معروفاً فربّه).

هذه الرسالة هي رسالة إلى كل الحكام، لا لعمر بن عبد العزيز وحده، أيها الحاكم انظر للشعب، انظر للجماهير، فالصغير منهم ابنك فارحمه، وأوسطهم أخوك، فصيل أخاك ولا تقطعه، وكبيرهم والدك فبر أباك،

(١) سورة مريم؛ الآية: ٢٦.

وإذا صنعت معروفاً اصنع غيره واجعله ينمو ويكثر. وليكن سيرك على هذا الطريق لأنه طريق العدل والحق، ولذا فإنه هو الطريق القويم.

ونأتي إلى موقف الإمام مع عبد الملك بن مروان. لقد حدثت في أيام عبد الملك بن مروان حادثة يذكرها المؤرخون، لكنهم يبتعدون عن الخوض في معانيها؟!

تعلمون أن ثمة عملة اليوم هي فوق العملات جميعاً، وهذه العملة هي الدولار. وفي زمن الباقر كانت العملة هي الدولار أيضاً. كيف؟ المسألة بسيطة للغاية، فالعملة المتداولة كانت عملة الروم وقد طبعت عليها صورة ملكهم، وكانت الكتابة على تلك العملة باللغة الرومانية. وكان العالم الإسلامي يتعامل بها، على الرغم من أن أمير المؤمنين كان قد ضرب سكة معينة في الكوفة، هي الدينار والدرهم، لكن الدولة الأموية، بسبب افتراضها للمناهج الاقتصادية لأهل البيت، منعت التعامل بالدرهم والدينار وفضلت التعامل بعملة الأجنبي. ومعلوم أن التعامل بعملة الأجنبي يقيد الإنسان، ويجعله معتمداً كلياً على هذا الأجنبي، كما أن كل خيارات هذا الإنسان تصبح بين يدي الأجنبي.

إذن كانت العملة في أيام الباقر هي العملة الرومانية، وحدث أن أرسل ملك الروم رسالة إلى عبد الملك بن مروان يطلب إليه فيها أن يقوم بتنازلات معينة تتعلق بأراضي المسلمين ليضمها ملك الروم إلى دولته. ولما رفض عبد الملك هذا الطلب، هدده ملك الروم بقطع العملة الرومانية عن بلاد المسلمين لا بل إنه سوف يعتمد إلى تسويق عملة جديدة في بلاد المسلمين ويكتب عليها شتماً لرسول الله، ما لم يذعن عبد الملك لطلب ملك الروم.

ووقع عبد الملك في حيرة من أمره، ولم يجد حلاً لهذه المعضلة ولا سبيلاً للخلاص من هذه الورطة، فالإقتصاد الإسلامي كله في مأزق، لا بل

إنه مهدد بالانهيار في حال نفذ ملك الروم تهديداته بقطع العملة عن بلاد المسلمين. وانقضت أيام وليالٍ وعبد الملك يقلب الأمر على وجوهه فلا يهتدي إلى المخرج - إلى أن أشار عليه بعض أعوانه بضرورة اللجوء إلى الإمام الباقر قائلين: أين أنت من محمد بن علي الباقر؟ فهو ابن رسول الله، ولا منقذ - اليوم - غيره. فإذا كان بينك وبينه عداة فالوقت الآن ليس وقت عداة.

قال عبد الملك: والله لقد أصبتم، فما لهذا المعضلة غير الإمام الباقر.

ولم يتأخر عبد الملك في الكتابة إلى واليه على المدينة طالباً إليه أن أشخص إليّ محمداً بن عليّ معززاً مكرماً فتوجه الإمام الباقر إلى الشام، وقد جاء ذكر الحادثة هذه على لسان الإمام الصادق حيث يقول: «ولقد خرجت مع أبي فجاء الشام»، فلما التقى الإمام الباقر، عبد الملك سأله: ما عندك يا عبد الملك؟ - قال: سيدي إن العالم الإسلامي كله هو الآن على كفّ عفريت، فالرومان المجرومون يهددوننا بقطع عملتهم عنا، وتسويق عملة فيها شتم لرسول الله، إن لم نستجب لطلب ملكهم بالتنازل له عن بعض بلاد المسلمين.

فما العمل؟ وكيف السبيل إلى الخلاص؟

قال الإمام: اصنع ما أمرك به -

- قال: فما هو؟ سيدي.

- قال: تأمر - على الفور - جميع عمالك، في كل الأمصار، بأن يضربوا الدينار والدرهم - السكّة الإسلامية - ويكتبوا على الوجه الأول الشهادتين (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) وعلى الوجه الآخر آية قرآنية. ثم تأمر بمنع تداول عملة الروم منعاً باتاً في العالم

الإسلامي كله .

هذه الخطوة - أيها الأخوة - هامة جداً ، ويؤسفني أن الوقت لا يسمح بالتوقف طويلاً عندها . إنها مسألة عميقة الأبعاد ، لدرجة أن بعض علماء الاقتصاد - اليوم - حين يطلعون على موقف الإمام يتعجبون من هذه المقدرة على إنقاذ العالم الإسلامي من الاستعمار ، من خلال خطوة واحدة لم تستغرق وقتاً طويلاً .

وقت قصير ، فإذا الدينار والدرهم ، بين أيدي الناس يتداولونهما بديلاً عن عملة الروم ، ويمقدور أي منا أن يرى الدينار والدرهم ، لدى زيارته إلى المتاحف ، حيث يظهر تاريخ سكّهما ، وهو تاريخ يعود إلى أيام الإمام الباقر - صلوات الله وسلامه عليه . . وسمع ملك الروم بالخبر ، وأعاد الطلب إلى عبد الملك بشأن التنازلات ، مرفقاً بالتهديد المعروف فجاءه الرد من عبد الملك : امنع عملتكم عنا لأننا قد منعنا التداول بها ، والنقود التي تحمل شعار الروم ساقطة عندنا . وعندما تيقن ملك الروم من صحة ما نقل إليه من خبر سكّ عملة إسلامية ، قال : هذا عمل لا يقدر عليه إلا أبناء الأنبياء .

تلك هي بعض مواقف الإمام الباقر ، أما حركته ونشاطه فقد وصفهما محمد بن المنكدر قائلاً :

« ما رأيت إنساناً يملك من النشاط والقوة ما يملكه محمد الباقر سلام الله عليه » .

كان يقيم في المسجد حلقات علم ، كما أنه كان يعالج مشاكل الناس ويعينهم على قضاء حوائجهم ، وصرره المثقلة بالدنانير والذهب والعتاء الوفير ، والتي كان يصل بها الناس ، متبعاً طريقة آبائه وأجداده الصالحين ، هذه الصبر معروفة وذائعة الصيت حتى قيل : « من جاءته صرة الباقر أغناه الله » سأل رجل يوماً : كيف أصبحت يا ابن رسول الله ؟

- قال: أصبحت مُطالباً بشمانية.

- قال الرجل: وما هي؟

- قال الإمام - عليه السلام -:

الله سبحانه وتعالى يطالبني بالفرائض، والرسول الأعظم محمد - ﷺ - يطالبني بالسنة؛ والعيال: بالقوت، (حتى يبين الكاذب على عياله كالمجاهد في سبيل الله)، (ويبين أن من الذنوب، ذنباً لا يكفرها إلا الهموم في طلب المعيشة).

ثم قال: وأما النفس فهي تطالبني بالشهوات، والشيطان بإتباعه.

والحافظان يطالبانني بصدق الحديث وأداء الأمانة وصدق العمل.

وملك الموت: يطالبني بالروح،

والقبر يطالبني بالجسد.

وأنا بين هذه الخصال الثمانية مطلوب.

يقول محمد بن المنكدر: رأيت الإمام الباقر، وقد خرج، ظهرراً، في المدينة ومعه غلامان يتوكأ عليهما في الطريق إلى بستانه. وكان يركل الأرض برجله، فأردت أن أعظه!! قلت والله لأذهبنَّ إليه وأعظه (عجيب أمر هذا المسكين يريد أن يعظ الإمام).

فأقبلت عليه وقلت: الله أكبر. شيخ من شيوخ بني هاشم، يخرج في هذا الوقت، على هذه الحالة، يتصبب عرقاً في طلب الدنيا؟! أو ما تخشى أن يجيئك الموت وأنت على هذه الحالة؟

فاستقام الإمام والتفت إليّ وقال: يا ابن المنكدر إنني لا أخشى أن يجيئني الموت وأنا على هذه الحالة، فأنا في طاعة من طاعات الله - سبحانه

وتعالى - أكفَّ بها نفسي عنك وعن الناس حتى لا أحتاج لك أولغيرك . ألا وإني لأخشى أن يجيئني الموت وأنا على معصية من معاصي الله فما دام في العمل طاعة وشرف فليس هذا من العيب في شيء .

قال محمد بن المنكدر: يا سبحان الله، أردت أن أعظه فوعظني .

وهكذا فإن الإمام الباقر جسد في شخصيته وفي حياته عظمة الإسلام، فهو من أي النواحي أتيته، يتكشف لك عن شخصية عظيمة، جهاداً، وتضحية، قضاءً لحوائج الناس. استمع إليه يتحدث عن الإنسان فيقول: «بش العبد يرعاك حاضراً ويأكلك غائباً» وامن الفكر في هذا الموقف من الغيبة والمغتائبين الذين إن أقبلت عليهم هرعوا ينفضون ما علق بثوبك من غبار، حتى إذا ما أدت الظهر عمدوا إلى المناشير يقطعون بها سمعتك ونهشتك ألسنتهم - وإذا كنت أذكر بالغيبة، في هذا المقام، فلأن بعض الناس لا يفتن إلى خطورة الغيبة ولا يدرك أنها أدام النار. «بش العبد يكون ذا وجهين ولسانين، يطري أخاه حاضراً ويأكله غائباً. أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه» .

لقد حفظ لنا الإمام الباقر الإسلام، والقرآن وعلومه. فقد ترك كتاباً في تفسير القرآن، هو أعظم ما أودع الله عند الناس من كتب التفسير؛ كما أنه ترك لنا علماً وفيراً في الفقه والفلسفة والأصول والأخلاق والتربية والكيمياء والطب والفلك والفيزياء والحساب والرياضيات .

وقد تخرج من جامعته علماء كبار كابن سينا والفخر الرازي وكثير غيرهما. على أن الإمام الباقر لم يرض بالعلم الجامد ولم يرض بالتدين السطحي، وما قاله: «حديث تدريه خير من ألف حديث ترويه» كما أوصى ولده الصادق قائلاً: «بني أعرف منازل أحبنا وشيعتنا علي قدر معرفتهم لرواياتنا، وأن المعرفة للرواية هي الدراية، وبالدراية للروايات يعلو المؤمن إلى أقصى الدرجات من الإيمان». فعلينا إذن أن نستوعب ونعي الأحاديث

التي نسمعها. وحين يقول الإمام إن المؤمن من يعلو إلى أقصى الدرجات بدرأيته لما يرويه، فمعنى ذلك أنك عندما تستوعب فكر أهل البيت فإن هذا الفكر يرفعك ويعلي مرتبتك.

وللإمام الباقر قول رائع إلى أبعد حدود الروعة حيث يقول: «وإن لكل منا نوراً، وإن عليه لحلاوة». أي إن في كلامنا وفكرنا نوراً، والحلاوة هي جمال التعبير. والإمام الباقر يدعو إلى إجلالة الفكر وتحريكه، ويركز كثيراً على هذه المسألة، ومما قاله: «إجلالة الفكر تستدر الرأي المشوش». وهذا الحديث، على إيجازه، هو بالغ الدلالة، أنيق العبارة، فأنت عندما تجيل فكرك فإن هذه الإجلالة تعطيك صفاء ونضارة دائمين. إذ أن العقول والقلوب تتحرك بالعلم وبخشية الله - سبحانه وتعالى. . كان - سلام الله عليه - إذا وقف للصلاة ارتعدت فرائضه، وكان يردد: «مسكينك بفنائك يا رب يا غياث المستغيثين، لا معبود سواك».

كما كان يصلي الليل كله، ويقرأ القرآن، حتى إذا قرأ آية فيها وعيد فإنه كان يرددها بانتحاب وعويل - يقول الإمام الصادق: «كنت أهىء السجادة لأبي، ولربما سجد سجدة من بعد صلاة الفجر فلا يرفع رأسه منها إلا بعد طلوع الشمس. وكان يقول: «من طال سجوده بين يدي الله - سبحانه وتعالى - أطال الله في عمره وأعطاه من الجنان ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر».

فإطالة السجود تمنح الإنسان قوة وعزيمة.

ومما قاله: «أخبروا أحبنا أن شفاعتنا لا تنسك مستخفاً بالصلاة».

هكذا كان الأئمة يوجهوننا للصلاة وللعبادة، ويوجهوننا إلى الله. على أن بعض الناس لا يصلّون إلّا في رمضان فقط، حتى إذا انقضى رمضان، انقطعوا عن أداء فريضة الصلاة، فيكون حالهم كحال من وصفه الشاعر:

صام وصلى لأمر كان يطلبه
فلما انقضى الأمر لا صلى ولا صاماً

وهذا الأمر مؤسف، أيها الأخوة، إذ أن الصلاة معراج المؤمن، وقد ثبت علمياً أن الإنسان حين يقف للصلاة فإن جسده يبعث بإشعاعات تسبب هدوءاً وسكينة في نفس هذا الإنسان.

كان الإمام نوراً ﴿نورهم يسمى بين أيديهم﴾^(١) وهذا أثر من آثار الصلاة. فالصلاة شرف للإنسان، وهي نورٌ لصاحبها، لا سيما صلاة الليل، فعليك بصلاة الليل، عليك بصلاة الليل. عليك بصلاة الليل. فإذا أنت قمت للصلاة ليلاً، فصليت ركعتين وقرأت آيات من القرآن، فذاك نورٌ بحد ذاته.

أوتعلم أن البيت الذي يُقرأ فيه القرآن، يضيء وينير لأهل السماء كما تنير النجوم لأهل الأرض؟ وإن البيت الذي تقام فيه الصلاة، ويرتفع فيه صوت القرآن، يدفع الله البلاء عنه وعن أهله، ويجلب لهم الرزق ويمنحهم الصحة والسلامة والعافية؟

هذه نبذة مختصرة عن حياة الإمام الباقر - صلوات الله وسلامه عليه - وهذه لمحة موجزة عن جهاده لإنقاذ العالم الإسلامي من المحن الكبرى التي عصفت به.

وقد قتل الإمام سنة ١١٤ هـ. قتله الوليد بن عبد الملك أو سليمان بن عبد الملك. وقد قتل بالسم، فتولى الإمام الصادق - عليه السلام - تجهيزه، ودفنه بالبقيع، وكان له من العمر يوم قتل سبعة وخمسون عاماً إذ كانت ولادته سنة سبع وخمسين للهجرة، ولهذا فإنه كان قد شهد عاشوراء مع

(١) سورة التحريم ؛ الآية : ٨ .

أطفال جدّه أبي عبد الله الحسين، حيث كان عمره آنذاك أربعة أعوام. ولقد رأى الخيل التي هجمت على خيام أبي عبد الله الحسين، وذاق الجوع والعطش، وعرف الآلام، كما أنه رُبط بالحبال، مع أطفال جده الحسين، ورأى أباه زين العابدين وقد غُلّ عنقه، لذا فقد كان الإمام الباقر شديد الحرص على إقامة مآتم العزاء على أبيه وجدّه. وكان يطلب من الشعراء الذين يغنون عليه، أن ينشدوه شعراً في جدّه الحسين. ومن بين من وفد عليه من هؤلاء الشعراء السيد الحميري، والكميت، وهذا الأخير هو صاحب القصيدة القيمة العصماء، والتي رفعته إلى أعلى عليين وجعلته من ناصري أهل البيت، والقصيدة مشهورة، وهي التي يقول في مطلعها:

من لقلب المقيم المستهام

وكان إذا وصل في الإنشاد إلى مصاب أبي عبد الله الحسين بكى الإمام الباقر بكاءً مرّاً، وارتفع صوته بالنحيب، وجرت دموعه سخيةً، حزناً على جدّه أبي عبد الله الحسين. وإقامة مآتم العزاء، نهج متّبع عند أهل البيت - فالإمام الرضا كان يطلب من دعبيل الخزاعي أن يقرأ بلحن حزين، قائلاً له: يا دعبيل، اقرأ، إنما على طريقتكم أنتم في العراق، وبلحن حزين حتى أسمع القراءة.

كما أن الإمام الباقر اهتم بدفع الناس لزيارة أبي عبد الله الحسين، وهذا ما فعله سائر الأئمة أيضاً، فلم يتوان أيّ منهم عن دفع الناس إلى هذه الزيارة، حتى في أحلك الظروف وأكثرها خطورة، ففي زمن المتوكل، لم تنقطع زيارات الناس لأبي عبد الله الحسين، رغم تشدد هذا الحاكم وتعسّفه، حيث بلغ به العسف إلى حد الأمر بأن يحرق قبر الحسين وأن تسلط المياه على القبر، وأن تقطع أيدي الزائرين، لكن كل ذلك لم يجد في منع الناس وكل ذلك بفضل الأئمة الذين لم يكفّوا عن الدعوة للقيام بهذه الزيارات. فكم هو جميل أن تذهب إلى كربلاء وأن تطوف بضرّيح

أبي عبد الله الحسين، وأن تذهب إلى مصر فتجد مسجداً للإمام الحسين وضريحاً لرأسه، كذلك الأمر هو ذاته في الشام وفي كربلاء، فهذه هي مرقد الحسين. ولقد لفتني ملاحظة ملازمة السيدة زينب للإمام الحسين. فلقد لازمته في الممات كما لازمته في الحياة. ففي كربلاء ضريح للحسين وفيها التل الزينبي. وفي القاهرة قبر للحسين، وقبر للسيدة زينب. أما الشام فقد جمعت رأس الحسين ورأس السيدة زينب أيضاً. فكاني بها تقول:

أبا عبد الله أينما تكون أكون معك.

وإذا كانت هذه هي علاقة السيدة زينب بأخيها أبي عبد الله فكم كان عظيماً وعزيزاً على قلب الحوراء زينب أن ترجع إلى كربلاء يوم عاشوراء لزيارة قبر أخيها أبي عبد الله.

ومما يروى عن الإمام الهادي أنه أرسل أحد أصحابه لزيارة قبر الإمام الحسين وقال له: اذكرني بالدعاء عند الحائر الحسيني. ولما سأله: ألسنت أنت الحائر - سيدي؟ - قال: بلى لكن الله موطن يحب أن يدعى فيها فيستجيب. ومن الأماكن المحبوبة، ضريح الحسين وقبر أبي عبد الله الحسين. وكل واحد منا يعرف مدى الانكسار الذي يحسن به الإنسان حين يقف أمام ضريح الحسين. فزيارة الأئمة هي في الحقيقة جامعة علمية، إذ إنك حين تزور الأئمة فإنك تقوم بالتسليم عليهم وعلى أرواحهم وعلى أجسامهم وعلى أجسادهم (البدن ما دامت فيه الروح فإنه جسم، فإذا خرجت منه الروح فهو جسد) لكنك حين تزور الحسين فإنك تسلم على كل عضو من أعضائه (السلام على الجسم السليب، السلام على الخد التريب، السلام على الشيب الخضيب، السلام على الثغر المقروع بالسياط...).

وهكذا، كما أن زيارة الإمام الحسين تذكركنا بمصائب الأنبياء التي تلخص كلها في مصيبة أبي عبد الله الحسين فإن الإمام الباقر كان يدفع

الناس لزيارة جدّه أبي عبد الله فزوروا أبا عبد الله الحسين، واذكرونا بالدعاء عند قبره. وأول زائري أبي عبد الله الحسين في كربلاء، هو الإمام السّجاد، وقد كانت زيارته له في اليوم الثالث عشر من المحرم. وأما الزائر الثاني فكان سليمان بن قبة، وأما الزائر الثالث فكان جابر بن عبد الله الأنصاري. وجابر هذا هو الذي بلغ الباقر رسالة رسول الله إليه، قال: «يا باقر العلوم إني أحمل أمانة لك من جدّك النبي، فقد أوصاني بأن أبلغك السلام وأقبلك بين عينيك» وكان الرسول قد خاطب جابراً وقال له: «يا جابر ستدرك ولدي محمد الباقر، اسمه اسمي، وشمائله شمائي».

(فالإمام الباقر يشبه جدّه رسول الله في الشمائل والكلام والمنطق).

جابر بن عبد الله الأنصاري، هذا العبد الصالح، ذهب لزيارة الحسين، وقد قال في وصف هذه الزيارة: وصلت إلى هناك بعد أن كنت أسير في الليل وأستكنّ في النهار - خشية العيون - وصلت وكان معي عطية العوفي، فقلت له: ألمسني القبر. ثم اغتسلت في نهر الفرات، وبعدها نثرت السعد على بدني وجئت لأحتضن حفنات تراب القبر وصحت: يا حسين، وبعدها قلت: حبيب لا يجيب حبيبه، وأنّى لك أن تجيب وقد شخبت أوداجك على أثباجك؟ وفرّق بين رأسك وبدنك؟ أشهد أنك ابن خير النبيين وابن سليل التقوى، وخامس أصحاب الكساء، وابن سيد النجباء، وابن فاطمة الزهراء.

يقول عطية العوفي: بينما نحن كذلك، وإذا بسواد قد لاح من بعيد، من ناحية الشام، فقال جابر لعبده: انطلق إلى ذاك السواد واتنا بخبره، فإن كان أحد أصحاب عمر بن سعد، سعيّا علّنا نجد ملجأً، وإن كان الإمام زين العابدين فانت حرّ لوجه الله. فمضى العبد، وما كان أسرع مجيئه وهو يقول: يا جابر قم واستقبل حرم رسول الله - قال جابر: وملك ما الذي حدث؟ قال: هذا زين العابدين قد جاء بعمّاته وأخواته. فقام جابر حاسر

الراس، حافي القدمين، فاستقبل الإمام زين العابدين. ولما وقع بصر الإمام على جابر، قال: أنت جابر؟ قال: نعم يا ابن رسول الله - فقال الإمام: يا جابر، ها هنا - والله - هتكت نساؤنا، وقتلت رجالنا، وأحرقت خيامنا. . . ثم أخذ يتحدث وإياه. فقالت له الحوراء زينب: يا ابن أخي إن كان لديك حديث مع جابر، فأخّره إلى وقت آخر. فسألها الإمام: ولماذا يا عمّة؟ قالت: يا ابن أخي. إني أخشى على النساء والأطفال أن يتساقطوا من على ظهور المحامل، فهؤلاء يريدون زيارة قبر أبيك الحسين، فدلني على القبر. ولما أوصلها إلى مكان القبر ألقت بنفسها على قبر أخيها نائحة نادبة:

بقيت الحوراء زينب على قبر أخيها الحسين، يحيط به أطفاله ويكون لبكائها، وإذا بهم يرونها وقد التفتت فجأة وأخذت تقلّب بصرها يمينا ويساراً وكأنها تبحث عن شيء ما.

فسألها الإمام السجاد: أعلم عن أي قبر تبحثين.

قالت: بلى. دلني على قبر ابن والدي، دلني على قبر أبي الفضل العباس - فسار بها حتى بلغا نهر العلقم، حيث قبر أبي الفضل العباس. إنّنا لله وإنّا إليه راجعون، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام
صوت الحضارة الإسلامية

الإمام الباقر عليه السلام صوت الحضارة الإسلامية^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آنَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ
الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابُ﴾^(٢).

مقدمة

في هذه الآية الكريمة بحث يمسّ عقيدتنا وله علاقة بأحوالنا التي
نعيشها في أيامنا هذه. وسأمهّد لهذا البحث بمقدمة قصيرة؛ فأقول بعد
الصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين: إن الله تعالى
أخرجنا إلى هذه الدنيا من بطون أمهاتنا ونحن لا نعلم شيئاً، فعقولنا عند
الولادة صفحة بيضاء كما قال سبحانه في الآية الكريمة: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ
مِنْ بَطُونٍ أُمَهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾^(٣). ولكن الله تعالى ميّز الإنسان بميزة

(١) أُلقيت هذه المحاضرة في الرابع من صفر سنة ١٤١٢ هـ.

(٢) سورة الزمر؛ الآية: ٩.

(٣) سورة النحل؛ الآية: ٧٨.

فريدة لم يكرم بها غيره من المخلوقات، فزوّده بآلات ووسائل تتيح له ملء هذه العقول البيضاء بالعلم والمعلومات كما أشار إلى ذلك سبحانه وتعالى بقوله في سورة النحل: ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾^(١). فهذه هي وسائل العلم، وهي أيضاً وسائل إدراك الإيمان؛ لأن الإنسان يولد على الفطرة كما قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه»، فأشار صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن الإنسان يولد على الفطرة الأصلية، والفطرة الأصلية هي الإسلام، ولكن أبواه يحولانه إلى دينهما، فإذا كانا يهوديين يجعلانه يهودياً، وإذا كانا نصرانيين يجعلانه نصرانياً، وإذا كانا مجوسيين يجعلانه مجوسياً؛ ولا يرجع الإنسان المولود من أبوين غير مسلمين إلى فطرته الأصلية التي هي الإسلام إلا إذا استغلّت تلك الوسائل التي أكرمه الله بها، وهي السمع والبصر والعقل؛ فإذا أرجعته هذه الوسائل إلى فطرته الأصلية كان إنساناً شكوراً، وإذا لم يحدث ذلك كان جاحداً لأنعم الله عليه.

والإنسان في تحوله من الجهل إلى العلم ومن الإيمان فطرةً إلى الإيمان اقتناعاً وبحثاً، يمرّ بمراحل متعددة وينمو خلال ذلك نمواً بطيئاً ومتدرجاً، لكن ثابتاً. فهو يبدأ نطفةً ثم مضغةً ثم علقةً (وهي أول مراحل إنسانيته) ثم جنيناً ينمو في بطن أمه، ثم يخرج إلى الدنيا طفلاً خارج بطن أمه، ثم مع مرور الزمن يصعد في العلم والتعلم حتى يصل إلى أرقى المستويات التي تؤهله أن يكون خليفة الله تعالى في أرضه؛ ولم يتأهل الإنسان ليكون خليفة ربّ العالمين في أرضه إلا لتمييزه بالعلم الذي وهبه كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما

(١) سورة النحل؛ الآية: ٧٨.

أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون^(١).

وإذا كان الإنسان يتميز عن باقي مخلوقات الله عز وجلّ بالعلم، فإن البشر أيضاً يتفاوتون فيما بينهم بالعلم؛ وأهل البيت سلام الله عليهم وهبوا علم الدنيا والآخرة، والإمام الباقر عليه السلام من بينهم سمّي كذلك لأنه بَقَر العلم بَقْرًا؛ ولم تكن مقدمتنا هذه سوى تمهيد لندخل في جامعة هذا الإمام العظيم ونقتبس من نور علمه وهدايته.

العلم لا يكمل إلا بالإيمان

يقول سبحانه وتعالى في سورة العلق: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق^(٢)﴾، فأشار إلى أن الإنسان بدأ من علق، ولم يذكر تعالى النطفة؛ لأن النطفة لا تُدرج في أدوار الإنسان حسب التسمية إلا إذا لقحت بالنطفة الأخرى، فتتحد النطفتان الذكورية والأنثوية ثم تلتحمان وتعلقان بجدار الرحم، فحينئذ تُسمّى العلقة التي هي أول دور من أدوار الإنسان.

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم﴾؛ بدأ الإنسان علقَةً، قطعة من دم، ثم صار بتعليم الله تعالى إياه إلى أن حوى علوم الدنيا، فدرس الكون وجزأ الذرة. تدرّج الإنسان علميًا كما تدرّج في خلقه، وفي الحالتين وصل إلى الكمال الذي أراده الله له. ولكن هل مجرد كون الإنسان عالمًا هو الذي يرفعه؟ فلنبحث هذه المسألة ولنذكر في سياقها كلمة أمير المؤمنين عليه السلام: «ولابن آدم فضيلتان: عقل ومنطق، فبالعقل يستفيد وبالمنطق يفيد، أي يأخذ ويعطي، فبالعقل يأخذ وبالمنطق يعطي،

(١) سورة البقرة؛ الآيات ٣١ - ٣٣.

(٢) سورة العلق؛ الآيات ١ - ٥.

ولا تكتمل هاتان الفضيلتان إلّا إذا اتّسقتا وتجانستا، ولا يحصل ذلك إلّا إذا مُزجتا بالإيمان، لأن الإيمان هو العنصر الثالث الذي يعطي للعلم مضمونه الحقيقي، فالعلم بدون الإيمان فارغ؛ والعلم بدون السعي له لا يحصل، وإذا حصل العلم فيلزمه العمل، والعمل هنا هو الإيمان نفسه الذي يعطي للعلم مضمونه كما قلنا.

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾، الله سبحانه وتعالى يقول للإنسان: ﴿اقرأ﴾، يدعوّه إلى الاستفادة من الوسائل التي زوّده بها في تحصيل العلم، ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾؛ ويقول الرسول الأعظم ﷺ: «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد»، ويقول: «اطلبوا العلم ولو في الصين». وعندما يقول النبي ﷺ: «اطلبوا العلم من المهد...» فهو يشير بذلك إلى حقيقة علمية، وهي أن الطفل منذ اليوم الأول لخروجه إلى الدنيا يكون مهيناً لاكتساب العلم وللاستيعاب؛ وهذا أمر ثابت.

إذا قوله تعالى ﴿اقرأ﴾ يشير إلى وجوب طلب العلم، أما العنصر الثاني الذي يعطي للعلم مضمونه، وهو الإيمان، فقد أشارت إليه أيضاً نفس الآية الكريمة بقوله تعالى ﴿باسم ربك﴾، يعني أن القراءة يجب أن تكون مرتكزة على ما يرضي الله تعالى.

وإذا كان العلم من دون إيمان فهو مرفوض، لأن الإيمان من دون علم إيمان ناقص؛ ولا يكتمل الأمر إلّا بالعلم والإيمان معاً، لذلك فإن عالماً واحداً أشدّ على إبليس من سبعين ألف عابد؛ لأن العالم المؤمن يعمل بعلمه فيفيد غيره بانعكاس علمه عليهم، بينما العابد الذي لا يعلم يعبد الله لنفسه فقط ولا يكون له كرامة إفادة إخوانه من المؤمنين.

الإسلام أيها الأخوة يوجب على المسلمين أن لا يحكموا على شيء ولا يتبعوا شيئاً إلّا عن علم، وهذا الأمر صريح في القرآن الكريم حيث

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾^(١)، حتى الكلمة التي ننطق بها يجب أن تركز إلى علم ولا تُطلق جزافاً. وهنا نستطيع أن نربط الآيتين لترتبط الفكرة، يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطُونَ أُمَهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ ويقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾؛ يعني أنه تعالى جعل لك السمع والبصر والفؤاد لتستفيد علماً مرضياً عند الله تعالى، فإذا لم تفعل ذلك وعطلت وظيفة هذه الآلات أو استفدت منها في حيازة علم غير مرضي، فإنها سوف تشهد عليك عند الله تعالى ساعة الحساب وتقول: «ربي! لقد استغلّني هذا الإنسان في غير ما أردت له سبحانه». لاحظوا إذاً هذا الربط بين الآيتين، فما دام الله تعالى قد أعطانا هذه الوسائل فلماذا نعطلها أو نوجهها في غير ما أريد لها؟.

ضرورة تقليد المجتهدين

فإذا ما قال بعضهم: ليس لديّ الوقت ولا الإمكانات لتلقّي العلم، فإن مشاغل الحياة تستنفد كل وقتي، ولم أوْهَلْ لأكون عالماً!، فالجواب أن أهل البيت عليهم السلام بيّنوا لنا كل شيء، وقد أمروا المسلم إذا لم يُرِدْ أو لم يستطع أن يكون عالماً فعليه أن يلازم العلماء ويأخذ عنهم؛ لأن الأخذ عن العلماء علماً بحدّ ذاته، وقد أشرنا إلى الناس وتفاوت درجاتهم في العلم، فليس كل عالم بمستوى الإمام الباقر؛ ولكن العلم درجات، فليس المطلوب من أي شخص أن يبلغ أعلى درجة من العلم؛ بل المطلوب منه أن يبذل جهده في طلب العلم، فمهما حصل عليه من العلم ولو كان مقدار حبة من خردل فهو نعمة، أما النعمة فهي الخلوّ من العلم تماماً، أو التراخي عن طلبه. فليس عليك أيها المسلم أن تستنبط كلّ أحكام دينك بنفسك، بل عليك أن تبذل جهدك، فإذا لم تستطع فعليك

(١) سورة الإسراء؛ الآية: ٣٦.

بتقليد المراجع المجتهدين ، لأنهم هم العلماء العاملون الذين يستفيدون ويفيدون غيرهم بعلمهم . ورجوعك إلى المجتهد في أمور دينك كرجوعك إلى الطبيب في أمور صحة بدنك . فكما أن أحداً لن يتفحصك إذا رجعت إلى الطبيب، فكذلك أيضاً إذا ما رجعت إلى المجتهد في أمور أهم من صحة البدن، وهي صحة الروح والعقيدة . ولكن يتفحصك الناس إذا تناولت دواءً من دون استشارة طبيب، ويتفحصونك إذا أفيتت بمسألة من دون علم؛ وهكذا الإسلام يعطي لكل ذي حقّ حقه ويضع الأمور مواضعها .

ولا شك أن الجهل هو الطامة الكبرى التي يمكن أن تصيب إنساناً ما، وأساء ما يُعت به إنسان أن يقال له: يا جاهل . والجهل غير الأمية، وكلاهما مذمومان، إلاّ الأمية بحقّ رسول الله ﷺ ، فهي له معجزة . فالأمية بالمصطلح الشائع تعني فراغ الذهن من المعلومات، أما الجهل فهو وضع الأمور في غير مواضعها المناسبة والحكم على الأشياء على غير ما هي عليه، فالذي يظن الفأرة فيلاً يسمى جاهلاً، ويكون جهله مستحكماً إذا لم يقتنع بكلام العقلاء بأن ما يراه أمامه فأرة وليس فيلاً، بل يصّر على موقفه ويقسم ألف يمين أنه كما يراه، لذلك فإن القرآن الكريم علّمنا كيف نتعامل مع الجاهلين فقال: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾^(١)، فليس على العاقل مناقشة الجاهل، ولذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ما ناقشت عاقلاً إلاّ وغلبته وما ناقشتني جاهلاً إلاّ وغلبني»؛ فالعالم لا يُفتي إلا بما يعلم، أما الجاهل فهو الذي يحكم على الأمور من دون أساس يرتكز إليه، والله تعالى يقول: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾ فيصف بذلك الجاهل أدقّ وصف؛ لأن الجاهل ليس له مرجع سوى نفسه .

تتلمذ أئمة المذاهب الأربعة على الإمام الصادق عليه السلام

فعلى العاقل إذاً أن يرجع فيما لا يعلمه إلى أهل العلم، ومن هنا

(١) سورة الفرقان؛ الآية: ٦٣ .

نرى عظمة أهل البيت وعظمة التشيع الذي فتح باب الاجتهاد على مصراعيه. ولا نريد هنا أن نجرح بالمذاهب الإسلامية الأخرى لأننا نحترمها وهي كلها مقبولة عند الله بإذنه تعالى. ولكننا نشعر أنه من الواجب علينا أن نشير هنا إلى حقيقة لا تكاد تذكر إلا على المنابر أو في المجالس الخاصة، ولا نرى لها في المدارس والجامعات ذكراً إلا من بعيد، وهذه الحقيقة هي أن أصحاب المذاهب الأربعة كانوا تلاميذاً للإمام جعفر الصادق عليه السلام.

يقول أبو حنيفة: «لولا الستان لهلك النعمان!» ويشير بذلك إلى الستين اللتين تتلمذ فيهما على الإمام الصادق. وأحمد بن حنبل ومالك والشافعي تتلمذوا أيضاً على جعفر الصادق. ويتبين بهذا أن كل المذاهب الإسلامية مُدبنة بفقهها لأهل البيت. وكلنا يعلم أن المذاهب الإسلامية لم تظهر إلا بعد القرن الثالث للهجرة، حيث أن القرن الثالث لم يكن فيه من المذاهب الفقهية إلا مذهب أهل البيت، مذهب الإمام جعفر الصادق عليه السلام، ثم ظهرت من بعده المذاهب الأخرى من حنفية وشافعية ومالكية وحنبلية. وهذه حقيقة تاريخية معروفة. ونحن بحمد الله نرى أن جميع المذاهب مقبولة عند الله تعالى، فقد قال الإمام الصادق: «الزموهم بما ألزموا به أنفسهم»، وهذه القاعدة تعني أن أي شخص من أي مذهب كان إذا طلق امرأته مثلاً طبقاً لفقه مذهب، فإن طلاقه شرعي وصحيح، وكذا أيضاً كل الأمور التي تتعلق بالأحوال الشخصية.

العالم الإسلامي قديماً وحديثاً

ومن نافل القول أن نذكر احترام أصحاب المذاهب الأربعة للإمام جعفر الصادق ولأهل البيت عموماً؛ فهذا أمر بديهي. وكيف لا يُحترم أهل البيت وهم أصل العلم ومستقره ومستودعه؟؟. ولا أبالغ إذا قلت إن فكر أهل البيت هو الذي فتح الأندلس منذ ثمانمائة سنة. اقرأوا التاريخ تروا أن

العلماء الذين دخلوا الأندلس كانوا مشبعين بفكر أهل البيت، وهذا الفكر هو الذي حول تلك البقعة إلى جنة حضارية آنذاك، حيث كان طلاب العلم يتوافدون إليها من جميع بقاع العالم؛ وفي أيامنا نرى شبابنا ينتقلون إلى أوروبا وأمريكا لطلب العلم، فقد انتهى دور الأندلس وحلّ دور الولايات المتحدة وحضارة الولايات المتحدة. وهذه والله مأساة واقعنا الذي أصبحنا عليه، العالم الإسلامي كله في أزمة، فليس الأمر هنا مجرد انتقال الحضارة من موضع إلى آخر، بل المشكلة أن العالم الإسلامي بعد أن كان في أعلى الدرجات انحطّ إلى أدنى الدركات، والانحطاط يكاد يبلغ جميع الميادين والمستويات. وليس عليكم إلا أن تقارنوا بين وضعنا في الأندلس ووضعنا اليوم. ولم يصل العالم الإسلامي إلى هذا المستوى من الانحطاط إلا بتخلّيه عن أهل البيت وعن فكر أهل البيت، فكما أنه عندما اعتنق فكر أهل البيت نظرياً وممارسةً وصل إلى قمة مجده، فإن النتيجة الحتمية لتخلّيه عن هذا الفكر هي ما نحن عليه اليوم.

فضل صلاة الليل

وبعد هذه الجولة أيها الأحبة فلنرجع إلى موضوعنا، فنقول: إن القرآن الكريم يبيّن لنا الطريق المستقيم الذي يوصلنا إلى الحق، فيرسم لنا صورة الرجل المؤمن الذي يحظى برضا الله تعالى وينال عفوه وغفرانه، فيقول: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آثَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾^(١). فهذا المؤمن من صفته أنه يجمع بين الخوف والرجاء، وهذا المؤمن يرى أن أحد أبواب نيل رحمة الله تعالى هو إقامة صلاة الليل. هذه الصلاة العظيمة التي قال فيها أمير المؤمنين عليه السلام: «والله ما تركت صلاة الليل منذ أن أخبرني عنها حبيبي رسول الله فقال لي: عليك يا عليّ

(١) سورة الزمر؛ الآية: ٩.

بصلاة الليل - ثلاث مرات - فالتفت إليه الأشعث بن قيس وقال: حتى ليلة الهرير ما تركتها يا أمير المؤمنين؟ فقال: «لا والله، حتى ليلة الهرير». وليلة الهرير كانت بصفين، وقد استمر القتال فيها حتى الصباح، وكان - بأبي هو وأمي - يقاتل ويصلي.

والله سبحانه وتعالى يبين لنبيه ﷺ أنه أرضى ما يكون على عبده إذا ما اختلى هذا العبد في جوف الليل المظلم وناجى ربه، فثبت الله النور في قلبه ثم يقول لملائكته: «يا ملائكتي انظروا إلى عبدي يناجيني في جوف الليل المظلم وقد سها البطالون ونام الغافلون... وعزتي وجلالي لاغفرن له ذنوبه ولادخلنه الجنة ولا أبالي».

ويقول رسول الله ﷺ: «ثلاثة يباهي الله سبحانه وتعالى بهم الملائكة: رجل قام يصلي في جوف الليل المظلم فسجد ونام في السجود، فيقول الله: يا ملائكتي انظروا إلى عبدي روحه عندي وجسده ساجد لي...». نعم أيها الإخوة، صلاة الليل تشعر الإنسان بالطمأنينة، وأقرب ما يكون الإنسان إلى ربه حين يناجيه في جوف الليل وقد سكن الآخرون وناموا، فحينئذ يُجاب دعاؤه وينال رحمة ربه. وأكثر الناس صلاةً في جوف الليل أهل البيت عليهم صلوات الله وسلامه، وأكثر الناس علماً أهل البيت، والإمام الباقر عليه السلام هو الذي بقر العلم بقرًا، فلنتنقل الآن إلى الكلام عليه روي فداه.

الإمام الباقر عليه السلام

دخل جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه على الإمام زين العابدين عليه السلام، فرأى الإمام الباقر عنده، فأقبل عليه جابر فأعتقه وقبل بين عينيه ثم قال له: أحمل لك يا سيدي تحية جدك رسول الله ﷺ فقد قال لي: «ستدرك يا جابر محمداً الباقر من ولدي، فأبلغه عني السلام وقبل ما بين عينيه». سمّاه رسول الله ﷺ الباقر، وهو

في الحقيقة كما ذكرنا أكثر من مرة بقر العلم بقرأ فكان رُكْن مدرسة علمية وضع قواعدها الإمام زين العابدين، ثم أرساها هو، وأطلقها ولده جعفر بن محمد الصادق في جميع أرجاء الدولة الإسلامية. فانطلقت انطلاقة مدوية في فترة حرجة من فترات التاريخ الإسلامي، وهي فترة سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية من بعدها.

ولد الإمام الباقر عليه السلام في اليوم الثالث من صفر سنة سبع وخمسين للهجرة، وقتل سنة ١١٤ عن عمر بلغ ٥٧ سنة. وهذه السن بلغها أيضاً أبوه زين العابدين وجده الحسين سلام الله عليهما. وكان الإمام الباقر يوم عاشوراء في الرابعة من عمره، فعاش مأساة كربلاء ورأى بأم عينيه النار تلتهم الخيام والسيوف تقطع رؤوس الرجال وحوافر الخيل تسحق الأطفال. وقد أسر الإمام الباقر مع من أسر من الناجين، وله موقف مشهور في مجلس يزيد؛ فعندما أدخلوا رأس الحسين عليه السلام إلى يزيد، أخذ لعنه الله يضرب بعضا كانت بين يديه الرأس الشريفة ويشتم أهل البيت. فما كان من الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام إلا أن ردّ عليه وأغلظ له في القول، فغضب يزيد ثم التفت إلى جلسائه وخاطبهم قائلاً: أشيروا عليّ ماذا أفعل بهؤلاء؟ فقالوا: ليس لهؤلاء إلا الإبادة والقتل. فهم يزيد أن يأمر بقتلهم جميعاً، فتقدّم منه محمد الباقر الذي لم يكن له من العمر سوى ٤ سنوات، وقد أضاعت هيئة الإمامة وجهه، فسأل يزيد: من هذا؟ فقالوا: محمد بن علي بن الحسين؛ فقال له يزيد: ماذا تريد أيها الغلام؟ فقال عليه السلام: لقد أشار عليك قومك بخلاف ما أشار قوم فرعون على فرعون! قال: وكيف ذلك؟ قال: عندما استشار فرعون أصحابه في موسى وهارون قالوا له: ﴿أُرجِه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين﴾^(١)، وقد أشار عليك أصحابك بقتل أهل البيت، ولا يأمر بقتل الأنبياء وأبناء الأنبياء إلا

(١) سورة الشعراء؛ الآية: ٣٦.

الأدعياء وأبناء الحرام، فهؤلاء الذين استشرتهم كلهم أدعياء وأبناء حرام، والدليل موقفهم هذا.

فصرف يزيد حينئذ نظره عن قتلهم حتى لا يقال إنه أخذ برأي الأدعياء وأبناء الحرام.

وفي زمن الإمام الباقر عليه السلام انطلقت الحركة العلمية بعد أن كانت في ركود استمر طويلاً، فكنت ترى الإمام عليه السلام يعقد مجالس العلم والمناظرات في جميع الميادين، من فقه وأدب وفلك أيضاً؛ وقد كان الباقر عليه السلام أول من لفت الأنظار إلى وجود شمس عديدة غير شمسنا هذه، فمن أقواله: «اعلموا أن وراء شمسكم هذه أربعين عين شمس، بين كل شمس وشمس أربعون سنة»، ويتحدث أيضاً عن عوالم أخرى غير عالمنا هذا، فيقول: «اعلموا أن فيها خلقاً ما عصوا الله طرفة عين، ولم يعلموا أخلق آدم أم وقد ألهموا كما ألهمت النحلة». وقد شرح السيد هبة الله الشهرستاني في كتابه «الهيئة والإسلام» بعض أقوال الإمام الباقر عليه السلام المتعلقة بالكون والعوالم والكواكب الأخرى؛ وهو كتاب جدير بالقراءة.

وصية الإمام الباقر عليه السلام لعمر بن عبد العزيز

وقد تطرق الإمام الباقر عليه السلام إلى جميع المواضيع العلمية؛ وأخذ من جميع العلوم زبدتها فكان العالم الجامع المانع الذي دعم علمه بالتقى والإيمان. عندما دخل عمر بن العزيز المدينة المنورة التقى بالإمام الباقر عليه السلام، فقال: أوصني يا ابن رسول الله! قال: «أوصيك بالمسلمين خيراً، فاتخذ كبيرهم أباً وأوسطهم أخاً وصغيرهم ولداً، فبرّ أباك وأنصف أخاك وارحم ولدك، واغفُ عمن ظلمك وصل من قطعك واحلم على من جهل عليك؛ واعلم يا عمر أن الدنيا سوق من بين الأسواق يبتاع فيها الناس الجيد والريء، فيأخذون الذي ينفعهم والذي يضرهم، وإن

بعض الناس أخذوا الذي ضرَّهم حتى فاجأهم الموت فأصبحوا عن الديار راحلين، فاحذر أن يثَّغَلَكَ الموتُ وأنت على غير ما يرضي ربَّك، ثم انظر إلى ما تحب أن تقدمه بين يدي الله عز وجل فاجعله أمامك شفيعاً لآخرتك، وانظر إلى ما تكره أن تقدمه بين يدي الله عز وجل فانبذه وارمه وراء ظهرك ثم اصنع المعروف ورَبِّه. فلم يتمالك عمر بن عبد العزيز دموعه بعد أن سمع وصية الإمام.

الإمام الباقر عليه السلام يقترح نظاماً نقلياً جديداً

وقد طبقت حكمة الباقر عليه السلام الأفاق، وقد وقعت حادثة مشهورة في أيام عبد الملك بن مروان نشير إليها هنا ونذكرها تأكيداً لما ذكرنا. ففي أيام معاوية بن أبي سفيان صدر أمر بتشريع التعامل بالعملات التي تأتي من بلاد الروم بين المسلمين، واحتجَّ معاوية على ذلك بقوله: لا فرق بين الإسلام والمسيحية، فلا داعي إذاً للتفريق بين الدينار والدرهم الإسلامي والعملة الرومية؛ واستمر الوضع هكذا إلى أيام عبد الملك بن مروان، الذي أغضب ملك الروم آنذاك بعد مشادة حصلت بينهما، فما كان من ملك الروم إلا أن أمر بضرب عملات مصكوك عليها عبارات فيها شتم للنبي ﷺ ولأهل بيته؛ وبما أن الطرق التجارية مفتوحة بين الدولتين فهذا يعني أن هذه العملة ستداول في العالم الإسلامي، وتلك كارثة إذا حصلت. فأسقط في يد عبد الملك، فجمع وزراءه ومستشاريه عليهم ينقذونه من هذه الورطة، فأشار عليه أحد وزرائه رباح بن زنبق باللجوء إلى ابن رسول الله ﷺ الإمام الباقر، قائلاً له: لن تجد الحلَّ إلا عنده. فما كان من عبد الملك إلا أن أمر جماعة من حاشيته باستدعاء الإمام الباقر إلى الشام والإتيان به معززاً مكرماً. فلما وصل عليه السلام إلى الشام استقبله عبد الملك استقبالاً حافلاً لا مثيل له؛ وبعد أن نزل الإمام شرح له عبد الملك الأمر طالباً منه أن يجد حلاً مناسباً لهذه المشكلة. فاستجاب الباقر عليه السلام ثم قال له: أريد أن ألفت

نظرك يا عبد الملك إلى أن كفّار الروم لن يستطيعوا أن ينفذوا ما نؤوا عليه، لأن الله تعالى لن يسمح بشتم النبي ﷺ وآل بيته على عملة يتداولها المسلمون؛ فهذه واحدة. ولكن سيمنعهم الله من فعل ذلك بواسطتنا، فما عليك الآن إلا أن تستمع لما سأقوله. قال عبد الملك: هات ما عندك يا ابن رسول الله! فقال له: عليك أن تجمع العمال والصّناع والصّاعة في موضع واحد في دمشق، ثم تأمرهم لتنفيذ ما سوف أشير به عليك. فوافق عبد الملك بعد أن شرح له الإمام عليه السلام نظريته العظيمة. وتتلخص هذه النظرية المالية العلمية بإصدار العملة كما صار متداولاً فيما بعد؛ يعني ضرب الدينار على فئات مختلفة: دينار واحد، وخمسة، وعشرة...، والدراهم كذلك: درهم واحد، وخمسة، وعشرة...؛ ثم يتم تثبيت هذه الفئات المختلفة بمناقب ثابتة من الذهب أو الفضة، بحيث يصبح لهذه العملة قيمة مادية محدّدة تحديداً صارماً يسمح لها بالانتشار بين الناس وكسب ثقتهم؛ وأشار عليه أيضاً بكتابة تاريخ ضرب هذه العملة بالسنة والشهر واليوم. ثم أشار عليه أن يأمر بمنع التداول بالعملة الرومية في البلاد الإسلامية ومعاينة كل من يضبط في حوزته شيء منها.

وكانت النتيجة أن انتشرت هذه العملة التي ضربها الإمام الباقر عليه السلام في جميع أنحاء العالم، وراجت في جميع الأسواق، وتداولها جميع الناس لثقتهم بقيمتها؛ وانتفت بالتالي قيمة العملة التي ضربها ملك الروم حتى إنها لم تجد سوقاً لها في بلاد الروم نفسها.

الباقر عليه السلام يجيب على بعض الأسئلة والألغاز

لم يميز الباقر عليه السلام بالعلوم المكتسبة فقط، بل ميّزه الله تعالى أيضاً بعلم لدني لا يعلمه إلاّ الأنبياء وورثة الأنبياء. فمن ذلك ما أجاب به على أسئلة بعض النصارى الذين دخلوا عليه برفقة طاوس اليماني. قال طاوس: لدى هؤلاء النصارى يا ابن رسول الله بعض الأسئلة والألغاز يرغبون

في طرحها عليك. فقال: ليسألوا ما بدا لهم يا طاوس. فبدأوا في طرح الأسئلة، فأجاب عليها جميعها أجوبة أدهشتهم بدقتها وشمولها. ثم انتقلوا بعدها إلى الألفاظ، فقال أحدهم:

سيدي! ما هي أول كذبة ومن الذي أطلقها؟

قال: أو كذبة قول إبليس: ﴿قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾^(١)، وهو لعنه الله كاذب فيها لأنه غير مسلم ولا معروف أن النار خير ما الطين.

فسأله آخر: ما هو الطائر الذي طار مرة واحدة ولم يطر بعدها أبداً؟
قال: ذلك طور سيناء، نتقه الله تعالى فوق بني إسرائيل كأنه ظلة، ثم عاد فأرساه مكانه^(٢).

ثم سئل عليه السلام: من هو الرسول الذي بعثه الله تعالى ليس من الملائكة ولا من الإنس ولا من الجن؟

قال: ذلك الغراب الذي بعثه إلى قابيل ﴿يبحث في الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه﴾^(٣).

وسئل: والذي أنذر قومه وليس من الملائكة ولا من الإنس ولا من الجن؟

قال: هي النملة التي قالت: ﴿يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾^(٤).

(١) سورة ص؛ الآية: ٧٦.

(٢) يشير الإمام عليه السلام إلى قوله تعالى في الآية ١٧١ من سورة الأعراف: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة﴾.

(٣) سورة المائدة؛ الآية: ٣١.

(٤) سورة النمل؛ الآية: ١٨.

فستل: والذي اتهم وهو بريء فكذب عليه وهو ليس من الملائكة ولا
الإنس ولا الجن؟

قال: الذئب الذي اتهمه إخوة يوسف عليه السلام بأكل يوسف.

ثم تابعت الألباز على هذا النمط والإمام عليه السلام يجيب عليها
بسرعة خاطر من دون تفكير أو روية. ثم طلب منهم أن يغيروا نوع الأسئلة
من الألباز إلى ما ينير الفكر ويهدي العقل وينشئ الأمم. فأخذت الأسئلة
تنصبّ عليه من كل جانب وهو يجيب عليها إجابات محكمة أدهشت جميع
الحاضرين؛ وكان عليه السلام محاطاً في مجلسه ذاك بمجموعة كبيرة من
تلامذته، من بينهم أبان بن تغلب ووزارة بن أعين وأبو حنيفة ومالك بن أنس
والأوزاعي وغيرهم.

الباقر عليه السلام يعظ محمد بن المنكدر

يقول محمد بن المنكدر: رأيت الإمام محمداً الباقر عليه السلام في ظهر يوم
قائظ وهو خارج إلى بستان له، فقلت في نفسي: شيخ من شيوخ قريش
يخرج في مثل هذه الساعة! والله لأعظنه! فاقتربت منه فقلت له: شيخ في
مقامك وسنك هذه يخرج في هذه الساعة القائظة، أما تخشى أن يأتيك
الموت وأنت على هذه الحال؟ فقال: يا ابن المنكدر والله لأن يأتي الموت
وأنا في طاعة من طاعات الله أكفّ بها نفسي عنك وعن أمثالك لخير لي
من أن يأتي الموت وأنا على معصية!! يقول ابن المنكدر: فوالله ما أردت
إلا أن أعظه فوعظني.

الوقوف في وجه الظلم من الإيمان

هذا هو الباقر عليه السلام، هذا هو وارث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ورث علمه
فسمي الباقر لأنه بقر العلم بقرراً، وورث من أبيه زين العابدين عليه السلام التقى
والكلمة الحقّة في وجه السلطان الجائر، ورث منه عقد المآتم وعرض

المظلومية، وهذه والله من أعظم الأسلحة في وجوه الظالمين؛ وأنتم تلاحظون أن أحداً من المؤمنين لا يستطيع أن يمسك نفسه عن البكاء إذا ما دُكر أمامه سيد الشهداء الحسين عليه السلام، لماذا؟ لأن الظلم الذي أصابه عميق جداً، لذلك فإن كل مؤمن عندما يبكي لذكرى الحسين فإنه بذلك يتعاطف معه، والتعاطف مع ابن رسول الله فعل إيمان بحد ذاته. والتعاطف مع المظلوم كائناً من كان فعل إيمان. وأنتم في الكويت تعاطف كل مخلص معكم في محتكم، لأنكم ظلمتم؛ وهكذا فالمؤمن يتعاطف مع أخيه المظلوم في أي مكان كان، وخاصة إذا كان هذا المظلوم من شيعة علي والحسن والحسين. ينقل الإمام الباقر وصية جده أمير المؤمنين يقول: «كن للظالم خصماً وللمظلوم عوناً». والله دائماً في عون المظلوم على الظالم، وما استمر ظالم أبداً، وهذا الظلم الحاصل في العراق المسلم سينتهي إن شاء الله كما انتهى عندكم في الكويت؛ لأن الله تعالى يمهل الظالم ولا يهمله. وعندما تكون الشعوب واعية تستطيع أن تدكّ عروش المستبدّين أينما كانوا.

ولقد قلت من على نفس هذا المنبر قبل خمس سنوات إن الحرب العراقية الإيرانية هي ألعن حرب في التاريخ وهي حرب ظالمة. فما كان من بعض الحاضرين المتحمسين آنذاك إلا أن انتفضوا وأعلنوا على الملأ أن هذا الشيخ يحاول أن يضعف النفوس ويشطط الهمم، حتى إن بعضهم اتهمني بأنني معادٍ للإسلام. ولكن انظروا اليوم ماذا يحدث، فقد انتهت الحرب بعد أن دُمّرت البلدين وقضت على عشرات آلاف النفوس المسلمة بها، والنتيجة أن مستبدّ بغداد لا يزال في موقعه، ولم يكفه ذلك بل شنّ حرباً شعواء أخرى على الكويت خرج منها مهزوماً. ما أريد أن أقوله أن تلك الحرب كانت ظالمة، لأن شعب البلدين واحد، لم يشعر يوماً بالعداء عراقي تجاه إيراني أو إيراني تجاه عراقي، والدليل ما رأيتم مؤخراً بأن عيني

في طهران، فقد كانت آلاف العائلات الإيرانية تخرج من بيوتها إلى الحدود
فستقبل اللاجئين العراقيين، فيتعانق الجميع ودموعهم تجري، ثم يقدمون
لهم المأوى والحبّ والتعاطف. لم أسمع أحداً من الإيرانيين قال هؤلاء
حاربونا ثماني سنوات فليس علينا أن نستقبلهم، لا والله بل استقبلوهم
استقبالاً لا يكون إلا بين الشقيق وشقيقه؛ لماذا؟ لأنهم يعلمون أن الشعوب
لا ذنب لها، بل الذنب ذنب الأنظمة، ذنب الطاغية الأكبر في بغداد، ذنب
يزيد والحجاج، ذنب كل الحكّام الظالمين. وقد قال تعالى في كتابه
العزیز: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾.

فيا أخي المؤمن، لا تدع الطاغية يحملك أمراً لست من أهله
فيجعلك تحقد على أخيك الذي ربما يكون قد نال من الظلم أكثر مما نلت
أنت.

وأنا عندما أخاطبكم من على هذا المنبر أقوم بواجبي ورسالتي، ولا
أقوم بذلك طمعاً بجاه أو مال؛ كل ما عليّ أن أقول كلمة الحقّ، وكلمة
الحقّ هي أننا ظلّمنا في العراق. شعب بكامله ظلّم، علماؤنا ومراجعنا
ظلّموا، ومن الظلم كذلك أن تتفرّج عليهم دون أن ننس ببنت شفة. السيد
صادق القزويني قي سجون العراق، وهو يبلغ من العمر ٩٨ سنة، أكبر مرجع
وأكبر عالم وأكبر سجين سياسي في العراق؛ وعائلته منفيّة. السيد الخوئي
اعتدوا عليه بالضرب هو وأفراد عائلته. المراقدة المقدسة انتهكت، حتى إن
بعض المراسلين الأجانب قال: لم أكن أعتقد أن مقدسات الشيعة مهملة
لدرجة أن تنتهك ولا تقوم لهم قائمة. ولهذا أيها الإخوة أتحدث
إليكم اليوم وسأتحدث غداً وبعد غد؟ إن مدّ الله في عمري حتى نتحرك
ونرفع صوتنا في العالم. كيف نقف هكذا متفرجين على هذا الظلم الفادح
وفي فقهننا أن من انتهك حرمة بيتك ولو بمجرد النظر فإن رميته بحجر
وفقأت عينه لا شيء عليك ولا دية له؟! هذا فقط فيمن نظر في بيتك بدون

إذنك، فكيف بمن يتهجم عليك ويخرجك من بيتك؟ لا وجه للمقارنة هنا، ومع ذلك نرى الواقع مظلماً ولكننا لا نحرك ساكناً، وهذه ذلة أيها الإخوة، ألم تسمعوا قول سيد الشهداء: «هيهات منّا الذلة»؟.

ولا أقول لكم هذا أيها الأحبة إلا شعوراً مني بمسؤولية هذا المنبر الذي أقف عليه، لقوله تعالى: ﴿وَقَفَّوْهُمْ إِنَّهُمْ مُسْؤِلُونَ﴾^(١) فما دام في نفس يصعد وعرق ينبض سأقول كلمة الحق، وليس ما أقوله للموعظة ولكن للذكرى، والذكرى تنفع المؤمنين؛ والحمد لله رب العالمين.

إلھنا تقبل أعمالنا

(١) سورة الصافات؛ الآية: ٢٤.

في جامعة الإمام جعفر بن محمد
الصادق عليه السلام

الإمام الصادق

عليه السلام^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(٢).

في ليلة الجمعة تتجه القلوب إلى الله سبحانه وتعالى لينزل عليها الرحمة والبركة والأمن والرشد حتى يعرف الإنسان أين محط رحاله في الأرض وماذا يجب عليه أن يصنع، وإذا ألبست عليه الأمور إلى أين يتجه، ولمن يرجع. فهو هو مرجعك في الحياة، الله تبارك وتعالى الذي تتجه إليه لقضاء حوائجك وحل مشاكلك، وهو الذي يمد إليك يده فيرفعك من الكبوة والعثرة، وينقذك من الظلام والهلاك.

إنه الله تبارك وتعالى الذي لا إله إلا هو الحي القيوم. والآية المباركة التي سنشرحها اليوم تشير إلى قضية تمثل قلب القرآن الكريم. فلكل شيء ميزان، وميزان القرآن هذه الآية المباركة ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ. أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾^(٣) نعم أيها الأخوة لكل شيء ميزان، وميزانكم في

(١) أُلقيت هذه المحاضرة ليلة السابع والعشرين من المحرم سنة ١٤٠٩ هـ.

(٢) سورة النساء؛ الآية: ٥٩.

(٣) سورة الرحمن؛ الآية: ٧ و٨.

الحياة الدنيا هو ميزان العقيدة والعمل والعيش الذي يجب أن يرتبط ويوافق الميزان الذي تقوم عليه السماوات والأرض، وأي ميزان هذا؟ إنها تقوم على ميزان الحق، هذا الذي لا بد أن له وجوداً في الحياة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ فأولي الأمر هنا هم قرينة واضحة، لأن الله عندما يأمرك بطاعته وطاعة الرسول وأولي الأمر، فمعنى ذلك أن أولي الأمر في مستوى رسول الله ﷺ تقريباً، وفي مستوى إيمانه، وإلا لا يمكن لإنسان عاقل أن يقول لك أطف هذا العابد وأطف هذا الزاهد وأطف ذاك الكريم ثم يقول: أطف هذا الخمار السكير العريب، فذلك لا يتفق والمنطق إطلاقاً، فهل يمكن أن تجعل طاعة الإنسان الفاضل المؤمن التقى مع طاعة الإنسان المنحط؟

في كل كتب التفسير أولو الأمر هم أهل البيت، صلوات الله عليهم، أئمة الهدى ومصابيح الدجى، فإذا حصل بينكم نزاع أو جدال في أي أمر من أمور دينكم أو دنياكم فردوه إليهم: إلى الله (القرآن) والرسول (السنة النبوية) وأولي الأمر المتمثلين بأهل البيت. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لاحظوا الدقة في التعبير: إذا كنتم مؤمنين بالمبدأ والمعاد وكنتم تؤمنون بأن الله خالقكم وتؤمنون بيوم القيامة فارجعوا في أمور حياتكم لأهل البيت، لأن هذه هي الرحلة السليمة التي ترضي الله عنكم وتجعل رضى الله ينزل عليكم فتربحون جنات عرضها السماوات والأرض وتعيشون عيشة سعادة وهناء، فهذا طريق رسول الله وأهل بيته، ولن تجدوا أفضل من هذا الطريق في حياتكم. لذلك قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

إنه يعطيكم صورة ناصعة ودقيقة يشرح فيها الفوائد التي سيجنيها المرء إذا ما رجع إلى محمد ﷺ وأهل بيته. كما يعدد له أنواع الهلاك إذا ما ابتعد عنهم.

كلّنا يعرف أن الرسول لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا بعدما أكمل الدين وقال ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾^(١).

كَمُلَ الدين بولاية عليّ أمير المؤمنين - صلوات الله وسلامه عليه، ولكن لاحظوا أيها الأخوة، بعد وفاة النبي ﷺ نجد أن السنة النبوية تعرّضت لضغوط، إذ تجدون مثلاً أن أبا ذرّ الغفاري كان مسجوناً في بيته ممنوعاً من رواية الحديث عن رسول الله، وكذلك كان حال سعد بن معاذ، حتى قال عبد الله بن عباس خبّر الأمة. كنّا نخشى أن نتحدّث عن رسول الله لأن الشعر كان: «حسبنا كتاب الله».

هذه الأمور سادت مدّة من الزمن ولكنها توقّفت عند الإمام العظيم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، الذي لم يستطع أحد منعه عن رواية الحديث، حتى أن الخليفة الثاني عمر كان يقول: لا يفتن أحدكم وعلي في المجلس. ذلك لأن الرسول ﷺ كان يقول: علي أقضاكم بعدي، وكان يقول أيضاً: أنا مدينة العلم وعلي بابها.

وعندما وصلت الخلافة إلى علي بن أبي طالب كان هدفه الأساسي إيصال العلم والفكر والمناهج الموجودة في القرآن إلى كل أنحاء الدنيا فثارت عليه الطوائف: قامت نعرة في البصرة - أصحاب الجمل - وفتنة في الشام - أصحاب معاوية - وأخرى في النهروان - الخوارج - ذكرهم القرآن ووصفهم فهم الناكثون والقاسطون والمارقون.

تصوّروا.. ثلاثة حروب اندلعت في حكومة علي بن أبي طالب فهل كان بإمكان أي إنسان، غير علي، مهما كان عبقرياً أن يحكم طويلاً؟

لقد عالج الإمام علي هذه الفتن بحكمته المعهودة واستطاع في النهاية

(١) سورة المائدة؛ الآية: ٣.

أن يصل إلى مبتغاه في أوقات قصيرة.

فالمسألة واضحة، والحق واضح، فقد كانت الفتنة كلها بين العراق والشام حتى أن المرأة العجوز كانت تقطع طريقها من البصرة إلى الكوفة عاصمة الإسلام لترفع ظلامتها لأمر المؤمنين الذي كان يعزل هذا الحاكم وذاك الوالي ويسلم أمر العزل للمظلوم الشاكي، وهذه أمور كان يعرفها الناس آنذاك وقد ذكرها المؤرخون وأصحاب السير وقالوا إن علياً بن أبي طالب استطاع أن ينشر الفكر الإسلامي، واستطاع أن يرفع راية الإسلام عالية خفاقة، وهو الذي كان يقول: والله لو وثيت لي الوسادة لأفتيت أهل الزبور بزبورهم وأهل التوراة بتوراتهم وأهل الإنجيل بإنجيلهم وأهل الفرقان بفرقانهم ولقال كلُّ منهم لقد أفتاكم علي بن أبي طالب.

هذا الخليفة الذي كان يصعد المنبر ويقول: «سلوني قبل أن تفقدوني»، ومع هذا فقد وصلت إلينا قطرة واحدة من بحر علي بن أبي طالب ألا وهي كتاب نهج البلاغة الذي هو بحد ذاته طوفان من الفكر وأمواج متلاطمة من المبادئ. فيه مناهج الإدارة والحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع وعلم النفس وعلم الأسرة وغير ذلك كثير وكثير...

وهكذا استمرت الأمور إلى أن جاء الأمويون فاستأثروا بالحكم وظلموا وأهانوا وكفروا فغُلَّت الأيدي وسُلِبَت حرية الناس وقُيد على العلماء وحملة الفكر وامتلات السجون بالأحرار المؤمنين وأطلق العنان لأصحاب الشيطان والمنافقين والخونة والفجرة والدجالين، ويأتي دور المجرم يزيد ليقتل الحسين الشهيد ريحانة رسول الله ويسبي بنات رسول الله وأطفال النبي ﷺ، ولا يكتفي يزيد بما جنت يده في واقعة الطف بل يأمر أن يُطاف برأس الحسين في البلاد ثم تأتي جيوشه لتضرب الكعبة الشريفة بالمنجنيق، وهكذا فقد كانت هذه الفترة فترة ظلام دامس بالنسبة للمسلمين سادها الجهل في كل نواحيها، كانت تفتقر لمبادئ الإمام زين العابدين

علي بن الحسين الذي تحرك بعد والده وكذلك الإمام الباقر الذي أرسى قواعد الجامعة العلمية التي كانت تزود المسلمين بالفكر الذي كان يقوم على المبادئ السليمة التي حاربت الظلم والطغيان وعملت على تحطيم الأغلال والقيود من أيدي الناس ورفضت الذل والهوان.

وجاءت الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية وجاء دور الإمام جعفر بن محمد الصادق - صلوات الله وسلامه عليه - الذي كان يسمع ما جرى لشيعه آبائه وللمسلمين الأتقياء من حبس وتشريد وإجرام إبان حكم الأمويين، والذي علم ما حلّ بيني عمه وأهل بيته من القتل والصلب فأثر القيام بالثورة التي لم تعتمد كغيرها على السلاح بل اعتمدت على نشر الثقافة الإسلامية والدعوة إلى التحلي بالخلق الإسلامي والابتعاد عن المعاصي والمنكرات والعمل بصمت والالتزام بالمبادئ الإسلامية عملياً دون محاباة أحد على حساب الدين.

فتح الإمام الصادق جامعته لينهل منها طلبة المسلمين من كل حدب وصوب فهو كان معلماً لأبي سفيان الثوري والأوزاعي وعمر بن عبيد والحسن البصري وغيرهم كثير وكثير ممن اشتهر بالورع والتقوى والفقه، فعلم الإمام الصادق تختلف كلياً عن العلوم الأخرى، إن علمه مأخوذ كما هو معروف عن جده رسول الله ﷺ ، فالإمام الصادق يشكّل قمة الفكر الإسلامي وجامعته كانت ملتقى مشات العلوم من رياضيات إلى فيزياء وكيمياء إلى طب وهندسة وفضاء واقتصاد وسياسة وإدارة واجتماع وعلم نفس وأخلاق وتربية . . .

الإمام الصادق الذي كان يكنز العلم بكل أشكاله كان يعرف تمام المعرفة نوايا العباسيين وأهدافهم وشهوتهم إلى الحكم والتسلط ولذلك فإن دعوته كانت تتسم بالدعوة إلى نشر الفضائل بعيدة عن السياسة، حتى أنه كان يرفض الحديث بشأن الخلافة على الرغم من كثرة الوافدين يتمنون

عليه ذلك، فهذا القائد أبو سلمة الخلال يبعث بكتاب للإمام الصادق يعرض فيه موقفه ويبيّن استئثار العباسيين بالسلطة ويدعوه ليكون زعيماً وخليفة ومنقذاً، وعندما يستلم الإمام الكتاب يضعه في النار فيحترق بكامله والرسول ينظر إليه .

إن الإمام الصادق كان يعلم علم اليقين ما ستمخض عنه معارك الفئات المتصارعة على المسرح السياسي في أيامه، وهي في كل الأحوال لم تكن لصالح المسلمين، ولذلك، واعتماداً على بُعد نظره انصرف عن الخلافة والسياسة واتجه بكل ما يملك من امكانات إلى نشر تعاليم الدين الإسلامي وأحكامه عبر جامعة أهل البيت حيث نشطت الحركة العلمية فيها إلى أبعد الحدود فضمّت ما يزيد على أربعة آلاف طالب كانوا ينهلون من علومه وأحاديثه ومسائله ليؤلفوا فيما بعد كتباً عديدة فيها عُرفت بالاصول واعتمدها، كما هو معروف، الكليني والصدوق والطوسي في كتبهم المشهورة: الكافي، ومن لا يحضره الفقيه، والوافي، والاستبصار، هذا عدا ما ألفه تلاميذه من كتب قيل إنها بلغت أكثر من أربعة آلاف كتاب في شتى العلوم. هكذا كان الإمام الصادق، دائرة معارف استمدّها من إيمانه، الذي لا يحذّ وكثرة عبادته وزهده وتقاه حتى لقد قال فيه مالك بن أنس أحد أئمة المذاهب المعروفة: لقد كنت آتي جعفر بن محمد فكان كثير التبسّم فإذا ذُكر عنده النبي ﷺ تغيّر لونه، وقد اختلفت إليه زماناً فما كنت أراه إلا على إحدى ثلاث خصال: إمّا مصلياً وإمّا صائماً وإمّا يقرأ القرآن، وما رأيته يحدث عن رسول الله إلا وهو على طهارة ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العباد الزهّاد الذين يخشون الله تعالى .

إن جامعة أهل البيت التي أسسها الإمام الباقر وعمل لها ولده الإمام الصادق أكثر من ثلاثين سنة كان لها أثر كبير في التشريع الإسلامي يدلّ

على ذلك ما قاله أبو حنيفة: لولا الستان لهلك النعمان،

من مناظرات الإمام الصادق وأجوبته

ذكر المؤرخون أن الإمام الصادق كان يناظر العلماء والمتكلمين، وفي بعض الأحيان الملحدين والمعتزلة وغيرهم من الفرق الكلامية.

يقول المفضل بن عمرو دخلت على الإمام الصادق وهو بالمسجد الحرام يردّ على بعض الزنادقة والمستهزئين بالحاج ومنهم أبو شاعر الديصاني الذي سأله قائلاً: يا أبا عبد الله أفتأذن لي بالسؤال؟ فقال له الإمام الصادق: سلّ ما شئت. فقال له الديصاني: ما الدليل على وجود الله؟ في هذه الأثناء رأى الإمام طفلاً صغيراً في حضن والده ويده بيضة، أخذها منه وقال: يا ديصاني انظر إلى هذه البيضة، إنها من الخارج حصن حصين، وتحت هذا الحصن جلد رقيق، وتحت الجلد فضة ذاتبة.

وفي بطن هذه الفضة ذهب مائع ينفلق عن مثل ألوان الطواويس، لا الفضة تذوب في الذهب، ولا الذهب يذوب بالفضة، ولا ندري أخلقت للذكر أم للأنثى أتري لها خالقاً يا ديصاني؟ فاطرق الديصاني وهو يفكر طويلاً ثم قال: ليس له إلا الله.

تصوّروا أيها الأخوة، إن هذا الفرخ الصغير يقبع في البيضة أكثر من عشرين يوماً فيما نسميه البياض يتغذى من المحيج الذي نسميه صفاراً إلى أن ينتهي طعامه فينقر البيضة من أضعف مكان فيها هو يعرفه فتنفلق البيضة ويخرج منها فرخ صغير يبدأ بالتقاط الحبوب بنفسه. ترى، من الذي هداه إلى هذا؟ من الذي أوجده؟ وهل العلم الموجود حالياً قادر على صنع جناح بعوضة؟

وفي بعض المرويات أن أبا شاعر الديصاني سأله: ما الدليل على لك صانعاً؟ فقال الإمام: وجدت نفسي لا تخلو من إحدى جهتين: إمّا أن

أكون صنعتها أنا أو صنعها غيري، فإن كنت صنعتها فلا أخلو من أحد معنيين، إما أن أكون صنعتها وكانت موجودة فقد استغنيت عن صنعها، وإن كانت معدومة وإنك لتعلم أن المعدوم لا يحدث شيئاً، فقد ثبت القول الثالث أن لي صانعاً وهو ربّ العالمين، فسكت الديصاني ولم يدر ما يجيب.

وسأله أحدهم عن معنى قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾^(١) فقال استوى من كل شيء: فليس شيء أقرب إليه من شيء لم يبعد منه بعيد ولم يقرب منه قريب، ثم قال: من زعم أن الله عزّ وجل من شيء أو في شيء أو على شيء فقد كفر. فقال له السائل: فسر لي ذلك يا ابن رسول الله، فقال الإمام عليه السلام: من زعم أن الله من شيء فقد جعله محدثاً، ومن زعم أنه في شيء فقد جعله محصوراً ومن زعم أنه على شيء فقد جعله محمولاً.

ومناظرة الإمام الصادق مع أبي حنيفة مشهورة وقد أتيت على ذكرها أكثر من مرة في هذا المجلس والتي يقول فيها أبو حنيفة: أنا صاحب قياس، فإذا أفحمه الإمام يقول: أنا صاحب رأي، فإذا أفحمه يقول: أنا صاحب حدود، فإذا أفحمه يقول: أنا رجل عالم يبعث الأنبياء، وهكذا إلى أن يقول أبو حنيفة: لا أتكلم بالرأي والقياس بعد هذا اليوم، فيقول له الإمام: كلاً إن حبّ الرياسة غير تاركك كما لم يترك من كان قبلك.

ولا أريد أيها الأخوة أن أطيل حديثي في هذا الموضوع فمناظرات الإمام الصادق وأجوبته كثيرة وموجودة في بطون الكتب تستطيعون الوقوف عليها في الكتب التي تتحدث عن سيرته، وقد شملت هذه المناظرات والأجوبة شتى العلوم وهي من العلوم الشاملة التي أملاها الإمام على

(١) سورة طه؛ الآية: ٥.

مفضل بن عمرو تحت عنوان :

توحيد المفضل. وفيه الحديث عن الكون والمجرات التي تسبح الله وتقذسه، وحركة الذرة، والخلايا في بدن الإنسان، والدورة الدموية، ومراحل تكوين الجنين، وعلم الأجنة، وعلاقة الإنسان بالله وعلاقته بالحياة وبنفسه، كمثل قوله : يا مفضل إني وجدت الإنسان كله في أربع : الأول أن تعرف ربك. والثاني أن تعرف ماذا صنع بك، والثالث أن تعرف ماذا أراد منك، والرابع أن تعرف ماذا يخرجك عن دينك. لأنه في بعض الأحيان ربّما يعرف الإنسان الله ويعرف ماذا صنع به ويؤمن به، ولكنه لا يعرف ما الذي يخرج به عن دينه. فأنت في زمان آل أمية تستطيع أن تصلّي، ولكن أن تقول ليزيد بن معاوية أنت تتبع طريقاً خاطئاً. . فهذا ممنوع. في حين أن الإمام الصادق يخرج أربعة آلاف عالم ثلاثة منهم فقط قدّموا لنا أروع الكتب التي تحدثت عن أصول الدين والفكر الإمامي، فكر أهل البيت، وقد ذكرنا لكم أسماء هؤلاء العلماء وأسماء كتبهم التي تشكّل رسالة الإسلام وقواعد الأصول في الإسلام حيث لن تجد فيها حديثاً واحداً يخالف العقل أو القرآن. ولم يقتصر الأمر على هؤلاء العلماء الثلاثة وكتبهم فهناك أيضاً المثات الذين اشتهروا وذاع صيتهم منهم : محمد بن مسلم، ووزارة بن أعين، وأبو بصير، وهشام، والشيخ الطوسي الذي وضع المثلثات وقواعد الهندسة، وغيرهم كثير وكثير.

أجوبة الإمام الصادق للمنصور العباسي

بعد أن استتب الأمر للمنصور وأصبحت الدنيا طوع إرادته لم يعد يخشى غير العلويين وكان يرى في وجود الإمام جعفر الصادق خطراً عليه فحاول أكثر من مرّة أن يهلكه لكن مشيئة الله كانت تحول دون ذلك. ففي بعض المرويات أن المنصور زار المدينة فجاءته الوفود تقبل الأرض بين يديه مهتة له بالسلامة ولم يزره الإمام، فاستدعاه معاتباً قائلاً له : لِمَ لم

تغشنا كما يغشانا سائر الناس؟ فأجابه الإمام: ليس لنا من أمر الدنيا ما نخافك عليه، ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجوه منك، ولا أنت في نعمة نهتك بها، ولا في نقمة فنعزيك. فقال له المنصور: تصحبنا لتصحنا. فقال له الإمام: إن من يريد الدنيا لا ينصحك ومن يريد الآخرة لا يصحبك.

وفي كتاب حلية الأولياء أن المنصور استدعى الإمام الصادق يوماً وأجلسه إلى جانبه يحادثه بكل إجلال واحترام، فوقع الذباب على وجه المنصور ولم يزل يقع على وجهه وأنفه حتى ضجر منه المنصور، فقال: لِمَ خلق الله الذباب يا أبا عبد الله؟ فقال الصادق: ليزل به أنف الجبابة، فرجم المنصور وتغير لونه ولم يتكلم معه بما يسيء إليه كلمة واحدة.

وهناك كثير من الأحاديث التي تجزم بأن الإمام الصادق لم يكن يهادن أحداً على حساب دينه، من أجل ذلك لُقِبَ بالصادق لأنه لم يُعرف عنه الكذب قط، وأخباره مع الخلفاء من بني العباس تدلُّ على أنه كان جريئاً عليهم صداعاً بالحق. فقصة أحد ولادة المنصور الذي كان يخطب في المدينة بحضور الإمام الصادق معروفة ومشهورة، حيث نال الوالي من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فقال له الإمام بعد الانتهاء من الخطبة: أما ما قلت من خير فنحن أهله وما قلت من سوء فأنت وصاحبك أولى به ثم قال للحاضرين: ألا أنبئكم بأخف الناس ميزاناً وأبينهم خسراناً يوم القيامة، ألا وإن من أخف الناس ميزاناً وأسوأهم حالاً من باع آخرته بدنيا غيره وهو هذا الفاسق. فسكت الوالي وخرج من المسجد مذموماً مدحوراً.

الإمام الصادق الفقيه المجتهد لا يجاريه أحد في علومه واجتهاده مهما ضيقوا على نشر مبادئه. فلقد انتقل النعمان بن ثابت إلى الكوفة وبقي مالك بن أنس في المدينة واهتم المسؤولون بنشر مذهب النعمان في الكوفة والعراق ونشر مذهب مالك في المدينة، ومُنِعَت الرواية ما دام مالك في

المدينة حتى قالوا: لا يفتي أحد ومالك في المدينة. هذه ملاحظة تحتاج إلى شيء من الدقة. فقد كان مالك من تلامذة الإمام الصادق كما مر معنا، وكان يحترم الإمام وكذلك النعمان. فالمذاهب الإسلامية انبثقت من الإمام الصادق لكنها أخذت منحى آخر في الفقه والقياس والرأي والحديث. على سبيل المثال لا الحصر فالمذاهب الأربعة أغلقت باب الاجتهاد بينما فتح أهل البيت هذا الباب في الفكر الإسلامي: إنها مدرستي منطلقة من بعدي بولدي الإمام موسى بن جعفر، ومن بعده الإمام علي الرضا، وبعده الإمام الجواد، وبعده الإمام الهادي وبعده الإمام العسكري وبعده الإمام الحجة. فباب الاجتهاد مفتوح برأي أهل البيت لأن الحياة تتطور دائماً ثم لأن الإسلام أعمق مما يتصوره البعض فكلما غصت فيه أعطاك. الإمام الصادق سلام الله عليه لم يغلّق باب الاجتهاد لكنه لم يسمح بالاجتهاد في مقابل النصّ.

الإمام الصادق وأبو حنيفة

أنقل لكم أيها الأخوة بعض الروائع التي تدل على عظمة الإمام الصادق وعلى عظمة الإسلام.

دخل أبو حنيفة مرة على الإمام الصادق يريد أجوبة على بعض الأسئلة فرأى موسى بن جعفر يصلي، وكان صبيّاً، فمرّ أمامه رجل، وبقي يصلي.

فتعجّب أبو حنيفة من الأمر، ففي اعتقاده أن الصلاة باطلة في مثل هذه الحالة. وعندما روى ما شاهده للإمام الصادق وسأله عن ذلك دعا بابنه ليوضح له المسألة.

سأله الإمام: هل صحيح ما يقوله أبو حنيفة أنك صليت وفي أثناء صلاتك مرّ أمامك رجل ولم تقطع صلاتك؟

قال موسى : نعم كان ذلك .

قال الإمام : صلاتك باطلة أم مقبولة؟

قال موسى : مقبولة وصحيحة .

قال الإمام : ولم؟

قال موسى : لأن الذي كنت أصلي له كان أقرب إليّ من الرجل الذي مرّ أثناء صلاتي . ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ فكيف يسطل صلاتي رجل مرّ أمامي والذي أصلي له أقرب إليّ من حبل الوريد؟ كيف يحول بيني وبين ربّ العالمين؟

فقام الإمام الصادق وأخذ الإمام موسى وقبّله ودموعه تجري . ذرية بعضها من بعض . . . سئل ابن عباس : يا ابن عباس أنى لك هذا العلم؟ فقال : لسان سؤال وقلب عقول . أي أنا أسأل دائماً وأعقل ما أسمع من أجوبة . فهذا شأن العلماء : سؤال وجواب .

سأل أبو حنيفة الإمام موسى بن جعفر وقال : ممّن المعصية يا غلام؟ فأجابه : لا تخلو المعصية من ثلاثة أوجه ، إمّا أن تكون من الله وليس من العبد ، وإمّا أن تكون من الله ومن العبد ، وإمّا أن تكون من العبد فقط . فإذا كانت المعصية من الله ، فالله أعظم من أن يحاسب عبده البريء بذنوب لم يقتصره ، وإذا كانت المعصية من الله ومن العبد فمعناه أن الله شريك في المعصية ، والشريك القوي لا يحاسب الشريك الضعيف ، وإذا كانت المعصية من العبد - وهي منه - فإن عفا الله فبرحمته وإن حاسب فبعدله . لاحظوا هذه الإجابة أيها الأخوة .

إن الله لا يجبرنا على أعمالنا أيها الأخوة فهو أوصى لرسوله ﷺ بأنه لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين . الله أعطاك طاقة جنسية يمكن أن يصبها الإنسان في أحضان الشيطان ، ويمكن أن يتزوج ويبنى أسرة طيبة

فاضلة متماسكة، فإله أعطاك وأمدك بطاقة لتكوين الأسرة، وأعطاك طاقة لترتفع بأخلاقك إلى مراتب العليين ومصاف الأنبياء والأولياء. فالمسألة إذن تعود إلى الإنسان وحده، فإذا أراد الإنسان شيئاً ما، عليه أن يتكل على الله ويتوجه إليه والله أرحم الراحمين.

الإمام الصادق وعمرو بن عبيد

زار عمرو بن عبيد الإمام الصادق وسأله أن يعدّد له الكبائر على أن يعرفها من كتاب الله أو سنة نبيه فأجابه الإمام وقال: إن منها عقوق الوالدين، فالله تبارك وتعالى يقول: ﴿وبرأ بالديه ولم يكن جباراً عصياً﴾^(١) وقذف المحصنات، لأن الله يقول: ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم﴾^(٢).

والفرار من الزحف لأن الله يقول: ﴿ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنّم وبشّ المصير﴾^(٣).

وقتل النفس لأن الله يقول: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنّم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً﴾^(٤).

ونقض العهد وقطيعة الرحم لأن الله يقول: ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾^(٥) ومضى الإمام في تعداد الكبائر مع بيان أدلتها من

(١) سورة مريم؛ الآية: ١٤.

(٢) سورة النور؛ الآية: ٢٣.

(٣) سورة الأنفال؛ الآية: ١٦.

(٤) سورة النساء؛ الآية: ٩٣.

(٥) سورة الرعد؛ الآية: ٢٥.

الكتاب والسنة حتى أتى على آخرها وعمر بن عبيد يستمع مدهوشاً فلما انتهى الإمام قال عمرو: هلك من سلبكم تراثكم وناسزِعكم في الفضل والعلم.

فنحن آيها الأخوة بعد هذه الجولة الشِّقَّة في رحاب الإمام الصادق، وصلنا إلى خلاصة البحث وهي أنه علينا أن نتَّخذ من أهل البيت نبَراساً لحياتنا، فحرام علينا أن نعيش في مشاكل ومأسٍ ونحن نملك هذا الفكر الطاهر والتراث الخاص بأهل البيت، هذا التراث الذي بواسطته تستطيع أن تحلَّ أكثر مشاكلنا التي تواجهنا يومياً في حياتنا أخص منها بالذكر مشكلة الزواج التي بحثتها أكثر من مرَّة من على هذا المنبر. فلماذا نعاني دائماً من وجود أعداد هائلة من الفتيات والشباب الذين يبقون دون زواج؟ الإمام الصادق نفسه حيث نحن بمدرسته هذه الليلة يقول: إذا خطبكم من ترضون دينه وخلقه فزوِّجوه وإذا لم تفعلوا تكون فتنة في الأرض وفساد كبير. كيف نحفظ مجتمعاتنا من هذا الفساد أيها الأخوة؟ فهذه الغريزة الجنسية هي أقوى الغرائز في جسم الإنسان والعنْها. أين الروح الإسلامية؟ لماذا لا نشجِّع أبناءنا وفتياتنا على الزواج؟ لماذا لا نفتح مكاتب للزواج مهمتها المساعدة النقدية لمن هو عاجز عن استئجار بيت أو شرائه كي يبنى أسرة مؤمنة؟ النبي ﷺ التفت إلى هذه المسألة وأولاهها عناية، والإمام علي عليه السلام كان حريصاً على حل هذه المشكلة وقصَّته مع المستمني ومساعدته على الزواج معروفة ومشهورة، ثم نتساءل جميعاً: لماذا هذا الفحش في غلاء المهور إنها ثعابين سامة في طريق بناء الأسرة الفاضلة. علينا ألا نسال عن المهر، وعن الجنسية فالمسلمون أخوة يأخذ بعضهم بيد بعض أينما كانوا وكيفما اتجهوا.

عليكم بسيرة الإمام الصادق أيها الأخوة فهي التي تنير طريقنا وتهدينا سواء سبيلنا فهذا زيد بن علي يقول: في كل زمان رجل منا أهل البيت

يحتجّ الله به على خلقه، وحجة زماننا ابن أخي جعفر بن محمد لا يضلّ من تبعه ولا يهتدي من خالفه.

أيها الأخوة، نعود إلى القول: علينا بالقرآن فهو الأساس في كل أمورنا، منه ننطلق، وعليه نعتمد لأنه كلام الله تبارك وتعالى ولنختم هذا المجلس بكلمة للإمام الصادق حيث كنّا في رحابه هذه الليلة، يقول: خف الله كأنك تراه، وإن كنت لا تراه فإنه يراك، وإن كنت ترى أنه يراك فقد كفرت، وإن كنت تعلم أنه يراك ثم برزت بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين إليك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

**الدين والحضارة عند الإمام
الصادق عليه السلام**

الدين والحضارة

عند الإمام الصادق عليه السلام^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾^(٢).

قبل الدخول في موضوعنا ، لا بدّ من الوقوف أمام بعض الأمور المهمة ، نذكرها تباعاً .

الإنسان أيها الأخوة بتكوينه يملك حواساً مادية وأخرى معنوية . فالمادة كما نعرفها هي : البصر والشم واللمس والنظر والذوق . أما الحواس المعنوية فمنها على سبيل المثال : الروح والعقل والفطرة . . هذه الحواس هي من عجب صنع الله سبحانه وتعالى ، فقد جعل لكل حاسة محسوساً في الخارج تعمل به ويتأثر بها فينتج من ذلك تفاعل بين الحاسة والمحسوس . هذه قضية بالغة الأهمية في الفكر الإسلامي ، خصوصاً ونحن نتحدث إليكم في ليالينا هذه عن أهل البيت عليهم السلام .

حديثنا شيق هذه الليلة ، إنه حديث يتناول المدرسة الإسلامية الكبرى ، عنيت الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام . ولا بدّ قبل الدخول

(١) أُلقيت هذه المحاضرة ليلة الخامس من صفر سنة ١٤١٢ هـ .

(٢) سورة التوبة؛ الآية : ١١٩ .

في الموضوع من إعطاء بعض الأمثلة والصور التي من خلالها ستوضح الأفكار.

نحن ندرك أن حاسة البصر لها محسوس في الخارج هو الألوان. وحاسة السمع لها محسوس أيضاً في الخارج هو الأصوات. فلو لم تكن الألوان موجودة، هل يكون هناك معنى لوجود حاسة البصر؟ كلاً. ولو لم تكن الأصوات موجودة، هل يكون هناك معنى لوجود حاسة السمع؟ كلاً. نتمنى عليكم الانتباه. لنقلب القضية بالعكس. لو لم تكن حاسة البصر موجودة فهل يكون معنى لوجود الألوان؟ أيضاً كلاً. فالأعمى مثلاً لا يميز الألوان، فلماذا الألوان إذا؟.

ثم لو لم تكن حاسة السمع موجودة فهل يكون معنى لوجود الأصوات؟ أيضاً كلاً، فالأصم مثلاً لا يسمع فلماذا الأصوات؟ ماذا نستنتج من هذه المقارنة؟ الاستنتاج واضح، وهو الترابط الوثيق الموجود بين الحاسة والمحسوس. سبحان الله، هناك واسطة موجودة دائماً بين الأشياء، والدليل على ذلك الماء. فهو يتألف من الهيدروجين والأكسجين، لكن لا تنسوا أن هناك واسطة موجودة بينهما هي الشحنة الكهربائية التي بواسطتها يتكون الماء.

كذلك بين الحاسة والمحسوس هناك دائماً واسطة موجودة. فبين حاسة البصر والألوان هناك الضوء الذي لولاه لما تمكنا من رؤية الألوان، لأن الضوء هو الذي يظهر لنا الألوان. كذلك بين حاسة السمع والأصوات هناك الهواء الذي ينقل الأصوات. إلى أسماعنا فيدركها السمع.

لنلاحظ جيداً هذه الأمثلة أيها الأحبة قبل الدخول في موضوعنا الأساسي، ولننتقل فوراً من الحواس الظاهرة إلى الحواس الباطنية. عندما نقول عن إنسان إنه أعمى، هل يشكّل عماء خطراً على حياته؟ بالتأكيد لا، فربما يكون هذا الإنسان مؤمناً أشد الإيمان والحاسة التي فقدت منه

يعوّضها الله سبحانه وتعالى بحواس أخرى، وهذا معروف.

تعلمون أن عبد الله بن عفيف الأزدي كان أعمى، لكنه الوحيد الذي ردّ على ابن زياد في مجلسه من بين العشرات والمئات الذين كانوا حاضرين. هذا موقف ظهرت فيه قوة الشخصية لدى الأعمى. هذه القوة مستمدة من الله سبحانه وتعالى: وهناك أشخاص ربّما تتمّ على أيديهم المعاجز فليس غريباً أن يرّد النبي ﷺ البصر للأعمى.

إن عيسى ﷺ كان يُحيي الموتى ويرى الأكمه والأبرص ويصنع من الطين كهية الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بقدره الله تعالى. فالله قادر على كل شيء. قادر على أن يجعل الحسين ﷺ والعباس ﷺ وغيرهما من الأئمة والصالحين والأولياء يأتون بالمعاجز وقد حصل ذلك. تشاهدون وتقرأون وتسمعون أن مئات وألوف الناس يترددون يومياً إلى صحن الإمام الرضا ﷺ يتوسلون إليه شفاء مرضاهم، وتقرأون وتشاهدون وتسمعون أن الكثير منهم تماثل للشفاء. إنها معجزة حصلت وتحصل كل يوم على أيدي المؤمنين الأتقياء لأن الله أراد ذلك.

الإمام الصادق ﷺ يقول: المؤمن الفطن خير عند الله من غيره... بصيرته ثاقبة، كيّس لا تهجم عليه اللوالبس. وكان يقول: كان عمّنا العباس بن علي نافذ البصيرة صلب الإيمان. لاحظوا الربط: البصيرة والإيمان.

عندما نتحدث عن الحواس فهذا يعني أننا نتحدث عن أشياء في الظاهر، لكن عندما نتقل من المحسوس إلى المعقول فإننا ندخل في النفس الإنسانية.

عرفنا أن حاسة البصر لها محسوس هو الألوان وكذلك حاسة السمع فمحسوسها الأصوات. ويجب أن نعرف أيضاً أن في أعماقنا حواساً موجودة ولا بدّ أن يكون لها محسوسات. إن في أعماقنا أيها الأخوة محكمة اسمها

محكمة الضمير. يشعر بها كل واحد منا ويحسها والدليل البسيط على ذلك أنك إذا ضربت طفلك في البيت لسبب ما فإنك تشعر بعد لحظات بال ألم في نفسك، وقس على ذلك ما تفعله الزوجة أو الابن أو أي إنسان آخر، خاصة إذا كان في هذا الفعل أو العمل ظلم واستبداد فنشعر فوراً وكأننا في محكمة... . كان هيئة قضائية التأمت وبدأت تخاطبنا من الداخل: لماذا فعلت كذا؟ لماذا أخطأت في هذا التصرف؟ لماذا ضربت هذا الطفل... .

يجب أن نحافظ على إيماننا أيها الأخوة ونغذيه باستمرار بالفضائل والأعمال الحسنة، ويجب أن نتنبه دائماً أن الشيطان لنا بالمرصاد ينتقل بأصحاب النفوس الضعيفة من خطأ إلى خطأ ومن إثم إلى إثم ومن جريمة إلى جريمة. تشاهد امرأة بطريق الصدفة، فجأة يبدأ الشيطان عمله: يقول لك انظر إليها إنها جميلة بقّدها وعيونها. عليك من بداية الطريق أن تقطع الصلة معه فترفض ما يوسوسه لك لأن نظرة فاحصة إلى هذه المرأة ستفلك، بواسطة الشيطان، إلى الابتسامة لها، ثم إلى التحرش بها والكلام معها ثم إلى السلام فالموعد فاللقاء فهتك السر حتى يصحّ فيك قول الشاعر:

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء
الإنسان أيها الأخوة يجب أن يقطع علاقته مع الشيطان حتى لا يؤدي به إلى المهالك، لأنه أساس كل بلاء. يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾^(١).

الشيطان هو الذي يوسوس للإنسان كي يرتكب الجرائم، وأصحاب النفوس الضعيفة الخالية من الإيمان هم الذين ينقادون له، فهذا يقتل امرأة ويقطعها إرباً إرباً كي يسرق لها بعض مصاغها، تقرأون كثيراً عن مثل هذه

(١) سورة النور، الآية: ٣١.

الجرائم والحوادث في الصحف، وتسمعون أمثالها في الإذاعات، تُرى لو كان كل واحد منا مسلحاً بالإيمان والتقوى والفضيلة وغيرها من الصفات التي يتمتع بها المؤمنون الطاهرون، أيستطيع الشيطان مهما حاول من إغراءات أن يصل إلى نفوسنا ليتلاعب بها وبغيرها؟ طبعاً لا. فالمؤمنون خطّهم معروف وطرقهم معروفة، إنهم يسلكون الصراط المستقيم لأن ضمائرهم حيّة ينامون مرتاحين لا توقظهم الأحلام المزعجة التي تترأى للمجرمين بأشخاص الضحايا مؤنّبة ثائرة: لماذا قتلتي؟ لماذا سرقت مصاغي؟ لماذا حفرت لي حفرة أودت بي إلى السجن؟ لماذا حسدتي ووشيت بي حتى طُردت من عملي؟ لماذا أهملت تربيتي وتركيتي فريسة الشامتين؟ لماذا أخفيت عني القرآن ومنعتني من الذهاب إلى المسجد؟ ...

أحلام وأحلام تترأى للمذنبين والمجرمين كل ليلة فلا يشعرون بلذّة الراحة ومتعة النوم وهلدوء البال لأنهم اتبعوا غواية الشياطين فوقعوا في حباللهم يعيشون الموت وهم أحياء، ماتت ضمائرهم وماتت الحواس الداخلية في نفوسهم.

أيها الأخوة، إذا مارس الإنسان الجريمة تموت هذه التي نسميها المحكمة الموجودة في الضمير ولا يبقى منها سوى إشارات توخز الإنسان وتؤنّبه سواء أكان هذا الإنسان بسيطاً أم ذا سطوة. فهذا الحجاج بن يوسف الثقفي بعد قتله حجراً بن عدي يتفّض من النوم صائحاً: ليلى منك يا حجر طويل. وبعد قتله سعيداً بن جبير يتفّض من فراشه ويصبح مردداً قوله الشهير: ما لي ولسعيد، ما لي ولسعيد. القضية لا علاقة لها بالإيمان أو عدم الإيمان، فحواسنا الداخلية موجودة بغض النظر عن صاحبها، إذ لا بدّ من حركة فيها: ردع، إشارات مضمّنية، تأنيب، شعور بالألم أو القلق، شعور بالذنب والإثم والعار... إنها حاسة الحق، سمّوها حاسة المحبة للحق وأهل الحق، سمّوها ما شئتم، في النهاية إنها حاسة العدل الذي لا يُعلى عليه.

أنت تحب الناس الذين يحمون الحق وأهل الإيمان والعمل الصالح .
القلوب تميل إليهم ولذلك أصبحت علامة إيمانك هي حبك لأهل الإيمان
وأهل العمل الصالح ، من أجل هذا كان الإمام علي بن أبي طالب مثلاً
أعلى في الإيمان . يقول عنه النبي ﷺ : برز الإيمان كله إلى الشرك
كله . فإذا كان العمل الصالح البسيط من الإنسان المؤمن العادي يؤدي به
إلى أن يكون محبوباً من الله سبحانه وتعالى فما بالك بمن ضربة من
ضرباته وعمل واحد من أعماله يعادل الثقلين إلى يوم القيامة؟! ..

أيها الأخوة، أنا أسترسل، كما تلاحظون واستطرد بهذه الأمثلة التي
أبغى من ورائها تقريب الصورة إلى أذهانكم وطرح الأفكار بصيغ الأمثلة
التي بواسطتها نعيش الأحداث أكثر. انتبهوا لهذه القصة. يقول الأعمش،
وهو عالم من العلماء: كنت سائراً في طريقي إلى الحج فرأيت جارية كفيفة
بيدها عصا تسير بخطى بطيئة قاصدة الحج وهي تردد: اللهم إني أقسم
عليك بحق محمد وأهل بيته إلا ما رددت عليّ بصري. يقول: اقتربت من
هذه الضريبة وقلت لها: أمة الله، أي حقٍ لمحمد وأهل بيته؟ قالت: من
أنت؟ قلت: أنا الأعمش صاحب الصيت المعروف. قالت: أتغيب عن
بالك قضايا الإسلام الجوهرية؟ هل سمعت أن الله يقسم بحياة أحد غير
الحبيب المصطفى؟ قلت: وأين؟ قالت: ألم تقرأ: ﴿لعمرك إنهم لفي
سكرتهم﴾^(١) فما معنى لعمرك؟ معناها: أحياتك. أي وحياتك يا
محمد- اللهم صلّ على محمد وآل محمد- قالت: أنا أقسم بحياة محمد
المصطفى أبي الزهراء.

قال الأعمش: وتركها في الطريق فالتحقت بقافلة قاصدة الحج .
وهناك في الحج بعدما انتهينا من المناسك كلها ورجعنا فلماذا بي أرى

(١) سورة الحجر، الآية: ٧٢.

الجارية نفسها وقد أُعيد إليها نظرها، فذهلت وقلت لها: ألسنت أنت الجارية الكفيفة. قالت: نعم. قلت: وكيف حدث ذلك، كيف أُعيد لك بصرك؟ قالت: يا أعمش، كنت في القافلة عندما حدثتك عن الحبيب المصطفى وعندما انفردت عنها وصليت وتمنيت على الله بحق محمد وأهل بيته أن يعيد لي بصري، سمعت هاتفاً من السماء يقول: أحب أهل بيت محمد إليه: علي بن أبي طالب فاقسمي على الله بحق علي بن أبي طالب، لأن هذا الإمام هو حبيب المصطفى.

نقول: فقلت من أنت أيها الهاتف؟ وإذا بالصوت يأتي مرة ثانية: يا جارية، أنا الخضر خادم الإمام علي.

يقول الأعمش: كم تحيرت من شدة إيمان هذه الجارية وغزارة علمها وفكرها الثاقب.

لاحظوا أيها الأخوة ترابط الإيمان بالمعجزة. إذا القضية قضية وجود حواس في الداخل لا بد أن يكون لها شيء محسوس في الخارج. إنها المحكمة: قوة الوجدان: ﴿لَا أَقْسَمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أَقْسَمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾^(١) فما دام عندك محكمة إذا يجب أن تنتظر أنك ستعرض يوماً ما على محكمة الله الكبرى، فهيء نفسك لها منذ الآن. ألا تحس بأن شعوراً داخلياً يقول لك: يا ابن آدم لا تنس أن في حياتك إماماً معصوماً يبدلك على الطريق فالتجئ إليه واتبع طريقه. ألا نحس نحن الآن بوجود حاسة عندنا اسمها حاسة التقليد؟ ألا نلاحظون أن الطفل بحاجة دائماً إلى من يقلده؟ وهكذا نحن فإن لنا إماماً معصوماً، والإمام المعصوم الذي يجب علينا أن نقلده هو امتداد للنبوة لأن النبوة أخت العقل. وعندما انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى احتجنا إلى امتداد له أبقاه لنا من خلال الأئمة الإثني عشر المعروفين، حيث يكفي لواحد منهم عمره لا يزيد عن اثني عشر عاماً لأن

(١) سورة القيامة، الآية: ١ و ٢.

يجيب عن عشرات بل مئات المسائل في مجلس واحد كلها تتعلق بأمور المسلمين.

إن القرآن أيها الأخوة أعطى ضمانات أكيدة لانتصار الإسلام ونشره عبر هؤلاء الأئمة الأطهار الذين من خلالهم، وليس من غيرهم، يجب أن نعرف إسلامنا الصحيح، وإلا من الذي ينشر الإسلام ويطبق القرآن؟ أنتظر ذلك من بني أمية؟ من بني مروان؟ من بني العباس؟ أنتظر ذلك من هارون الرشيد الذي كان يخاطب السحاب فيقول: أينما تمطرين ففي ملكي؟!!

هل استطاع هارون الرشيد العباسي أن ينشر الإسلام والعدالة الاجتماعية كما نشرها الإمام علي بن أبي طالب؟ هارون هذا ألم يقم قصوره على جماجم العلويين؟

ألم يُعطي سيفه لحמיד بن قحطبة الطائي الطوسي فيقتل في ساعة واحدة ستين عالماً من علماء العلويين من أبناء علي وفاطمة... ويرمي برؤوسهم في البئر؟ من الذي ينشر الإسلام ويأتينا بالفرج؟ والله الذي لا إله غيره إنني لأزداد قناعة يوماً بعد يوم كلما اشتدت المحن بنا أن يوم الفرج أصبح قريباً وأننا نعيش عصر الظهور، ظهور الإمام المهدي المنتظر.

صدّقوني والله، لأن من علامات ظهوره أن تكون دولة كافرة في العالم، أقوى دولة في الأرض تسير الدنيا كلها، إنها أميركا صاحبة أقوى وأعتى سلاح فتاك، إنها صاحبة التطور التكنولوجي الذي سوف تأتي على ذكره مفصلاً عندما نتحدث عن الحضارة الإسلامية في ظل حكم الإمام المهدي.

إن الضمانات التي بها سيتصر المسلمون موجودة في القرآن الكريم وعلينا أن نقدر مدى أهمية كتاب الله، لأنه لم يوجد ليقرأ في المنابر، وهو ليس علامة من علامات الموت. القرآن جاء للأحياء لأنه كتاب حياة، إنه

غذاء للروح لا يجاريه غذاء آخر. نحن لا نقول لا تقرأوا القرآن في المقابر، لكن نقول اجعلوه في كل مكان لأنه هداية يسترشد به الضالون فهو لقيادة البشرية جمعاء، وهو للأجيال كافة، إنه حاسة من الله، من السماء، وهو محسوس خارجي موجود، هو الإمام المعصوم، وآلية العصمة عند أهل البيت تختلف عن آلية العصمة عند غيرهم. وهذا بحث طويل سنتناوله في ليالٍ قادمة. ولكن انتبهوا إلى هذه القضية، إن العصمة لا تعني سلب القدرة على المعصية من المعصوم، ولا تعني أن المعصوم مسلوب القدرة والإرادة لا يمارس المعصية، إنما العصمة تعني أن المعصوم له القدرة على ممارسة المعصية لكنه لا يقرب المعصية، لماذا؟ لأن ملكة التقوى عنده وصلت إلى القمة، في قمتها آلية العصمة وهي عند أهل البيت عبارة عن محسوس للقرآن الكريم. يعني اعتبر القرآن حاسة خارجية لها محسوس موجود في الخارج وهو الإمام المعصوم الذي ينعكس القرآن في سلوكه فيكون القرآن كتاب الله الصامت والإمام المعصوم كتاب الله الناطق بالحق والعدل المترجمين عملياً وسلوكياً. فهذا الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام نراه قد استغل الفترة التي كانت بين سقوط الدولة الأموية والعباسية واستخدمها أروع استخدام في بناء الإسلام والاهتمام بقضايا المسلمين. لقد حرك العقول بالعلم، وحرك القلوب بالإيمان، وحرك المشاعر والعواطف بالبرقة والرحمة والدموع. كان يعقد مآتم العزاء على جدّه الحسين، يشرب الماء فيذكر عطش الحسين، تنهمر دموعه، يدخل عليه شاعر البصرة أبو هارون المكفوف يقرأ على الإمام الحسين، يخرج الإمام الصادق لاستقباله، يقبله بين عينيه: أنت خادم جدي الحسين. لاحظوا كيف يبني الإمام عظمة هذا الإنسان وينمّيها.

يقول سلمان الفارسي عن الحسين عليه السلام : دخلت مرة فلماذا الزهراء نائمة وجاريتها فضة غير موجودة، فرأيت مهد الحسين يتحرك، وسمعت

مناغة حوله، والغريب في الأمر أنني لم أر من يناغيه. يقول: فجئت إلى الرسول ﷺ في المسجد ورويت له ما لاحظت وما سمعت فقال: يا سلمان، أما علمت أن جبرائيل ينزل أحياناً إلى مهد الحسين فيناغيه، وعندما يصعد يقول: من مثلي وأنا خادم الحسين. إن خدمة سيد الشهداء شرف عظيم أيها الأخوة، ولذلك اهتزت الأرض عند مقتله.

لا تؤاخذوني أيها الأحبة على هذا الاستطراد، أردت أن آخذ بعض المواقف والصور والمناهج التي اتسمت بها حياة الأئمة الأطهار لتكون لنا منارة ونبراساً وطريقاً مستقيمة على هديها نسير، ومن مناهلها نعب، ليس نحن فقط، ولكن كثيراً غيرنا. فالمذاهب الأربعة التي جاءت بعد القرن الثالث الهجري انطلقت من مدرسة الإمام الصادق. فهذا أبو حنيفة الذي بقي حولين كاملين يتلمذ على الإمام الصادق والذي قيل فيه: لولا الستان لهلك النعمان، أبو حنيفة هذا دخل مرة على الإمام الصادق فسأله الإمام:

بلغني أنك تقول بالقياس - ونحن عندنا الأدلة الأربعة: القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والعقل والإجماع - فقد طُيرت العقل وركّزت على القياس، فأيهما أعظم عند الله: قتل النفس أم الزنا؟

قال أبو حنيفة: قتل النفس.

قال الإمام: إذا كان قتل النفس أعظم من الزنا فلماذا طلب الله في قتل النفس شاهدين وفي الزنا أربعة شهود؟

فسكت أبو حنيفة ولم يجب. فالتفت الإمام وقال: أيهما أعظم عند الله يا أبا حنيفة، الصلاة أم الصيام؟

قال أبو حنيفة: الصلاة أعظم عند الله.

قال الإمام: فما بال المرأة الحائض تقضي الصيام ولا تقضي الصلاة؟ إذا كانت الصلاة أعظم، فلماذا لا تقضي الصلاة وتقضي الصيام؟

فسكت أبو حنيفة وأطرق وأصغى لقول الإمام: يا أبا حنيفة، إياك والقياس.

القياس أيها الأخوة ليس من مذهبنا، نحن عندنا القرآن والسنة النبوية. واعلموا جيداً أن الإمام الصادق هو جامعة علمية خرّجت العديد من العلماء، يكفيكم أن تطالعوا في أي دائرة معارف لتلاحظوا منزلة الإمام العلمية والثقافية والدينية. إنه بحر من العلوم لا ينضب. ففي كتاب أعيان الشيعة أن تلامذته، وفي عصر كان التدوين فيه ممنوعاً، كتبوا وألفوا آلاف الكتب في شتى الاختصاصات والمجالات والعلوم.

الإمام وسفيان الثوري

من الطرف التي تروى عن سفيان الثوري أنه كان ربما يخالف الإمام الصادق في أمور وإليك بعضها:

- كان الإمام يقول إن الخير من الله والشرّ من الإنسان.

وسفيان الثوري يقول إن الخير والشر من الله.

- كان الإمام يقول إن إبليس في النار.

وسفيان يقول إنه من النار فكيف تحرقه النار؟

- كان الإمام يقول إن الله لا يرى.

وسفيان يقول الله يرى ويجب أن يرى.

وقد مرّ البهلول يوماً، وهو أحد تلامذة الإمام الصادق، فرأى سفيان الثوري يناقش بمثل هذه المسائل ويصبح، فالتقط حجراً مديباً وهذّب عليه وضربه به فوق على جبهته فشجّه، فانتفض سفيان وصاح مؤنباً البهلول قائلاً: لماذا ضربتني؟

البهلول: أنا ضربتك؟ أعوذ بالله، أنا لم أضربك، والدليل على ذلك

أنك تقول إن الخير والشر من الله، وإن الإنسان مجبر على أعماله وليس مخيراً، وأنا وجدت نفسي هكذا، لم أنتبه إلا وأنا أنحني فحملت الحجر وضربت جبهتك. أهذا شرٌّ أم خير؟

الثوري: هذا شرٌّ.

البهلول: إذا من الله، فلماذا تصرخ وتصيح؟

الثوري: أصبح من الألم في رأسي.

البهلول: كذاب، أرني الألم.

الثوري: وكيف ترى الألم، وهل يُرى الألم؟

البهلول: إذا كنت لا تستطيع أن ترى الألم فكيف تقول بأن الله يجب أن يُرى؟ هل تستطيع أن ترى ربك؟ ثم تقول إن إبليس من النار والنار لا تحرقه، ألسنت أنت من الطين؟

فكيف جرحك هذا الحجر وهو من الطين؟

الثوري: أنت بالطبع من تلامذة الإمام الصادق، وتلامذة الإمام لا قدرة لنا عليهم، اذهب في سبيلك.

أيها الأخوة: يمكننا أن نصل إلى أهدافنا، ويمكننا أن نقنع من هم على خلاف معنا بالعلم المبني على الحجة المنطقية، هذه الحجة التي نسلح بها الإمام الصادق والتي بواسطتها استطاع أن يخرج من جامعته مئات بل آلاف العلماء الذين انتشروا في أنحاء العالم الإسلامي يؤدون رسالتهم الدينية بفخر واعتزاز، نحن أحوج ما نكون إلى مثل هؤلاء العلماء أيها الأخوة وهذا ليس بالأمر الصعب، فالإنسان إذا ما اقتنع بأمر وقضية ومبدأ فإنه يستطيع الوصول إليه بما يبذله من تصميم وعمل ومتابعة وإرادة. بالعلم أيها الأخوة نستطيع أن نتغلب على عدونا، بإيماننا بالله سبحانه وتعالى لأنه

وحده القادر على تزويدنا بالقوة. المنبر على عظمته لا يكفي لنشر الفضيلة، نحتاج إلى مؤسسات، إلى مشاريع خيرية، إلى بناء مساجد، إلى بناء مدارس لتعليم الدين الإسلامي، إلى مؤسسات عالمية إسلامية تقف بالمرصاد لأعدائنا الذين يَشُون السموم في وسائل إعلامهم، نحتاج إلى خطباء حسنين يدعون إلى الإسلام والأمن القائمين على العدل والحق وليس إلى العنف والظلم القائمين على السدم والجثث. نحتاج إلى علم الإمام الصادق الذي نجد فيه حاجتنا وضالتنا، نحتاج إلى الوقوف على سلوكه البيتي لننتقل منه إلى اتخاذ نهج صحيح في حياتنا اليومية، فاسمعوا ما كان رآه في الصلاة.

قال أبان بن تغلب وأبو بصير: سألنا أم حميدة زوجة الإمام الصادق (أم الإمام موسى بن جعفر): ماذا رأيت من جعفر بن محمد؟ فبكت، وبكىنا لبكائها وقالت: طلب منا في آخر يوم من حياته أن نجتمع له كلٌّ مِنْ بيئنا وبينه صلة قري، فكان له ما أراد، فقال: اسمعوا «إن شفاعتنا لا تنال مستخفاً بالصلاة».

الله الله في الصلاة أيها الأخوة. الله الله في صلاة الليل أيها الأحبة، في قراءة القرآن، في سيرة النبي ﷺ وأهل بيته، فمنها تأتينا الفضائل، ومنها استطاع الإمام الصادق أن يبيّن صرحاً علمياً شامخاً.

هل تعلمون أن الإمام كان يمنع من يخدمه من صعود السلم الذي يؤدي إلى سطح بيته؟ تسألون لماذا؟ لأن جانباً من داره كان مشرفاً على الجيران ولا يريد الإمام أن يطلّ أحد على عائلة جارٍ له مسلم.

بالله عليكم، أي خلقٍ أعظم وأنبل من هذا الخلق؟ إنه الإمام الصادق الذي خافه المنصور وطلب وده ونصحه فرفض لأنه كان ظالماً وقال له وبكل جرأة: من أراد الدنيا لا ينصحك، ومن أراد الآخرة لا يصحبك. وكان يقول للناس: لا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار، وكان يقول:

من أعان ظالماً سلَّطه الله عليه . عندما رأى المنصور تجاهل الإمام له أحرق بيته حتى أنت النيران عليه فتذكّر الإمام عندما رأى بناته وأخواته يركضن ويتنقلن من حجرة إلى حجرة ، ومن غرفة إلى غرفة والنار مشتعلة ببيته ، تذكّر فرار عمّاته يوم عاشوراء كيف كنّ يهرولن من خيمة إلى خيمة ، ومن خباء إلى خباء فتألّم كثيراً . وعندما جاءت الوفود إليه تخفّف عنه مصابه كان بينها أبو هارون المكفوف ، فقال له : يا أبا هارون انشدني في جدّي الحسين فقال :

أمرر على جدّ الحسين وقلّ لأعظمه الزكيّه
ما لذّ عيش بعد رضّك بالجياد الأعوجيّة ..
إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

شجاء من سيرة الإمام موسى
ابن جعفر عليه السلام

من سيرة الإمام موسى ابن جعفر عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبس المهاد﴾^(١).

شاءت حكمة الله - سبحانه وتعالى - أن يجعل مقاليد الأمور وناصية الحياة وإدارة البلاد وسياسة العباد في أيدي أئمة الحق . شرط الله على الأئمة ألا يضاروا على كفة ظالم ولا سغب مظلوم . ومعنى ألا يضاروا ، أن لا يهدأوا ، ولا تغمض لهم عين وفي المجتمع ظالم متترف متخم ، ومظلوم جائع يش تحت سياط الحرمان .

هكذا جرت حكمة الله في هذا الكون، وهي، إذ جرت على هذه الصورة، فإنها قد نفذت إلى صميم أعماق كل شيء خلقه الله. فإن أنت أجلت البصر فيما يحيط بك من كائنات ومخلوقات، وجدت أن النظام يلف كل ذرة في هذا الكون. فحكمة الله شملت هذا الكون ونفذت إلى أعمق أعماقه، وبمشيئة الله - سبحانه وتعالى - انتظم كل ما في الوجود، في سياق

(١) سورة البقرة؛ الآيات: ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٦.

نظام متسق، واتجاه إلى الله العليّ القدير من دون أن تخطيء ذرة واحدة أو يحيد مخلوق من مخلوقات الله سبحانه وتعالى .

خلق الله الكون وجعله مصدر رحمة، كما خلق الإنسان وأراد له الرحمة أيضاً،

﴿ . . قل لله كتب على نفسه الرحمة ﴾^(١).

فإن الله لم يخلقنا من أجل أن يعذبنا ، إذ ماذا يصنع الله بعدابنا؟ (ولسوف أتحدث بإذن الله - عن فلسفة العذاب بنار جهنم في إحدى الليالي القادمة . ولماذا يعذب الله الكفار والمنافقين ؛ ولماذا يعذب الإنسان العاصي؟ وهل الإنسان سوى ذرة بسيطة في هذا الكون؟ فلماذا يعذبه الله؟ هذه الأسئلة كلها والتي تدور حول موضوع العذاب في نار جهنم، ليست موضوع حديثنا الليلة، وإنما هي موضوع حديث لاحق، سيأتي وقته فيما بعد - بإذن الله) ونعود الآن إلى موضوع رحمة الله، هذه الرحمة التي شملت الكون بأسره، فكل شيء في هذا الكون إنما خلقه الله للرحمة. وقد خلق الناس ليرحمهم، ورحمة الله لعباده كانت من خلال الأئمة، أئمة الحق لأنهم الأمناء على رحمة الله، الأمناء على رسالة الله، يبلغونها، بسلام، للعباد. أما غيرهم، غير أئمة الحق، فإنهم إذا تسلموا الأمانة، وحكموا البلاد، تراهم يتخبطون في الظلام، ويسرفون في الظلم وسفك الدماء، وسيرة الظالمين، على مرّ التاريخ، خير دليل على ما نقول.

هناك أمور - أيها الأحبة - لا يحتاج إثبات صحتها إلى دليل، وإثبات صحة دعواها لا يحتاج إلى شاهد. فدلليها فيها، وشاهدها منها. ومن هذه الأمور، أن السيرة الذاتية للإنسان هي السبيل الصحيح للتعرف إليه، وهي المقياس والمعيار للحكم الدقيق الذي لا يخطيء. إذ بماذا يعرف الإنسان

(١) سورة الأنعام؛ الآية: ١٢.

معرفة صحيحة؟ إنه لا يعرف على وجه الدقة إلا من خلال سيرته الذاتية. أما الشعارات والشروحات، والأدلة والشواهد، فإنها لا تستطيع، مهما كانت بليغة وفصيحة، أن تصمد أمام امتحان السيرة الذاتية، ولا تستطيع أن تؤكد أمراً أو تنفي آخر، ما لم تحصل على تزكية صريحة من السيرة الذاتية للإنسان، فأرجو الله أن يفتح قلوبنا وبصائرنا لهذا البحث لنغترف من منابع النور، فننير أفئدتنا ونفوسنا وأذهاننا.

يمكنك أن تتحدث عن طبيب، وأن تشيد بحذقه وبراعته وحكمته، وبإمكانك أن تلقي المحاضرات المسهبة عن جدارة هذا الطبيب وعن تفوقه في مجال اختصاصه، ويستمتع الناس إلى كلامك ويصفقون لما تقول، لكن كل المحاضرات وكل الكلام وكل الإشادة، وكل الجهد الذي قمت به لا يصمد لحظة واحدة أمام تصرف واحد من هذا الطبيب. فالناس حين يتوجهون إليه لمعالجتهم ومداواتهم يراقبون طريقته وأسلوبه في العلاج هل يعالجهم بعقل وحكمة؟ أم أنه يقوم بذلك بدافع مادي؛ فإذا كانت المادة هي الأساس في العلاج فإنهم يتعدون عنه ولن ينفع حينذاك إلقاء مليون محاضرة لاجتذاب الناس إلى هذا الطبيب، وسوف يستحيل عليك بعد ذلك أن تقنع رجلاً واحداً بالذهاب إليه طلباً للعلاج لأن الجميع سيواجهونك بالقول: لقد جربنا هذا الطبيب واختبرناه، وكان حكمنا عليه أنه غير جدير بثقتنا وليس مؤهلاً لمداواتنا.

فالسيرة الذاتية إذاً هي المقياس للحكم على الإنسان. والسيرة الذاتية لأئمة الحق هي الدليل على عصمتهم. إنهم معصومون، مطهرون، أوفياء، وأصحاب قداسة، لم يخطئ أي واحد منهم مقدار ذرة واحدة في حياته كلها. وإثبات عصمتهم لا يحتاج إلى إيراد حديث نبوي، أو آية قرآنية، مع أن كل ذلك موجود ومحفوظ، فلو سألك سائل ما الدليل على عصمة الحسين؟ لأجبه: إن الدليل على عصمته هو سيرته نفسها، وإثبات عصمته

لا يحتاج إلى ذكر آيات من القرآن، أو الاستشهاد بالأحاديث النبوية، علماً أن القرآن يتحدث عن الحسين والرسول يتحدث عن الحسين، لكن سيرة الإمام الحسين تكفي وحدها للتدليل على عصمته. فمن يسقي أعداءه الماء، والذي يحمل أهدافاً إنسانية عالية، والذي لا ينسى الله مقدار لحظة، حتى في آخر لحظات حياته وهو تحت حوافر الخيل، والذي كانت علاقته بالله متصلة أبداً، والذي لا يحمل حقداً على أحد، حتى على الدّ أعدائه وخصومه، هذا الذي بكى يوم تطلع إليه عمر بن سعد، وحين سألته زينب عليها السلام : مِمَّ بكاؤك؟ قال: أبكي من أجل جيش يدخل النار بسبيي.

هذا العظيم معصوم. وهذه هي العصمة.

ما الدليل على عصمة علي بن أبي طالب (سلام الله عليه)؟ الدليل هو سيرة الإمام علي نفسها. اقرأوا سيرة هذا العظيم، سيرة بدأت في بيت الله، في حجر رسول الله، فقد وضعت أمه في البيت ثم أخذه النبي، وضعه في حجره ورباه وغذاه، وعلمه وفتح له ألف باب من العلم، يُفْتَحُ له من كل باب منها ألف باب -ولفظه الألف هنا ليست لتعيين العدد، وإنما هي للدلالة على الكثرة، أي أن المقصود هو عدد من الأبواب لا حصر له ولا حدود. وتأتي بعد ذلك مواقفه مع النبي، ومواقفه بعد وفاة النبي، يوم آلت الخلافة إليه وتسلم مقاليدها، فقد لقيه ابن عباس -وكان الإمام عليه السلام يخصف نعلاً- فسأل ابن عباس: ما قيمة هذا النعل الذي أخصفه بيدي؟ أجاب ابن عباس: والله، لا قيمة له، نعل من ليف، فقال الإمام: يا ابن عباس هو عندي أفضل من خلافتكم إلا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً، هذه هي العصمة.

الإنسان المعصوم هو الذي لا يتأثر بالمناصب ولا تغريه الزعامة ولا السيادة ولا المال أو الجاه، وإنما شيء واحد هو الذي يعنيه، الله، الله فقط وحده لا غير، إنه يتأثر بالله، وبالله وحده، الإنسان المعصوم هو الذي

يتخذ الحق سبيلاً فيسير في هذا السبيل ينكب عليه ولا يحيد .

فإذا عدنا إلى أئمة الحق، وجدنا أن السيرة الذاتية لكلّ منهم هي الدليل الوافي والبرهان الكافي على عصمته . عد إلى الأئمة الإثني عشر - أرواح العالمين لهم الفدا - تجد أن حياتهم سلسلة متصلة، لا انقطاع فيها ولا اختلاف بين حلقتين من حلقاتها . قارن بين أقوال أئمة المذاهب الفقهية الأربعة، ترّ اختلافاً كبيراً في العديد من المسائل . فمالك يقول قولاً يخالفه فيه أبو حنيفة، والشافعي يرى رأياً يخالفه فيه أحمد بن حنبل . لكن أمراً واحداً من هذا القبيل لن تجده فيما بين الأئمة الإثني عشر . ما قال علي قولاً خالفه فيه الحسين، ولا رأى الحسن رأياً خالفه فيه الباقر، أبداً، وإنما هي سلسلة نورانية متصلة من رسول الله إلى الإمام المهدي، يستحيل أن تعثر على كلام قاله أحدهم وخالفه فيه أي واحد منهم، بل إن كلامهم هو نور واحد يسير مع القرآن جنباً إلى جنب وفي الاتجاه ذاته هذه هي العصمة .

فهل كان غيرهم، غير أئمة الحق، كما كانوا هم؟

- أبداً . فمنطق الحكام قبل توليهم الخلافة والحكم، ليس هو نفسه بعد توليهم أمور البلاد وشؤون العباد . فالواحد من هؤلاء الحكام كان، قبل اعتلائه سدة الحكم والسلطة، سخيّاً بالوعود، يفتن السامعين بكلام معسول، أنيقاً، فاتن الإغراء، إذا خاطب الناس يخاطبهم قائلاً: أيها الناس، إذا وُليت عليكم، وصارت الخلافة إليّ والسلطة بين يديّ، فلن يعاني فقير ولا معوز من ضيق ذات اليد، ولن تبقى أرملة ولا شاب عازب من دون بيت أو مأوى، وسوف أبذل وأعطي وأمنح وأهب، وسوف ينال الجميع ما يرضيهم . . . إلى ما هنالك من الوعود البرّاقة، لكنه ما إن يعتلي كرسى الحكم، ويمسك بالسلطة، حتى تتكشف نفسه عن حقد دفين وخيانة لثيمة، وحتى يظهر ما كان يطن من نفاق، وإذا به، ومنذ اللحظة الأولى

لتحكمه، يحيط نفسه بزبانية مدهنين مرائين، ويتنكر لكل عهوده ووعوده، وينقلب من مسالم وديع إلى متمرد جبار، يطل من عليائه على الناس معلناً شعاره الصلف: أنا ربكم الأعلى. من هؤلاء، واحد من خلفاء بني أمية، نعرض لحادثة مشهورة ومعروفة، كان هو بطلها، وهذه الحادثة ليست إلا مثلاً واحداً على سيرة هؤلاء الحكام. ذات يوم، وفيما كان هذا الخليفة، جالساً في قصره، يحيط به معاونوه ومستشاروه، دخل عليه أرباب الفكر، والشعراء الذين درجوا على عادة امتداح الحكام طمعاً بالمال وتكسباً، وكان خلف الخليفة رجل يقرأ القرآن، ولما كان التنافس بين الشعراء على نيل رضى الخليفة، قوياً وشديداً، وكان كل منهم يسعى إلى أن تكون قصيدته هي الأفضل ليكون عطاء الخليفة أجزل وأكبر، فقد اندفع أحدهم وذهب بعيداً في التملق فأنشد قصيدة طويلة استهلها بالبيت الذي ترددت شهرته فيما بعد، وحفظه الجميع، ومن لم يحفظه منكم حتى الآن فليحفظه - وهذا البيت هو:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وامتلات نفس هذا (الواحد القهار) غبطة، وانتشى فرحاً، وبينما هو كذلك إذا بذبابة تحط على أنفه، فقام بدفعها عنه وبالذّب عن أنفه، مرة ومرتين وثلاث مرات لكن الذبابة الملحاحة لم ترتدع، وتدور معركة حامية بين الذباب وبين (الواحد القهار) وتكون الغلبة للذبابة، إذ إن الخليفة انقلب عن عرشه إلى الأرض، وتدحرج التاج أمامه في اللحظة ذاتها التي كان قارئ القرآن قد وصل في قراءته إلى قول الله تعالى:

﴿وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾^(١).

(١) سورة الحج؛ الآية: ٧٣.

وحكاية هارون الرشيد مع البهلول العباسي، معروفة ومشهورة،
ومحفوظة في بطون الكتب.

كان هارون الرشيد يسير في أحد شوارع بغداد، فرآه البهلول وأخذ
يناديه: هارون... يا هارون. فقال هارون: ويلك تناديني باسمي أو ما
تعرف من أكون؟ قال البهلول: بلى، والله، أعرفك. بل أنا أكثر الناس
معرفة بك. فقال هارون: إذن من أنا؟

قال البهلول: أنت الذي إذا ظلم شخص في أقصى الأرض، فإنك
مسؤول عنه أمام الله سبحانه وتعالى. فسكت الرشيد ثم قال: ألك حاجة
أقضيها؟ قال البهلول: بلى، لي حاجة لكنك لا تقدر على أن تقضيها لي.
فقال الرشيد: وكيف؟ قال: الذباب يزعجني، فإذا كنت قادراً على أن
تردعه عني، أصدر أمراً بذلك. قال الرشيد: لا والله أنا لا أتمكن من منع
الذباب عنك! قال البهلول: إذا كنت لا تتمكن من منع الذباب عني، فلا
خير فيك ولا في خلافتك حين تكون قادراً عليّ، ولست قادراً على
الذباب.

فهذه دروس وعبر أيها الأحبة، وعلى كلّ منا أن يتذكرها دائماً، ليتنبه
إلى عواقب الغرور، وليفطن إلى عجزه وضعفه أمام قدرة الله سبحانه
وتعالى. لاحظوا الوصف القرآني، والتصوير القرآني لهؤلاء الحكام الفجرة
الظالمين، يقول سبحانه وتعالى:

﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في
قلبه وهو ألدّ الخصام﴾^(١)

أنتم تلاحظون - ولا شك - أن بعض الناس، حين يتكلمون يقسمون
على كلامهم. فكل كلمة ينطقون بها، يعقبونها بالقسم، أو حلف اليمين.

(١) سورة البقرة؛ الآية: ٢٠٤.

فلماذا تقسم بالله؟ لماذا لا تكتفي بكلامك نفسه من دون أن تشهد الله وتقسم به؟

تأملوا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي الْخَصَّامُ﴾ أي أنه ألد أعداء الإنسان، كيف؟ يقول: قارنوا بين كلامه قبل وصوله إلى الحكم وأفعاله بعد ذلك؟ ماذا قال فيما مضى، وماذا يصنع الآن؟ عودوا إلى سيرة يزيد والحجاج وسيرة بقية الحكام الخونة من خلفاء بني أمية وبني العباس، تروا مصداق الآية الكريمة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾^(١).

فالحَرْث: الزرع، والنَّسْل: الماشية، ويهلكها: يدمرها. وهذه الآية نزلت في رجل اسمه الأخنس بن شريق، وكان قد خرج مع رسول الله، وأهلك الزرع والماشية. لكن الآية تشير إلى جانب آخر، إذ للقرآن تفسير وتأويل - فالحَرْث والنَّسْل يعنيان النساء والرجال.

﴿نَسْلُكُمْ حَرْث لَكُمْ﴾^(٢)

فالآية تشير إلى الشباب، إلى البنات والبنين، أي أن المقصود بالإنفساد، هو إفساد الشباب، أي تدمير الفتية في المجتمع. ومعنى يفسدهم: يفسقهم، أي أنه يدمر أخلاقهم، لأنه امتلك الإمكانية والقدرة على ذلك من خلال السلطة، في حين أن الواجب يقضي بأن يعتمد الحاكم إلى نشر الفضيلة في صفوف الشباب، ورعاية الأخلاق وتعهد النفوس الشابة بالتربية الصالحة القويمة، لأن الأخلاق الحميدة، تتحول إلى طاقة كبيرة في نفس الإنسان، تماماً كما يتحول الطعام الجيد إلى طاقة في بدنه.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٣.

والفضيلة هي التي ترفع قدر الإنسان، كما أن الأخلاق هي التي تعلّي مرتبة. والله سبحانه وتعالى إنما يرفع مرتبة الإنسان بالأخلاق.

وأهمية الأخلاق ودورها في توجيه الإنسان، هما السبب في تركيز جميع أئمة الجور في العالم، وجميع السفاكين والخونة والدجالين، على الإفساد الأخلاقي لعنصر الشباب في مجتمعاتنا. لاحظوا خطة اليهود ونهجهم وتركيزهم على انتزاع شبابنا منا. فهم يعمدون إلى استخدام شتى الوسائل والأساليب لإفساد شبابنا، وإلى إشاعة الفاحشة عبر الإغراء وفتح منافذ الشيطان وسدّ منافذ الرحمة والخلق الكريم.

فالزواج، وهو رحمة وخلق وبناء أسرة وتحمل مسؤولية، يشنون عليه الحملات، ويقفون في طريقه، ويلجأون إلى تضليل شبابنا قائلين لهم: لماذا الزواج؟ لماذا وأنت الشاب المثقف التقدمي، الذي يملك نظرة صحيحة وجيدة وجميلة للحياة، لماذا تكبل نفسك بالزواج، وبالارتباط، مدى الحياة بامرأة واحدة، في حين أن أمامك العشرات من الفتيات، بل والمئات منهن وبإمكانك أن تنقلب من فتاة إلى أخرى؟ فماذا تكون نتيجة هذا التضليل؟

إذا استجاب الشاب لمثل هذه الدعوات المفسدة، فإنه سوف يجد نفسه في مرتبة أخطأ قدرأ ومنزلة من الحيوان. إذ لا خلق ولا مبدأ. وسياسة اليهود في إفساد العالم الإسلامي بهدف السيطرة عليه لا تقف عند حد. فأينما وجدتم حانة خمر أو ملهى أو مرتعاً للسكر والعريضة والقمار، أو ما شابهها من الأماكن الموبوءة بالفساد والرذيلة، ترون أصابع الصهيونية هي المحركة من خلف الستار لهذه النشاطات الهدامة، والمروجة لهذه السموم الفتاكة. اليهود، أئمة الجور، الصيادون الأفاكسون، يسعون إلى تحطيم مجتمعاتنا، عن طريق الانحراف بشبابنا عن جادة الخلق الكريم. ولهذا فإن القرآن الكريم يوضح لنا الصورة وينير أمامنا السبيل حيث يقول:

﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾^(١)
أي ليفسد البنات والبنين.

والآية تقدّم البنت على الابن، نظراً لأهمية دورها في المجتمع. إذ على الرغم من أن البنت رحمة ونعمة في البيت، والرسول ﷺ يقول: «خير أولادكم البنات»، إلا أن البنت إذا انتقلت من دائرة القواعد الأخلاقية، وتحللت من الضوابط النازمة للسلوك القويم، فإنها تتحول إلى نقمة كبرى، وإلى قبلة مدمّرة تسبب بحالة انفجار اجتماعي يطيح بكل مرتكزات المجتمع وينسف أسسه الأخلاقية. الإسلام حفظ المرأة، حفظها بحجابها وأخلاقها، وتوجهها إلى الله، وحفظ لها كرامتها فلم يسمح لأي إنسان، كائناً من كان، أن يجرح مشاعرها. فالرسول -ﷺ- يقول: «خيركم خيركم لعياله. وأنا خيركم لعيالي» كما يقول أيضاً: «النساء ما أكرمهن إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم». فلماذا كان كل ذلك؟ وما الهدف منه؟ إنه من أجل تركيز المجتمع على قواعد ثابتة وراسخة. ﴿سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾^(٢).

هذا المفسد ما هو موقفه من المؤمنين الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؟ وماذا يكون صنيعه في حال الظفر بهم؟ السجن والقمع، والتعذيب، هو الرد، والتمادي في الغي والفساد، اعتزازاً وجبروتاً.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلِبِئْسَ الْمُهَادِ﴾^(٣).

ظالم جهول، متكبر صليّف، لم يمثل لأوامر الله، أخذته العزة

(١) سورة البقرة؛ الآية: ٢٠٥.

(٢) سورة البقرة؛ الآية: ٢٠٥.

(٣) سورة البقرة؛ الآية: ٢٠٦.

بالإثم، فاستحق عقاب الله، إنه إلى جهنم، ذاك مهاده، ألا إنه مهاده ملائم له وهوبه خليق. فهارون الرشيد، أمر بسجن الإمام موسى بن جعفر - صاحب هذه الليلة - مدة عشرين عاماً، وبعض الروايات يقول إنه سجنه مدة ثلاثة وعشرين عاماً، والسبب هو أن الإمام وقف في وجه هارون الرشيد معترضاً على الظلم. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾.

ومن داخل السجن، كتب الإمام رسالة موجهة إلى هارون الرشيد، وعبره إلى جميع الظالمين في العالم، وهي على قصرها وشدة إيجازها، بليغة معبرة. كتب الإمام مخاطباً الرشيد:

«واعلم يا هارون أنه لن ينقضي عني يوم من البلاء حتى ينقضي عنك معه يوم من الرخاء، ثم ينقضي إلى أجل ليس له انقضاء، يوم يعرف التالون غب ما أسس الأولون».

لاحظ منطق الإمام موسى بن جعفر. أيام بلائي وأيام رخائك تنتهي جميعها، فهي ليست دائمة ولا أبدية. أما لماذا دخل الإمام موسى بن جعفر السجن؟ وماذا صنع داخل السجن؟ وماذا فعل خارج السجن حين كان يفرج عنه إلى حين؟ وما أهمية هذا الإمام العظيم، الإمام المعصوم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، حجة الله في الأرض، ابن الإمام الصادق - روعي فداء - وحفيد رسول الله ﷺ؟ -

أما عن هذا كله، فتعالوا معي إلى رحلة هذه الليلة، في رحاب الإمام موسى بن جعفر. وهنئاً لكم، هذه الليالي التي نعيشها في رحاب آل محمد - ﷺ فما أروعها من رحاب.

جهاد الإمام موسى بن جعفر

لدى عودة الإمام الصادق من مكة إلى المدينة، نزل في الأبواء وهو

منزل يقع بين مكة والمدينة . يقول أبو بصير: كان الإمام الصادق - سلام الله عليه - إذا صنع مأدبة أطاها وأكثر طعامها، فمأدبته كانت سخية، تعمداً من الإمام الصادق للرد على موجة التصوف التي اشتدت في تلك الأيام، بحيث عمّ الابتعاد عن الدنيا وكثر التصوف والمسوح وأخذ كل واحد من هؤلاء المتصوفين يقيم صومعة ويلبث فيها لعبادة الله، مخلفاً وراءه المجتمع والناس، لذا عمد الإمام الصادق إلى الوقوف في وجه هذه الموجة لأنها ليست من الإسلام في شيء، وكما كان سخياً في مأدبته كذلك كان في لباسه، فقد كان يلبس أفخر الثياب حتى إنه لبس القميص الذي بلغ سعره آنذاك خمسمائة دينار، لكسر حدة التصوف، وللتصديق به على الفقراء . وهذا ما قام به من بعد الإمام موسى بن جعفر، وللأسباب ذاتها .

كانت مائدة الصادق سخية، ولم تخل مرة من الخضار قط . ومما يثير الدهشة أن العلم أثبت أن ترك الخضار يعرض الإنسان للإصابة بأكثر من عشرين مرضاً، ومن بين تلك الأمراض تسوس الأسنان واهتراء اللثة، في حين أن من يداوم على أكل الخضار، تكون أسنانه صلبة وقوية . وأذكر بالمناسبة، أنني كنت مند ستين في أمريكا وسمعت ما صرح به طبيب ريغن الخاص، حين ظهر على شاشة التلفزة ليشرح حالته الصحية حيث كان ريغن مصاباً بمرض السرطان في الأمعاء، والذي كان يعالج من هذا المرض بإشراف الطبيب إياه .

عرض الطبيب أسباب مرض السرطان عند ريغن معيداً إياها إلى عاملين: الأول: أكل لحم الخنزير، وقد ثبت علمياً أن أكل لحم الخنزير يتسبب بالإصابة بسرطان الأمعاء، أما العامل الثاني . فهو: عدم أكل الخضار، وقد نصح هذا الطبيب بأكل الخضار لأن أكلها قد يقضي على سرطان الأمعاء وسرطان المعدة، فهذه واحدة من فوائد أكل الخضار تضاف إلى الفوائد الأخرى التي ذكرتها آنفاً .

إذن فالإمام الصادق كان لا يجلس إلى مائدة، إذا كانت خالية من الخضار، حتى إذا جلس التفت إلى غلمانه قائلاً لهم: ألا تعلمون أنني لا أجلس إلى مائدة لا تحوي خضاراً؟!

يقول أبو بصير: وضع المائدة أمامنا، وأكثر طعامها وأطابها، وبينما نحن كذلك، أقبل رسول حميدة المصفاة - زوجة الإمام الصادق وأم الإمام موسى بن جعفر - فقال الرسول مخاطباً الإمام الصادق: سيدي إن حميدة قد جاءها الطلق، وهي في حالة مخاض، فقام الإمام الصادق، وغاب دقائق معدودات، ثم رجع والبسمة تعلو شفثيه، فقلت له: سيدنا، أضحك الله سنك، وأقر الله عينك، ممّ تضحك؟ قال: لقد رزقني الله مولوداً هو خير من في الأرض، سميّ كليم الله موسى، طابت وتقدست أمٌ ولدته، فسماه موسى بن جعفر.

وموسى بن جعفر هو الذي يخاطبه السيد بحر العلوم - رحمة الله عليه - ويقول: يا سميّ الكليم:

وهو الذي يعرف بالعراق بباب الحوائج. أي أن الناس يتوسلون به إلى الله ليقضي الله حوائجهم. فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَابْتَغُوا إِلَهَ الْوَسِيلَةِ﴾^(١).

أي أن الله يطالبنا بأن نتوسل إليه بواسطة أهل البيت، وهو يقضي حوائجنا، لأن أهل البيت هم أبواب الرحمة. وهذا الأمر ينبغي أن يكون واضحاً ومفهوماً، لا يثير الالتباس أو الشك.

حين تصاب بالمرض، ألا تذهب إلى الطبيب؟ - بلى. فهل يعني ذهابك إلى الطبيب، أنك تستعيض به عن الله في موضوع شفاء جسديك؟ - كلا بالطبع فأنت تطلب الشفاء من الله. وهو يمنحك هذا الشفاء

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٥.

من خلال الطيب. والأمر هو ذاته في موضوع الرحمة. فأنت تطلب الرحمة من الله، والله جعل رحمته من خلال أوليائه. تريد رحمة الله، فليكن سعيك للحصول عليها عبر سلوك طرقها، وعبر دروبها المعروفة، وليكن دخولك إليها من أبوابها. يقول السيد بحر العلوم مخاطباً الإمام موسى بن جعفر:

يا سميَّ الكليم جئتكَ أسمى
والهدى مركبي وحبَّك زادي
مَسْنِي الضَّرَّ وانتحي بي فقري
نحو مغناك قاصداً من بلادي
ليس تُقضى لنا الحوائج إلَّا
عند باب الحوائج المعناد
عند بحر الندى ابن جعفر موسى
عند باب الرجاء جدَّ الجواد

فالإمام موسى بن جعفر ولدته أم طيبة، طاهرة، شأنه في ذلك شأن كل واحدٍ من أهل البيت وأئمة الهدى. فالله قد اختار لهم الأصلاب الشامخة، والأرحام المطهرة. يقول الإمام الصادق - عليه السلام - في حميدة: حميدة المصفاة من الدنس، المصفاة كسيكة الذهب، التي ما زالت الملائكة تحرسها حتى أُدِّيت إليّ، ووصلت لي. وأمَّ الإمام يجب أن تكون طاهرة، بكرًا، عذراء. وتذكروا ما كنت قد ذكرته ذات مرة حين قلت إن خديجة - رضوان الله عليها - كانت بكرًا، عذراء، حين تزوجها النبي، وكان لها من العمر يوم تزوجها النبي ثمانية وعشرون عاماً، وأنه لا صحة لما يزعم ويقال من أنها كانت في الأربعين من عمرها وأنها كانت متزوجة من قبل.

فالله سبحانه وتعالى اختار لأهل البيت الأمهات، واختار لهم حجوراً

طابت وطهرت.

يقول الإمام زين العابدين - عليه السلام - : «أنا ابن نقيات الجيوب، أنا ابن عديمات العيوب».

كلهن مطهرات نقيات، ليس فيهن عيب، وجيوبهن - أي ثيابهن طاهرة - وطهر الثوب كناية عن طهر النفس. ومتى كانت الأم طاهرة النفس، صالحة نقية، طهر الأولاد وصلحت الأسرة. فالأم الصالحة هي أساس الأسرة. ورسول الله - ﷺ - يقول: «إياكم وخضراء الدمن». فقليل له: وما خضراء الدمن يا رسول الله؟ - قال: «هي المرأة الحسناء في بيت السوء». ومما قاله أيضاً - ﷺ - : «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس».

نسمع أحياناً ما يردده بعض الناس من أن الزواج قسمة ونصيب - كلاً، الزواج ليس قسمة ونصيباً. إذ لو كان كذلك لما قال الرسول: «تخيروا لنطفكم...». على الإنسان أن يتخير أين يضع نفسه. وها إن الإمام موسى بن جعفر يقول: «انظر أين تضع نفسك، إن المرأة قلادة».

أجل «إن المرأة قلادة»، لأنها شرف الإنسان وكيانه فابحث عن البيت الطاهر، ابحث عن الأصالة في الأخلاق. وهذا ينطبق على الفتاة أيضاً، إذ يتوجب عليها - هي أيضاً - أن تبحث في من يتقدم للزواج منها عن الخلق وعن الأصالة والرجولة والشهامة وعن الأمن، وهذا الموقف لكل من الشاب والفتاة، في موضع الزواج، ضروري من أجل أن يتأمن مناخ صحي للأسرة، لكي تنشأ الأسرة الصالحة، لأنه ما لم يتأمن هذا المناخ الصحي، وما لم تكن الأسرة صالحة، فلن المجتمع يتفكك وتفسد علاقاته، ففي كثير من المرات يتمنى بعض الناس موت أقاربهم إذا كانت التركة ستعود لهم، وفي بعض الأسر تجدون أولاداً عاقين أو آباءً ظالمين، وهذا يحصل في بعض مجتمعاتنا إنها الكارثة حقاً، وأنا أدق ناقوس الخطر للتنبيه من مثل هذه الأخطار المهلكة، أترانا - أيها الأجيال - كنا وصلنا إلى

هذه الدرجة من التفكك الأسروي، لو أن الآباء عرفوا حقوق أبنائهم وقدروها حقّ قدرها، ولو أن الأبناء بالمقابل - عرفوا حقوق الآباء وحفظوها وأدركوا واجباتهم تجاه الآباء؟

الله تبارك وتعالى، يأمر الأبناء بأن يحفظ كل منهم أباه وأمه ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾^(١) ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلاّ إياه وبوالدين إحساناً﴾^(٢) فربّ العالمين يوصي بالإحسان بالوالدين، وهو يوصي بالإحسان بالأمّ على وجه الخصوص، لأن الأم تحمل الطفل في بطنها تسعة أشهر وهو لا يعرف ذلك، ثم ترضعه حولين كاملين من قبل أن يعي ويدرك. فإذا شبّ رأى أن والده هو الذي يقضي حوائجه، وهكذا فإن تضحيات الأم قد تكون معرّضة للنسيان، وحقوقها معرّضة للضياع، ولهذا فإن ربّ العالمين يذكرنا بحقوق الأم وينبّهنا إلى واجباتنا تجاهها.

﴿... وبوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً﴾^(٣).

واجب الولد تجاه والديه هو إذن، أن يعاملهما معاملة طيبة كريمة، تفرض عليه عدم التأفف أمام أيّ منهما وذلك حتى لا يشعر بالضيّق أو الأسى. وهذه المعاملة الطيبة الكريمة ليست مشروطة بشرط. بل إنها واجبة في كل الأحوال. فلو كان الأبوان كافرين، مشركين، ولو كان الأب تاركاً للصلاة أو كانت الأم تاركة للصلاة، فإن هذا الواجب لا يسقط عن الولد.

أيّ عظمة هي هذه؟

عظمة التربية التي يربي القرآن المسلمين على مبادئها السامية النبيلة.

(١) سورة الإسراء؛ الآية: ٢٤.

(٢) سورة الإسراء؛ الآية: ٢٣.

(٣) سورة الإسراء؛ الآية: ٢٣.

القرآن الكريم يطالبك، أنت أيها الابن المسلم، أن تؤدي رسالة ربّ العالمين، أن تؤدي الأمانة، أن تبرّ والديك، وأن تقول لهما قولاً كريماً لا يسيء مقدار ذرة إليهما، وأنت مطالب بذلك حتى وإن كان أبوك منحرفاً، أنت مطالب بالاستقامة، عليك أن تكون مستقيماً فلا تنحرف معه، ولا يجوز لك أن تسيء إليه. قد يقطع أبوك صلتك وربما شتمك أو ضربك، واجبك يحتم عليك، وإسلامك يفرض عليك، أن تتحمل. فإذا تحملت من أبيك كل هذا، فليس معنى ذلك أنك ذليل، أو أنك ترضى الهوان، وإنما العكس هو الصحيح، إذ أن احتمالك للأذى الذي ألحقه بك والدك، إنما يرفعك ويرفع قيمتك في أعين الناس جميعاً. فهم حين يعلمون أن والدك ضربك، وأنت ارتضيت الأذى، من دون أن تردّ بكلمة تسيء فيها إليه، احتراماً منك لواجبك نحوه، فإنك تزداد كرامة لديهم، وإن موقفك هذا إنما هو عبادة لله سبحانه وتعالى - سوف يجزيك الله عليها إحساناً في الدنيا وفي الآخرة، فما حفظ أحد حقّ أبويه إلّا رفعه الله في الدنيا قبل الآخرة.

والآباء هم أيضاً مطالبون بواجب حفظ حقوق أبنائهم. وعلى الأب أن يدرك أن ولده هو قطعة من كبده.

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض

أمير المؤمنين علي - سلام الله عليه - يقول لولده الحسن: «بنيّ وجدتك بعضي بل وجدتك كلّي، حتى كأنّ أماً إذا أصابك قد أصابني، وكان الموت لو أتاكَ أُنائي. فعناني من أمرك ما يعينني من أمر نفسي، فكنت إليك وصيتي. أوصيك أي بنيّ بتقوى الله، وعمارة قلبك بذكره والاعتصام بحبله. واعلم يا بنيّ أن أمامك عقبة كؤوداً...».

ينبغي على الوالد مجالسة أبنائه، ومحادثتهم بالعديد من الشؤون. فإذا عدت إلى بيتك متعباً، توضأً، واتكل على الله، وانفض الغبار، غبار

الشیطان، عن كاهلك، ثم انضم إلى أهلك، وجالسهم، لأن جلوسك معهم صدقة، وهو يدفع عنك البلاء. ولأن كلمة حلوة منك، أو قصة جميلة مشوقة تقصها عليهم، أو كلمة طيبة تلقي بها على مسامعهم، تساعد على حل الكثير من مشاكلهم، وتدخل السعادة إلى قلوبهم، وتجعلهم يتظفرون عودتك بشوق ولهفة للاستماع إلى حديثك والتزود بنصائحك وإرشاداتك، والغريب في الأمر أن نرى بعض الآباء كأحسن ما يكون الإنسان، دماثة خلق، ولین عریكة، وطیب معشر، وحلاوة حدیث، أن نراهم بهذه المزايا في معاملتهم للناس، لكنهم ما أن يطأوا عتبات بيوتهم حتى ينقلب الواحد منهم إلى عترة بن شداد العبسي، فیدخل بیته متجهماً الوجه، مقطب الجبین لا یجرؤ أحدٌ على محادثته، فلماذا؟

لماذا تكون طیباً مع الناس، ولا تكون كذلك مع زوجتك وأطفالك؟ أليسوا هم أحق من غیرهم بأن یسمعوا منك الكلمة الطيبة وأن یأنسوا إلیک؟ - بلى هذا هو واجبك تجاه زوجتك وأطفالك وأهل بیتك.

وواجب الزوجة أيضاً، أن تكون طيبة مع زوجها وأبنائها. فتلك هي مسؤولیات - أيها الأخوة - وهذا هو معنى الدين، هذا معنى الإيمان، وهذا معنى القرآن، وهذا هو الطريق الذي یخلصنا من العذاب في الدنيا والأخرة. وما لم نكن كذلك فمعنى هذا أننا لا زلنا نعيش في ظلام. فبماذا نكون قد انتفعنا بالإسلام؟

الإسلام نور، والله نور، والنبي نور، والقرآن نور، وأهل البيت نور، والمؤمن نور، فكيف نسمح لأنفسنا، بعد هذا كله، أن نعيش في الظلام؟ الحقوق المتبادلة بين الولد وأبيه، وحفظ كل منهما لحقوق الآخر، تقيم علاقة مستقيمة، وتحصن الأسرة وتحميها وتفيد المجتمع فيتماسك ويشد بنيانه.

من حقوق الولد على أبيه أن یحسن اختيار اسمه، وأن یحسن تربیته

وأن يعلمه القرآن، ويزوجه إذا بلغ، وأن يحترم مشاعره. وواجب الولد تجاه أبيه احترام مشاعره وأن تكون كلمة الوالد مسموعة داخل بيته.

الإمام موسى بن جعفر - سلام الله عليه - كان يتحدث مع أبنائه، الذين لا يزالون صغاراً فيخاطبهم بالقول: «إنكم صغار قوم ويوشك أن تكونوا كبار قوم آخرين»، والموقف نفسه وقفه الإمام الحسن - سلام الله عليه - مع أبنائه فخاطبهم قائلاً: «أنتم صغار ولكن المستقبل المشرق ينتظركم ويوشك أن تكونوا كبار قوم».

انظروا إلى هذه المعاملة، وإلى هذا الأسلوب في الحديث مع الطفل الصغير، واعتباره شخصية محترمة، لها مشاعرها التي يتوجب علينا احترامها. كان الإمام موسى بن جعفر - سلام الله عليه - إذا خاطب ابنه، بحضور آخرين، يخاطبه بأحب الأسماء إلى نفس هذا الابن - حتى وإن كان ابنه طفلاً صغير السن، وذلك احتراماً لمشاعر ابنه وشخصيته - هكذا يجب أن تكون العلاقة بين أفراد الأسرة الواحدة، أو الأسر التي يتشكل منها المجتمع، علاقة مبنية على الاحترام المتبادل، وعلى التفاهم التام، فالتفاهم بين الأزواج والزوجات وبين الأبناء وآبائهم هو أهم وأعظم ما في الأمر، فلا تكسروا جسور التفاهم بين بعضكم البعض داخل بيوتكم.

أيها الأب الكريم: اجعل أبنائك يشقون بك، حتى إذا اعترضت أحداً من أبنائك مشكلة يصعب عليه حلها، أذاك بكل الثقة، وكل الاحترام وبكل بساطة قائلاً: أبتاه، لدي مشكلة. استمع إليه بانتباه كلي، وساعده على حل مشكلته ولا تدعه يخفي عنك همومه وآلامه. كن أنت الأقرب إلى عقله وقلبه، من دون سائر الناس. ولتكن الأم كذلك هي الأقرب إلى بناتها، وليكن الانسجام تاماً وشاملاً، فيما بينكم جميعاً، ولتكن الإلفة والمحبة والتفاهم والمودة، مخيمة على جو الأسرة والبيت العائلي. فذاك هو الطريق الصحيح. الإمام الصادق حين اختار حميدة المصفاة كسبيكة

الذهب لتكون أماً للإمام موسى بن جعفر، إنما اختارها لأن الأم هي أساس الأسرة، وهكذا يقول الشاعر:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

فالأم هي مدرسة، بل هي جامعة، والإمام علي - سلام الله عليه - يقول: «المرأة ريحانة وليست قهرمانة»

في هذا الجو النقي الطاهر، نشأ الإمام موسى بن جعفر، جوّ أبيه الإمام الصادق، جوّ العلم والمعرفة والتربية السليمة، ليمرّز فيما بعد بطلاً من أبطال العلم والمعرفة، يتلمذ عليه كبار العلماء ومن بينهم هشام بن الحكم الذي كان من ألمع تلاميذه والذي كان يجتمع إليه الناس للإفادة من علمه الغزير الذي أخذه عن الإمام موسى بن جعفر. ومما يحضرني في هذا المقام ما ردّ به هشام على أحد سائليه عن وجوب وجود إمام. سأله الرجل: هل لك أن تثبت وتؤكد أنه لا بد لنا من إمام؟ قال هشام: بل وسوف أردّ بكلمتين وبأقل من دقيقة. . قال: كيف؟ - قال هشام: هل الله عادل أم جائر؟ فالتفت ذلك الرجل وكان يدعى ضرار - إلى هشام وقال: يا هشام إن الله عادل لا يظلم أحداً. قال هشام: أرايت لو أن الله - سبحانه وتعالى - كلّف الرجل المقعد بالمشي إلى المساجد، وبالجهد في سبيل الله؟ ولو أنه كلّف الأعمى بقراءة القرآن وقراءة الكتب؟ أيكون الله عادلاً في ذلك أم ظالماً؟ قال ضرار: الله لا يصنع ذلك. فقال هشام: أنا أعلم أن الله لا يصنع ذلك ولكني أسألك إذا فعل ذلك أيكون ظالماً أم عادلاً؟ قال: بل يكون ظالماً جائراً. قال هشام: هل كلف الله العباد أن يأخذوا ديناً واحداً مستقيماً أم ديناً أعوج متفرقاً؟ قال: بل كلفنا أن نأخذ الدين الواحد المستقيم. قال: عندما كلّف الله العباد أن يأخذوا الدين المستقيم هل بين لهم علماً ودليلاً على ذلك الدين أم لا؟ فإن أنت قلت إنه لم يبين

لهم الدليل ولم يعطهم علماً بذلك يكون قولك هذا كقول من يقول إن الله يكلف الأعمى القراءة والمقعد المشي إلى المساجد والجهاد في سبيل الله. فوقف ضرار - وهو صاحب الإمام علي - سلام الله عليه - وقال: أحسنت يا هشام، إذ لا بدّ لهم من دليل. قال: فالدليل يجب أن يكون دليل حق لا يخطئ، لأنه يحمل رسالة قرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا الدليل هو أئمة الحق، أئمة الهدى، الذين عينهم رسول الله - ﷺ ليكونوا الأئمة من بعده. فسكت الرجل.

الإمام موسى بن جعفر هو دليلنا إلى الله - أيها الأحبة - عودوا إلى سيرته الذاتية، اقرأوا تفاصيل حياته، وصفاته، تيقنوا من عصمته.

يقول شقيق البلخي: كنت في الصحراء، في طريقي إلى مكة، فلمحت شاباً، عليه سيماء الأنبياء، وكان يسير منفرداً، فقلت - ولم أكن قد تبينته جيداً - لعل هذا الشاب واحد من المتصوفة، وأظن أنه يريد أن يكون متكلاً على الحبيب فواحد يقدم له الطعام، وآخر يغسل له ملابسه، لأذهبن إليه وأعرف حقيقة أمره. ثم أقبلت عليه - وكان بعيداً مني - فتوقفت والتفت إليّ ثم قال: يا شقيق إن بعض الظن إثم. فقلت: لا إله إلا الله، سيدي! أنت تقول هذا الكلام فمن أنت؟ وما زادك؟ وأين راحلتك؟ وما مقصدك؟ - قال: يا شقيق، أما زادي فتقوى الله، وأما راحلتي فرجلاني، وأما مقصدي فبيته الحرام فأنا ضيف عند رب العالمين وإني متجه إليه. ويتابع شقيق فيقول: وكنت كلما اقتربت منه أخذتني هيئته حتى وصلت إليه فوقع على قدميه، وإذا جماعة من الناس، يقولون: يا شقيق البلخي أو تعرف من هذا؟ قلت: لا. قالوا: هذا موسى بن جعفر، باب الحوائج. ٩٩. هذا الكاظم، كاظم الغيظ حتى عن أعدائه.

﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾ (١)

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.

هذه الآية الكريمة، تنطبق على الإمام موسى بن جعفر، وحياة الإمام خير دليل على ما نقول.

شتمه رجل، وكان واحداً من الّد أعدائه، فأقبل عليه الإمام سيراً على الأقدام، واتجه صوب الرجل الذي كان داخل زرعته وقد اعتلى راحلته، وما إن رأى هذا الرجل الإمام مقبلاً عليه حتى صاح به: أفسدت عليّ زرعتي. ومضى الإمام في سيره باتجاه الرجل حتى وصل إليه ثم قال له: كم غُرمت في زرعك؟ قال: مائتي دينار؟ قال: وكم ترجو أن تصيب نفعاً منه؟ قال: أنا لا أعلم الغيب. قال: أعلم أنك لا تعلم الغيب، لكني سألتك: كم ترجو؟ قال: خمسمئة دينار. فأخرج الإمام صرةً فيها سبعمئة دينار ودفعتها إليه قائلاً: هذه الصرة لك. تفضل خذها، وبارك الله لك في زرعك هذا. ثم تركه وانصرف، وما إن غادر المزرعة، حتى عدا الرجل خلفه، وقد أخذ بهذا الموقف، وما إن لحق به حتى ضمّه وأخذ يقبله والدموع تجري على خديه وهو يقول: سيدي الله أعلم حيث يجعل رسالته، يا ابن رسول الله.

هذا هو الإيمان، وهذه هي الأخلاق. إيمان أئمة الحق وأخلاق أئمة الهدى.

كان الإمام يقوم بتفقد الفقراء، مستطلعاً أحوالهم، للتعرف إلى حاجاتهم ليقضي لهم حوائجهم، لذا كثرت زيارته التفقدية لبيوت الفقراء. وكان من شمائله، العفو عن المسيئين إليه، فكان إذا لقي الأذن من جاره يتوجه إلى زيارة ذلك الجار، تماماً كما فعل جدّه رسول الله مع جاره الذي آذاه في المدينة.

ولقد لقي هارون الرشيد، يوم جاء الرشيد إلى المدينة، وكان دافعه للقاءه هو تذكيره بحقوق الفقراء، مخاطباً إياه بالقول: اعلم يا هارون أن لله حقاً كبيراً عليكم. إنه حق الفقراء والمساكين، فعليك أن تعين الفقراء وأن

تطعم المساكين وأن ترفع الظلم عن الناس... إلى ما هنالك من كلام فيه تنبيه لهارون بوجوب إعطاء الناس حقوقهم، وإقامة العدل.

أما كيف استقبل الإمام من قبل هارون الرشيد؛ وماذا جرى بالتفصيل في هذا اللقاء؛ فمدون ومحفوظ، وقد عرضته المصنفات على النحو التالي:

أعدّ هارون الرشيد للإمام موسى بن جعفر استقبالاً حافلاً، وكان قد أمر حجابيه قائلاً: لا ينزل موسى عن راحلته، بل يطأ البساط عليّ وهو على ظهر راحلته، وحين التقاه كرمه، وأدناه إليه فأجلسه بالقرب منه، ثم إنه سأله: كم لديك من العيال؟ قال: خمسمئة - (يعني بهذا العدد، عدد البيوت التي كان يعيلها الإمام) فقال هارون: هذا يعني أنك تحتاج إلى مقدار كذا وكذا من النفقة، ثم وعد بأن يعطيه ما يكفي لقضاء حوائجه وحوائج من يعيلهم. وكان الإمام يستمع إلى كلام هارون من دون أن يبدي الرأي فيه. فلما نهض الإمام مغادراً قام هارون وشيَّعه بحفاوة، ثم التفت إلى حاجبه قائلاً: اكتب لموسى بن جعفر عطاءً بمقدار مئتي دينار!!

وبعد هذه الحادثة يقول المأمون: كنت واقفاً لما سمعت أبي وهو يأمر حاجبه بإعطاء مئتي دينار لموسى بن جعفر، فهزني الموقف، لأنني كنت قد شهدت دخول أبناء الأنصار والمهاجرين من سائر الناس، على أبي هارون، وكان يأمر بإعطاء الواحد منهم الآلاف من الدنانير، في حين أنه أمر بإعطاء موسى بن جعفر مئتي دينار فقط.

وكان المأمون قد سأل أباه، لما رآه يجلس الإمام موسى بن جعفر ويعظمه هذا الإجلال والتعظيم، من هو هذا الذي عظَّمته يا أبي وأجلسته إلى جانبك؟ قال الرشيد: هذا من رهبان بني هاشم. هذا ابن رسول الله، هذا إمام الحق، إمام القلوب بأمر الله سبحانه وتعالى. قال المأمون: إذا كان كذلك وإذا كنت تعلم أنه أحقّ منك بالملك فلماذا لم تقدم له الملك يا أبي؟

قال: يا بني إن الملك عقيم. فلو كنت أنت قد نازعتني على الملك
لأخذت ما فيه عينك.

أي أن هارون كان على استعداد لقطع رأس ابنه المأمون فيما لو
نازعه على الملك.

بقي أن نلفت إلى أن الإمام حين توجه إلى لقاء هارون، لم يتوجه
طلباً لمال، فهو بغنى عن أموال هارون، وإنما أراد أن يعلمنا درساً يجدر
بنا أن نتفهمه وأن ندرك مغزاه.

وللإمام مع هارون مواقف عديدة منها موقفه منه يوم توجه هارون
لزيارة قبر النبي - ﷺ وكان الإمام موسى بن جعفر جالساً هناك. أراد
الرشيد أن يستغل قرابته للنبي، على اعتبار أنه من بني العباس، والعباس
عمّ النبي، فقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا ابن العم
ورحمة الله وبركاته. وجهد أن يكون كلامه على مسمع الحاضرين جميعاً.
عندها وقف الإمام وقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبتاه
ورحمة الله وبركاته.

تغيّر لون وجه الرشيد، وارتدت قسماته، وبان عليه الغيظ فقال
مخاطباً الإمام موسى بن جعفر: أتزعم يا موسى أنكم أقرب إلى رسول الله
منّا نحن؟ أناديه: يا ابن العم، فتناديه أنت: يا أبي؟ فقال الإمام: بلى
أيها الأمير. لو بُعث رسول الله الآن وخطب منك إحدى كرائمك، أو كنت
تعطيه؟ قال الرشيد: أتشرف بمصاهرته. قال الإمام: أما أنا فلا يخطب
مني، لأن بناتي بنات رسول. فأنا حين أقول: يا أبي فلأنه أبي، ولأنني ابن
رسول الله ! ولهذا فإن الرشيد كان يتحين الفرص للإيقاع بالإمام موسى بن
جعفر.

هذا الإمام العظيم، الإمام موسى بن جعفر - سلام الله عليه - كرّس
حياته كلها للجهاد، وهكذا فإن حياته كانت سلسلة متصلة من المواقف التي

تعتبر دروساً ثمينة جداً في التربية، وهي مصابيح هداية ونور تضيء لنا الدرب وتبهر أماننا السبيل. ومن هذه المواقف - الدروس موقفه من علي بن يقطين. فقد كان هذا من شيعة الإمام ومن أحبته، وكان يشغل منصب الوزير الأول، أي رئيس الوزراء، في بلاط الرشيد، وقد كان قبوله للمنصب وتوليته للسلطة قد تم بأمر من الإمام موسى بن جعفر نفسه. ولربما تساءلتم كيف يصح ذلك، والقرآن الكريم يقول: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾^(١).

والجواب هو أن المشاركة في السلطة، وتولي منصب حكومي، قد يكون - في بعض الأحيان - ضرورياً من أجل قضاء حوائج الناس، ومن أجل استتباب الأمن والنظام وتسيير أمور عباد الله، وفي هذه الحالة يكون هذا الموقف من أروع المواقف التي ينال بها رضى الله - سبحانه وتعالى -

يقول علي بن يقطين: كتبت - يوماً - رسالة لسيدي ومولاي موسى بن جعفر، أطلب منه فيها أن يعفني من هذا الأمر (أمر المشاركة في السلطة)، فرفض الطلب وكتب في جواب ذلك: دعك في مكانك ولا تتركه أبداً، وكن حيث أنت في السلطة. ثم قال: «يا ابن يقطين إن لنا بك أنساً، وإن لإخوانك بك عِزاً، ولعل الله أن يجبر بك كسراً أو يكسر بك نائراً أثارها المنافقون والظالمة وأعوانهم. فكن في مكانك. يا ابن يقطين: اضمن لي واحدة وأضمن لك ثلاثاً. اضمن لي أنك لا ترى أحداً من المسلمين له حاجة إلا وقضيت له حاجته، وأضمن لك أن لا يظلك سقف سجن أبداً، ولا يرفع عليك أحد سيفاً أبداً، ولا يدخل الفقر بيتك أبداً». قلت: نعم سيدي أنا حاضر.

لاحظوا هذا التدبير، لاحظوا عمق التفكير، وكيف يكون التطبيق وكيف

(١) سورة هود؛ الآية: ١١٣.

تكون الممارسة.

موقف آخر.

رجلٌ اسمه إبراهيم الجمال. كان رجلاً فقيراً وكان عنده جمال يكرها. وكان هارون الرشيد، يكتري من إبراهيم جماله تلك، في بعض رحلاته إلى الحج. فكلم موسى بن جعفر إبراهيم في هذا الأمر وقال له: يا إبراهيم كل ما فيك حسن، إلا كراؤك الجمال من هذا الرجل. قال: سيدي أنا لا أرافقه في رحلته بل إن غلماني هم الذين يذهبون معه. قال الإمام: ألا تتمنى يا إبراهيم أن يعود الرشيد من الحج سالماً حتى يعطيك أجرة جمالك؟ قال: بلى - قال: هذه الحالة التي ترجو فيها من الله بقاء ظالم، هذه الحالة، هي التي تشركك مع الظلمة وأعاونهم يوم القيامة.

فما كان من إبراهيم إلا أن باع الجمال. ولما علم الرشيد بالأمر أرسل في طلب إبراهيم، ولما وقف بين يديه سأله: لِمَ بعت جمالك؟ - قال: يا أمير المؤمنين لقد كبرت في السن، ولم يعد لي قدرة على القيام بهذا العمل. قال: أنا أعلم بمن أشار عليك بذلك، ولولا صحبتك لضربت عنقك، أخرج، فخرج وهو يحمد الله ويشكره على نجاته من هذا الظالم.

تلك هي بعض أفعال الإمام وتلك هي بعض أفعال الرشيد، ويقولون لك بعد ذلك كله إن عصر الرشيد هو العصر الذهبي.

أي ذهبي هو ذاك؟ لو كان هناك عصر أسود، لكان عصر الرشيد هو هذا العصر الأسود. إنه عصر سفك الدماء والفسق والفجور والظلم.

فلنعد إلى مواقف الإمام، ولنلاحظ - أيها الأحبة - موقف الإمام من علي بن يقطين، وموقفه من إبراهيم الجمال. فعليّ يقول: البث مكانك حيث أنت في السلطة، وإبراهيم يقول: اترك عملك. فلنظن إلى المغزى من هذين الموقفين حيث يكمل الواحد منهما الآخر فلا يعارضه ولا يلغيه.

وينقضي زمن على حادثة بيع إبراهيم الجمال لجماله. ثم تعرض له

حاجة عند علي بن يقطين، فيتوجه قاصداً علياً ليقضي له حاجته. لكن علياً بن يقطين لم يسمح لإبراهيم الجمال بالدخول عليه، فيعود إبراهيم خائباً. وبلغ الإمام موسى بن جعفر، وكان مقيماً في المدينة، ما حصل لإبراهيم الجمال مع علي بن يقطين في بغداد. حتى عرضت حاجة لعلي بن يقطين في المدينة، فتوجه لقضاها، وانطلق، على عادته، إلى دار الإمام موسى بن جعفر بقصد السلام عليه، فلما طرق الباب طالباً الإذن بالدخول على الإمام، ردّ الإمام طلبه وقال لخدمه: لا تدع علياً بن يقطين يدخل علينا. وينقل الحاجب الأمر إلى علي بن يقطين الذي يستغرب الأمر ويسأل بدهشة مَنْ لا يعرف لهذا الصّدّ سبباً: ولماذا يا سيدي؟ فيأتيه جواب الإمام: لن نرضى عنك، حتى يرضى عنك أخوك إبراهيم الجمال. هذا الفقير الذي أتاك وأنت حاكم وبيدك سلطة فلم تستقبله ولم تقض حاجته، ولذا فانا لن أستقبلك حتى تقضي حاجة إبراهيم. قال علي بن يقطين: وأين هو إبراهيم الآن؟ وكيف أستطيع الآن أن أقضي حاجته؟

قال: عند رجوعك إلى بغداد، اسأل عنه واقض حاجته فإذا فعلت ورضي عنك، نرضى عنك، وعندها يكون بمقدورك الدخول علينا.

رجع علي بن يقطين إلى بغداد - في قصة طويلة مفصلة - ووصل إلى بيت إبراهيم فطرق عليه الباب، ولما سأل إبراهيم: من الطارق؟ أجابه علي: أنا علي بن يقطين. فقال إبراهيم: وما الذي جاء بعلي بن يقطين إلى بيتي؟ وهو الوزير الأول، وما بيني وبينه الحجاب والحراس والرماح والسيوف؟ قال: افتح الباب يا إبراهيم. ففتح إبراهيم الباب وإذا بعلي بن يقطين واقف بباب إبراهيم وقد وضع خذّه الأيمن على عتبة الباب. تعجب إبراهيم وقال: أنت علي بن يقطين فلماذا تصنع بنفسك ما أرى؟ قال: اسمع يا إبراهيم: سيدي ومولاي موسى بن جعفر غاضب مني. وقد قال لي: لا أرضى عنك حتى يرضى عنك أخوك إبراهيم الجمال. وها أنا الآن أمامك، أطلب منك أن تدوس خذي بهذائك، وأن ترضى عني حتى يرضى سيدي ومولاي

موسى بن جعفر.

قال إبراهيم: والله إني قد رضيت عنك، أما أن أدوس خدّك بحذائي فليس لي طاقة على ذلك. قال عليّ: لا والله، إلّا أن تدوس خدي بقدمك وأن يراني الله على هذه الحالة حتى لا أعود بعدها إلى ظلم إنسان فقير أبداً. عندها قام إبراهيم بما طلبه منه عليّ ووضع قدمه على خدّ عليّ الذي أخذ يقول: اسحق خدّي. وكان يتضرّع إلى الله قائلاً: إلهي... اللهم إنك تشهد أنني قد أرضيت عبدك إبراهيم الجمال، فليرض عني سيدي ومولاي موسى بن جعفر. ولما عاد عليّ في رحلة ثانية إلى المدينة، استقبله الإمام وتوجه إليه قائلاً: مرحباً بك يا ابن يقطين، كل شيء حسنٌ يقوم به أحدٌ من الناس، هو منك أكثر حسناً فيما لو قمت به، لقربك منا. وكل قبيح يرتكبه أحد من الناس، هو أكثر قبحاً إذا ارتكبه أنت، وذلك لقربك منا. ثم قال له: «كونوا زينا لنا، ولا تكونوا شيناً علينا».

- موقف ثالث -

جاء رجل من الأهواز إلى الإمام موسى بن جعفر، وهو في المدينة. قال الرجل: سيدي لديّ حاجة وأود أن تقضيها لي. قال الإمام: وما حاجتك؟ - قال: الوالي على الأهواز، من قبل هارون الرشيد، يطالبني بمالٍ كثير وأنا ما عدت أملك مالاً بسبب كساد تجارتي، وخسارتي لكل ما كنت أملكه. وهذا الوالي يطالبني ويخيرني بين اثنتين إما الدفع وإما السجن، فلو بعثت إليه برسالة تطلب إليه فيها أن يسامحني، فأخذ الإمام ورقة، وكتب فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى فلان بن فلان. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد، فاعلم أن الله تحت عرشه ظلاً لا يستظل به يوم القيامة إلّا من فرّج كربة أخيه المؤمن، وأخوك فلان عنده حاجة فاقضها له. والسلام.

يقول الرجل الأهوازي: أخذت الرسالة، وتوجهت إلى الأهواز: فلما بلغت دار الوالي، كان الوقت ظهراً، طرقت الباب وسألت عن الوالي فقال حجّابه: الوالي نائم الآن، فماذا تريد؟

قلت اذهبوا إليه وقولوا له: إني أحمل رسالة من العبد الصالح - وكان الإمام يعرف بالعبد الصالح، بحيث أنهم كانوا إذا تناقلوا أخباره وأحاديثه لا يذكرون اسمه، خوفاً من بطش العباسيين وأعوانهم - يقول: وبينما أنا كذلك، وإذا بالوالي قد خرج من داره فلما قرأ الرسالة أسقط ديوني كلّها إكراماً للإمام.

هذه صور من مواقف الإمام، وتلك هي بعض الأمثلة على ما قام به لقضاء حوائج الناس.

لكن هل تركته السلطات العباسية وشأنه؟ وماذا كانت مواقف الحاكمين منه؟

هارون الرشيد جدّ في طلب الإمام، وكان يتحين الفرص للإيقاع به، ولطالما استدعاه إلى بغداد، المرة تلو الأخرى فحيناً يستدعيه للاستهانة به، ومرةً ليسجنه، وثالثة للمحاسبة ورابعة وخامسة... وهكذا. وكان كلما أحضر إلى بغداد فرضت عليه الإقامة في الكرخ، وهي ناحية خربة من نواحي بغداد، وكانت تحدد إقامته في واحد من أكواخ الكرخ، في حين أن الرشيد كان يقيم في القصور على نهر دجلة، كقصر «دار الرقيق» وقصر الخلد.

وذات يوم - وفيما الإمام مقيم في كوخ من أكواخ الكرخ - دخل عليه رجل وسأله: سيدي أنت هنا في هذا الكوخ؟ فكان رد الإمام: يا فلان. المكان بالمكين. فأنا ابن رسول الله وريحانة سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء، فنحن أينما نكون، فإننا أهل البيت، والمكان لا يقدم شيئاً ولا يؤخر.

وتقلب الأيام، وشاء الله لذلك الكوخ الذي كان في الكرخ أن يتحول إلى قبة سامقة تناطح السحاب، وشاء لدار الرقيق وقصر الخلد، حيث كان هارون الرشيد يحيي الليالي فيهما بالاستماع إلى غناء إبراهيم بن إسحق الموصلي، أن يندثرا، ليتحولا أثراً بعد عين.

هيا بنا لربى الزوراء نسألها
عن ثلثين هما موسى وأحياء
فقد مشت وبني العباس سامرة
في ألف ليلة حيث العيش سرّاء
دار الرقيق وقصر الخلد طافحة
بما يلذ فأنغام وصهباء
تجيبك أن ديار الظلم خاوية
وأن للمتقين الخلد ما شاؤوا
وملّ إلى الكرخ وانظر قبة سمقت
تجاذبتها الثرىا فهي شماء
وحبي فيها إماماً من أنامله
سحابة الفضل والإنعام وكفاء

﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾^(١).

من هم الذين لا يريدون علواً في الأرض . ولا فساداً ؟
- إنهم أئمة الحق . والإمام موسى بن جعفر واحد من هؤلاء الأئمة .
أما الذين يريدون علواً في الأرض وفساداً، فهم الذين يعجبنا قولهم في الحياة الدنيا.

﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا . ويشهد الله على ما

(١) سورة القصص؛ الآية: ٨٣.

في قلبه وهو الذَّ الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك
الحرث والنسل^(١).

كان هاجس الإمام موسى بن جعفر - سلام الله عليه - أن يمنع موجة
الفساد . فلقد كان العابد الزاهد ، وكانت له ثغفات من أثر السجود ،
كثفثات جدّه زين العابدين .

جاءه الناس، وقت إقامته ببغداد، وقالوا له: يا ابن رسول الله، هذا
الرجل - بشر الحافي - أفسد شبابنا وبناتنا. فهو يقيم في بيت وسط البلد،
وقد حوّل بيته هذا إلى حانة للخمر، ومربع للرقص والغناء وهذا دأبه كلّ
ليلة حيث ينقلب الشباب إلى بيته ابتغاء هذه المفاسد. فلو أنك كلمت
الرجل، لعلك تجد لنا حلاً لهذه المعضلة. إذ ليس لنا سواك، طالما أن
هارون الرشيد، وسائر العباسيين، يشجعون الفساد، فلن نلقى عند أي
منهم أذنًا صاغية لشكوانا. أما أنت، فإمامنا وابن نبيّنا، وأنت الآن مقيم في
ديارنا.

خرج الإمام قاصداً دار بشر، خرج بنفسه، من دون أن يستعين
برسول أو يكتفي برسالة، ولم لا؟ فالأمر خطير، ويتعلق بموضوع الأخلاق
والإفساد في المجتمع، فلنلاحظ ذلك، ولنفطن إلى أهمية الدرس، إذ نحن
الآن في مدرسة الإمام موسى بن جعفر، في مدرسة باب الحوائج. فكل
كلمة نسمعها هي قبسٌ من نورٍ يضيء عقولنا وأفكارنا، ويزيد من خشوع
قلوبنا، ويربطنا بالله - سبحانه وتعالى - ويعلمنا معنى رسولية الرسول
الأعظم، ويبين لنا معنى سيرة النبي - ﷺ -

خرج الإمام وسار باتجاه دار بشر، ولما بات قريباً من ذاك الدار،
ترددت في أذنيه أصوات المغنين والمغنيات. وشاءت حكمة رب العالمين
أن يصادف مرور الإمام بدار بشر لحظة خروج إحدى الراقصات وقد حملت

(١) سورة البقرة؛ الآيات: ٢٠٤ - ٢٠٥.

طبقاً عليه فضلات الطعام الذي يوضع على مائدة الشراب - مائدة الشيطان - وما أن همت بإلقاء ما في يدها، حتى اعترضها الإمام سائلاً: لمن الدار؟ قالت: هي لسيدي بشر. قال: سيدك هذا هل هو حرٌّ أم عبد؟ قالت: بل هو حرٌّ. قال: صدقت، إذ لو كان سيدك عبداً لله، لاستحي وخاف من الله. فارتعدت الجارية، وعادت مرتجفة الأوصال والفرائص. ورآها بشر على هذه الحالة، فسألها: ما وراؤك؟ قالت: رجل عجيب عليه سيماء الأنبياء وقد أخذتني هيئته، وأعادت على مسامع بشر كل ما دار بيننا وبين الإمام موسى بن جعفر من حديث، من دون زيادة أو نقصان. فقال بشر: هذا موسى بن جعفر. وفي اللحظة ذاتها ترك الغناء والطرب والرقص ثم أخذ يعدو ليلحق بالإمام، ولما أدركه استوقفه قائلاً: أصبح سيدي أنني لا أخشى الله؟ قال: نعم يا بشر، إذ لو كنت تخافه لما عصيته، ولو استحييت منه لأطعته. قال: سيدي فهل ترى لي من توبة؟ فأنا تائب. قال: يا بشر إن تبت تاب الله عليك، فאלله غفور رحيم. قال: كيف يتوب عليّ؟ قال الإمام: إنه يمحو ذنوبك كلها. قال: سيدي. أنا أعاهدك، أن أعود الآن وأكسر كل أنية الخمر، وأرمي بالخمير كله.

لاحظوا - أيها الأحبة - أن الإنسان حين يستحق الهداية، عليه أن لا يخشى كثرة ذنوبه السالفة، وعليه أن لا ييأس من رحمة الله، قائلاً: أنا مذنب وذنوبي كثيرة فمن أين يغفر لي الله كل هذه الذنوب؟ - لا. إن رحمة الله واسعة.

﴿ولا تياسوا من روح الله إنه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾^(١).

فلو كانت ذنوبك بقدر كل جبال الدنيا، وكل بحور العالم فإن الله

(١) سورة يوسف؛ الآية: ٨٧.

يفغرها لك في لحظة توجه إلى ربّ العالمين. فإن كان بيننا الآن من لا يزال يشرب الخمر، فليعمد- ومنذ هذه الليلة بالذات- إلى الكفّ عن ذلك، وإلى التخلص من كل قطرة خمرٍ يحتفظ بها، إن في الزجاجات المخصصة للاحتفاظ بها، أو في زجاجات وأوعية أخرى مملوءة على أنها مياه صحتة معبأة، أو ما شابه ذلك من أساليب التمويه المعتمدة لتسريب الخمر إلى الكويت تحايلاً على قرار منع الخمر.

ونعود إلى بشر، فإنه عاد- بعد ذلك- مسرعاً إلى داره، ورمى بكل أنية الخمرة وكؤوسها، وبكل ما حوته داره مما يمت بصلة إلى الخمرة. وأخرج الراقصات والمغنين والمغنيات قائلًا لهم: هذا آخر العهد باللهمو والفساد، وهذا فراق ما بيني وبينكم. ثم أنه قام يغسل داره، واغتسل اغتسال التوبة، ثم وقف بين يدي الله، وشرع في الصلاة حتى إذا فرغ من صلاته، أخذ في مناجاة رب العالمين قائلاً: سيدي، وحقّك، ما دامت الهداية قد أدركتني وأنا حافي القدمين، سعيًا وراء وليّك موسى بن جعفر، لأبقيّن حافيًا ما حييت. وقد التزم بهذا القسم، فسمي لذلك: بشر الحافي. ثم أنه انصرف للعلم فبرز فيه وأصبح واحداً من العلماء المجاهدين، ومن الأتقياء الورعين. ويوم وافته المنية شيعته بغداد بإجلال، وقبره لا يزال- إلى الآن- في محلة الشيخ بشار.

سئل ذات يوم: يا بشر كيف بلغت ما بلغته؟ قال: ذات مرة كنت سائراً في أحد شوارع بغداد، وكنت في حالة السكر الشديد، فوقع نظري على ورقة من المصحف الكريم، ملقاة بين النفايات وقد علق بها الأوساخ والأدران، فحملتها ونزلت بها إلى نهر دجلة فغسلتها ثم أخرجت من جيبي عطراً، فطويت اسم الله وآيات القرآن ثم أودعت تلك الورقة في جيبي وعدت إلى بيتي متعباً فنمت. وأثناء نومي سمعت هاتفاً يناديني: يا بشر، يا بشر. لقد طويت اسمي، لأطيين اسمك في الدنيا وفي الآخرة.

هذه هي الهداية- أيها الأخوة- فمجالسنا هذه هي مجالس رحمة،

إنها محافل نعمة. وهذه الليلة نتجه إلى الله في رحاب موسى بن جعفر. هذه الليلة نتوب إلى الله، رجالاً ونساءً. نتوجه إلى الله طالبين منه التوبة، طالبين الرحمة. فالحياة فرصة. فلنستفد من هذه الفرصة، ولنغتنيها، طالبين إلى الله أن يوقفنا إلى بذل أموالنا وطاقتنا وأرواحنا في سبيل الله، وفي سبيل نشر الإسلام، ومن أجل إعلاء كلمة لا إله إلا الله.

أمضى الإمام موسى بن جعفر معظم حياته، نزول سجون العباسيين، الذين عمدوا إلى نقله من سجن إلى آخر، والإمام صابراً، ثابت على إيمانه، وعلى التمسك بنهج الرسول ونهج أسلافه من الأئمة.

مواقف موسى الهادي العباسي الشائنة

وقد عاصر الإمام موسى بن جعفر، عدداً من خلفاء بني العباس، ومن هؤلاء: المهدي العباسي وكانت مدة خلافته عشر سنوات وثلاثة أشهر. وجاء بعده ابنه موسى الهادي، وكانت مدة حكمه ثلاثة عشر شهراً. دمر خلالها العديد من البلاد وأهلك الكثير من العباد، لأنه كان من أخس خلق الله. ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾^(١) هذا الحاكم الفاسد، طارد العلويين والفاطميين وذرية النبي ولاحقهم وراء كل حجر وخلف كل مدر، حتى أنه كان يأمر ببناء جدران البيوت فوق أجسادهم. وقد حفظ كتاب أبي الفرج الأصفهاني (مقاتل الطالبين) صور هذه المآسي المروعة. ومن بين هذه الصور، صورة فتى في الحادية عشرة من عمره. إحدى عشرة سنة فقط، كان عمر ذاك الفتى يوم ألقي القبض عليه وصدر الحكم بأن يوثق وتقام فوق جسده أسطوانة. وحين أوقفه البناء، وشرع في بناء الأسطوانة، رأى دموعه وقد انهالت على خديه. فسأله: ما الذي يبكيك؟ قال: والله أنا لا أبكي خوفاً من الموت، وإنما أبكي حزناً

(١) سورة البقرة؛ الآية: ٢٠٥.

على أمي، وإشفافاً مني على قلبها، لأنني تركتها وحيدة في البيت، وكنت قد خرجت لأشتري لها حاجة وأعود. وأنا وحيدها، وإنني لأعلم أنها سوف تموت جزءاً إذا لم أرجع الليلة إليها، فلو تكررمت عليّ وسمحت لي بأن أرجع إليها لأودعها، وأقول لها بأنني ذاهبٌ في سفر، فلعلها تهتدأ ويطمئن قلبها، وبعدها يمكن أن ينقضي شهران أو ثلاثة، فتساني. قال البناء: وكيف لي أن أطمئن إلى أنك سوف ترجع إليّ؟ قال الفتى: أعاهدك على أن أرجع. رَقَّ قلب الرجل لهذا الفتى - أي أن الرجل أدركته الهداية - فقال له: اذهب إلى أمك. ثم إن البناء جاء بولده فأوقفه في المكان الذي كان يقف فيه ذاك الفتى، ولبث ينتظر، وأخذته غفوة فسمع صوت فاطمة الزهراء - عليها السلام - وهي تقول له: أنقذت ولدي من الموت، يا شيخ - حشرك الله مع أبي محمد وآل بيته الطاهرين... أخرج ولدك الآن، وأكمل بناء الإسطوانة ولن يراك أحد، ولن يسالك أحدٌ عما فعلت.

استفاق الرجل، فصلى ركعتين، ثم قال: هذه طريقي إلى الله، وتوتي إليه. ثم إنه أخرج ولده، وبنى الإسطوانة وأعمى الله أبصار الشرطة عنه، فلم ير أحدٌ منهم ما جرى، كما أنهم لم يعملوا إلى التثبت من حسن تنفيذ المهمة عبر ضرب الإسطوانة للتأكد من ذلك، كما جرت العادة عندهم في مثل هذه الأحوال - وبعد هذه الحادثة، استعفى البناء من مهمته، وترك خدمة السلطة السياسية الظالمة والتحق بخدمة أهل البيت. وهذه الحادثة الإجرامية، وسواها من الحوادث المشابهة، ليست سوى حرف من السجل الأسود الكبير لتاريخ حكم العباسيين الملطخ بالدماء، والحافل بالمآسي وارتناب أبشع أنواع المجازر - بحق أبناء عليّ وفاطمة.

ومن بين هذه المجازر حادثة يوم الفخ، التي ارتكبها موسى الهادي نفسه.

والفخ هو اسم لمكان يقع بين مكة والمدينة. يروى عن

الرسول - ﷺ - أنه نزل ذات يوم بفخ، وكان في طريقه من المدينة إلى مكة. وأثناء صلاته أخذ يكي، وبكى من معه من المسلمين لبكائه. فلما فرغ من الصلاة سئل: ما الذي أبكاك يا رسول الله؟ قال: أخبرني جبرائيل أن ولدأ من صليبي سوف يقتل ها هنا وأن اسمه الحسين، فبكيت لأجله ولأجل ولدي الحسين.

والحسين صاحب واقعة الفخ هو الحسين بن علي الخير، واسم أخته زينب، فالواقعة قرية الشبه بواقعة كربلاء، لتشابه الأسماء من جهة، ولتشابه ما ارتكب في كل منهما من فظائع وما حلَّ فيهما من مأس، على ما بين الواقعتين من الفروق الشاسعة الهائلة.

كان الوالي على الفخ من قبل موسى الهادي، يطارد أبناء رسول الله، ويلاحق مشايحي أهل البيت، وكان يعتمد إلى التشهير بهم مشيعاً بين الناس أنهم شاربو خمور، مرتكبو معاص، في حين أنهم أهل صلاح وتقى وورع وإيمان. وكان يعتمد إلى ضربهم وإذلالهم بحيث أنه كان يقوم بحلق شعر رؤوسهم، ويُرْكَب الواحد منهم بغلة ويأمر زبانيته بأن يطوفوا به في الأحياء - وهم على هذه الحالة - وحين تفاقم الأمر، نهض الحسين بن علي الخير، وأخوه يحيى، للثورة على هذا البغي والظلم. وكانت الشرارة الأولى للثورة، حين طلب الحسين بن علي الخير، من المؤذن أن يعلن في أذانه: «حيّ على خير العمل». وحين سمع الوالي الأذان أدرك خطورة الأمر، فولى هارباً.

بعدها جمع الحسين بن علي الخير أعوانه، وكان عددهم ثلاثماية شاب من الشباب المؤمنين، وحمل معه عائلته وأطفاله وخرج بهم إلى الصحراء، وفي هذه الأثناء كان موسى الهادي قد أعد جيشاً من آلاف المقاتلين، ولاحق الحسين بن علي الخير. وحين أدرك الجيش العباسي، هذه الثلاثة المؤمنة، عمد إلى محاصرتها، فأحاط بها من كل ناحية وسدّ

عليها السبل والمنافذ، وبعدها قام بالهجوم ممعناً تقتيلاً حتى أفناهم عن
بكرة أبيهم.

وتشبهاً بيزيد بن معاوية، عمد العباسيون بعد ذلك إلى قطع رؤوس
قتلاهم وحملوها على رؤوس الرماح. انطلق الجيش العباسي، برؤوس
الرجال، قاصداً قصر موسى الهادي ببغداد، وقد حمل هذا الجيش معه إلى
بغداد الأطفال والسبايا من النساء، وقد أوثقوا جميعاً بالحبال. ولما ادخلوا
على موسى الهادي، أخذ يويخ الأطفال. ويضرب بعدها أعناقهم، فكانت
الرؤوس تتطاير بين يديه وهو يردد منشداً:

بني عَمْنَا لا تنشدوا الشعر بعدما
دفنتم بصحراء الغميم القوافيا
فلسنا كما كنتم ترجّون نيله
فيقبل حكماً أو يحكم قاضيا
ولكن حكم السيف فينا مسلط
فنرضى إذا ما أصبح السيف راضيا
لاحظ الفرق بين كلام الإمام الحسين حيث يقول: «رضا الله رضانا
أهل البيت»، وكلام هذا الحاكم العباسي حيث يقول:
«فنرضى إذا ما أصبح السيف راضيا»
أو قوله أيضاً:

فلإن قُلْتُم إِنَّا ظَلَمْنَا فلم نكن
ظلمنا ولكنّا أسأنا التقاضيا
ولا بد في هذه المناسبة من التذكير بأن أول رأس طيف به في
الإسلام، كان رأس عمر بن أعمق الخزاعي، وقد قتله رشيد البحري ثم
حمل رأسه من الكوفة إلى الشام، وكان ذلك في زمن معاوية، وبعد ذلك

سار يزيد بن معاوية على هذا النهج وتبعه الأمويون في ذلك، ولحق بهم العباسيون فيما بعد.

وبعد واقعة الفخ، أخذ موسى الهادي، يتهدد الإمام موسى بن جعفر ويقول: قتلني الله إن لم أقتل موسى بن جعفر. وبلغت التهديدات مسامع الإمام - وكان حينها في المدينة - فاجتمع حوله أهل بيته وقالوا له: سيّدنا، الرأي عندنا أن نتوارى وتحتجب عن هذا المجرم وأعدائه، فتبسّم الإمام وتمثّل مردداً:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً فانعم بطول سلامة يا مربع

ثم إن الإمام - بعد ذلك - أسبغ الوضوء، وقرأ دعاء الجوشن الصغير:

إلهي كم من عدوّ انتضى عليّ سيف عداوته، وشحذ لي غبّ مديته،
وأرّهف لي شبا حده، وأمن لي قوائل سمومه، ولم تنم عني عين حراسته،
وأضمر أن يسومني المكروه ويجرّ عني مرارته، نظرت إلى ضعفي عن
احتمال الفواحش، وعجزني عن الانتصار... الخ (الدعاء المعروف) ولما
أكمل الإمام الدعاء، التفت إلى أهل بيته وقال: لقد قتل موسى الهادي!
أهلكه الله في هذه اللحظة. وينقضي يومان فإذا بالبريد الوافد إلى المدينة
يحمل نعي موسى الهادي.

الرشيد وحديث السجون

ويتخلص عباد الله المؤمنون من شرّ هذا المجرم الطاغية، ويخلفه هارون الرشيد، وتبدأ مطاردته للإمام. وإذا بهارون الرشيد، أشدّ على الإمام موسى بن جعفر، من سالفه الرشيد، المهدي والهادي.

تبدأ المطاردة فالسجن. وإذا بسجون الرشيد، تنهياً لاستقبال الإمام. فمرة يسجن في البصرة، وثانية في سجن الفضل بن الربيع، وثالثة في

سجن البصرة من جديد عند واليها يحيى بن خالد البرمكي، ورابعة في سجن السندي بن شاهك وهكذا حتى بلغ عدد السجون التي سجن فيها الإمام موسى بن جعفر، تسعة سجون. وبلغت مدة سجنه عشرين عاماً بحسب بعض الروايات، وثلاثة وعشرين عاماً بحسب بعضها الآخر. وهكذا فإنك تجد لدى هذا الإمام صموداً في وجه الباطل وقوة على مواجهته، وثباتاً على الحق، انتصاراً للناس وحقوقهم، ودفاعاً عن المحرومين والمستضعفين.

وكثيراً ما كان يطول به السجن، فقد لبث، في إحدى المرات، أربع سنين متواصلة في السجن، كما أنه لبث في سجن الفضل بن الربيع مدة سنتين كاملتين.

يقول عبد الله القروي: دخلت على الفضل بن الربيع، وكان الوقت صيفاً، وكان الفضل على سطح داره فدعاني إلى حيث يجلس فصعدت إليه، ولما استقر بي المقام قال لي: تطلع يا عبد الله إلى صحن الدار فماذا ترى؟ قلت: أرى ثوباً مطروحاً. قال: دقق النظر. فحدقت، ولمّا تحققت ممّا أرى، قلت: إني أرى رجلاً ساجداً. قال: أتعرف من هذا؟ قلت: لا. قال: هذا الإمام موسى بن جعفر، إنه يسجد سجدة بعد صلاة الصبح فلا يرفع رأسه إلا بعد مضي وقت طويل. ثم يعقبها بسجدة ثانية مثلاً. زاهدٌ، عابدٌ، يقرأ القرآن، فإذا مرّت به آية فيها وعيد ردها بانتحاب وعويل وبدموع جارية.

وعن الفضل بن الربيع قال: أمرت أن أخرج موسى بن جعفر من السجن فتوجهت إليه وفتحت الأقفال وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، فسمعت الإمام موسى بن جعفر يقرأ القرآن بصوت حزين خاشع. وحين أحسّ بقدومي، نادى: من القادم؟ قلت: الفضل بن الربيع. قال؛ وما الذي جاء بك في هذه الساعة؟ قلت: سيدي. أمّرتُ - والله - بإطلاق سراحك.

قال: إن كنت مأموراً، بغير هذا. فافعل، فأننا قد أسلمت أمري إلى الله - سبحانه وتعالى - فإذا كنت قد أمرتُ بقتلي فافعل. قلت: لا والله يا سيدي، إنما أمرت بإطلاق سراحك، وأنا أخيرك بين أن تقيم عندنا أو أن ترحل إلى أهلك. فقال لي: لا يا ربيع، دعني أذهب إلى أهلي، فلقد أوحشهم فراقِي وقد مرَّ وقت طويل ولم أرهم فيه.

ولم تمص سوى أشهر، حتى ألقي القبض من جديد، على الإمام موسى بن جعفر وأودع هذه المرة، في سجن البصرة لدى واليها يحيى بن خالد البرمكي، وبعد ذلك اقتيد إلى سجن السندي بن شاهك، وكان السجن - ها هنا - عبارة عن طامورة في الأرض لا يعرف فيها الليل من النهار، فكان الإمام يتعرَّف إلى مواقيت الصلاة من السَّجَّانين، ولهذا فنحن نقول في زيارة الإمام: «السلام على المعتَّب في قعر السجون، وظُّلم المظلَّمير، السلام على ذي الساق المرضوض بخلِّ القيود، السلام على الجنَّاة المنادى عليها بذل الاستغفارة».

قال علي بن سويد: دخلت على سيدي موسى بن جعفر، أستخبره واستبشسه قائلاً: سيدي، متى يكون الفرج؟ لقد ضاقت صدورنا، فمتى تخرج من السجن يا ابن رسول الله؟ قال لي: يا ابن سويد لقد قرب الفرج، قلت: متى يكون ذلك سيدي؟ قال: انتظروني يوم الجمعة القادم، على الجسر ببغداد.

خرجت من السجن، لا تكاد تحملي قدمي من الفرج، وأسرت أطرق أبواب أصحابنا باباً، باباً وأنا أقول: الإمام سوف يخرج من السجن، فيسألون: وأين يكون اللقاء، ومتى؟ فأقول: ضحى على الجسر ببغداد.

ويتابع علي بن سويد روايته قائلاً: جئنا يوم الجمعة وأخذنا نتظر قدوم إمامنا موسى بن جعفر، وطال بنا الانتظار. ارتفعت الشمس وما من خبر عن الإمام ولما صارت الشمس عند الزوال، إذا بأربعة من الحمالين يقبلون نحونا

وقد حملوا نعشاً، ونظرنا فإذا جنازة، مكبلة اليدين بالحديد، ومقيّدة رجلاها بالقيود - جاؤوا بالجنازة فطرحوها على الجسر بيغداد ثم نودي عليها بأشع نداء .

يقول علي بن سويد: وقفت عند سيدي، موسى بن جعفر، ثم إني بعد ذلك أتيت طبيباً نصرانياً، كانت لي به علاقة صعبة، فقصدته ثم قلت له: يا أخ النصرارى، أنت طبيب فبالله عليك، اكشف لي عن سبب وفاة هذا المسحّجى؟ فأخذ الطبيب يد الإمام، وبعد أن جسّها وتأمّلها، التفت إليّ قائلاً: يا ابن سويد أما لهذا الرجل من عشيرة؟ قلت: لِمَ؟ وماذا تريد من عشيرته؟ قال: يا ابن سويد: إن كان للرجل عشيرة فليطالبوا بدمه، فوحقّ المسيح عيسى بن مريم، إن الرجل مسموم، وقد قطع السمّ نياط قلبه.

إنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

- إلهنا تقبل أعمالنا -

حضارة الغيب والشهادة
عند الإمام موسى بن جعفر
عليه السلام

حضارة الغيب والشهادة عند الإمام موسى بن جعفر عليه السلام^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾^(٢).

عالم الغيب وعالم الشهادة

إننا نعيش في عالم يتقسم إلى قسمين يطلق الله تعالى عليهما اسمي الغيب والشهادة، فثمة عالم الغيب، وثمة عالم الشهادة، وليس المقصود بعالم الغيب هنا عالم الغيب الذي يذكره القرآن الكريم وهو عالم يعني الله تعالى. وإنما المقصود به العالم الذي لا تدركه حواس الإنسان. ونقيضه عالم الشهادة وهو العالم الذي نشاهده ونحسه. ويكون عالم الغيب كعالم الشهادة بالنسبة للإنسان المؤمن بالله. لأن الإيمان ينير النفس الإنسانية فتكشف أمامها أسرار عالم الغيب.

﴿واعلموا أنه ليس لهذا الجلد الرقيق صبر على النار﴾

(١) أُلقيت هذه المحاضرة في السادس من صفر سنة ١٤١٢ هـ .

(٢) سورة الزمر، الآيتان: (١٧ و ١٨).

قال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام لتلميذه البارّ هشام بن الحكم، وكان هشام شاباً يتفجّر علماً ويتألق نوراً وفكراً. «يا هشام أوصيك، يا هشام، إنّ الله تبارك وتعالى مدح أهل العقل والفهم في كتابه فقال: ﴿فبشّر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾. يقول الإمام عليه السلام إنّ الله قد مدح أهل العقل والفهم، لاحظوا التعبير. وتقول الآية الكريمة: ﴿الذين يستمعون القول﴾ لاحظوا الربط القائم بين القول عندما تسمعون وبين حركة العقل الذي تستوعبون القول به فتكونوا بذلك فاهمين راشدين، ﴿إلا أصحاب اليمين في جنّات يتساءلون عن المجرمين، ما سلككم في سقر﴾^(١) فأخذ المجرمون يعددون أسباب سلكهم في سقر. ﴿قالوا لم نك من المصلّين، ولم نك نطعم المسكين، وكنا نخوض مع الخافضين، وكنا نكذب بيوم الدين﴾^(٢).

﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾^(٣)، فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير^(٤)، والسعير واد من أودية جهنّم، إذا فتح طبق منه تضجّ جهنّم من لظاه. وللسعير أصحابه، وقد سألهم الملائكة وأهل الجنة قائلين: «لماذا دخلتم السعير يا أصحاب السعير؟». فأجابهم أصحاب السعير قائلين: ﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾. لاحظوا هذه الإجابة الدقيقة. فمن المستحيل أن يكون لدى الإنسان ذرّة من العقل ويسلك نفسه مع أصحاب السعير. قال أمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «واعلموا أنّه ليس لهذا الجلد الرقيق صبر على النار. فلينظر أحدكم إلى الشوكة تصيبه، والحجر يدميه». ﴿قالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾. ﴿فاعترفوا بذنبهم﴾. فإن لا

(١) سورة المدثر؛ (من ٣٩ إلى ٤٦).

(٢) سورة الملك؛ الآية: (١٠).

(٣) سورة الملك؛ الآية: ١١.

نسمع، أو لا نعقل ما نسمع ذنب كبير. آيها الأخوة والابناء، إن حضورنا مجالس العلماء وأهل الذكر وسماعنا لهم إن في المساجد وإن في المجالس الحسينية هو الخطوة الأولى التي تنجينا من السعير، أما الخطوة الثانية فهي أن نعقل ما نسمع ونعمل به، ولعلها الخطوة الأهم، إذ ما الفائدة مما نسمع إذا كان يدخل من إحدى أذنينا ليخرج من الأخرى؟

في ليلة الإسراء والمعراج، عندما وصل الرسول الأعظم ﷺ إلى السماء السابعة، سمع ضجّة في جهنّم، فسأل جبريل قائلاً: حبيبي جبريل، ما هذه الضجّة؟ فقال جبريل ﷺ: «يا رسول الله، إنها صخرة حرّكها مالك خازن النار قبل سبعين عاماً، وقد وصلت الآن إلى قعر جهنّم». والصخرة التي يتكلّم عنها جبريل ليست من الصخور التي نعرفها، فمن الممكن أن تكون أكبر من الكرة الأرضية بآلاف المرات، لأنّ مقاييس السماء تختلف عن مقاييس الأرض. وكلمة سبعين في كلام جبريل لا تعني العدد المعروف، وإنما هي كناية عن الكثرة، قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾^(١)، وهذا القول لا يعني أنّ الله يغفر للمنافقين والمشرّكين إذا استغفر لهم الرسول ﷺ إحدى وسبعين مرّة. فالسبعون في قوله تعالى كناية عن الكثرة. وبهذا المقياس يجب أن نقيس نار السعير. ونفهم على ضوءه قول الإمام عليّ عليه السلام: واعلموا أنّه ليس لهذا الجلد الرقيق صبر على النار.

الحضارة الماديّة عرجاء لأنها لا تتعلّى عالم الشهادة، إنّ حضارة اليوم الماديّة تنظر إلى العالم من زاوية واحدة هي زاوية عالم الشهادة، بينما تعمى أو تتعمّى عن عالم الغيب، إذا ذهبنا إلى أرقى الجامعات العلميّة، لوجدت أنّ جهابذة العلم فيها لا يؤمنون بعالم الغيب إيماناً واضحاً وأكيداً،

(١) سورة التوبة؛ الآية: (٨٠).

مع أنهم يدرسون ويدرسون علم النفس وربما علم تحضير الأرواح. ومع ذلك فإنهم فيما يدرسون ويدرسون لا يتخطون العالم المحسوس أي عالم الشهادة. إنهم يحسبون أن الوجود الإنساني لا يتجاوز العمر الذي يعيشه الإنسان، فإذا حدث أحدهم عن جنة ونار، أثرت دهشتهم وربما ضحكهم وسخريتهم. وفي هؤلاء قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يَهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾^(١). كنت في إفريقيا يوم سألت زعيماً من زعماء المسيحيين عن عقيدته في الآخرة. فاجابني قائلاً: «والله لا أدري، ولا أعرف أن هناك آخرة. وربما كانت نهاية الإنسان في الوجود موته وتحوله إلى تراب». فقلت له: «هل كان هذا هو اعتقاد السيد المسيح؟ قال: لا. ولكن كل ما في الأمر أنني أعرف أن مسألة الآخرة وما فيها من جنة ونار لا تدخل عقلي».

فتأملوا الخسارة الكبرى التي يُعنى بها الإنسان عندما يفقد الإيمان بالآخرة، لأن ذلك يجعل حياته جحيماً لا يطاق. فالإيمان بالآخرة يوجّه سلوك صاحبه في الحياة الدنيا، فيكون حريصاً أشدّ الحرص على عبور الصراط القائم فوق نار جهنم، وهو يعرف أنه لن يعبره إلا بنور الإيمان. وهذه المعرفة لا تتوافر له إلا في مدرسة أهل البيت عليه السلام. فقد أثر عن الأئمة الباقر والصادق وموسى بن جعفر عليه السلام أن نور الإيمان هو الذي يحرك الإنسان ويقوده على الصراط المنصوب فوق جهنم. ونور الإيمان يتأتى عن علاقة المؤمن بالله، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور. وكما أن هناك الصراط المنصوب في الآخرة، فهناك الصراط المنصوب في الدنيا فوق نار الشهوات والأهواء وغوايات الشيطان الرجيم. فالأموال نار، والغريزة الجنسية نار، والحسد نار، والطمع نار، والغيبة والأناية وعدم الشعور بالمسؤولية، كلها نيران الحياة الدنيا، وليعبر الإنسان الصراط المنصوب فوق نار جهنم في الآخرة لا

(١) سورة الجاثية؛ الآية: (٢٤).

بدّ له أن يعبر الصراط المنصوب فوق نيران الحياة الدنيا. فمن يسقط هنا يسقط هناك. وكلّما فهم الإنسان حقيقة عالم الشهادة ازداد إيماناً بعالم الغيب. وكلّما ازداد إيماناً بعالم الغيب ازداد قدرة على اكتشافه. وفي علم النفس الماثور عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: كلّما عظم الله في نفسك ازدادت نفسك شفافية وقدرة على التقاط الصور من المستقبل، فتسمع جحيم النار وعذابها وكأنّما الأغلال تصكّ مسامعك، وتسمع رداح الجنّة ونعيمها وكأنّما تعيش تحت ظلالها. لذلك ترى المؤمن عندما يقرأ آية فيها نار وأغلال يبكي، فإذا مرّت به آية فيها نعيم وجنّات وحوور عين، ورحمة ربّ العالمين، يكاد يتفجّر ويطيّر فرحاً «أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلاً، إذا مرّت بهم آية فيها وعد أو وعيد ردّوها بانتحاب وعويل». هذه الحال، على ما اعتقد واضحة في أذهاننا لأنّها مصوّرة أمامنا، ولذلك فإنّنا لا ننفك نبتهل إلى الله قائلين: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾.

حياة أهل البيت عليهم السلام مسيرة واحدة

حياة أهل البيت وخاصة الأئمة الإثني عشر عليهم السلام مسيرة أو قل سبيكة واحدة من أنوار متصل بعضها ببعض، أمّا اختلاف المواقف فعائد لاختلاف الزمن. فلو كان الإمام الصادق عليه السلام في أيام الإمام الحسين عليه السلام لصنع كما صنع الإمام الحسين عليه السلام. ولو كان الإمام الجواد عليه السلام في أيام الإمام موسى بن جعفر عليه السلام لدخل السجن وبقي فيه عشرين سنة كما حدث للإمام موسى بن جعفر عليه السلام. تختلف الظروف أمّا الهدف فواحد والنور واحد. وقد تأكّد لعلّماننا الأبرار الذين درسوا ظروف الأئمة الإثني عشر عليهم السلام أنّ هناك إثني عشر ظرفاً وإثني عشر دوراً، وتلك الظروف والأدوار لا تنفكّ تتكرّر في الحياة. ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾^(١) ولذلك فانت عائش إمّا في

(١) سورة آل عمران؛ الآية: (١٤٠).

ظرف ودور الإمام الحسين أو ظرف ودور الإمام الباقر أو ظرف ودور الإمام الصادق... وهكذا. فعليك أن تتخذ الموقف المناسب لذلك الظرف والدور، ولو أننا درسنا كل شخصيات الإسلام ورجالاته لما وجدنا صورة ناصعة صادقة تصوّر الإسلام بكل أبعاده مثل صورة أهل البيت في سيرتهم الذاتية. وأنا، يشهد الله، لا أقول هذا عن ميل أو هوى، وإنما عن حقيقة وواقع، والتاريخ شاهد فاقراؤه. ولنأخذ لقطات سريعة من سيرة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ولنلاحظ كيف تعامل مع عصره. لقد عاصر ملوكاً خونة دجالين فاسدين، وعاصر أناساً مؤمنين، وربى ثلّة من قطاع الشباب تربية صحيحة. إننا لا نكاد نسمع عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام إلا أنه سُجن لعشرين عاماً. علماً بأن الجانب الحضاري في حياته، هو الذي يصوّر الإسلام تصويراً رائعاً وممثل خير تمثيل الحديث النبوي القدسي الذي نقله الرسول ﷺ عن الله سبحانه وتعالى: «عبدني أطعني تكن مثلي، أقول للشيء كن فيكون، وتقول للشيء كن فيكون». إنها عظمة الإيمان. وهذا القول لا يعني أن يصبح العبد خالقاً، إنما يعني أن العبد يرتفع بطاعته لله وبذلك يتحوّل الحصى في يديه إلى درّ والتراب إلى طعام وهذه هي الكرامة التي يكتسبها الإنسان بقربه من الله.

إن الله تعالى قد اختار الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة لأهل البيت. لقد ولد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في الأبواء وهو منزل بين مكة والمدينة، وكان الإمام الصادق عليه السلام قد حلّ فيه ومعه أبو بصير. ووالدة الإمام موسى بن جعفر هي حميدة المصفاة وهي أندلسية الأصل، وفيها يقول الإمام الصادق عليه السلام: «حميدة مصفاة كسيكة الذهب، ما زالت الملائكة تحرسها حتى أدبت إلي كرامة لي ولولدها حجة الله موسى بن جعفر». إن الله سبحانه وتعالى اختار الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة لأهل البيت لأنهم حملة القرآن، والقرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأهل البيت معدّون بالعناية الإلهية ليكونوا قرآناً ناطقاً، إنهم

حملة رسالة، والله لا يحتمل الرسالة إلا لأمين. أما قول بعض الكتّاب إنّ أبا طالب مات كافراً فهو قول مغرض لن نخوض فيه وإنما اكتفي بالقول إنّ كلّ ذنوب أبي طالب هي كونه أبا للإمام عليّ عليه السلام وليس أكثر من ذلك، وأولئك الكتّاب الذين يأخذون على أبي طالب عدم إسلامه، لا يفتأون يتحدثون عن أبي سفيان وكأنّ الإسلام لم يتشر إلا على يديه، وكلّنا نعلم سيرة أبي سفيان وتاريخه الأسود.

«من تساوى يوماه فهو مغبون».

قال أبو بصير: «كنّا في الأبواء وقد وضع الإمام الصادق عليه السلام مائدته وكان إذا صنع الطعام أكثره وأطابه». لماذا كان الإمام الصادق يحرص على أن تكون مائدته سخية عليها ألوان الطعام؟ لماذا كان يحرص على لبس جبة الخبز بألف دينار؟ إنّها مواقف ذات أبعاد تربوية فكرية. فهو بسيرته يرمي إلى الردّ على موجة التصوف التي انتشرت في أيامه، والمتصوفة يقدمون الإسلام على أنّه دين الفقر والمسكنة والحرمان. فكانت مائدة الإمام الصادق عليه السلام وجهاً من الوجوه التي يدفع بها الإمام ذلك الزعم. وقد قال له أحدهم: «سيدي، إنّ طعامك هذا يختلف عن طعام جدّك أمير المؤمنين». فقال له الإمام عليه السلام: «كان جدّي أمير المؤمنين في زمن يختلف عن زمننا نحن، وإنّ الله سبحانه وتعالى إذا أنعم على عبد، أحبّ أن تُرى آثار النعمة عليه». ومن المؤسف حقّاً أن بعض المسلمين لا يتصوّرون المؤمن إلّا فقيراً درويشاً مسكيناً، فيقولون عنه ومن باب المديح: «إنّه درويش». والحقّ أنّ المؤمن ليس درويشاً، لأنّ الدرويش مستسلم مجذوب، أمّا المؤمن فمبادر مقدم، فطن كيّس، والأئمة عليهم السلام لا يرضون أن يتساوى يوم المؤمن مع أمسه. قال الإمام عليّ عليه السلام: «من تساوى يوماه فقد غبن». وقال الإمام زين العابدين عليه السلام في الصحيفة السجادية: «واجعل غدي وبعده أفضل من ساعتِي ويومي». وقال: «من كان يومه شرّاً من أمسه فهو ملعون».

فالمؤمن يرفض التراجع والتقهقر لأنه قويّ شجاع يسعى إلى ما فيه القوة والغنى ليضع قوّته وغناه في خدمة الإسلام وطاعة الله . إن الله يطلب إلى المؤمن أن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ، فأنتى له أن يؤتي الزكاة وهو فقير؟ . علماً بأن إيتاء الزكاة مقترن بإقامة الصلاة في كلّ الآيات التي عرضت للصلاة والزكاة . الإمام موسى بن جعفر وجرياً على سنة أبيه الإمام الصادق عليه السلام . كان يبعث أموالاً للتجارة يسعى فيها من يثق بهم من الرجال ، وكان يقول : «إنّ في التجارة ٩٥٪ من نموّ عقل الإنسان ، وثلاثة أرباع الرزق في التجارة» وفي بعض الأخبار أن ٩٩٪ من الرزق في التجارة . وقد أعطى يوماً أحد أصحابه ، واسمه مصادف ، ألف دينار وطلب إليه أن يشتري بضاعة يبيعها في مصر ، وأعلمه أنّ الريح الذي سيتحقّق من هذه التجارة سينفق في سبيل الله وفي مساعدة المستحقّين ، فامتلأ مصادف لطلب الإمام عليه السلام ، وبينما كان مع صحبه في طريقهم إلى مصر صادفوا قافلة خارجة منها ، فسألوا أهل القافلة عن أحوال مصر وأخبروهم بالبضاعة التي يحملونها إليها . فأخبرهم أهل القافلة أنّ تلك البضاعة مفقودة في أسواق مصر ، فاستغلّ مصادف وصحبه افتتار مصر إلى بضاعتهم فباعوها بأضعاف ثمنها . وعاد مصادف إلى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ، فوضع بين يديه رأس المال وهو ألف دينار ، ومعه آلاف الدنانير كأرباح . قال الإمام عليه السلام : «يا مصادف ، كلّ هذه الدنانير أرباح؟ كيف تحقّق لك ذلك؟!» . فأخبره مصادف بما حصل معه في مصر ، وكيف استغلّ وصحبه افتتار أسواق مصر لبضاعتهم . فانتفض الإمام عليه السلام قائلاً : «أعوذ بالله من النار ، يا مصادف ، ردّ عليّ رأسمالي فقط ، هذه الأموال التي تزعمها ربّحاً نار من جهنّم ، لقد احتكرت المال على أخيك المسلم ، وأخذت منه أموالاً أكثر مما تستحقّ ، فارجع إليه أمواله» . لاحظوا كيف أنّ أهل البيت يربّون الناس بمواقفهم . قارنوا موقف الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بمواقف التجار في أسواقنا وتأمّلوا . وقد سقت خبر مصادف في مصر لأبرهن على أنّ

الإيمان يعني العمل الشريف والعزة والكرامة والإقدام وكل ما فيه خير الإنسان وفي حدود وطاعة الله ومرضاته.

المزيد من أنوار الامام موسى بن جعفر عليه السلام

يقول أبو بصير: كنا جلوساً في مجلس الإمام جعفر الصادق عليه السلام في الأبواء، فأقبل علينا رسول من حميدة وقال للإمام: «سَيِّدِي إِنْ سَيِّدَتِي حميدة قد جاءها الطلق». فنهض الإمام الصادق مسرعاً، وبعد فترة عاد إلى مجلسه والبسمة على شفتيه. قال الحضور: «أضحك الله سنك يا سَيِّدَنَا» فقال الإمام: «لقد وهبني الله غلاماً سَمَّيْتَهُ باسم الكليم موسى بن عمران فالق البحار، تقدّست أم ولدته، وقد أخبرتني حميدة أنه نزل من بطنها ساجداً لله تعالى». وقد قال بحر العلوم في باب الحوائج الإمام موسى بن جعفر عليه السلام:

يا سَمِيَّ الكَلِيمِ جُنْتُكَ أَسْمَى
والهْدَى مَرْكَبِي وَحَبَّكَ زَادِي
مَتَّنِي الضَّرَّاءَ وَانْتَحَى بِي فَقَرِي
نَحْوُ مَفْنَاكَ قَاصِداً مِنْ بِلَادِي
لَيْسَ تُقْضَى لَنَا الْحَوَائِجُ إِلَّا
عِنْدَ بَابِ الْحَوَائِجِ الْمَعْتَادِ
عِنْدَ بَحْرِ النَّدَى ابْنِ جَعْفَرٍ مُوسَى
عِنْدَ بَابِ الرَّجَاءِ جَدُّ الْجَوَادِ

نشأ الإمام موسى بن جعفر في حجر أبيه الإمام جعفر الصادق عليه السلام وعلى يديه تربى ومن علومه اغترف، ثم أخذ يربّي ويعلم الدعاة الشجعان الذين حملوا الفكر الإسلامي وحفظوه ونشروه. أمّا عن طيب شمائله وسعة حلمه فحدّث ولا حرج. كان إذا شتمه شاتم بشّ له قائلاً: «ألك حاجة نقضيها؟»

كان لرجل عُمرى مزرعة في المدينة، فعبر فيها الإمام موسى بن جعفر عليه السلام راكباً على بغلته، فصاح العمرى قائلاً للإمام: «لقد أفسدت علينا زرعنا». فهش له الإمام ثم نزل عن بغلته فسلم على العمرى وجلس بقربه وقال له: «كم غرمت على زرعك؟» قال العمرى: «مئة دينار؟». قال الإمام: «وكم ترجو أن تكون حصيلتك منه؟» قال العمرى: «لست أعلم الغيب». قال الإمام: «أنا أعلم أنك لا تعلم الغيب، لكن خمن تخميناً». قال العمرى: «أرجو أن تكون حصيلتي من زرعي مئتي دينار». فدفع إليه الإمام صرة وقال له: «خذ هذه الصرة فإن فيها ثلاثمئة دينار ذهباً، وإنني أسأل الله أن يجعل لك الخير في زرعك». فبُهِت العمرى وذهل أمام أخلاق لا مثيل لها في السموّ والحلم. علماً بأن العمرى كان لا يفوّت فرصة يستطيع فيها أن يؤذي الإمام موسى بن جعفر عليه السلام. فكان لسان حال الإمام عليه السلام يقول:

جاز الإساءة بالإحسان إن صدرت
من امرئ زلة تدعو إلى الغضب
سجية النخل، من يرميه في حجر
كافاه عن ضربه بالبسر والرطب

طبعاً هذا درس في السلوك، وهو لا يعني أن الإسلام يريدك خاضعاً خائفاً مستسلاً للظلم والظالمين.

كان عليّ بن يقطين وزيراً أول عند هارون الرشيد، وكان من شيعة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام. فجاء إلى الإمام واستأذنه في الاستقالة من منصبه. فقال له الإمام عليه السلام: «لا يا عليّ بن يقطين، إن وجودك مع السلطان خير من عدمه، وكفارة عملك معه مساعدة إخوانك وقضاء حوائجهم والانتصار لحقوقهم. يا عليّ بن يقطين، إضمن لي واحدة فأضمن لك ثلاثة». قال ابن يقطين: «وما هي يا سيدي؟» قال الإمام: إضمن لي أنك لا ترد طالب حاجة وأضمن لك أن لا تسجن ولا تضرب بحدّ سيف

ولا يدخل الفقر بيتك أبداً». لاحظوا كيف أن قضاء حاجة المؤمن يكون تكفيراً للذنوب ودفعاً للبلاء. أليس في قول الإمام عليّ بن يقطين درس لكل سلطان ووزير وكلّ ذي قدرة على قضاء حوائج الناس؟

يقول الأصمعي: مررت على الجسر ببغداد فرأيت رجلاً أعمى يستعطي المادّة قائلاً: «ارحموني فإنّي أمير المؤمنين». فتعجّبت من قوله واقتربت منه قائلاً: «من أنت؟ وهل أنت أمير المؤمنين حقّاً؟». ويتابع الأصمعي فيقول: لقد تعرّفت عليه فتأكّدت أنه المستعصم العباسي الذي كان يحكم الأمبراطوريّة العباسيّة، لقد خلعه جنوده وسملوا عينيه والقوه في الشارع لا يملك ثمن رغيف خبز يتلّغ به، لقد حصد ما زرع فمعصية ربّ العالمين لا بدّ أن تنتهي بمقتربها إلى الذلّ والمهانة. وقل ذلك بالنسبة لزليخا زوجة عزيز مصر فقد صارت من ملكة إلى فقيرة معدمة تجرّ أسماها وتستعطي الناس. ولما وقع بصرها على يوسف الصديق يرفل في عزّ الملوك قالت: «سبحان الله، سبحان الذي أذلّ الملوك بمعصيته، وأعزّ العبيد بطاعته، لقد كان يوسف عبداً عندي وهو اليوم عزيز عظيم، وكنت زوجة العزيز أحكم مصر دون منازع، ولكنني غرقت في معصية ربّ العالمين وها أنا فقيرة ذليلة مهانة». أقول: فليتعظ حكام العالم وليتأدّب كلّ ذي سلطان بأداب أهل البيت عليهم السلام ففي ذلك، وفيه فقط منجاة دنيا وآخرة.

قصّد عليّ بن يقطين إلى حضرة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في المدينة. وقد عرفنا أن ابن يقطين وزيراً أوّل عند الرشيد كما عرفنا فيه مشايعاً للإمام موسى بن جعفر عليه السلام فلما وصل المدينة حجبه الإمام، ولم يسمح له بالدخول إلى مجلسه حتّى اليوم التالي من وصوله. فلما دخل على الإمام سأله قائلاً: «سيدي لم حجبتني؟». فقال الإمام: «لأنك حجبت أخاك إبراهيم الجمال وقد قصدك في قضاء حاجة له». علماً بأن إبراهيم الجمال لم يذهب إلى المدينة وبالتالي لم يخبر الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بحجب ابن يقطين له. ولكن يجب أن لا يضرب عن بالنا أنّ عالم الغيب، وكما سبق

وقلنا، ينكشف أمام المؤمن العاديّ فما بالك إذا كان المؤمن إماماً معصوماً؟
 فالغيب عنده مكشوف وواضح. وبعد أن أخبر الإمام موسى بن جعفر
 عليّاً بن يقطين سبب حجه له، تابع قائلاً: «يا عليّ بن يقطين، اعلم أنّك
 كنت في الحجّ، فاعلم أنّ الله قد رفض حجّك ولن يشكر سعيك إلّا بعد
 أن يرضى عنك أخوك إبراهيم الجَمال، أنت رئيس وزراء، وإبراهيم الجَمال
 إنسان مؤمن له حقّ عليك، فإذا أغضبتَه ولم ترع حقّه واحتجبت عنه، تبرّأ
 الله منك وحجب عنك رحمته». بعد أن سمع ابن يقطين قول الإمام شدّ
 الرحال وقصد الكوفة متنكراً. فوصلها ليلاً ولتوّه قصد بيت إبراهيم الجَمال
 وطرق بابَه، فسأل غلام من وراء الباب قائلاً: «من الطارق؟» فقال عليّ بن
 يقطين: «قل لسيدك أنّ عليّاً بن يقطين ببابه». فلمّا أخبر الغلام سيّده بذلك،
 بُهت إبراهيم الجَمال، فعليّ بن يقطين رئيس وزراء في أمبراطورية مترامية
 الأطراف، وأمبراطورها الرشيد يخاطب السحابة قائلاً: «أيّنا تمطرين فني
 ملكي». وما هو وزيره الأوّل واقف بباب إنسان يعيش من كرى الجمال.
 أسرع إبراهيم ففتح الباب وإذا به يرى عليّاً بن يقطين وقد وضع خدّه على
 عتبة الباب. فقال إبراهيم مندهشاً: «أنت عليّ بن يقطين؟» فأجابه طارق
 الليل قائلاً: «نعم أنا عليّ بن يقطين، أنا المذنب، أنا المجرم، أنا الظالم
 الذي ظلمك، فأغضبت بذلك سيّدي ومولاي موسى بن جعفر». فقال
 إبراهيم الجَمال: «والآن ماذا تريد يا عليّ بن يقطين؟ قم وارفع رأسك عن
 عتبة الباب». فقال ابن يقطين: «والله لا أرفع رأسي حتى تضع قدمك على
 خديّ». قال إبراهيم: «وكيف لي أن أضع قدمي على خدّك والناس يمتنون
 أنفسهم بأن يروا وجهك؟». فقال ابن يقطين: «والله لا أرفع رأسي عن
 عتبتك حتّى تضع قدمك على رأسي وتندوس خديّ، وترضى عنيّ ليرضى
 عنيّ سيّدي ومولاي الإمام موسى بن جعفر». وفعلًا لم يرفع رأسه عن العتبة
 إلّا بعد أن داسه إبراهيم ووضع قدمه على خدّ ابن يقطين. فقام ابن يقطين
 من العتبة وقال: «اللهم اشهد أنّي أرضيت عبدك إبراهيم الجَمال، فليرض

عني سيدي ومولاي الإمام موسى بن جعفر».

أيها الأخوة والأبناء، تأملوا هذا الدرس التربوي الذي لقّنه الإمام موسى بن جعفر عليه السلام لكلّ ذي سلطة يقصّر في حقوق المواطنين.

فلما رأى الرشيد أنّ الناس تقصد في حوائجها الإمام موسى بن جعفر حتى صاروا مشهوراً بـ «باب الحوائج» تضايق من الإمام وأخذ يترصّص به الدوائر، وذات يوم كان الرشيد في المدينة فدخل مسجد الرسول ﷺ ووقف يسلم على الرسول ﷺ والإمام موسى بن جعفر إلى جانبه قال الرشيد: «السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا بن العمّ ورحمة الله وبركاته». باعتبار أن العباس جدّ العباسيين وعبد الله والد الرسول ﷺ أخوان لأنهما ابنا عبد المطلب. فالرشيد يتباهى بأنّه ابن عمّ الرسول ﷺ. فسلم الإمام موسى بن جعفر على الرسول قائلاً: «السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبة ورحمة الله وبركاته». فاضطرب الرشيد وقال للإمام: «يا موسى لمّ تزعمون أنكم أقرب منّا إلى رسول الله؟» فقال الإمام: أصلح الله الأمير، لو بُعث رسول الله حيّاً الآن، وخطب إليك كريمتك، فهل تزوجه إياها؟ فقال الرشيد: «طبعاً، وإنّي أشرف بذلك». فقال الإمام: «ولكنّ الرسول لا يخطب ابنتي، لأنها ابنته وأنا ابنه». فأطرق الرشيد برأسه إلى الأرض أمام هذه الإجابة الدقيقة. ثم استأنف الإمام قائلاً: نحن أهل البيت، نحن أبناء النبي ﷺ فكيف تفضلني عند رسول الله ونحن الأبناء المقصودون بقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾.

لقد عاصر الإمام موسى بن جعفر كثيراً من الفتن والصراعات والأحداث الجسام. وكان أبناء الزهراء لا يعرفون الاستقرار فأبناء الإمام

موسى بن جعفر عليه السلام شردوا تحت كل حجر ومدر، ومنهم القاسم الذي احتجز في منطقة أبي خمرأ بين الديوانية والحلة، أما اخوته فكانوا في السجون، كما تبارى حكام بغداد يومئذ من موسى الهادي إلى المهدي إلى الرشيد في إيذاء الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، ابتداء بسجنه أيام الهادي وانتهاء بسجنه وقتله على يد الرشيد. وقد جمعت مدة سجن الإمام في «بحار الأنوار» للعلامة المجلسي فكانت عشرين سنة. ولعلمائنا الذين رُجّوا ويزجون في السجون أسوة بالإمام موسى بن جعفر عليه السلام. إنني أعرف علماء مضى على سجنهم خمسة عشر عاماً ولما يزالوا في السجن. أحد علمائنا الكبار واسمه الشيخ البهلول أمضى في السجن ثمانية وثلاثين عاماً، وقل ذلك بالنسبة لأحد كبار علماء إيران الذي أمضى في سجون أفغانستان ثمانية وثلاثين عاماً أيضاً.

إنني أذكر عندما كنا في السجن ذلك الرجل الذي دخل علينا وقال: لا بأس عليكم من السجن فأنتم أبناء الإمام موسى بن جعفر الذي قضى رداً طويلاً من حياته في السجون، فالسجن ليس عيباً ولا عاراً عليكم». نعم، إن السجن لأهداف شريفة فخر للمسجون إذا كانت الأمة التي ينتمي إليها واعية راقية. في أيام موسى الهادي تحرّك صاحب فخّ الحسين بن عليّ الخير بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن الحسن المجتبي عليه السلام. فجيش موسى الهادي الجيوش وقتله مع أمّه (وقيل أخته) زينب وكثير من أصحابه. أما من بقي حياً من أهل بيته وأصحابه فقد رُبطوا بالحبال وجروا إلى بغداد، ولما أدخلوا مجلس موسى الهادي، استدعى الأطفال، وبعد أن شتم علياً والزهراء عليه السلام، ضرب أعناقهم، ثم استدعى النساء فشنهن وأذلهن ثم ضرب أعناقهن، وقل ذلك بالنسبة للرجال ودون أي تمييز بين شاب أو شيخ، بين صحيح أو مريض، حتى إذا فرغ من المجزرة أخذ ينشد متغنياً مباحياً:

بني عَمَّنَا لا تنشدوا الشعر بعدما
 دفنتم بصحراء القميم القوافيا
 فلسنا كمن كنتم ترجون نيله
 فيقبل حكماً أو يحكم قاضيا
 ولكن حكم السيف فينا مسلط
 فنرضى إذا ما أصبح السيف راضيا
 فإن قلتم إنا ظلمنا فلم نكن
 ظلمنا ولكننا أسأنا التقاضيا

فقارن هذا القول بقول الإمام الحسين عليه السلام «رضا الله رضانا أهل البيت». وتأمل.

تلك هي عينة من تاريخ العباسيين الأسود، هذا التاريخ الذي يدرس
 لأبنائنا على أنه تاريخ حضارة وازدهار.

بعد مأساة الحسين بن عليّ الخير، أخذ موسى الهادي يتهدّد الإمام
 موسى بن جعفر عليه السلام. فاجتمع أهل بيت الإمام وطلبوا إليه أن يتوارى عن
 أنظار الطاغية. فقال لهم مطمئناً: «لا عليكم». ثم قام فأسبغ الوضوء
 وصلى ركعتين ثم اتجه إلى الله بالدعاء العظيم، المعروف بدعاء الجوشن
 الصغير، وهو دعاء يفتح أبواب الفرج ويقضي على الطغاة. وبعد أن فرغ
 من الدعاء التفت إلى أهل بيته وقال لهم: لقد قُتل موسى الهادي بهذا
 الدعاء وغداً ينهض الناعي. لقد رأيت جدّي رسول الله في منامي وقد علّمني
 هذا الدعاء.

وكان الإمام موسى بن جعفر عليه السلام يقرأ القرآن بصوت حزين فيبكي
 ويُبكي كلّ من يسمعه. يروي الربيع وهو من أعوان المهديّ العباسيّ الذي
 سجن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام هذا الخبر. قال: ذات يوم جاءني العبد
 مسرور وطلب إليّ أن أشخص إلى مجلس المهديّ. فقممت لتويّ، فلما

وصلت المجلس وجدت المهدي يقرأ القرآن، فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾^(١) التفت إليّ وقال: اذهب حالاً وأطلق موسى بن جعفر من السجن. وبعد أن أكّد قوله ثلاثاً، قال: «أطلقه وخيّره بين المقام عندنا أو الرحيل». يقول الربيع: فأسرعت إلى السجن وكان الليل قد انتصف، فلما أخذت أفتح أقفال السجن سمعت الإمام يقرأ القرآن في ظلام الليل والسجن. فلما سمع صرير المفاتيح في الأقفال قال: «من هذا؟» فأجبت قائلاً: «سيدي أنا الربيع». فقال: «ما الذي جاء بك؟». قلت: «سيدي أمرت بإطلاق سراحك». قال: «إذا كنت قد أمرت بقتلي فافعل». قلت: «لا، والله يا سيدي لقد أمرت بإطلاق سراحك وتخيري بين الإقامة عندنا أو الرحيل إلى أهلك». قال: «لا يا ربيع دعني أذهب إلى أهلي فقد استوحشوا لفرافي. وقد مضى عليّ وقت طويل لم أر الأطفال والبنيات الصغيرات».

بعد المهديّ، جاء دور الرشيد في إيذاء الإمام موسى بن جعفر عليه السلام. فقد أخذ الرشيد ينقل الإمام من سجن إلى سجن. فقد سجنه أولاً في سجن القنطرة ثم نقله إلى سجن عيسى بن جعفر في البصرة، فسجن الفضل بن الربيع، فسجن الفضل بن يحيى البرمكي فسجن يحيى بن خالد البرمكي. هكذا كان ينقله من سجن إلى سجن بعد أن يفرض عليه إقامة جبرية في قصر أحد الوزراء. فالرشيد على عسفه وظلمه لم تكن له الجراءة على سجن شخصية في مقام الإمام سجنًا مباشرًا. وقد انتهت مسيرة الإمام من سجن إلى سجن في سجن السنديّ بن شاهك. وهذا السجن كان زنازة مظلمة لا يُعرف فيها الليل من النهار.

يقول عبد الله القزويني: كنت صديقاً للفضل بن يحيى، وفي ليلة

(١) سورة محمد؛ الآية: (٢٢).

صيف، سعدنا إلى سطح قصره طلباً للانتعاش والابتعاد، وبينما نحن على السطح التفت يحيى إليّ وقال: يا عبد الله، انظر في صحن الدار وقل لي ماذا ترى؟ فنظرت ثم قلت له: «أرى ثوباً مطروحاً». فقال: «حقّ النظر». يقول القزويني فحققت النظر ثم قلت ليحيى: «أرى رجلاً ساجداً». فقال: «هل تعرف من هذا؟» قلت: «لا». قال: «هذا الإمام موسى بن جعفر، باب الحوائج، إنه من رهبان بني هاشم، يصلي صلاة الفجر ويبقى في تعقيبات الصلاة إلى أن تطلع الشمس، ومتى طلعت الشمس سجد سجدة واحدة لا يرفع رأسه منها إلى وقت الزوال، ثم يصلي صلاة الظهر بوضوء صلاة الفجر».

إنّ خبر عبد الله القزويني يعطينا فكرة عن صلاة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام. أمّا عن الحجّ، فقد حجّ أكثر من عشرين مرّة، أحياناً يصطحب أهل بيته، وأحياناً أخرى يمضي إلى الحجّ وحيداً راجلاً.

يقول شقيق البلخي كنت سائراً إلى الحجّ، فلفت انتباهي رجل يسعى إلى الحجّ وحيداً راجلاً وقد بدت عليه سيماء أهل الطهر والصلاح. وقد خيل إليّ أنّه فقير يسأل الناس، فاقتربت منه وقلت له: لماذا تستجدي الناس حيناً وتعزل نفسك عنهم أحياناً؟ وإذا به يقول لي: «يا شقيق... يا شقيق... إنّ بعض الظنّ إثم». فذهلت، كيف عرف اسمي؟ حتّى إذا وصلنا إلى منطقة اسمها فيد، انتحى عنّا وجلس على كتيب أحمر. ثم وضع بعض الماء - وقيل بعض الرمل - في ركوة كانت بيده، ثم شرب من الركوة. فاقتربت منه وطلبت إليه أن يسقيني مما يشرب، فناولني الركوة فلمّا شربت وتذوّقت ما شربت وإذا به سُويق وسكّر، فطار عقلي وأدركت أنّي مع رجل يجترح المعجزات، فسألت عنه فقبل لي: هذا الإمام موسى بن جعفر باب الحوائج».

ويقول عليّ بن سويد اتّصلت بالإمام موسى بن جعفر عليه السلام وكان

يقضي آخر أيامه في السجن، فقلت له: «أسألك سيدي، متى يكون الفرج، والله لقد ضاقت صدورنا وشملنا الحزن والألم». فقال لي: «انظروني يوم الجمعة القادم على جسر بغداد». فلما كان يوم الجمعة خرجت إلى جسر بغداد أنتظر خروج الإمام من السجن، وبينما أنا كذلك إذا بي أرى السجّانين وقد حملوا ميتاً يُسمع صليل الأغلال في يديه ورجليه، ثم لم يلبثوا أن طرحوه أرضاً وانصرفوا، اقتربت لأرى، ويا هول ما رأيت، لقد كان الميت الإمام موسى بن جعفر، تجمّع الناس وعلا الصراخ، وكان بين الناس طبيب نصراني تربطني به صبرة، فاقتربت منه وقلت له: يا أخا النصاري، بحق المسيح اكشف على هذا المسجّي، فلما نظر إلى يد الإمام فاضت عيناه بالدموع وقال لي: «يا ابن سويد، أما لهذا الرجل من عشيرة؟» قلت: «وما تريد بعشيرته؟» فقال: «إنّ الرجل قد مات مسموماً، إن كان له عشيرة فلتطالب بدمه». ونظراً لكلّ تلك العذابات التي عانى منها الإمام موسى بن جعفر عليه السلام باب الحوائج:

فإننا نخاطبه قائلين: «السلام على المعذّب في قعر السجون، وظلم المطامير (الزنايات)، السلام على ذي الساق المروض بحلق القيود، السلام على الجنازة المنادي عليها بذلّ الإستخفاف».

من أدعية الإمام موسى بن جعفر عليه السلام

«توكّلت على الحيّ الذي لا يموت، تحصّنت بذِي العِزّة والعظمة والجبروت، واستعنت بذِي الكبرياء والملكوت، مولاي، استسلمت إليك فلا تسلّمني، وتوكّلت عليك فلا تخذّلني، ولجأت إلى ظلّك البسيط فلا تطرحني، أنت مطلبي، وإليك مهربي، تعلم ما أخفي وما أعلن، وتعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، فامسك اللهم عني أيدي الظالمين، ونجّني وعافني واحفظني برحمتك يا أرحم الراحمين».



حياة الإمام علي بن موسى الرضا
عليه السلام

الإمام الرضا عليه السلام ^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام
على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله
الطيبين الطاهرين.

يقول الله تبارك وتعالى في منزل كتابه الكريم:

﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ، قَالَ إني جاعلك للناس
إماماً. قال: ومن ذُرِّيَّتِي. قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ ^(٢).

الإمامة ضرورة بشرطها

سنة الله في الكون لا تتبدل ولا تتغير، لأن الله تعالى ركّزها على
أسس الحق. لذلك ينبغي أن تخضع لها المخلوقات جميعاً. وفي طليعة
هذه المخلوقات الإنسان.

وقد شاعت سنة الله تعالى ألا يقود الناس ظالمٌ وبالتالي لا يكون لهم

(١) أُلقيت هذه المحاضرة ليلة التاسع والعشرين من المحرم سنة ١٤٠٩ هـ.

(٢) سورة البقرة؛ الآية: ١٢٤.

إماماً. ونحن نعلم أن كلمة إمام تتضمن معنى القيادة. والإمام يجب أن يكون عادلاً. فالعدالة شرط من شروط الإمامة. وإذا كان الله يشترط العدالة في الشاهد الذي يشهد في المحكمة، فكيف بمن يقود الناس؟ ولنا أن نسأل: ما هي الحكمة في عدالة الإمام؟ لكي نفهم الحكمة من ذلك نوضح ما يلي:

تعريف الظالم: هو الذي لا يضع الأشياء في مواضعها. فإذا كان الواحد منا مسافراً إلى بلد ما، فعليه أن يسلك طريقاً مستقيماً يؤدي به إلى هدفه. ولكنه إذا سلك طريقاً منحرفاً فإنه سوف يصل إلى مكان آخر وبالتالي يكون قد خسر هدفه. إذن هو ظالم لنفسه. لأنه انحرف عما يجب أن يسلك.

يقول الله تعالى: ﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه. قال ما أظن أن نبيد هذه أبداً. وما أظن الساعة قائمة﴾^(١).

إن هذا الكافر لما دخل بستانه وشاهد خضرة نخيله والأنهار الجارية أخذته الغرور فأنكر الله. وبذلك يكون قد ظلم نفسه.

إذن الحكمة من شرط العدالة في الإمام تكمن في كون الإمام قد تبوأ سُلَّة القيادة. فلو كان ظالماً معنى ذلك أنه سوف ينحرف في قيادة الناس عن الطريق المستقيم.

إن هدف الناس والعباد هو الوصول إلى الله سبحانه وتعالى ومن هنا السرّ في قولنا أثناء الصلاة وغيرها: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾^(٢) ولن يستطيع أن يوصلنا إلى ملكوت الله سبحانه إلا الإمام العادل، وبالتالي الإمام المعصوم. أما الظالم فسوف ينحرف بنا عن الصراط المستقيم إلى

(١) سورة الكهف، الآية: ٣٥-٣٦.

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٦.

غيره حيث هلكنا.

إن المؤمنين، كل المؤمنين، وجهتهم الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾^(١)، وهذه هي الوجهة الصحيحة. وبالتالي فإنها لا تكون إلا بقيادة المعصوم.

إن الحيوانات مثلاً لا تحتاج إلى من يقودها إلى الطريق الصحيح، لأنها تسير عليه من تلقاء نفسها حيث أن الله تعالى قد هداها ذلك، كالنحلة مثلاً فقد أوحى لها ربها ولذلك فهي تدرك عملها وجهتها: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ ﴿فَاسْلُكِي سَبِيلَ رَبِّكَ ذُلًّا﴾^(٢). إذن فهي تسلك طرقاً مرسومة لها من غير أي انحراف. فبيتها الذي تبنيه سداسي الأضلاع ولا تغيره إلى سباعي أو ثماني. وهي تعمل بشكل دائم من غير ملل ولا تعطي البشر إلا عسلًا. إذ لم يصدف أن صنعت في تاريخها غير العسل إذن هي لا تغير السنة التي رسمها الله لها.

وكذلك النملة التي تدب طلباً لرزقها، والطيور التي تسعى في الأفاق بحثاً عن طعامها الذي هياه لها الله تعالى. إذن كل ما في الكون لا يعصى الله في سته: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ إن ربي على صراط مستقيم^(٣). إذن ليست هذه المخلوقات بحاجة إلى إمام. أما الإنسان فقد تركه الله لعقله من جهة ولقيادة الإمام من جهة أخرى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾^(٤).

(١) سورة الانشقاق؛ الآية: ٦.

(٢) سورة النحل؛ الآية: ٦٨ - ٦٩.

(٣) سورة هود؛ الآية: ٥٦.

(٤) سورة الأنعام؛ الآية: ١٥٣.

خلق الله الإنسان ولم يأخذ بناصيته، إنما أعطاه حقَّ اختيار الطريق. ورحمةً به أرسل الله الأنبياء واختار الأئمة المعصومين الذين لا يخطئون حتى يوضحوا له معالم الطريق. لذلك لن يكون هذا الإمام ظالماً والآية الكريمة فيها إطلاقاً.

﴿وإذا ابتلى إبراهيم ربه﴾ أي امتحنه، والابتلاء هو الامتحان. وكل الناس معرضون للامتحان حتى الأنبياء. والامتحان هنا لا يعني أن الله غير عالم ويريد أن يعلم من خلال هذا الامتحان. إن الله عالم بكل شيء. وإنما يمتحننا لكي يعرفنا أمام أنفسنا ويكشف حقائقنا أمام ذاتنا. وعلينا أن نفرّق هنا بين العلم والإرادة. فالله سبحانه كونه بكل شيء عليم لا يعني ذلك أنه يريدنا أن نسرق مثلاً. فقط هو يعلم ذلك ولن يعاقبنا إلا متى حصلت السرقة. وبالتالي فإن الله لا يريد لعباده الفسق والفجور:

﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبني، يعظكم لعلكم تذكرون﴾^(١).

الآخرة غير منفصلة عن حياة الدنيا

إن هذا الامتحان الذي نتعرض له في الحياة الدنيا هو الذي يحدد موقعنا في الدنيا والآخرة، لا في الآخرة فقط.

وهناك من يعتقد أن الآخرة منفصلة عن الدنيا وهذا لا نجده في معتقدا الإسلاميين.

فاليهود حولوا دينهم إلى دين دنيوي مادي ليس له علاقة بالروحانيات وبالأخرة فهم شعب الله المختار كما يزعمون. والمسيحيون قطعوا الآخرة عن الدنيا قطعاً تعسفياً إذ جعلوا ثمن الآخرة ترك الدنيا، فإذا كنت تريد أن

(١) سورة النحل؛ الآية: ٩٠.

تتزوج من الحور العين عليك أن تهجر الزواج في الحياة الدنيا.

وعلى العكس من ذلك الإسلام الذي يقول: إذا أردت الحور العين في الآخرة فتزوج في الحياة الدنيا حيث تحفظ دينك وتصون نفسك مما يؤهلك لدخول الجنة وبالتالي الزواج من الحور العين.

وفي الوقت الذي أطلقت النصرانية على المال شراً فإن الإسلام أطلق عليه صفة الخير: ﴿إن ترك خيراً الوصية للوالدين﴾^(١)، ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾^(٢) فالخير في هاتين الآيتين هو المال.

والإمام السجّاد عليه السلام يقول «من لا معاش له لا معاد له».

وهكذا يجعل الإسلام الحياة الدنيا مقدمة للآخرة من غير فصل بينهما أبداً. ويعتبر أن الآخرة موجودة في الحياة الدنيا ومن أراد الجنة فهي داخل الحياة الدنيا فأوقاتنا وأعمارنا وأموالنا وعوائلنا هي نفسها يمكن أن تكون طريقنا إلى الآخرة وبالتالي إما أن ندخل الجنة وإما أن نسقط في النار. إذن الحساب في الآخرة قائم على موازين الدنيا.

يقول تعالى: ﴿والسما رفعها ووضع الميزان، ألا تَظُنُّوا في الميزان﴾^(٣).

وهكذا تجد أن ثمة ارتباطاً كاملاً بين الكون والحياة والإنسان والمبدأ والمعاد، والخالق والمخلوق. موكب واحد يسبح لله ويقدمه.

كيف نعرف أننا إلى جنة أو نار:

سألني أحدهم: ما يدرينا إذا كنا من أهل الجنة أو من أهل النار؟ إذ

(١) سورة البقرة؛ الآية: ١٨٠.

(٢) سورة العاديات؛ الآية: ٨.

(٣) سورة الرحمن؛ الآيتان: ٧ و ٨.

من المستحيل علينا معرفة ذلك. فقلت له: إن هذا الأمر من أبسط الأمور وأوضح الواضحات. فالقرآن الكريم يوضح: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾^(١). والصراط الذي تعبر عليه في الآخرة موجود هنا. قال: كيف؟ قلت: صحيح أن الصراط الذي حَدَّثَنَا عنه موجود في الآخرة، وهناك من يعبره كالبرق الخاطف وهناك من يترنح عليه وهناك من يعجز عن عبوره فيسقط في النار. ولكن يجب أن تعلم أن هذا الصراط نفسه موجود معك باستمرار.

فأنت منذ أن تفتح عينيك في الصباح تبدأ بعبوره. فلما أن تجتازه بسرعة وإما أن تترنح وإما أن تسقط. والفرق بين هذا الصراط وذاك هو الفرق بين النارين: نار الآخرة ونار الدنيا. ففي الآخرة نار جهنم أما في الدنيا فانار الشهوات والحقد والنفاق والحسد والغيبة والنميمة والظلم.

قد تكون جالساً في بيتك ثم تهوي في قعر جهنم إذا لطمت زوجتك المسكينة من غير مبرر. فهذه اللطمة تعني أنك ظالم وبما أنك رب هذه الأسرة فأنت رب ظالم. وكثيراً ما نرى مثل هذه الصورة في بيوتنا حيث رب الأسرة ديكتاتور، لا حرية لأسرته بالرأي ولا احترام للمشاعر، كلمته هي الأولى والأخيرة، وقوله هو القول الفصل. والإسلام يرفض هذا السلوك رفضاً قاطعاً.

فالرسول الأعظم يعلمنا فيقول: «الفرق بين المنافق والمؤمن في الأسرة: أن المنافق يأكل أهله بشهوته وشهيته، والمؤمن يأكل بشهوة أهله وشهيتهم». فالمنافق كما يقول الرسول ﷺ يملئ على عائلته ما يشتهي من الطعام بينما المؤمن يترك لهم أن يختاروا ما يشتهون ثم يشاركهم اختيارهم. إذن من يعبر الصراط هنا فسوف يعبره هناك وعلى نفس الصورة.

(١) سورة القيامة؛ الآية: ١٤.

يقول الله تعالى: ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكاافرين﴾^(١) هنا في الحياة الدنيا. فإذا تخلصت من النار هنا، استطعت أن تتخلص منها هناك فتعبر الصراط بسرعة البرق.

ولطالما سقطنا في هذه النار ونحن في الحياة الدنيا. إننا نسقط عندما نعلم أن هناك من يحتاج ونحن قادرون ولم نساعد، ونسقط عندما نقذف المحصنات، ونسقط عندما نسيء إلى الناس ونؤذيهم ونسقط عندما نكون ظالمين . . .

نحن أمام محكمة دائمة

إننا من خلال هذه الحركة في الحياة الدنيا أمام محكمة دائمة، بل أمام خمس محاكم، أولها محكمة الضمير ﴿لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾^(٢) وثانيها محكمة المجتمع وثالثها محكمة القضاء ورابعها محكمة التاريخ وخامسها محكمة الله في الآخرة.

ثمة محكمتان لا يمكن الاحتيال عليهما هما محكمة الضمير ومحكمة الله. أما المحاكم الباقية فيمكن ذلك.

إذا أذيت إنساناً ضعيفاً أو ضربت يتيماً، أو تجرأت على زوجتك في البيت من غير وجه شرعي . . . فإن محكمة الضمير تصليح ناراً في ليلك فتقص عليك هنيء النوم، فتبدأ المحاكمة والمحاسبة: ما ذنب هذا الضعيف وكيف خالفت أمر الله في اليتيم وكيف تجرأت على زوجتك المسكين . . . و . . . ومحكمة الله في الآخرة لا يمكن الخلاص منها.

لذلك كان القسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة. أما المحاكم الأخرى فما أسهل وما أكثر ما نحاول الاحتيال للنفاد منها. فمحكمة القضاء مثلاً،

(١) سورة التوبة؛ الآية: ٤٩.

(٢) سورة القيامة؛ الآيتان: ١ و٢.

سبيلك إليها بعض الشيكات تدخل في حساب القاضي فيحكم لصالحك، والتاريخ يحدثنا عن كثير من هؤلاء القضاة من أمثال «شريح القاضي» الذي باع نفسه للشيطان عندما باعها لعبيد الله بن زياد ويزيد بن معاوية، ومن أمثال شرحبيل وشبث بن ربعي، فهؤلاء كانوا قضاة ولكنهم سقطوا في التجربة.

ومحكمة المجتمع تستطيع أن تفلت منها عن طريق الإعلام المزيف الذي يضل الناس بتزوير الحقائق. ومحكمة التاريخ يمكن الإفلات منها، فأصحاب الأقلام المأجورة زوّروا التاريخ حيث كانوا يكتبونه في أروقة الملوك والليالي الحمراء بعيداً عن أنين الشعوب وحرمان العامة ومعاناة المظلومين.

إن هذه الأقلام لم تتحدث عن هؤلاء المستضعفين وإنما كانت تتحدث عن ليالي الوليد بن يزيد وهشام بن عبد الملك وهارون الرشيد، أما المعاناة التي تتكبدتها أولئك النسوة المهيضات الجناح، الكسيرات القلوب بسبب أبنائهن وأزواجهن المطاردين فلا علاقة لأقلام هؤلاء بهذه المعاناة كما لا علاقة لها بكل ما تعرض له الأئمة كالإمام موسى بن جعفر وعلي بن موسى الرضا وسائر أهل البيت من ضغط السلطة العباسية الظالمة والسلطة الأموية الدموية التي سبقتها ﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها﴾^(١).

ومرة أخرى نؤكد، إن من يريد الآخرة فهذه الدنيا بين يديه: «ليس منا من ترك آخرته لذيئه أو ترك ذياه لآخرته» والربط بينهما واضح في هذا الحديث الشريف. فالدنيا نريدها طريقاً للآخرة فهي مزرعتها والآخرة نطلبها عن طريق الدنيا. والله ابتلانا بالمال كما ابتلانا بالفقر ليرى ما نحن صانعون: ﴿لنتظر كيف تعملون﴾^(٢) قال: كيف؟ ولم يقل كم. فالكيفية

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٨.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٤.

هي المطلوبة لا الكمية.

وكلنا نذكر خمسة الأفراس من الشعر التي تصدق بها أهل البيت للمسكين واليتيم والأسير حيث نزلت في هذه المناسبة سورة قرآنية هي سورة الدهر، بينما هناك الذي أعطى الملايين فجاء في القرآن الكريم: ﴿فَلَا صَلَقَ وَلَا صَلَّى﴾^(١).

فلماذا قبلت صدقة ورفضت أخرى؟ لأن العطاء مسبوق بالنية وإرادة القربى إلى الله تعالى، لا بنية الرياء والنفاق والظهور والشهوة. وهذه النية إما أن تقربنا إلى الله تعالى وإما أن تجعلنا بعيدين عنه كل البعد.

وإذا كانت الطاعة عظيمة فإن معصية الله أعظم لأن العصيان ليس لشخص عادي بل هو موجه إلى رب السموات والأرض. فمعصية العظيم عظيمة ومن هنا استحقاقه الخلود في النار.

إن هذه المجالس التي نحياها أيها الأخوة هي طريقنا إلى الآخرة فنحن ننهل من مدرسة رسول الله ﷺ الهدى والإسلام فنسمع القرآن يتلى ونزهف السمع إلى سيرة النبي وسنة الحبيب. إنها فرصة يجب أن ننتهزها باستمرار قبل أن تعفر خدودنا بتراب القبر!

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^(٢) ساعتئذ يكون الشعور بالخسارة وفداحتها فلا ينفع الندم مع أن الربح مبسوط أمامنا: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ﴾^(٣) وهي طاعة رب العالمين التي تتمثل بالمحافظة على صلاتنا والتمسك بديننا، وبالنساء يتشبهن بالحجاب ويعملن على تربية أولادهن تربية إسلامية لكي تهتدي الأسرة المسلمة بنور الإسلام. وأن

(١) سورة القيامة؛ الآية: ٣١.

(٢) سورة الزمر؛ الآية: ٣٠.

(٣) سورة الصف؛ الآية: ١٠.

نحسب الآلام الآخرين فنقضي حوائجهم، ونؤدي حقوق الله بدفع الخمس والزكاة والصدقات لأن الصدقة مأخوذة من الصدق: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم﴾^(١) من البخل والشح والأمراض القلبية والنفسية ﴿وتزكّهم بها وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم﴾^(٢).

إن الخمس الذي تؤديه أيها الأخوة ليس أمراً مستحيلاً أو صعباً. لديك خمسة آلاف، ألف منها هي حق شرعي يجب أن تؤديه. حدد لنفسك رأس سنة وخمسة مائة الفاضل بعد أن تكون قد صرفت في سترك على نفسك وأهلك وسفرك وضيوفك، حتى الهدايا، إذن أنت تدفع خمس الفائض. وهذا الفائض أنت لست مكلفاً بخمسه في السنة التالية لأنك سبق أن دفعت خمسه. أيها الأخوة اتقوا يوماً صعباً رهيباً حيث لا ينفع مال ولا بنون إلا من أناب إلى الله وأتاه بقلب سليم. ألم تسمعوا مقالة أمير المؤمنين عليه السلام: «جعل الله أقوات الفقراء في أموال الأغنياء، فما جاع فقير إلا بما مُتّع به غني» وقال عليه السلام: «ما رأيت نعمة موفورة إلا وإلى جانبها حق مضيع»

مصرف الخمس:

ومصرف الخمس تعرفونه فليس شرطاً أن تدفعه للعالم. إذ أن الحقوق الشرعية مثل العبادة والصلاة. فإذا كنت تعلم مصادرها ومواردها الصحيحة وقنواتها الشرعية فإنك تستطيع أن تنفقها.

والخمس قسمان: نصفه هو حق الإمام الحجة (عج) وهذا الحق يمكن أن يوزع في كل سبيل يرضي الله من طبع كتب وبناء مساجد وحسينيات ونوادٍ إسلامية وقضاء حوائج الفقراء والمساكين... والنصف

(١) سورة التوبة؛ الآية: ١٠٣.

الثاني هو حق للسادة أبناء رسول الله بكل طبقاتهم من علماء وطلبة علم وغيرهم. فإذا كنت تعرف أناساً من هذا القبيل فإن الأمر لا يحتاج أن تعطى العالم أو تحصل منه على رخصة، إلا إذا أشكَل الأمر عليك ساعتئذ تبرىء ذمتك فتحمل المسؤولية عالمًا ثقة.

إذن عندما تؤدي حقوق الله فأنت قادر على عبور الصراط المستقيم كالبرق الخاطف. أما إذا وسوس لك الشيطان وأغراك بالطمع والأنانية وترددت في تأدية حق الله، سقطت عن الصراط المستقيم وهويت إلى نار وقودها الناس والحجارة أعدت لكل متنكر لأوامر الله ونواهيه. ونحن نعلم أنه ما من آية إلا وفيها ذكر للزكاة ﴿أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾^(١).

أما الذين يمتنعون عن دفع الحقوق وتأديتها فبشرهم بأن أموالهم هذه سوف يضيع منها أضعاف الحقوق الواجبة والشرعية، فإن الله تعالى لهم بالمرصاد.

عودة إلى الإمامة وشروطها:

نعود مرة أخرى إلى الآية الكريمة التي بدأنا بها هذا الحديث. إن هذه الآية نستفيد منها: إن الظالم لا يقود الأمة. كما أن فيها إطلاقاً عاماً، بمعنى لو أن هذا القائد قد مارس الظلم ساعة واحدة من عمره لكان ظالماً حتى ولو تاب فإن صفة الظلم لن تسقط عنه لإطلاق الآية، وبالتالي فإن إمامته مرفوضة.

إذن يجب أن يكون الإمام معصوماً منذ ولادته حتى يوم وفاته، لم يقترب ذنباً واحداً. ومن هنا نصل إلى الحقيقة التالية: إن هذه الآية لا تنطبق إلا على أئمة أهل البيت عليهم السلام، إنها لا تنطبق إلا على عليّ وأولاده. أو ليس هو القائل: «لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن

(١) وردت في عدة آيات منها البقرة ١١٠.

أعصى الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت» .

الإمام الرضا عليه السلام جامعة علمية متقلة

إنه الحديث سوف يتناول هذه الليلة أيها الأخوة إماماً عظيماً من الأئمة وكلهم عظماء.. إنه الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام ، الذي كان جامعة علمية كبرى. إنه «سلطان أهل البيت» ومعنى ذلك أنه في أيامه عليه السلام انتشر الفكر الإسلامي، وفكر أهل البيت، وصار حب آل محمد داخل كل نفس وفي كل مكان. حتى أن الدولة العباسية إنما قامت على شعار «الرضا من آل محمد» وهو الإمام الرضا عليه السلام .

الإمام الرضا عليه السلام مدرسة قائمة بنفسها . امتدت وانتشرت لتشمل المدينة المنورة وبغداد ومرو ونيسابور وخراسان فكل العلماء والفقهاء في تلك الفترة كانوا عيالاً عليه، وكان علمه يتدفق كالشلال يوضح ويفسر ويجب على الأسئلة وينظر ويفتي ويدرس، فالعلم دَفَقَ على لسانه لا يهدأ، ونبع من صدره لا ينضب. وهو القائل: «إن لكلنا نوراً وإن عليه لحلاوة» فقد كان قوي الحجة راسخ العلم رائع البيان، فعلمه من الله سبحانه وتعالى .

يُروى أنه لما وصل الرضا عليه السلام إلى نيسابور في طريقه إلى خراسان اجتمع عليه الفقهاء والعلماء والعامّة من الناس فأخذوا بخطام راحلته وقالوا: يا ابن رسول الله، بحق جدك المصطفى، إلّا ما حدثتنا بحديث عن رسول الله نسمعه. ويقال: إنه كان هناك ما يقارب عشرين ألفاً أو أكثر من الكُتّاب يكتبون هذا الحديث واسمه حديث «السلسلة الذهبية» لأنه كان ينهي إسناد الحديث إلى الله تبارك وتعالى . فقد كان الإسناد هكذا:

«حدثني أبي موسى بن جعفر عليه السلام عن أبيه جعفر عليه السلام عن الصادق عليه السلام عن أبيه محمد بن علي الباقر عليه السلام عن أبيه علي بن الحسين السجاد عليه السلام عن أبيه الحسين بن علي سيد شباب أهل الجنة عليه السلام عن أبيه عليّ أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله ﷺ عن جبرئيل عن اللوح عن

الله... قال الله سبحانه وتعالى: «كلمة لا إله إلا الله حصني فمن دخل حصني آمنَ عذابي» ثم أخرج رأسه من الهودج وقال: «بشروطها وأنا من شروطها».

وعلى هذا يجب أن نعلم علم اليقين أنه لا يمكن لأي إنسان أن يدخل حصن رب العالمين من دون ولاية آل محمد، أهل البيت، فقد خصهم الله بحبّه، وجعلهم البوابة التي تؤدي بنا إلى معرفة الإسلام، فلا يتصورُ أحد أن يتعرّف حقيقة إلى الإسلام من دون علي بن أبي طالب الذي وصفه الرسول ﷺ «بالإسلام كله» عندما قال ﷺ يوم الأحزاب، يوم برز الإمام لقتال عمرو بن عبدود العامري: «برز الإسلام كله إلى الشرك كله»، فكيف يمكن أن نترك الإسلام كله، وكيف نعرف الإسلام بدون «الإسلام كله» بدون علي بن أبي طالب. ألم يخبرنا الرسول ﷺ أن هذا العلم وهذه الرسالة لها ديمومة واستمرارية بأهل بيتي؟

ألم يحاول المأمون أن يعمل على طمس هذا الفكر وأثنى له ذلك؟ فقد طلب المأمون من حاكم جزيرة قبرص أن يبعث له بكتب الفلسفة اليونانية حتى يترجمها وينشرها في العالم الإسلامي ظناً منه أنه بهذا يستطيع صرف الأنظار عن علم أهل البيت ولكن خسر المأمون وخسر كل من يحاول ذلك لأن نور الشمس لا يمنع باليد نضجها مقابل النور النفاذ.

حقيقة العلاقة بين الإمام عليه السلام والمأمون

يحاول البعض أن يرسم للمأمون صورة المحب لأهل البيت، ويقول هذا البعض إنه كان يميل إلى التشيع. إنها ترهات وأباطيل لا تصمد أمام الحقيقة. إن المأمون لا يمكن أن تكون له مثل هذه الصورة «المُلَمَّعة» وهو الذي قتل أخاه الأمين وجعل رأسه على باب قصره وطلب من الناس أن لا يدخل منهم أحدٌ عليه حتى ييصل على رأس محمد الأمين. ولم تمض مدة طويلة حتى قتل الإمام الرضا عليه السلام ثم راح يبيكي في جنازته.

إن اللفظ الذي يدور حول العلاقة بين الرضا عليه السلام والمأمون ولماذا قبل الإمام ولاية العهد، يحتم علينا أن نتوقف عند هذه المسألة لنكشف النقاب عن بعض جوانبها التي تبدو غير واضحة للبعض.

إن السبب الذي جعل المأمون يسند ولاية العهد للرضا عليه السلام ليس حبه لأهل البيت ولا ميله للتشيع كما يحلو للبعض أن يقول، وإنما السبب الحقيقي هو محاولته تهدئة الجماهير والناس بعد أن التهب الثورات في أيامه ضد العباسيين الذين جاؤوا إلى الحكم تحت ستار شعارهم الذي رفعوه والذي سبقت الإشارة إليه وهو «الرضا من آل محمد» لينقلبوا بعد ذلك على آل الرسول ويعملوا بهم تفتيلاً واضطهاداً وتنكيلاً.

لذلك قال المأمون للإمام: أنا أتنازل عن الخلافة لأكون ولي عهدك. وإليكم أيها الأخوة والأحبة تفصيل هذه المسألة وتعليلها:

جمع المأمون الناس وأرسل بطلب الإمام الرضا عليه السلام الذي كان في مدينة جده رسول الله ﷺ، حيث يستقبل في بيته الوفود ويجب على أسئلة الناس ويقضي حوائجهم. بعد أن تسلّم الكتاب قام بزيارة قبر جده فقَبِل الضريح وبكى بكاءً مرّاً حتى اخضلت لحيته الشريفة بالدموع، وكان أهل بيته ييكون لبكائه حيث أخبرهم بأنها المرة الأخيرة التي يزور فيها قبر جده وبأن موته سوف يكون في أرض غريبة «فمن زارني في غربتي شفعت له عند الله يوم القيامة».

وصل الرضا عليه السلام بغداد ودخل على المأمون في مجلسه وقد جمع حوله الناس. قال المأمون: يا ابن رسول الله رأيت أن أخلع نفسي من الخلافة وأجعلها لك. فماذا تقول؟

فكر الإمام ملياً ثم قال: يا أمير المؤمنين إذا كانت الخلافة التي تتولاها من الله، فلا يجوز لك أن تخلع ثوباً ألبسه الله (باعتبار أن الإمام عليه السلام يشير إلى الآية الكريمة التي بدأت بها الحديث «إني جاعلك

للناس إماماً^(١). أما إذا كانت الخلافة ليست لك فلا يجوز لك أن تهب شيئاً لا تملكه. وباعتبار أن المأمون كان قد خطط للأمر لذلك أصرَّ على الإمام الرضا عليه السلام أن يقبل الخلافة، وإلا فليقبل ولاية العهد. وعندما أصرَّ الإمام على الرفض هدده المأمون بوجوب قبول ولاية العهد، فقبل.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن قبول الإمام لم يكن نتيجة لتهديد المأمون له بالقتل، فأهل البيت ليسوا ممن يخافون الموت، فقد سبق أن هدّد ابن زياد الإمام السّجاد بالقتل فقال له: «أتهددني بالقتل؟». أما علمت أن القتل لنا عادة وكرامتنا من الله الشهادة. إن أهل البيت يسعون إلى الشهادة يطلبونها وهذا أمر يعلمه كل من كانت له أدنى معرفة أو علاقة أو معاصرة لأي واحد منهم، فما زالت صرخة علي بن أبي طالب تخترق الأفاق وتجتاز العصور: «فزت وربّ الكعبة» وقد أرسلها صريحة واضحة عندما ضربه اللعين ابن ملجم على رأسه الشريف بذلك السيف المسموم. إذن الإمام الرضا عندما قبل بولاية العهد لم يكن ذلك تحت تأثير التهديد وإنما أراد أن يكشف حقيقة الحكم العباسي، بالإضافة إلى أنه لو بقي على إصراره لتاجر بنو العباس بذلك أمام الناس ولقال لهم المأمون: أنا حاولت استطاعتي ولكن الرضا لم يقبل.

قال الإمام الرضا عليه السلام للمأمون: إذا كان لا بد من ذلك فأنا أقبل ولاية العهد ولكن بشرط ألاّ أتدخل في قوانين الدولة (باعتبار أن قوانين الدولة ليست شرعية). وهو بهذا الموقف سحب بساط الشرعية من تحت قدمي المأمون. وموقفه هذا من أعظم المواقف التي سجلها التاريخ.

فرضي المؤمنون بذلك، فكتب الشروط، وتم التوقيع عليها. وهكذا قبل الإمام ولاية العهد بعد أن أملى شروطه.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

وجود الرضا عليه السلام في مجلس المأمون، حَوَّل ذلك المجلس إلى منتدى للعلم والعلماء حيث كان المأمون يرسل بطلب العلماء والفقهاء لكي يجادلوا الإمام بقضايا العصر التي كانت مطروحة على بساط المناظرات، وقد كان الرضا عليه السلام مبرزاً كعادته في تلك المجالس. ومن أراد الاطلاع عليها والاستمتاع بصولات الإمام عليه مراجعتها في كتاب «الاحتجاج» للطبرسي.

بعض مواقف عليه السلام :

في أثناء وجوده في مجلس المأمون كان يلاحظ ويراقب ويتدخل إذا دعت الحاجة الشرعية من غير أن يتدخل في القوانين كما سبق واشترط ذلك. ولكنه كان لا يسكت إذا رأى مظلوماً. وهو يقول عليه السلام: «اللهم إني أعترض إليك من مظلوم ظلم بحضرتي فلم أنصره». إن نصرة المظلوم عنوان من العناوين التي دأب أهل البيت على ممارستها مهما كانت الظروف فذلك «هو الصراط المستقيم» الذي لا يمكن لهم أن يتركوه لحظة واحدة.

١ - جيء برجل إلى المأمون لكي يوافق على قتله، والرضا عليه السلام جالس. فسأله المأمون: ما تقول يا ابن رسول الله؟ فقال الإمام: والله إن عفوت عنه فلا يزيدك العفو إلا عزاً. فعفا عنه.

٢. تسامحه

٢ - ويروى أن هارون الرشيد كان أرسل جلّاد «الجلودي» إلى المدينة المنورة وأمره بدخول بيوت الهاشميين والتنكيل بهم وسلب كل الحلبي والحللي من نساءهم. والإمام الرضا كان قد عاصر الرشيد سبع سنوات بعد مقتل أبيه موسى الكاظم عليه السلام.

حاول الجلودي أن يدخل بيت الإمام الرضا عنوة تنفيذاً لأوامر الرشيد ليسلب النساء والبنات حليهن. فوقف الرضا بالباب مانعاً إياه من الدخول على حرم رسول الله والجلودي يصصر على تنفيذ الأوامر. فقال له الإمام:

أعاهدك الله أن آتي إليك بما تريد من غير أن تهتك حرمة هؤلاء النسوة .
وأخيراً اقتنع هذا الفاسق، فدخل الإمام على النساء فأخذ كل ما لديهن من
حليّ حتى الأقراط والخلائيل وجاء بها إلى الجلودي . وبعد ذلك تغيرت
الأحوال وتبدلت، إلى أن أودع الجلودي السجن في أيام المأمون .

طلب المأمون الجلودي ومن معه من الرجال من السجن . فأدخلوا
على الخليفة وكان الإمام الرضا عليه السلام في مجلس المأمون . فضربت أعناق
هؤلاء واحداً بعد الآخر إلى أن وصل الدور إلى الجلودي .

وكان الجلودي قد وقع نظره على الإمام جالساً في ذلك المجلس
فعدت به الذكريات يوم حاول الدخول على نساء الإمام في المدينة . فظن
أن الإمام الذي أصبح ولياً للعهد لا بد أن يتقم منه في هذا المجلس جزاء
لما فعله في الماضي .

مال الإمام إلى المأمون وهمس في أذنه أن يا أمير هب لي هذا
الرجل . فاستغرب المأمون هذا الالتماس وذكّر الإمام بما فعله هذا الرجل
مردداً . لقد سلب بنات رسول الله وداهم دارك، وأنت تطلب له العفو؟
فأصرّ الإمام على طلب العفو عن الجلودي .

في هذه الأثناء كان الجلودي يراقب الحوار من غير أن يسدري
مضمونه، فظن أن الإمام يطلب إلى المأمون قتله . فالتفت الجلودي إلى
المأمون وقال: أيها الأمير أستحلفك الله ألا تستمع إلى ما يطلبه الرضا في .
قال المأمون: «والله لأبرن قسمك» . ألحقوه بأصحابه واضربوا عنقه . إن
هذا الموقف يذكرنا بهذه الآيات :

ملكنّا فكان العفو منا سجية ولما ملكنم سال بالدم أبسطح
فحسبكُم هذا التفاوت بيننا وكل إناء بالذي فيه ينضج

٣. تواضعه

كان الإمام الرضا عليه السلام إذا كان في داره ومُدَّ السَّمِاطُ للأكل، كان يُجْلِسُ كلَّ أهل بيته صُغَرًا وكِبَارًا، حتى السائس والبواب، إلى المائدة. فضلًا عن كل الخدم والحشم. فهو عليه السلام متواضع والتواضع سجية من سجايه فكانه يريد أن يقدم الدروس في كل حركة من حركاته ليحُثَّنَا على التخلُّق بأخلاق الإسلام الكريمة ولنكون خير ممثلين للإسلام وأفضل حملة لأفكاره وصولاً إلى نشره ودعوة الناس للانضواء تحت رايته.

٤. هيئته وتأثيره على الناس

يُروى في حديث مفصَّل أن المأمون قد دخل الحَمَّامَ وبرفقتَه الفضل بن سهل ذو الرئاستين وهو أخو الحسن بن سهل وقد كانت لهما صولة وجولة. وكان دخولهما يوم أربعاء، بمدينة سرخس^(١) من بلاد خراسان. وكان يفترض بالإمام الرضا عليه السلام أن يدخل الحَمَّامَ برفقتيهما ولكنه رفض أن يدخله، لا لأن ذلك اليوم كان يوم أربعاء، فهو لا يتشامم من هذا اليوم ولا من غيره: «لا تعادوا الأيام فتعاديكم»، وقد تواترت الأحاديث والروايات أن يوم الأربعاء من أفضل الأيام لقضاء الحوائج، والأيام كلها أيام الله، والمهم أن يكون قلب المؤمن مع الله.

وفي ذلك اليوم قتل الفضل بن سهل وزير المأمون في الحَمَّام غيلة^(٢) وكان فارسياً، فثار الجيش والشرطة وحاصروا قصر المأمون يريدون قتله. فالتجأ المأمون إلى الإمام الرضا عليه السلام واحتسب به طالباً إليه أن يعمل على تهدئتهم.

يقول أبو الصلت الهروي^(٣): والله الذي لا إله غيره ما زاد سيدي

(١) راجع السمعودي في موجه ج ٤ ص ٣٢٤ تحقيق شارل بلا.

(٢) المصدر السابق.

(٣) هو عبد السلام بن صالح. روى عن الرضا وقد اتفق علماؤنا على أنه ثقة، صحيح الحديث. له كتاب «وفاة الرضا».

ومولاي الإمام الرضا عليه السلام على أن خرج إلى الثائرين وأوماً بيده الشريفة أن تفرقوا. لإيماءة واحدة منه فسكت الجميع على أثرها وتفرقوا مذعنين لهيبة الإمام ونوره عليه السلام.

٥. يوم خروجه لصلاة العيد:

إن ذلك اليوم الذي خرج فيه لكي يصلي في عيد الأضحى، مشهور. فقد طلب إليه المأمون أن يؤم الناس في صلاة العيد فقال له: أعفني أيها الأمير. قال المأمون: لا بد من ذلك.

فقال الإمام عليه السلام: إذا كان لا بد من ذلك فإنني سوف أخرج كما كان يخرج جلدي رسول الله ﷺ وأبي علي أمير المؤمنين. فقال المأمون: كما تشاء.

وفي صبيحة يوم العيد ارتدى الإمام ملابس بيضاء ووضع على رأسه عمامة بيضاء أيضاً وقد أرخى ذؤابتها^(١) ويده عصا. ثم شمر عن ساعديه وسار حافي القدمين وهو يكبر الله ويقده ويهلل، والناس يتقاطرون خلفه كالطوفان وكانت الجدران كأنها تردد أصداً صوته، ودموع الناس تذرف من المقل، وهو عليه السلام في مقدمة ذلك البحر المتلاطم من الناس، بل في وسطهم في معظم الأحيان لا يخشى شيئاً، على عكس المأمون وأمثاله من الحكام الذين كانوا يحتمون من الناس في أبراجهم العاجية. إنه يضرب بذلك المثل للحاكم الإسلامي الذي لا يعيش بين الناس فقط بل يسكن قلوبهم ونفوسهم ويجري مع دمائهم لأنه حاكم عادل لا يخاف من أحبائه.

وعندما شاهد المنافقون، أعداء الله، هذا المنظر هلمت قلوبهم فتسارعوا إلى المأمون قائلين له: إن وصل عليّ الرضا إلى المحراب وصلى بالناس فإنه سوف يقلب عليك الأمر كله. وسأل المأمون: ما العمل؟ قالوا:

(١) الذؤابة: واحدة النواذب. وذؤابة كل شيء أعلاه. وهي هنا طرفها.

أمرُهُ بأن يرجع. فأرسل إليه: يا ابن رسول الله قد حملناك فوق ما تطيق، عد إلى دارك فثمة من يصلي بالناس. ورجع الإمام عليه السلام، وكان لرجوعه تأثير بالغ في نفوس الحشود التي عاشت حالة من الحزن والانكسار والخيبة لأن السلطة حالت بين الإمام وصلاة العيد فحرمتهم تلك البركة وقتلت أحلامهم في أن يعيشوا مع الإمام لحظات لا تنسى، وقد لا يجود الزمان بمثلها. فليته صلى صلاة العيد في ذلك اليوم، إذن لكننا عرفنا مضامينها ولكانت نوراً يبدد الكثير من الظلمات، فهذا هو الحاكم الإسلامي بشروطه وتواضعه وحياته وسلوكه بين الجماهير بل هذا هو الحاكم الإسلامي الذي يعيش في قلوب محبيه ومريديه. وقد قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾^(١)، ومن شاء الله أن تكون محبتهم في قلوب الناس فلا راد لمشيتته ولو كره المنافقون والفاسقون والمنحرفون فضلاً عن الكافرين.

دأبه عليه السلام على إقامة مجالس العزاء الحسينية:

كان الإمام الرضا عليه السلام يدأب على أن يقيم مآثم العزاء على جدّه الحسين عليه السلام كما كان يؤكد ويركز باستمرار على مسألة زيارة الإمام الحسين وإحياء ذكراه.

ابن شبيب الريّاني^(٢) يقول: دخلت على الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام فرايته حزينا كئيبا باكيا. قلت: يا ابن رسول الله، أراك تبكي؟ قال: يا ابن شبيب، أما علمت أن اليوم يوم عاشوراء؟ أما علمت أن اليوم مقتل جدّي الحسين وسبي بنات رسول الله؟

(١) سورة مريم، الآية: ٩٦.

(٢) قال العلامة الحلي رحمه الله في القسم الأول من «خلاصته» ص - ٧٠ - «الريان بن شبيب، خال المعتصم، ثقة».

يا ابن شبيب، إن كنت باكياً لشيء فابك لجدي الحسين، فإنه ذُبِحَ
كما يُذْبَحُ الكبش. يا ابن شبيب، إن كنت باكياً لشيء فابك لمصيبة أبي
عبد الله الحسين.

فكان -بأبي وأمي- يقيم مأتم العزاء ويُدخل عليه الشعراء يستمع
إليهم وهم يلقون قصائدهم مشيدين بمواقف الحسين، ويرثون فيها أبا
عبد الله الشهيد. وكان أبرز هؤلاء الشعراء دُعَيْل بن علي الخزاعي رضوان
الله عليه.

أيها الأخوة والأحبة يجب أن تعلموا أن الإمام الرضا عليه السلام هو غريب
الغرباء. وإذا ما وُفِّق أحد لزيارته عليه السلام في خراسان فليعلم أن
الإمام عليه السلام في الزيارة الأولى يقضي لزارته ثلاث حاجات، لأنه كريم أهل
البيت وكلهم كرام، وسلطان أهل البيت، وله «مضيف» يذهب الناس لزيارته
هناك. وفقنا الله جميعاً لزيارته والتبرك من مقامه ومشهده.

هذا، وكان عليه السلام يركز على زيارة جده الحسين. فلماذا رأى أحداً من
أهل العراق، يسأل: من أين أنت؟

يقول: أنا من البصرة.

يسأله: هل تزور جدي الحسين في الأسبوع مرة؟

يقول: لا والله يا سيدي.

يقول: في الشهر مرة؟

يقول: لا.

فيقول: ما أقسى قلبك! أنت هناك ولا تزور الحسين في الشهر مرة؟!

ما أقسى قلوبكم! من زار جدي الحسين عارفاً بحقه أدخله الله
الجنة. وكان عليه السلام يكرر ذلك.

ونحن في زيارتنا للإمام الرضا عليه السلام نقول:

«السلام عليك يا شمس الشمس وأنيس النفوس، السلطان أبا الحسن، المدفون بأرض طوس، الرضا المرتضى، الراضي بالقدر والقضا. سلام الله عليك يا ابن رسول الله أبداً ما بقيت وبقي الليل والنهار، لاجعله الله آخر العهد مني لزيارتكم...»

مقاطع من «تأليّة» دُعبل في حضرة الإمام عليه السلام

دخل دُعبل بن علي الخزاعي على الإمام الرضا وقد حمل قصيدته «التأليّة» التي يُروى أنها من أحب القصائد إلى قلب الإمام الحجة عجل الله فرجه.

قال الرضا عليه السلام: يا دُعبل، هل قلت شيئاً فينا أهل البيت؟

قال: بلى يا ابن رسول الله.

قال: يا دُعبل، من قال فينا بيتاً من الشعر أدخله الله الجنة.

ثم طلب إليه أن يلقي ما عنده، فأنشده:

مدارسُ آياتٍ خلت من تلاوةٍ ومنزلٌ وحيٍ مقفّرُ العرصاتِ^(١)

فقال الإمام عليه السلام: لا يا دُعبل.. اقرأها على طريقكم في العراق (أي بلحن معروف). وهو نفس طلب الصادق عليه السلام من أبي هارون المكفوف الشاعر. وقبل أن يستجيب دُعبل لطلب الرضا عليه السلام، أمر الإمام بستانر فُضِرِبَ، فجاءت نساؤه وبناته وجلسن وراءه. وأنشد دُعبل يقول:

مدارسُ آياتٍ خلت من تلاوةٍ ومنزلٌ وحيٍ مقفّرُ العرصاتِ

(١) عرصات: واحدها عَرَصَه وهي ساحة الدار.

لآل رسول الله بالخَيْف من مَنى وبالركن والتَّعْرِيف والجَمَرَاتِ^(١)
ديار عليٍّ والحسين وجعفر
قَفَا نَسْأَلِ الدَّارَ الَّتِي خَفَّ أَهْلُهَا
وحمزة والسَّجَادِ ذِي الشَّفَاتِ^(٢)
مَتَى عَهْدُهَا بِالصُّومِ وَالصَّلَاةِ
وَأُخْرَى يَفْخُ نَأْلُهَا صَلَوَاتِي^(٣)
قَبُورُ بِكَوْفَانٍ وَأُخْرَى بَطِيَّةٍ
تَضُمُّهَا الرَّحْمَنُ فِي الْغُرَفَاتِ^(٤)
وَقَبْرُ بِيغْدَادٍ لِنَفْسٍ زَكِيَّةٍ
مُفَرَّسُهُمْ فِيهَا بِشَطُّ فَرَاتٍ^(٥)
نَفُوسٌ لَدَى النُّهْرَيْنِ مِنْ أَرْضِ كَرْبَلَا
عندما وصل دُعيل إلى هذا الموضع من القصيدة ارتفع صوت الإمام
الرضا عليه السلام بالبكاء. يقول دُعيل: سمعت أصوات النساء بالنحيب حين
ذكرت كربلا.

تُؤَفُّوا عِطَاشًا فِي الْفَرَاتِ فَلَيْتَنِي
تُؤَفِّتُ فِيهِمْ قَبْلَ حِينٍ وَقَاتِي
إلى أن يقول:

فَاطِمُ لَوْ خَلْتُ الْحَسِينَ مَجْنَدُلًا
وَقَدْ مَاتَ عِطْشَانًا بِشَطِّ فُرَاتٍ^(٦)
إِذْ نِلْتُ لِلخُدِّ فَاطِمُ عَنْده
وَأَجْرِي دَمْعُ الْعَيْنِ فِي الْوَجَنَاتِ

(١) خيف منى الذي ينسب إليه مسجد الخيف. والتعريف والجمرات مواضع في منى
ترمى فيها الجمرات.

(٢) السَّجَاد ذُو الشَّفَاتِ: هو الإمام زين العابدين كانت بين عينيه ثفنة كثيفة البعير من كثرة
السجود.

(٣) كوفان: الكوفة وفيها اغتيل الإمام علي وطمع الإمام الحسن واستشهد مسلم بن عقيل
بطيبة: المدينة المنورة وفيها قبور الأئمة: الحسن والسجاد والباقر والصادق
فخ: وإد بمكة وفيه قبور لمجموعة من الشهداء استشهدوا أيام بني العباس سنة
١٦٩ هـ.

(٤) القبر الذي بيغداد هو قبر الإمام موسى الكاظم. والغرفات في الجنة.

(٥) المعرس من التمريس وهو النزول في المكان. والمقصود من النفوس الإمام
الحسين وأصحابه الأبرار.

(٦) فاطم: الزهراء عليها السلام.

ويتابع قائلاً:

فيا وارثي علم النبي وآله
عليكم سلام دائم النُفحات
سأبكيهم ما حجّ لله راكب
وما نأخ قمرى على الشجرات^(١)
وما طلعت شمسٌ وحن غروبها
وبالليل أبكيهم وبالغدوات

وقد جاء في «عيون أخبار الرضا عليه السلام» أن دعبلًا لما بلغ البيت الذي جاء فيه «وقبر بيغداد...»، قال له الإمام الرضا: «أفلا ألحق لك بهذا الموضع بيتين بهما تمام قصيدتك؟». فقال: بلى يا ابن رسول الله فقال الإمام عليه السلام:

وقبر بطوس يالها من مصيبة
ألحنت على الأحشاء بالزفرات
إلى الحشر حتى يبعث الله قائماً
يُفرج عنا الهم والكربات

فقال دعبل: هذا القبر الذي بطوس، قبر من؟
قال الإمام: هو قبري.

فبأي وأمي، لقد نعى نفسه عليه السلام.

نهایته بالسّم على يد المأمون

ولم يمض وقت طويل حتى كانت منيته على يد المأمون العباسي،
فقد دس له السم في العنب فأكله الإمام وسرى السم في بدنه الشريف.

أبو الصلت الهروي يقول: دخلت على سيدي فرايته على هذه

(١) القمري: ضرب من الحمام.

الحال. فقال لي: يا أبا الصلت قد فعلوها. قتلني عدو الله. قلت: سيدي، من الذي يتولى تجهيزك وتكفينك؟ قال: يا أبا الصلت لا عليك. سيحضر ولدي محمد الجواد من المدينة ويتولى ذلك. ولكن يا أبا الصلت لي أخت في المدينة، فاطمة المعصومة.

كان الله في عون هذه الأخت كم عانت وكم تألمت، فأبوها موسى الكاظم عليه السلام أمضى عشرين سنة في السجن، وأخوانها مشردون في كل مكان، ولم يبق لها إلا هذا الأخ الوحيد فهو عزاؤها ومبدد وحشتها وأحزانها.

جاءت خراسان تريد رؤية أخيها الإمام الغريب. وعندما وصلت إلى قم أرسلت إحدى جواريتها حتى تشتري لها بعض الحاجات. ولكن الجارية وجدت الأسواق مقفلة، لا حركة ولا بيع ولا شراء. فسألت: ما الخبر؟ قالوا لها: اليوم يوم حزن فقد بلغنا أن إمامنا علي بن موسى الرضا قد مات.

فوجئت الجارية وراحت تندب مصيبتها. قالوا: أي مصيبة؟ قالت: إن أخت الإمام فاطمة المعصومة بساحتكم وهي لا تدري. وقد أنت من مدينة جدتها عليها السلام تريد أن ترى أخاها. وكيف لي الآن أن أخبرها؟

وتقاطر الناس في مواكب لتقديم العزاء والسلوى، ولكنهم لا يدرون مدى علاقتها بأخيها. وعندما علمت بخبر وفاته، صاحت وا أخاه وأعلياه وسقطت إلى الأرض. وعندما حاولوا إنهاضها وجدوها ميتة. لذلك قبرها هناك في قم، وهي تتمتع بالعصمة الصغرى.

موقف كربلائي

إن موقف المعصومة في قم يجعلنا ننتقل بالذكرى إلى بطلا كربلاء زينب. فإذا كانت المعصومة سقطت بلا حراك عندما علمت بموت أخيها

الرضا عليه السلام ، فإن الحوراء زينب سلام الله عليها وقفت فوق ذلك التلّ
الزيني تناجي أخاها حسيناً وتناديه: يا ابن أُمي يا حسين.. نور عيني يا
حسين... أخي أدركنا فالخيل قد هاجمتنا.. ثم وقفت على مصرع أخيها
الحسين تقول:

خويه... بناتك

هاي تصيح عمّة وين عمّي..

وذلك تقول فارقني ابن أُمي...

إنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم،
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الامام الرضا عليه السلام
رجل الحضارة الإسلامية

فاج مدرسة الأئمة المعصومين

الإمام الرضا عليه السلام

رجل الحضارة الإسلامية^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

أروحك أم روح النبوة تصعدُ
من الأرض للفردوس والحرورُ سُجُدُ
ورأسك أم رأس الرسول على القنا
بآية أهل الكهف راح يردُّ
وأملك أم أم الكتاب تنهَّدتْ
فذاب نشيجاً قلبها المتنهدُ
وشاطرت الأرض السماء بشجرها
فواحدة تنمي وأخرى تعدُّ
وقد نصب الوحي العزاء بيته
عليك حداداً والمعزى محمدُ

ولزينب نوح لفقد شقيقها
تدعوه يا ابن الزاكيات الرُكع
اليوم أصبغ في عزاك ملابسي
سوداً وأسكبها طلات الأدمع

(١) أُلقيت هذه المحاضرة في الثامن من صفر سنة ١٤١٢ هـ.

اليومَ شَبَّوا نارهم في منزلي
وتناهبوا ما فيه حتى برقعي
اليومَ قادوني بظلمٍ يا أخي
والسوطُ آلمني وأطفالي معي
أنعم جواباً يا حسينُ أما ترى
شِمَرَ الخنا بالسوط كسر أضلعي
فأجابها من فوق شاهقة القنا . .
قُضِيَ القضاء بما جرى فاسترجعي
وتكفلي حالَ اليتامى وانظري
ما كنت أصنع في حماهم فاصنعي

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . . .

مقدمة

حديثنا هذه الليلة عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام ثامن الأئمة المعصومين . . . ونقدّم لحديثنا بكلمة ذهبية لأمير المؤمنين عليه السلام . يقول : « جُمع الخير كله في ثلاث خصال : النظر والسكوت والكلام . فكل نظر ليس فيه اعتبار فهو سهو ، وكل سكوت ليس فيه فكر فهو غفلة ، وكل كلام ليس فيه ذكر فهو لغو . فطوبى لمن كان نظره عبثاً ، وسكوته فكرياً ، وكلامه ذكرياً ، ويكسى على خطيئته ، وأمين الناس من شره » .

لننظر في هذه الكلمة الرائعة ونتأمل في معانيها العظيمة . إن الله سبحانه وتعالى منحنا القدرة على النظر والتأمل والتفكير والكلام . . . وهذه المنحة الإلهية هي أمانة في أعناقنا ووديعة لدينا . فإن نحن أحسنّا استخدامها نكون أهلاً للأمانة ، وإلا نكون من الخائنين . . . تصوّر شخصاً أعطاك قطعة أرض ، وقدم لك الماء والبذار ، وطلب منك أن تستثمرها . . .

فإذا لم تحرث هذه الأرض ولم تزرعها فإنك لا تكون أهلاً لهذه
المنحة....

كلُّ نظر ليس فيه اعتبار فهو سهو: والنظر يكون تارة نظر العين، وتارة
نظر الفكر والبصيرة. فالنظر بالعين والفكر يجب أن نوجهه لما فيه الخير
لأنفسنا وللآخرين. فلا ننظر نظرة حسد أو خيانة أو استهزاء وسخرية، وإنما
نتفح بنظرنا بما يقربنا إلى الله. كذلك يجب أن نعتبر بما نراه، فننظر في
الأحداث والتاريخ ونأخذ العبرة منه، وننظر في تغيّر الأحوال وتبدّلها من
الغنى إلى الفقر أو بالعكس، ومن الأمن والاستقرار إلى الخوف والإضطراب
أو بالعكس، فنأخذ من كل ذلك الموعظة والعبرة، فتجّه إلى ما يحينا
ونبتعد عما يسيء إلينا.

ذات مرّة كنا في زيارة الحسين عليه السلام في كربلاء، فرأيت رجلاً أعمى
يجلس على قارعة الطريق ويستجدي، وكان ذلك قبيل أذان الفجر.
فسلمت عليه وجلست. قلت له: منذ متى أنت هنا؟ قال: منذ ثلاث
ساعات. قلت: ولكن الطقس باردٌ جداً، وأنت تظلم نفسك كثيراً بانتظار
رجلٍ يلقي بيدك قطعة من النقود... ولو أنك انتهت إلى الطاقات
والقدرات الكبيرة التي أودعها الله فيك لما لجأت إلى التوسّل! قال: أنا
أعمى، والذي يفقد بصره لا حيلة له ولا قوة، ولا سبيل له إلا التوسّل
ليكسب عيشه!... قلت له: لو فكّرت واعتبرت بغيرك لما قلت هذا
الكلام. وأنا أعطيك مثلاً: إن طه حسين كان رجلاً أعمى، وهو مع ذلك
أصبح عميد الأدب العربي بلا منازع! طه حسين عندما فقد بصره ركّز على
بصيرته وعلى الطاقات الأخرى في ذاته وانتفع بها... أما أنت، فإنك
عندما فقدت بصرك جلست هنا!....

إذن لا بد من أخذ العبرة مما ننظر فيه ببصرنا أو ببصيرتنا، وهذا
النظر مع العبرة هو ذكرُ الله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً

ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى^(١).

ثم يقول الإمام: «وكل سكوت ليس فيه فكر فهو غفلة، وكل كلام ليس فيه ذكر فهو لغو... وهذا يعني أن جميع الحالات التي يكون فيها الإنسان: من حركة أو سكون، ومن كلام أو سكوت، ومن إحساس أو تبصر وتفكر، إنما يجب أن تتوجه جميعها إلى الله تعالى... وإلا تكون سهواً أو غفلة أو لغواً. وهذه الحالات الثلاث، أي السهو والغفلة واللغو، تشترك فيما بينها بصفة محدّدة وهي عدم الجدوى. ففي اللغة أن السهو هو النسيان من قلة التيقظ، والغفلة هي عدم التيقظ والتحفّظ والانتباه، واللغو هو الخطأ والباطل وما لا يعتد به من كلام وغيره...»

سيرة الإمام الرضا عليه السلام

بعد هذه المقدمة من أقوال سيّد البلغاء أمير المؤمنين عليه السلام ندخل في موضوع حديثنا وهو سيرة الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام.

وفي البداية لا بد أن نذكر بحقيقة أساسية تتعلق بالإمامة بوجه عام، وهي أن الإمام هو حجة الله في الأرض، وهو إمام قام أو قعد. أي أنه إمام سواء قام بدوره في ولاية أمر المسلمين أو تعطل هذا الدور لسبب من الأسباب؛ وذلك أن للإمامة جانبين: جانب يتعلّق بالله وبالشريعة، وجانب يتعلّق بالمجتمع والسياسة. فلن تعطل الدور الثاني، فإن الدور الأول لا يتعطل، لأنه مستمد من الله ومن الشريعة. ولذلك نحن نعتقد أنه لولا وجود الإمام الحجة لساخت الأرض بأهلها... ولذلك قال رسول الله: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية».

وهذا الحديث مشهور معروف بين المسلمين. ولهذا نرى رجلاً كبيراً

(١) سورة طه؛ الآيات: ١٢٤ - ١٢٥ - ١٢٦.

في السن مثل عبد الله بن عمر يهرع إلى الحجاج بن يوسف الثقفي ويدخل عليه، فيسأله الحجاج: ما الذي جاء بك؟ قال: حديث رسول الله «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية» فأنت إمام زمانني وأنا جئت لأبايعك!! فقال الحجاج: الآن عرفت ذلك؟! فأين كنت عن علي بن أبي طالب؟! قال: دعنا من هذا أبا ثقيف! مَدَّ يَدَكَ لأبايعك!... قال الحجاج: والله لا طاقة لي على مَدَّ يدي!.. هذه رجلي قريبة منك فاصفق بيدك على رجلي!....

هذه الحادثة تشير بوضوح إلى الفساد والانحراف والتشويه الذي أصاب النفوس والعقول في أيام بني أمية، واستشرى حتى أصاب واحداً يعتبره المؤرخون من كبار الصحابة وتذكر له كتب الحديث ٢٦٣٠ حديثاً!!!. والحقيقة أنه «كما تكونوا يولئ عليكم»، وهكذا رعية يلزمها هكذا إمام!

وهذه الحادثة أيضاً فيها موعظة وعبرة، لأنها تساعدنا أيضاً على إدراك أهمية الإمام الحقيقي المعصوم الذي به تحيا الشريعة ويقوم العدل، ونذكر أيضاً حقيقة هؤلاء الأئمة المزيفين أمثال الحجاج بن يوسف ويزيد بن معاوية وغيرهم من أئمة الظلم والجور.

ويسبب خطورة موقع الإمام وأهميتها في حياة الشريعة والناس، كان لا بد من الوصية. إذ من غير المعقول أن يموت الرسول دون أن يوصي بالإمامة من بعده... فإذا كانت الوصية واجبة على المسلم لتبث الزمة في الأمور المتعلقة بالماديات من مال وعقار وغير ذلك، فكيف لا تكون كذلك في أمر يتعلق بمصير الشريعة والإسلام!!

وإذا كان الرسول قد مات من غير وصية، فإن ذلك لا يخرج عن أحد أمرين: إما أن يكون التكليف والأحكام الشرعية قد رفعت عن الناس بموت

النبي، فانتهت الرسالة بموت النبي، وإما أن يكون المسلمون قد وصلوا إلى درجة من العلم والوعي لا يحتاجون معها إلى إمام يرشدهم ويقودهم ويبيّن لهم الأحكام!!... وهذا الاحتمالان ساقطان: فلا الشريعة سقطت، ولا الناس بغنى عن الإمام... إذن يبقى الأمر الآخر، وهو ضرورة وجود الإمام، وضرورة وجود الوصية.

ولقد أوصى النبي في غدير خم بإمامة علي بن أبي طالب، وأوصى بالأئمة المعصومين من بعده حتى الإمام الثاني عشر الحجة المنتظر (عج). وفي عقيدتنا أن الإمامة هي البوابة الرئيسية للإسلام، من دخل منها فإسلامه مقبول عند الله، ومن تركها فهو مرفوض.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١) إن الإسلام هنا هو إسلام الإمامة والولاية: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾^(٢)... لأن الإسلام من دون إمامة علي بن أبي لا قيمة له.... ونحن نعتقد الآن أن دورة الكون قائمة بمركات الإمام الحجة المهدي المنتظر، ولولا الحجة لساخت الأرض بأهلها.

والجانب الثاني في الإمامة هو الجانب الاجتماعي، فإذا أطاع الناس الإمام المعصوم انتظمت أحوالهم واستقام دينهم؛ ولذلك تقول الزهراء عليها السلام: «وجعل الله طاعتنا نظاماً للملّة وإمامتنا أماناً من الفرقة»... الآن نأتي إلى سيرة الإمام الرضا عليه السلام. وأول ملاحظة تستوقفنا هي أن التاريخ لا يذكر الإمام الرضا إلا ابتداءً من ولاية العهد؛ في حين أن ولاية العهد انعقدت للإمام الرضا في سنة ٢٠١ هـ وكان مقتله سنة ٢٠٣ هـ، ومولده سنة ١٤٨ هـ، أي أن عمره لما عهد إليه المأمون بولاية

(١) سورة آل عمران ؛ الآية : ٨٥.

(٢) سورة المائدة؛ الآية: ٦٧.

العهد كان حوالي اثنتين وخمسين سنة... وهذه السنوات الطويلة أمضاها في المدينة والكوفة وبغداد، وكان عنده جامعة إسلامية ومدارس، وكان يبعث المبلغين إلى أقطار الدنيا، ويدير شؤون شيعة أهل البيت في كل أنحاء العالم... ومع هذا نرى المؤرخين يهملون هذه الناحية ويركزون على ولاية العهد، وكأن تاريخ الإمام لم يبدأ إلا معها... وفي جميع الأحوال فإن ولاية العهد لم تستمر إلا ستين... والواقع أن الكتاب والمؤرخين لا يكتبون إلا ما له علاقة بالملوك والسلاطين، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن كل تاريخ المسلمين الرسمي المكتوب هو تاريخ الملوك والسلاطين.

ولا بد هنا من أن نلقي ضوءاً على ولاية العهد هذه وشرح ظروفها وملابساتها، إذ كيف يمكن للإمام المعصوم أن يكون ولي عهد حاكم ظالم مثل المأمون العباسي؟!...

في ذلك الوقت كانت الدولة الإسلامية تعيش حالة اضطراب كبير، ونقمة الناس على أشدها، فأراد المأمون العباسي أن يمتص نقمة الجماهير فعرض ولاية العهد على الإمام علي بن موسى الرضا، ومارس شتى الضغوط ليقبلها الإمام. وكان جواب الإمام: أنا أقبل ولاية العهد بشروط، وهي ألا أمر أو أنهى، ولا أنصب أحداً أو أعزله، ولا يكون لي تدخل في شؤون الدولة... فقبل المأمون بشروط الإمام وانعقدت الولاية. وبهذه الشروط أراد الإمام أن يبين للجميع أن ولايته للعهد لا يمكن أن تبرر أي عمل من أعمال المأمون أو أية سياسة من سياساته، كما أن حكم الإمام إذا ما تمّ لن يكون بوجه من الوجوه استمراراً لحكم الخلفاء العباسيين القائم على الاغتصاب والظلم.

وزيادة في تأكيد ذلك فإن الإمام الرضا عندما خرج من المدينة، متوجهاً إلى خراسان ليقیم بجانب الخليفة العباسي المأمون، خرج وحيداً

ولم يصطحب معه أحداً من أهل بيته. فهو لم يرد أن يصطحب نساءه وبناته وأولاده ليعيشوا في قصر المأمون إلى جانب نسائه ومحظياته.

وفي أثناء طريقه إلى خراسان توقف الإمام في نيسابور. وهناك اجتمع عليه الناس من كل مكان وطلبوا منه أن يحدثهم، فقال: «أيها الناس! إني سمعت أبي موسى بن جعفر يقول: سمعت أبي جعفر بن محمد يقول: سمعت أبي محمد بن علي يقول: سمعت أبي علي بن الحسين بن علي بن العابد بن يقول: سمعت أبي الحسين بن علي يقول: سمعت أبي علي بن أبي طالب يقول: سمعت أخي وابن عمي وحبيبي رسول الله يقول: سمعت جبرائيل يقول: سمعت الله في عرشه يقول: شهادة أن لا إله إلا الله حصني! فمن دخل حصني أمن من عذابي» ثم التفت الإمام إلى الناس وأضاف: «بشروطها، وأنا من شروطها».... وهذا الحديث هو حديث السلسلة الذهبية لأنه مروى عن معصومين عن الله سبحانه وتعالى...

إذا أراد الإمام أن يبين للناس أن التوحيد لا يمكن أن يتم إلا بالإمامة والولاية.

والإمام هو من شروط الشهادة، فمن اعتقد بإمامته فشهادته مقبولة، وإلا يكون شأنه شأن عبد الله بن عمر الذي تولى الحجاج بن يوسف الثقفي ويأبعه بصفقة على رجله!!.

وماذا فعل الإمام في أيام ولايته للعهد؟ كيف كان سلوكه؟...

لقد أراد الإمام في تلك المدة القصيرة أن يقدم للناس صورة عن الحاكم الإسلامي العادل ليتعظوا بما يروونه ويلاحظوا الانحراف في سيرة الخلفاء العباسيين.. فكان إذا جلس في بيته وخلا بخدمه وحشمه صار يحدثهم ويأنس بهم ويأنسونه به. وإذا جاء وقت الطعام أجلسهم جميعاً إلى مائدته وأكل معهم... ثم يلتفت إلى المسؤول عن المائدة ويقول له: هذه المائدة ليس عليها خضار! أما علمت أنني لا أجلس على مائدة ليس عليها

خضار؟!... وهذه حقيقة علمية دقيقة؛ فالخضار على المائدة تدفع أكثر من عشرين نوعاً من الأمراض، ومن جعلتها السرطان!!..

وقبل أن يصل الإمام إلى نيسابور مرَّ على قرية هناك اسمها «نباح». رجل من تلك القرية اسمه أبو حبيب النباحي يقول: رأيت في منامي أنني دخلت مسجد القرية، فرأيت رسول الله جالساً على حصير وبين يديه طبق من خوص فيه تمرٌ صيحاني (نوع من التمر)، فسَلَّمْتُ عليه، فردُّ عليَّ السلام، ثم أخذ قبضةً من التمر ودفعها إليَّ. عددت التمرات فإذا هي ثمانِي عشرة تمرّة. يقول: انتهت من نومي وصرت أفكر في هذه الرؤيا، وأولت الحلم بأنه قد بقي من عمري ثمانِي عشرة سنة. يقول: وبعد عشرين يوماً من هذا الحلم سمعت أن الإمام علي بن موسى الرضا في المسجد، والناس يتوافدون للسلام عليه. فذهبت مع الناس للسلام عليه، فوجدته جالساً في نفس المكان الذي رأيت فيه الرسول. وكذلك رأيت أمامه طبقاً من خوص فيه تمرٌ صيحاني. سلَّمْتُ عليه، فردُّ عليَّ السلام واستدنانني منه. ثم أخذ قبضة من التمر ودفعها إليَّ، فعددتها، فإذا هي ثمانِي عشرة تمرّة.. قلت له: سيدي، لو زدني! قال: «يا أبا حبيب، لو زادك جدِّي رسول الله لزدناك!..»

وأنا أنقل لكم حادثتين رواهما لي أصحابهما تبيّنان لكم فضل الإمام الرضا عليه السلام:

رجلٌ شيخ، أستاذ في الأخلاق، كان يعيش في مشهد. وكان هذا الشيخ يسكن مع عائلته الكبيرة في بيت استأجره من رجل هناك. ذات يوم جاء صاحب البيت وأراد استرجاع بيته لأنه بحاجة إليه. وعده الشيخ بإخلاء البيت وطلب منه مهلة إلى يوم الجمعة القادم... ومعنى ذلك أن الشيخ عليه إخلاء البيت يوم الجمعة وإلا لا تصحَّ صلاته فيه بعد ذلك لأنه يصلي في مكان مغتصب. أمضى ذلك الشيخ أسبوعاً كاملاً وهو يبحث عن بيت آخر يؤوي فيه عائلته فلم يوفِّق.

فجميع أصحاب البيوت يرفضون تأجير بيوتهم لعائلات كثيرة الأطفال . ومضت أيام الأسبوع ، ولم يعد يفصله عن يوم الجمعة سوى يوم واحد سألته عائلته : ما العمل ؟ قال : لا عليكم ، احزموا أمتعتكم فقد وجدت بيتاً ، وسوف نتقل إليه غداً صباحاً إن شاء الله وفي الصباح أحضر الشيخ شاحنة صغيرة ووضع فيها جميع أغراضه وأثاث بيته ، وترك هو وعائلته البيت بعد أن أعاد المفتاح إلى صاحبه . . سألته أولاده : أين البيت الجديد ؟ قال : هو قريب من هنا ، إنه عند صحن الإمام الرضا عليه السلام . . فرح الأولاد كثيراً بالبيت الجديد وبالجيرة الجديدة . . . وفي الحقيقة فإن هذا الرجل لا يعرف بيتاً جديداً ولا يدري ماذا يفعل . . . كل ما في الأمر أنه توكل على الله وخرج ، وفي نيته أن يقصد الإمام الرضا

توقفت السيارة أمام صحن مشهد الإمام ، فقال الشيخ لعائلته وللسائق : انتظروني هنا حتى أذهب إلى الصحن وأتي بالمفتاح . . دخل إلى الصحن ووقف عند الإمام وخاطبه قائلاً : سيدي أنت تعلم أنني ما كذبت على عائلتي أبداً ، وتعلم أنني ما قصرت في البحث عن بيت لسكني عائلتي ، وتعلم أن ما أردت أن أصلي في مكان مغصوب فأقسم عليك بأمك فاطمة أن تهنيء لي بيتاً وتحفظ لي كرامتي وماء وجهي !! . . . في تلك اللحظة سمع الشيخ شخصاً يناديه من خلفه . التفت فإذا رجل يقبل عليه مستبشراً ويقول : أين أنت يا شيخنا ؟ لقد بحثت عنك طويلاً . ولي عندك حاجة أستحلفك بالله ألا تردني خائباً ! . . قال الشيخ : حباً وكرامة إن الله ! . . قال الرجل : لقد اشتريت بيتاً هنا قريباً من الصحن ، لأنني آتي للزيارة يوماً أو يومين كل ثلاثة أشهر ، ولا أحب أن أؤجر البيت لشخص غريب يبعث به ، كما أفضل ألا أتركه فارغاً ؛ فلو تكرمت عليّ وأخذت المفتاح وسكنت في البيت مع عائلتك أكون لك من الشاكرين . هنا بكى الشيخ وجرت دموعه فرحاً وشكراً لله ، ثم توجه هو والرجل لإحضار أثاث البيت . وفوجيء الرجل بأن أثاث البيت حاضر في شاحنة تقف أمام الصحن ، فسأل الشيخ عن الأمر ، فروى له قصته وقال له : أنا أتيت إلى هنا لأخذ المفتاح من الإمام . هنا قال له الرجل : إن الإمام الرضا عليه السلام يحول إليك المفتاح عن طريقي ، وهذا البيت هدية مني لك باسم

الإمام الرضا، وأنا عندما آتي للزيارة أكون عندك ضيفاً!...

هذه حكاية حقيقية حدثت وأنا أعرف أصحابها، وهي تبين أن من يتوجه إلى الإمام الرضا بقلب خاشع ومفتوح وبنية طيبة، فإن الإمام لا يردّه خائباً..

والقصة الثانية كنت شاهداً عليها. ففي زيارتي الأخيرة لمشهد الإمام الرضا عليه السلام التقيت برجل مؤمن طيب أخذ يحدثني قائلاً: أنا هنا لأنني نذرت نذراً أن آتي إلى مضيف الإمام الرضا وأتغدى فيه. وهذا المضيف كبير جداً ويأتي إليه الناس يومياً بالآلاف وربما بالآلاف والقائمون عليه يذبحون يومياً ما يزيد على خمسمائة خروف لإطعام الناس. ولذلك لا بد لكل واحد يريد أن يأكل من الحصول على بطاقة صغيرة تخوله الدخول. يقول: وقد حاولت جاهداً أن أحصل على تلك البطاقة فلم أقدر، وفي كل مرة يرجعني البواب خائباً. وما قد مضى على وقت الغداء أكثر من ساعتين، وقد أضناني الجوع، وأريد أن أعود إلى بلدي بعد وفاء النذر.

يقول الرجل: فهممت أن أتوجه إلى الإمام الرضا لأشكوله حالتي، وفيما أنا أهمّ بخلع حذائي عند الكيشوان (مكان حفظ الأحذية) إذا بسيد جليل معمم يسلم عليّ ويسألني: من أين الأخ؟ قلت له: أنا من النجف الأشرف، وقد خرجت منذ زمن طويل وأريد العودة إلى بلدي.. قال: ربما أنت جائع لم تتناول غداءك بعد؟ قلت: بلى والله! قال: تفضل معي إلى البيت!... يقول الرجل: فذهبت معه إلى بيته، وهناك قدّم لي ما لذّ وطاب من المأكّل والمشرب. وقد كان الطعام لذيذاً جداً، فسألته أن يصف لي كيف يطبخونه، فقال: نحن هنا لا نطبخ في البيت. قلت: وكيف ذلك؟! قال: يومياً يأتون إلينا بالطعام من مضيف الإمام الرضا! قلت متعجباً: وكيف يأتون إليكم بالطعام من هناك، وأنا أضناني الجوع والتعب ولم أستطع الحصول على بطاقة صغيرة؟! قال: لأنني أنا مدير المضيف... وقد رأيتك هناك فدعوتك إلى بيتي لتأكل من طعام الإمام الرضا عليه السلام... يقول الرجل: هنا انفجرت بالبكاء، فقال لي: خيراً إن شاء الله!! فرويت له قصتي؛ فصار هو يبكي!.. قلت له: ولماذا أنت تبكي؟ قال: أبكي لأنني عرفت أن خدمتي

مقبولة عند الإمام الرضا عليه السلام .

مصرع الإمام الرضا عليه السلام

ودّع الإمام الرضا عائلته بالدموع والبكاء وانتقل إلى خراسان؛ وبقي هناك إلى أن سمّه المأمون.

كان الإمام الرضا في تلك البلاد دائم التذكير بمصيبة جدّه الحسين . . . كان يذكر أصحاب الحسين ويكي، ويذكر النساء اللواتي قتلن مع الحسين ويكي، ويقرأ مصيبة وهب بن حباب الكلبي كان وهب رجلاً مسيحياً أسلم على يد الحسين، وأراد أن يخرج للقتال بين يدي الحسين . حاولت زوجته أن تمنعه فلم يلتفت إليها، وانطلق إلى القتال . . . وفي أثناء العركة، وبينما هو يقاتل، سمع صوتاً تخنقه العبرة يناديه: يا وهب! يا وهب! قاتل دون الطييين ، فذاك أبي وأمي!! التفت وهب، وإذا هي زوجته! قال: ويلك! أما كنتِ تهينني عن القتال؟! وأراك الآن تقسطين معي!! قالت: يا وهب، لا تلمني! إن داعية الحسين كسرت قلبي! قال: وماذا رأيت؟؟ قالت: رأيت الحسين بباب الخيمة، وأطفاله إلى جانبه ينادون: العطش، العطش!!

هذه القصة كان يرويها الإمام الرضا لابن شبيب ويقول له: يا ابن شبيب، إن كنتَ باكياً لشيء فابكٍ لجدي الحسين فإنه ذُبِحَ كما يُذبح الكباش!!

فاطمة المعصومة بنت الإمام موسى بن جعفر قدمت لرؤية أخيها الرضا. لما وصلت إلى قم، أرسلت بعض الجوارى يبتعن لها أشياء من السوق. ذهبت الجوارى وإذا بهنّ يجدن جميع الأسواق مقفلة! سألن ما الخبر؟ قيل لهنّ إن الإمام علي بن موسى الرضا توفي هذا اليوم!!

أخذت الجوارى يبكين ويتحنن ولماذا البكاء؟! قلن: هذه أخت الإمام الرضا فاطمة المعصومة جاءت لملاقة أخيها، فكيف نعلمها

بالخير؟ خرج الناس في عزاء ودموع لاستقبال فاطمة، فلما علمت بمصرع أخيها صاحت: وا أخاه، وا عليها، ثم وقعت إلى الأرض فلإذا هي قد فارقت الحياة.

إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ راجعون ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم،
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

السيرة الذاتية للإمام محمد
ابن علي الجواد عليه السلام

الامام الجواد عليه السلام^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾^(٢). صدق الله العظيم.

أهل البيت والقرآن كل لا ينفصل

إن أهل الذكر الذين وردت الإشارة إليهم في هذه الآية الكريمة هم أهل البيت عليهم السلام ، لأن القرآن نزل في بيوتهم وهم أدري بما في هذا البيت. فالذكر هو القرآن وأهل الذكر هم أهل البيت. إنهم والقرآن الكريم كل متكامل لا انفصام بينهما، وبالتالي فهم أئمة الهدى ومصابيح الدجى. ويتعبير آخر، لا يمكن لنا أن نتعرف إلى القرآن إلا منهم لا من غيرهم، كائناً من كان هذا الغير. فهم الذين حفظوا سنة النبي ﷺ وكلام الوحي فكانوا لنا هدياً من السماء.

وقد يعترض معترض فيقول: ما الدليل على ذلك؟ ولكل معترض

(١) أقيمت هذه المحاضرة ليلة الثلاثين من المحرم سنة ١٤٠٩ هـ .

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٧.

نقول: إنها حقيقة ثابتة تؤيدها الشواهد والإدلة:

١ - فالقرآن الكريم هو الأثر الوحيد الذي لا نجد فيه تعارضاً بينه وبين العقل والعلم. وبالتالي فهو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

٢ - إن العلم الذي وصلنا من علي وفاطمة وسائر أهل البيت ينسجم كل الانسجام ويتوافق كل التوافق مع علوم القرآن. حتى قيل: «الإمام علي عليه السلام هو القرآن الناطق وكتاب الله هو القرآن الصامت». وقيل أيضاً: «علي مع الحق... والحق مع علي يدور معه حيثما دار» وهل القرآن إلا الحق نفسه؟ لذلك لا يمكن لأي إنسان مهما بلغ علمه، أن يستوعب علوم الإسلام ومناهج القرآن بعيداً عن محمد ﷺ وأهل بيته عليهم السلام. والرجوع إلى الرسول ﷺ لفهم القرآن والإسلام يجب أن يتم عبر قنوات صادقة حقيقية وهذه القنوات هي أهل البيت حسب تحديد القرآن وتحديد الرسول ﷺ. وأي رجوع إلى الرسول عبر قنوات أخرى مزيفة لا بد أن يوردنا موارد التهلكة وأن يوقعنا في الخطأ.

يقول أحد «الدكاترة المودرن»، وهو من الذين درسوا في الولايات المتحدة الأميركية في مقال له نشرته الصحف، يقول هذا «الدكتور» في مقاله المودرن: إن الرسول كان يجامع إحدى زوجاته في أيام الحيض وكان يبول واقفاً، والعياذ بالله. كيف يمكن لنا أن نستمع مجرد استماع لمثل هذه الترهات والأباطيل؟ ولنا أن نسأل: عبر أي القنوات استقى هذا الدكتور معلوماته؟ وما هو هذا الرسول الذي يأمر عباد الله بشيء ويأتي بعكسه. وكيف لهذا الدكتور، أن يتعرض للرسول العظيم الذي إذا تحدث عن القرآن كرمه وعظمه. وإذا خاطبه الباري عز وجل يقول: «يا أيها النبي» أو «يا أيها الرسول» في الوقت الذي يخاطب سائر الأنبياء بأسمائهم: «يا آدم، يا نوح، يا إبراهيم، يا موسى، يا عيسى...» ويأمرنا

ألا نرفع أصواتنا عند رسول الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾^(١).

إن هذا الرجل، بهذه الصور الشنيعة التي يلصقها برسول الله إنما يفعل ذلك ليرسم صورة للإسلام الذي يريده الغرب الأوروبي الذي يسعى إلى تمزيق المسلمين وضربهم من خلال ضرب مقدساتهم وتشويه صورهم الجليلة، وخير هذه المقلسات نبي الرحمة ﷺ. وما كان ذلك ليحدث إلا لأن بعض كتابنا ومفكرنا يرجعون إلى الرسول ﷺ عبر قنوات مزيفة حاكمة، في الوقت الذي لا يمكن الرجوع إلى النبي إلا عبر قنواته الشرعية، عبر فاطمة الزهراء، وعبر علي بن أبي طالب الذي قال فيه الرسول ﷺ: «أنا مدينة العلم وعلي بابها» ومن أراد أن يدخل هذه المدينة المقدسة الحافلة بالعلم الإلهي، فلا يمكن له أن يدخلها ويفهم ما فيها من علم وافر وفكر جَمٍّ، إلا من بابها العريض الواسع الذي حدده رسول الله ﷺ. وبالتالي لا يكون الدخول إليها عبر التوافذ مهما كبرت أو صغرت، ولا بتسلق جدرانها أو التلصص من الثقوب.

إن الرسول الأعظم أجل وأرفع مقاماً من أن يوصف بمثل هذه الأباطيل. وخلاصة القول في هذه المقدمة: إن علم القرآن والإسلام لا يؤخذ إلا من النبع ومن الباب، من أهل البيت عليهم السلام فهم ينابيع ماء فرائد، سائغ شراؤه يتدفق للشاربين. ولن ننسى قول الإمام علي عليه السلام: «سلوني قبل أن تفقدوني».

الإمام الجواد سلام الله عليه:

من هذه الينابيع المتدفقة علماً وورعاً وتقوى الإمام الجواد عليه السلام. هو الإمام التاسع من أئمة أهل البيت، أبو جعفر محمد الجواد بن

(١) سورة الحجرات؛ الآية: ٤.

علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

ولد عليه السلام بالمدينة المنورة ليلة الجمعة في التاسع عشر من شهر رمضان سنة مائة وخمس وتسعين للهجرة، وتوفي عليه السلام ببغداد في خلافة المعتصم العباسي سنة ٢٢٠ هـ. ودفن في الكاظمية حيث جده موسى الكاظم عليه السلام وهو ابن خمس وعشرين سنة. وعلى هذا فهو أصغر الأئمة سناً. عاش عليه السلام مع أبيه ثماني سنوات وبقي بعده سبع عشرة سنة هي مدة إمامته وخلافته. وأمه عليها السلام أم ولد يقال لها سبيكة وكانت نوبة.

عزم المأمون على تزويجه من ابنته ومعارضة بني العباس

لما توفي الإمام الرضا عليه السلام وجه المأمون إلى ولده الإمام الجواد فحمله إلى بغداد وأنزله بالقرب من داره وأجمع على أن يزوجه ابنته أم الفضل فبلغ ذلك العباسيين فغلظ عليهم ذلك وخافوا أن ينتهي الأمر معه إلى ما انتهى إليه مع أبيه الرضا عليه السلام من جعله ولياً للعهد، فحاضوا في ذلك. ويتابع المسعودي في «إثبات الوصية» قائلاً:

«فاجتمع إلى المأمون أهل بيته الأذنون. فقالوا له: «ننشدك الله يا أمير المؤمنين أن تقيم على هذا الأمر الذي قد عزمت عليه من تزويج ابن الرضا. فإننا نخاف أن تخرج به عنا أمراً قد ملكتناه الله وتزع منا عزاً قد ألبسناه الله. فقد عرفت ما بيننا وبين هؤلاء القوم آل علي قديماً وحديثاً، وما كان عليه الخلفاء الراشدون قبلك من تبعيدهم والتصغير من شأنهم. وقد كنا في وهلة من عملك مع أبيه الرضا (يشيرون إلى جعل المأمون الإمام الرضا ولياً للعهد) حتى كفانا الله المهم من ذلك. فالله، الله أن تردنا إلى غمّ قد انحسر عنا واصرف رأيك عن ابن الرضا، واعدل إلى من تراه من أهل بيتك يصلح لذلك دون غيرهم». يقول المسعودي:

«فقال المأمون لهم: أما ما بينكم وبين آل أبي طالب فأنتم السبب فيه، ولو آنصفتكم القوم لكانوا أولى بكم وأما ما كان يفعله من كان قبلي بهم، فقد كان به قاطعاً للرحم. وأعوذ بالله من ذلك. والله ما ندمت على ما كان مني من استخلاف أبيه الرضا. ولقد سألته أن يقوم بالأمر وأنزعه عن نفسي فأبى وكان أمر الله قَدراً مقدوراً».

وأما أبو جعفر الجواد عليه السلام (ما زال الكلام للمأمون) فوالله لا قبلت من واحد منكم في أمره شيئاً. فقد اخترته لتبريزه على أهل الفضل في العلم والفضل مع صغر سنه لأنه أعجوبة عصره وزمانه، وأنا أرجو أن يظهر للناس ما قد عرفته منه فيعلموا أن الرأي ما رأيت فيه».

يقول المسعودي: «فقالوا له: يا أمير المؤمنين أتزوج ابنتك وقرة عينك صبيّاً لم يتفق في دين الله ولا يعرف حلاله من حرامه ولا فرضه من سنته... فامهله ليتأدب ويقرأ القرآن...».

فقال لهم المأمون: ويحكم إني أعرف بهذا الفتى منكم وإنه أفقه وأعلم بالله ورسوله وسنته وأحكامه، وأقرأ لكتاب الله منكم وأعلم بمحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه... وإن شئتم فامتحنوا أبا جعفر، فإن كان الأمر كما وصفتم قبلت منكم وإن كان الأمر على ما وصفت علمت أن الرجل أخلف منكم».

المناظرة بين الجواد عليه السلام ويحيى بن أكثم:

يتابع المسعودي: «قالوا له: قد رضينا لك يا أمير المؤمنين ولأنفسنا امتحانه فخلّ بيننا وبينه لننصب من يسأله بحضرتك عن شيء من فقه الشريعة فإن أصاب الجواب عنه لم يكن لنا اعتراض في أمره وظهر للخاصة والعامة سديداً رأي الأمير، وإن عجز عن ذلك فقد كُفينا الخطب في معناه. فقال لهم المأمون: شأنكم وذلك متى أردتم. فخرجوا من عنده واجتمع رأيهم على مسألة يحيى بن أكثم وهو يومئذ قاضي القضاة، على أن

يسأله مسألة لا يعرف الجواب فيها ووعدوه بأموال نفيسة . . .

فاجتمعوا في اليوم الذي اتفقوا عليه، وحضر معهم يحيى بن أكثم. فأمر المأمون أن يُفرش لأبي جعفر عليه السلام^(١) ويُجعل له فيه مسورتان^(٢)، ففعل ذلك. وخرج أبو جعفر عليه السلام فجلس بين المسورتين وجلس يحيى بن أكثم بين يديه وقام الناس في مراتبهم والمأمون جالس في دست متصل بدست أبي جعفر عليه السلام. فقالوا: يا أمير المؤمنين، هذا القاضي إن أذنت له يسأل أبا جعفر. فقال المأمون: استأذنه في ذلك. فأقبل عليه يحيى بن أكثم فقال: أتأذن لي جعلت فداك في مسألة؟ فقال له أبو جعفر عليه السلام: سل إن شئت. قال يحيى: ما تقول، جعلت فداك في مُحَرَّم قتل صيداً؟

فقال له أبو جعفر عليه السلام: قتله في حِلٍّ أو حَرَمٍ؟ عالماً كان المُحَرَّمُ أو جاهلاً؟ قتله عمداً أو خطأ؟ حرّاً كان المحرم أو عبداً؟ صغيراً كان أم كبيراً؟ مبتدئاً بالقتل كان أم معيداً؟ من ذوات الطير كان الصيد أم من غيرها؟ من صغار الصيد كان أم من كبارها؟ مصرّاً على ما فعل أو نادماً؟ في الليل كان قتله للصيد أم في النهار؟ عياناً كان الصيد أم في وَكْرِهِ؟ مُحَرَّمَا كان بالعمرة حين قتله أو بالحج؟

فتحير يحيى بن أكثم وانقطع انقطاعاً لم يخف على أحد من أهل المجلس وبان في وجهه العجز والانقطاع وتلجلج حتى عرف جماعة أهل المجلس أمره وتحير الناس عجباً من جواب الإمام الجواد عليه السلام.

تفصيل الجواد عليه السلام في حكم المحرم الذي قتل صيداً^(٣)

فقال المأمون: الحمد لله على هذه النعمة. ثم نظر إلى أهل بيته فقال لهم: أعرفتم الآن ما كنتم تنكرونه . . . ثم قال المأمون لأبي

(١) الدست (فارسية): الوسادة.

(٢) اليسور واليسورة والجمع مساور: متكأ من جلد.

(٣) الاحتجاج للطبرسي الجزء الثاني صفحة: ٤٤٥.

جعفر عليه السلام : جعلت فداك إن رأيت أن تذكر الفقه فيما فصلت من وجوه قتل المحرم صيداً لنعلمه ونستفيده.

فقال أبو جعفر عليه السلام : نعم. إن المحرم إذا قتل صيداً في الجِلِّ وكان الصيد من ذوات الطير وكان من كبارها فعليه شاة. وإن أصابه في الحرم فعليه الجزاء مضاعفاً. وإذا قتل قَرْخاً في الحل فعليه حَمَلٌ قد فُطِمَ من اللبن. فإذا قتله في الحرم فعليه الحمل وقيمة الفرخ. فإذا كان من الوحش وكان حماراً وَحْشٍ فعليه بقرة وإن كان نعامة فعليه بَذَنَةٌ^(١). وإن كان ظيياً فعليه شاة. فإن كان قتل شيئاً من ذلك في الحرم فعليه الجزاء مضاعفاً هَذِيّاً بالغ الكعبة. وإذا أصاب المحرم ما يجب عليه الهدي فيه وكان إحرامه للحج نحره بمنى وإن كان إحراماً بعمرة نحره بمكة. وجزاء الصيد على العالم والجاهل سواء. وفي العمد عليه المائتم، وهو موضوع عنه في الخطأ. والكفارة على الحر في نفسه وعلى السيد في عبده. والصغير لا كفارة عليه، وهي على الكبير واجبة. والنادم يُسَقِّطُ ندمه عنه عقاب الآخرة، والمصرُّ يجب عليه العقاب في الآخرة.

الجواد يمتحن يحيى بن أكثم^(٢)

بعد أن فصل الجواد عليه السلام في هذه المسألة الفقهية قال المأمون: أحسنت يا أبا جعفر، أحسن الله إليك. فإن رأيت أن تسأل يحيى عن مسألة كما سألك؟ فقال أبو جعفر ليحيى : أسألك.

قال: ذلك إليك جعلت فداك، فإن عرفت جواب ما تسألني عنه وإلا استفدته منك.

فقال أبو جعفر عليه السلام : أخبرني عن رجل نظر إلى امرأة في أول النهار

(١) البَذَنَةُ: الناقة أو البقرة المُسَمَّنَةُ.

(٢) الاحتجاج ج ٢ ص ٤٤٥.

فكان نظره إليها حراماً عليه، فلما ارتفع النهار حلت له. فلما زالت الشمس حُرِّمَتْ عليه، فلما كان وقت العصر حَلَّتْ له، فلما غربت الشمس حرمت عليه، فلما دخل وقت العشاء الآخرة حلت له، فلما كان وقت انتصاف الليل حرمت عليه، فلما طلع الفجر حلت له. ما حال هذه المرأة؟ وبما حَلَّتْ له وحرِّمَتْ عليه؟

فقال له يحيى بن أكثم: لا والله لا أهندي إلى جواب هذا السؤال، ولا أعرف الوجه فيه. فإن رأيت أن تفيدنا؟

فقال أبو جعفر عليه السلام: هذه أمةٌ لرجل من الناس، نظر إليها أجنبيٌّ في أول النهار فكان نظره إليها حراماً عليه، فلما ارتفع النهار ابتاعها من مولاهما فحلت له، فلما كان عند الظهر أعتقها فحرمت عليه، فلما كان وقت العصر تزوجها فحلت له، فلما كان وقت المغرب ظاهر منها^(١) فحرمت عليه، فلما كان وقت العشاء الآخرة كَفَّرَ عن الظهار فحلت له، فلما كان نصف الليل طَلَّقَهَا تطليقة واحدة فحرمت عليه، فلما كان عند الفجر راجعها فحَلَّتْ له.

فأقبل المأمون على من حضر من أهل بيته وقال لهم: هل فيكم من يجيب عن هذه المسألة بمثل هذا الجواب؟ أو يعرف القول فيما تقدم من السؤال؟

قالوا: لا والله إنَّ أمير المؤمنين أعلم بما رأى.

فقال: وبحكم، إن أهل البيت خصوا من الخلق بما ترون من الفضل، وإن صغر السن لا يمنعهم من الكمال؛ أما علمتم أنَّ رسول الله ﷺ افتتح دعوته بدعاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وهو ابن عشر سنين، وقبل منه الإسلام وحكم له به، ولم يَدْعُ أحداً في سنه غيره، وبايع الحسن والحسين عليه السلام وهما دون الست من

(١) الظهار هو: أن يقول الرجل لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي. فإذا قال لها ذلك، حرمت عليه ولا يرجع بها إلا بعد أداء الكفارة.

السنين ولم يسابع صبياً غيرهما؟ أو لا تعلمون الآن ما اختص الله به هؤلاء القوم وأنهم ذرية بعضها من بعض، يجري لأخـرهم ما يجري لأولهم؟ قالوا: صدقت يا أمير المؤمنين».

تعليق: إن هذه المواقف الرائعة في الحقيقة لا تحتاج إلى تعليق. ولكن لا بد من القول مجدداً إن أهل البيت هم الذين حفظوا الإسلام والقرآن، وهم خير من يوضح لنا المغاليق والأسرار لأن الله سبحانه وتعالى قد اختارهم من دون البشر جميعاً ليكونوا مصابيح هدى تنير للمسلمين حالك الظلام ومد لهم المسالك. فلذلك من أراد أن يتعرف إلى دينه وإسلامه وقرآنه فعليه بهم فهم خزانة العلم ومختلف السائلين وري العطاشى. ومن هنا نفهم لماذا جعلهم الرسول عذلاً للقرآن الكريم إذ يقول يُحْيِيهِمْ: «إني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي».

لا يشترط في زوجة الإمام الصلاح:

عندما استشهد الإمام الجواد عليه السلام كان في الخامسة والعشرين من عمره، على يد زوجته أم الفضل ابنة المأمون بدافع الحسد والغيرة من زوجته الثانية أم الإمام الهادي عليه السلام، وبتحريض من المعتصم.

وفهم من ذلك أن الصلاح ليس شرطاً في زوجة الإمام المعصوم، كما لم يكن ذلك شرطاً في زوجة النبي. يقول الله سبحانه في سورة التحريم: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحَ وامْرَأةَ لُوطَ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾^(١) إن الآية الكريمة صريحة وواضحة في هذا المجال فهاتان زوجتان لنبيين هما نوح ولوط عليهما السلام قيل لهما ادخلا النار. وقد نجد من هو كافر جبار كفرعون مثلاً وزوجته مؤمنة صالحة، وقد ضرب

(١) سورة التحريم؛ الآية: ١٠.

الله بها مثلاً في قرآنه الكريم . يقول تعالى : ﴿ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون . إذ قالت ربِّ ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ﴾ ^(١) كما أن زوجة الحسن عليه السلام جَعْدَةُ بنت الأشعث ، قد دست له السم في اللبن بأمر من معاوية .

بعض مزايا الجواد عليه السلام :

إن حياة الإمام الجواد عليه السلام سلسلة متواصلة من العطاء والعلم والكرم ، فلقبه الجواد . وقد تواترت الأخبار أن من كانت لديه حاجة فليطلبها منه عليه السلام لأنه باب يؤدي إلى خالق الكون . وليس هذا بمعجيب أو مستغرب فأنت عندما تذهب إلى الطبيب تطلب الشفاء لديه فأنت لست بمشرك فالشفاء من الله تعالى ، والطبيب هو صلة الوصل بينك وبين الله تعالى . فلا غرابة أن يكون الجواد باب الله الذي منه يؤتى .

وعطاء الجواد عليه السلام لا حدود له ، كما يؤثر أنه بالغ الغاية في الجمال ، ولشدة جماله ما كان يستطيع أي إنسان أن يطيل النظر إلى وجهه . كما عمل على نشر العلم والفكر الإسلامي خطابةً وكتابةً وموعظةً . وكان غاية في الورع والزهد .

بعض الصور من علمه وفكره

صورة أولى :

يقول عليه السلام : « لا تُعَادِ أحداً حتى تعرف الذي بينه وبين الله تعالى ، فإن كان محسناً فإنه لا يسلمه إليك ، وإن كان مسيئاً فإن علمك به يكفيه فلا تُعَادِهِ . »

أي لا تحمل حقداً أو ضغينة لأحد فالإنسان المحسن المطيع لن

(١) سورة التحريم؛ الآية : ١١ .

يسمح الله لك بأن تؤذيه لأنه لا يتركه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(١).
أما إذا كان مسيئاً عاصياً فإن علمك بأنه مسيء يكفيه وفي هذه الحالة هو
أولى بالشفقة لا بالعداوة فتدعوله بالهداية والرحمة.

صورة ثانية:

ويقول ﷺ «كفى بالمرء خيانة أن يكون أميناً للخونة» كان يكون
الإنسان أميناً للحجاج أو ليزيد أو لآل مروان مثلاً. إن مثل هذا الإنسان
برأي الجواد ﷺ هو إنسان خائن.

صورة ثالثة :

يروى أن رجلاً من بغداد كان يمتنع عن تزويج بناته بحجة أن كل
من يأتيه لا يوازيه شرفاً ومحتداً ومنزلة اجتماعية. وطالما نصحه الناس في
ذلك ولكن دون جدوى. فنصحوه أن يستشير الإمام الجواد ﷺ. فبعث
إليه برسالة يستفتيه ويسأله شارحاً موقفه. فأجابه الجواد ﷺ بالرسالة
التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد: فقد فهمت ما كتبت من أمر بناتك وأنه ليس أحد مثلك
يتقدم لخطبتهن. لقد قال رسول الله ﷺ «إذا خطبكم من ترضون دينه
وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنه في الأرض وفساد كبير» وقال ﷺ :
«إن الأبيكار بمنزلة التمر على الشجر إذا أدرك ثمارها ولم يُجتنَ أفسدت
الشمس ونثرته الرياح».

ومعنى ذلك أنه إذا أدركت الفتاة البكر ما يدرك النساء فليس لها إلا
البعولة وإلا تصبح معرضة للفساد فهي كالثمرة التي لا بد من جنيها إذا
نضجت وإلا فإن الشمس سوف تذبلها بحرارتها وبالتالي فإن الرياح سوف
تنثرها في مهبها.

(١) سورة الحج؛ الآية: ٣٨.

صورة رابعة:

كتب رجل إلى الإمام الجواد عليه السلام يستفتيه. فقال في كتابه: «يا ابن رسول الله لنا صبيّة زوّجها عمها، فلما كبرت أبت التزويج. فما هو الحل؟» نفهم من الكتاب أن هذه الفتاة توفي أبوها فكفلها عمها وزوجها صغيرة، فلما كبرت رفضت تزويجها.

فكتب الإمام بخط يده: «لا تُكرّه على الزواج والأمّر أمرها» إن هذه الفتوى أتركها برسم أولئك الذين يكرهون بناتهن على الزواج ممن لا يردن؟

صورة خامسة:

كتب آخر للإمام يسأله: «عندي جارية فيها مسّ من الجنون. فهل أنزوجها؟».

وكان الجواب: «إذا كنت تطلب ذرية منها فلا تتزوجها، أما إذا كانت للتمتع فقط فتزوّجها».

إنه عليه السلام في جوابه هذا إنما ينسجم مع الحقائق العلمية التي تؤكد أن الوراثة تلعب دوراً هاماً في انتقال الصفات من الآباء والأمهات إلى الأبناء فلا يأمن من أن ينتقل الجنون بالوراثة من هذه المرأة إلى ذريتها.

مدرسة الجواد:

بعد وفاة الإمام الرضا عليه السلام بقي الإمام الجواد فترة من الوقت في بغداد ثم انتقل بعد ذلك إلى المدينة المنورة فشكّل بوجوده هناك مدرسة يرتادها طلاب العلم والمعرفة من كل الأرجاء وهو عليه السلام يقدم لهم علمه وفكره وخلاصة تجربته في القرآن وتفسيره وفي الفقه الإسلامي والشريعة الإسلامية فكان بحراً لا ينضب.

وكان وهو في المدينة يواظب يومياً على زيارة قبر جدّه رسول الله ﷺ وقبر الزهراء سلام الله عليهما. لقد كان مشعلاً من الفكر

والعلم والهداية على الرغم من العمر القصير الذي عاشه، مفتقياً بذلك سيرة آبائه وأجداده الميامين. وقد وصل فكره الإسلامي إلى مناطق بعيدة من العالم الإسلامي في ذلك الوقت.

مع المعتصم:

مات المأمون فانتقلت الخلافة العباسية إلى أخيه المعتصم فوصلته وشاية بالإمام الجواد. فجيء به عليه السلام إلى بغداد مكبلاً. وعندما سألته المعتصم عما نسب إليه من تهمة، نفى هذه التهمة جميعاً، فكرّمه وعزّزه.

ولكن المعتصم كان يلاحظ أن قلوب الناس تميل إلى الجواد عليه السلام كما مالت من قبل إلى آبائه وأجداده، فلم تهدأ نفسه لهذه المحبة في نفوس المؤمنين مما أوغر صدره.

ونحن لا نستغرب أن تكون قلوب المؤمنين مع الإمام الجواد عليه السلام كما كانت من قبل مع أبيه الإمام الرضا سلام الله عليه. . وكما كانت أيضاً مع الإمام زين العابدين سلام الله عليه، وهل ننسى عندما جاء عليه السلام ليستلم الحجر الأسود ففتح الناس له الطريق إجلالاً واحتراماً في الوقت الذي حاول فيه الحاكم الأموي هشام بن عبد الملك أن يصل إلى الحجر الأسود ولكنه لم يتمكن من ذلك ؟ .

ويُروى أنه جيء بسارق إلى مجلس المعتصم وكان في هذا المجلس القاضي يحيى بن أكثم وكان الإمام الجواد موجوداً. فسأل المعتصم: من أين تقطع يده. فأجاب يحيى بن أكثم: تقطع من الأصل. أما القاضي أحمد بن أبي دؤاد الذي كان موجوداً في المجلس فقد أفتى فقال: تقطع من الكرسوع^(١).

التفت المعتصم إلى الإمام الجواد عليه السلام وقال: يا ابن رسول الله ما

(١) الكرسوع: طرف الزند الذي يلي الخنصر.

أعطيت رأيك. فقال ﷺ: تقطع يده من الأشاجع^(١) أي من أطراف الأصابع.

ونفهم من هذه الفتوى بُعدها الإنساني في الإسلام. فالله سبحانه لا يريد أن ينتقم من الناس، إنما يريد أن يؤدبهم. والدليل إلى ذلك قول رسول الله ﷺ: «أعضاء السجود سبعة: الوجه واليدان والركبتان والرجلان». فاليد تدخل في أعضاء السجود فلا بد أن تكون محترمة فهي تسجد لله سبحانه وتعالى. يقول عزّ من قائل: ﴿وَأَن الْمَسَاجِدَ اللَّهُ لَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾^(٢) ومعنى المساجد هنا أعضاء السجود.

إذن السارق تقطع يده من الأشاجع؛ ولكن متى؟ هل تقطع يد السارق هكذا جزافاً؟ لا.. بل يُنظر في أمره. إذ يجب أن تكون هناك بيّنة ويُدقّق لماذا سرق؟ هل هو محتاج؟ هل هو جائع وبدون عمل؟ هل لديه أطفال جوع ولم يستطع أن يتحمّل منظرهم وهم ينضرون جوعاً؟

وقد طرح الإمام الجواد ﷺ كل هذه الأسئلة وما شابهها قبل أن ينطق بالحكم. فعندما أكدوا له انتفاء هذه الشروط كافة. قال: «تقطع من الأشاجع». ساعتئذٍ قطعت يد السارق حسبما أفتى الإمام وانفضّ المجلس.

حسد أحمد بن أبي دؤاد وحققه:

بعد أن انفضّ المجلس كان الحقد يكاد يأكل صدر القاضي أحمد بن أبي دؤاد. ذهب إلى بيته ونار الحقد تلتهب في كبده. وعندما سُئل عن سر اضطرابه. أجاب بأن سبب هذا هو ابن الرضا (هكذا كان يشير إليه) ولا أبقاني الله في بغداد وابن الرضا فيها.

عاد ابن أبي دؤاد إلى المعتصم. فسأله: ما عندك يا ابن أبي دؤاد؟

(١) الأشاجع: واحداً الإشجع وهي أصول الأصابع التي تتصل بعصب ظاهر الكف.

(٢) سورة الجن؛ الآية: ١٨.

قال: إن نصيحة أمير المؤمنين عليّ واجبة ولو أدخلتني النار. قال المعتصم: قل ما عندك؟

قال: يا أمير المؤمنين تجمع حولك وفي مجلسك الفقهاء وتطرح عليهم مسألة في الفقه ثم تعدل عن إجاباتهم وفتاويهم إلى ابن الرضا. إن ذلك مما يسيء إلى مكانتك ويؤلب عليك الناس.

فتغير المعتصم لأن هذا القاضي أيقظ في نفسه شكوكاً نائمة. فقال: الرأي ما رأيته. ما العمل؟ قال: يجب القضاء عليه. قال: كيف؟ قال: هذه ابنة أخيك أم الفضل في بيته هي تتولى أمره.

أم الفضل تضع له السم في اللبن:

وكانت المؤامرة الدنيئة فنقذت وأداتها زوجته أم الفضل ابنة المأمون. كان الإمام الجواد عليه السلام في ذلك اليوم صائماً وعندما حان وقت إفطاره قدمت له تلك المرأة الخبيثة اللبن ممزوجاً بالسم. وعندما تناول اللبن، يبدو أنها ندمت فراحت تبكي. فقال لها: ابتلاك الله بيلاء وأكبك على منخريك في نار جهنم. ماذا صنعت؟ فتركته الخبيثة وخرجت. وبدأ السم يفعل فعله، فيكاد يمزق أحشائه وكان الطقس حاراً فصعد إلى سطح الدار، بأبي وأمي، وهناك ارتقى إلى الأرض، فبقي ثلاثة أيام تحت حرارة الشمس كما حصل من قبل لجده الحسين الذي بقي جسده الشريف معرضاً أيضاً لحرارة الشمس ثلاثة أيام.

استبطل أصحابه ومريدوه ظهوره فافتحموا داره ليجدوه على تلك الحال فحزنوا عليه أشد الحزن وقاموا على تجهيز الجسد الشريف. وكون المعصوم لا يصلي عليه إلا معصوم مثله فقد حضر ولده عليّ الهادي عليه السلام وأمه تلك المرأة الصالحة التي راحت تحثو التراب على وجهها وتبكي بكاءً مرّاً لفقدائها ذلك الزوج الإمام والشاب. صلى عليه الهادي عليه السلام ودفنه عند جده الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في الكاظمية.

المجلس الحسيني

في مثل هذه الليلة، ليلة الثلاثين من محرم كان أهل البيت عليه السلام في طريقهم إلى الشام، وبأية حال؟.. أَسْرُ وَسَيَّ وتشريد. بنات رسول الله وزينب الحوراء والأطفال كلهم مقيدون بالحبال وأمامهم الرؤوس، رؤوس أولئك الشهداء الميامين الذين استجابوا لداعي الشهادة في كربلاء.

ويقال: إن فاطمة الصغرى بنت الحسين عليه السلام كانت تلحّ على عمّتها زينب، تريد أن ترى رأس أبيها الحسين، أرواحنا له الفداء، فتنادي: عمّة زينب أين أبي الحسين، أريد أبي الحسين.. أريد أن ألقى عليه نظرة.. فقد طال غيابيه يا عمّة.. وكان صوتها يقطع نياط القلب.. فهي أي الحوراء كانت في الماضي تنادي الحسين وتقول له كلمني يا أخي.. أين أنت يا نور عيني.. ولكنها الآن تقول: يا أخي يا حسين: كلم بناتك.. حدثهن يا نور العين:

فاطمة الصغيرة كلمها فقد كاد قلبها أن يذوبا
إنها طفلة ما تزال في عمر البراعم وهي غير قادرة على تحمل
الفاجعة. لذلك لما لاح لها رأس الحسين، رأس أخيها الشهيد لطمت
جبينها بمقدم المحمل فسالت الدماء على وجهها.
إِنَّا لله وَإِنَّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم،
وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب سينقلبون.

إلهنا تقبل أعمالنا.

الامام الجواد عليه السلام
والتحفة المصنوعة

الأمام الجواد عليه السلام والتحدي الحضاري

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١).

مقدمة

نظرة الإسلام إلى الإنسان

تنتشر بين أوساط واسعة من المسلمين مفاهيم وأفكار خاطئة عن الإسلام... فصورة الإسلام مشوّشة ومضطربة بل مشوّهة في ذهن الكثيرين منهم: فالبعض يعتقد أن الدين هو هذه الشعائر التعبدية التي نقوم بها. وكثيرون لا يعرفون المعنى الدقيق لبعض المفاهيم الإسلامية مثل الصبر، والتوكل، والإنفاق، ومعاشرة الناس... الخ. والإمام الصادق عليه السلام يقول: «كونوا زينا لنا ولا تكونوا شينا علينا».

وفي اعتقادنا أن أي مفهوم عن الدين لا يمكن أن يكون كاملاً إلا بالاعتقاد بالإمامة... فصورة الإسلام لم تكتمل إلا يوم الغدير حيث أعلنت الإمامة وتحددت القيادة: «اليوم أكملت لكم دينكم».

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

ونحن إذا تأملنا في الإسلام ونظرته إلى الإنسان نلاحظ التالي :

أولاً: إن القرآن الكريم وضع الإنسان في مرتبة هي على رأس مراتب جميع مخلوقاته. فقيمة الإنسان هي أكبر من قيمة السموات والأرض، وحرمة عظيمة جداً لماذا؟... لأنه خليفة الله في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١). كذلك فإن قيمة الإنسان العظيمة تأتي من كونه يحمل الأمانة التي رفضت حملها سائر المخلوقات: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾^(٢).

ثانياً: إن هذا الإنسان لديه قدرة على السمو والتكامل، ويستطيع أن يصل إلى مرحلة من التطهر والقداسة بحيث يقول للشيء كُن فيكون... وقد لخص الشاعر هذه - الفكرة بقوله :

أتزعم ألك جرماً صغيراً وفيك انطوى العالم الأكبر

إذن هذه هي قيمة الإنسان عند الله، وتحديد الإنسان المؤمن... لذلك يقال إنه إذا انكسر قلب المؤمن اهتز له العرش!!... وفي السيرة النبوية وسيرة أمير المؤمنين أن الرسول الأعظم لما آخى بين المهاجرين والأنصار استبقى علياً إلى الآخر... ولما تباطأ في المؤاخاة بين عليّ وبين نفسه - لحكمة أرادها الرسول - انكسر قلب أمير المؤمنين وحزن... وفي الاخبار أن ملائكة السماء في تلك اللحظة اضطربت اضطراباً شديداً لانكسار قلب أمير المؤمنين عليه السلام وأطلّت برؤوسها لتسرى هذا الحادث الجلل... وعندها قال الرسول: يا علي، أنت أخي وأنا أخوك... وكان الرسول أراد أن يستنفر الملائكة والكون بأجمعه ليشهدوا هذه المؤاخاة.

(١) سورة البقرة؛ الآية : ٣٠.

(٢) سورة الأحزاب؛ الآية : ٧٢.

ثالثاً: وإلى جانب هذه المكانة السامية التي اختص الله بها الإنسان فقد جعل أمامه في هذه الحياة كل ما من شأنه أن يستهويه ويحرك الشهوة فيه: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينةً لها﴾^(١) ﴿رَيْنَ للناسِ حُبَّ الشَّهَوَاتِ من النساءِ والبنينَ والقناطيرِ المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحَرْثِ ذلك مَتَاعُ الحياة الدنيا﴾^(٢) . . . وقد وضع الله سبحانه هذه المغريات أمام الإنسان ليمتحنه في مناعته وقوته . . . فهل يتحرك هذا الإنسان بدافع من شهواته وغرائزه أم يحركه حُبُّ الله ورضاه؟ . . . ونحن إذا طرحنا هذا السؤال على علماء النفس والأخلاق والاجتماع نجد أمامنا إجابات مختلفة متباينة . . . فرويد يقول إن ما يحرك الإنسان هو شهواته وغرائزه. وكارل ماركس يجعل من التاريخ والمال القوة المحركة الأساسية. ودوركايم يقول إن الذي يحرك الإنسان هو قوة المجتمع. وسارتر يقول إن الذي يحرك الإنسان هو أنانيته وذاتيته . . .

أما إذا طرحنا نفس السؤال على الفكر الإسلامي فإننا نحصل على إجابة واضحة محدّدة، وهي أن الإنسان يتحرك دائماً بأحد دافعين: إما دافع ديني إيماني، فتكون حركته وخطواته في سبيل الله سبحانه وتعالى؛ وإما دافع مادي غرائزي، فتكون حركته إرضاءً لأنانيته وشهواته. وهذا النوع الأخير من الناس تحركه غريزته الجنسية، ويحركه الدينار والدرهم والمنفعة والمصلحة . . . الخ.

والذين تحركهم أنانيتهم وشهواتهم إنما يسخّرون الدين في سبيل الدنيا، يبيعون دينهم وآخرتهم بمتاع الدنيا . . . وبشت التجارة! . . . والأمثلة على هؤلاء كثيرة، مثل حميد بن قحطبة الذي سأله هارون الرشيد: بكم تفدي الأمير؟ قال: بالنفس ومال. قال هارون: اذهب، ليس لنا حاجة

(١) سورة الكهف؛ الآية: ٧.

(٢) سورة آل عمران؛ الآية: ١٤.

بك!.. ثم بعد أيام بعث يسأله: بكم تفدي الأمير؟ فأجاب: بالنفس والمال والولد!... قال هارون: لا حاجة لنا به!.. ثم سأله أيضاً بعد ذلك نفس السؤال، فأجاب حميد: أفدي الأمير بالنفس والمال والأهل والدين... فقال هارون: أهلاً وسهلاً بك!... ثم أعطاه الرشيد إمرة وسلطه على العباد يظلم ويعسف، لأن من يريد أن يتأمر لدى حاكم ظالم لا بد أن يبيع دينه أولاً...

يقول الإمام الحسين عليه السلام: «الناس عبيد الدنيا، والدين لعن على ألسنتهم، يحوطونه ما درت معاشهم... فإذا مُحْصوا بالبلاء قُلُ الديانين». ومن التاريخ أيضاً نأخذ مثلاً آخر على أولئك الذين ينحرون دينهم على مذبح شهواتهم ونزواتهم... أحد أعوان مروان بن الحكم رأى امرأة جميلة محصنة، فطمعت نفسه فيها وأراد أن يتزعمها من زوجها، فاتفق مع مروان أن يدبروا لزوجها تهمة فيضعوه في السجن ويطلقوا زوجته منه... وهكذا كان.

فالحكومات الظالمة في كل زمان ومكان واحدة، والكفر ملة واحدة... أحضروا المسكين ورموه بشتى التهم: أنت فاجر، كذاب، ضد الدولة والأمن، ضد مروان بن الحكم... الخ. ولم ينفع الرجل شيء في هذه المحكمة الباطلة فأودع السجن... وجاءت زوجته لتلتمس الرحمة له فحوّلوا إلى مروان بن الحكم. قال لها مروان: زوجك هذا قضيت صعبة جداً، وسوف يحكم عليه بالإعدام! ولكن هناك وسيلة لإنقاذه... قالت: وما هي؟.. قال: أن تطلي منه الطلاق، فإذا اكتملت العدة أتزوجك أنا ونخرجه من السجن ليذهب في حال سيئه!!.. رفضت هذه المرأة المؤمنة أن تطلب الطلاق من زوجها الطيب... عندها أحضروا الرجل من السجن وأوسعوه ضرباً وتعذيباً، وأجبروه على طلاق زوجته، ووضعوا الزوجة في السجن بتهم كثيرة لفقوها... وبعد شهرين خرج الرجل من السجن وذهب إلى الشام ليرفع ظلامته إلى معاوية بن أبي سفيان... أدخلوه على معاوية وروى له قصته... عندها أرسل معاوية إلى مروان يأمره بأن يطلق المرأة

وبيعت بها إلى الشام فوراً، فامتثل مروان للأمر. ولما حضرت الزوجة أمام معاوية، رأى أنها على درجة عالية من الحسن والذكاء، فطمع فيها وأرادها لنفسه، وقال للرجل: هذه المرأة لا تناسبك، وإنما تناسبني أنا، وستكون زوجة لي!!... ذهل الرجل لهذا الموقف، واستنكر الأمر؛ ولكن معاوية هدّده بإرجاعه إلى السجن مرّة ثانية، والتهم جاهزة وحاضرة... وهكذا دمّروا حياة الرجل وحياة أسرته، وكل ذنبه أن لديه زوجة جميلة مؤمنة!!...

هذا هو سلوك الذين يبيعون دينهم بشهواتهم!.. وهنا نتذكر موقف الإمام الحسين عليه السلام من أرينب بنت إسحاق، إذ حماها الحسين وجعلها في بيته معرّزة مكرمة حتى يرجعها إلى زوجها سالمة... ولذلك يقول الإمام زين العابدين: «أنا ابن المحامي عن حرم المسلمين».

البذل والتضحية صفة الإنسان المؤمن وأنفقوا في سبيل الله

نلاحظ مما تقدّم أن الله سبحانه وتعالى كرّم الإنسان وجعله على رأس مخلوقاته، وبيّن له طريقين في الحياة: إما أن يعمل من أجل الدنيا، وإما أن يعمل في سبيل الله. لذلك نرى أن الإنسان المؤمن قد نُزع من قلبه حبّ الدنيا. وقد قيل: «حبّ الدنيا رأس كل خطيئة»... وحبّ الدنيا هنا يعني أن تعمل من أجل الدنيا فقط وتنسى الآخرة. وهناك من لا يدفع الحقوق الشرعية على الرغم من كثرة أمواله؛ فتراه قد أنساه طمعه آخرته، ولم يعد يقوى على البذل والعطاء... وبعد مدّة تسمع أن هذا الشخص قد مات وترك ثروة طائلة لأحد أولاده. وهذا الابن يكون ضالاً فاسقاً فينفق هذه الثروة على الراقصات والقمار وفي الملاهي الأوروبية... فانظروا إلى هذه الخسارة الكبيرة وهذا البلاء العظيم!!...

فالذي لا يكون لديه الاستعداد لدفع الحقوق الشرعية، أو للتضحية

يبعض المال في سبيل المحتاجين والصالح العام، كيف يمكن أن يضحي بنفسه في سبيل الله!!؟

إن المسلمين الأوائل الذين نشروا الإسلام في الأرض، والذين قضاوا على أكبر أمبراطوريتين في ذلك الزمان، وهما الامبراطورية الفارسية والامبراطورية الرومانية، أولئك كان لديهم الاستعداد الكامل للتضحية بالمال والنفس في سبيل الله، لأنهم كانوا يحملون في قلوبهم الإيمان والقرآن، ويطرحون الدنيا ومتاعها.

والقرآن الكريم يشبه الإنسان بالمصباح. فإذا كان الإنسان مؤمناً مستعداً للبذل والعطاء يكون كالمصباح المضيء الممتلئ بالزيت. أما إذا كان هذا الإنسان عبداً لشهواته شحيحاً ممتنعاً عن الخير والعطاء فإنه يكون كالمصباح المنطفئ الفارغ من الزيت، أو كالمصباح الكهربائي المحترق. وهكذا فإن الإنسان الذي ماتت فطرته وغرقت نفسه في الشهوات والأنانية لا تنفع معه الموعظة ولا الهداية، فهو كالمصباح الكهربائي المحترق الذي لا يضيء حتى لو وصلته بالتيار الكهربائي. ولكن هناك بعض الناس الذين يكونون بعيدين عن الإيمان، غير أن فطرتهم سليمة... هؤلاء تراهم يفهمون الموعظة وتؤثر فيهم الهداية، فهم كالمصباح المنطفئ الذي يضيء بمجرد إصاله بالتيار الكهربائي... فالسحرة الذين كانوا عند فرعون، على الرغم من كونهم سحرة، كانت نفوسهم صافية وسليمة. ولذلك فإنهم عندما رأوا بأعينهم معجزة موسى عليه السلام خرواً ساجدين لله. ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾. قالوا آمناً برب العالمين^(١) ولما نقم عليهم فرعون لخرجهم عن طاعته هذّدهم بقطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم. ولكن هؤلاء بعد أن آمنوا لم تعد هذه الدنيا تعني لهم شيئاً كثيراً، فقالوا له: أفضي ما أنت قاضٍ، فإننا ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا مَتَّحِلُونَ﴾^(٢).

(١) سورة الأعراف؛ الآيات: ١٢٠ - ١٢١ .

(٢) سورة الأعراف؛ الآية: ١٢٥ .

وهكذا فإن الإنسان المتعلّق بالدنيا، الحريص عليها، المبتعد عن الله، يجمع في نفسه رذائل متعددة من حرص ويخل وطمع وحسد وجبانة... وفي هذا المعنى يقول أمير المؤمنين: «إن الجبن والحرص والبخل والطمع غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله».

وإذا ساء ظن الإنسان بالله يصبح بخيلاً، ييخل على نفسه وعلى غيره. يقول أمير المؤمنين: «عجبتُ للبخل يحيا في الدنيا عيشَ الفقراء، ويُحاسب في الآخرة حسابَ الأغنياء».

إن الحياة في هذه الدنيا تجربة فريدة رائعة، وهي لن تتكرر. ونحن أتينا إلى هذه الدنيا عُراة، ونذهب منها عراة. إذا انتبهنا إلى هذا الأمر، فإننا نكون حريصين على إرضاء الله ورسوله وأهل البيت، لأن برضاهم تكون لنا جنةٌ عرضها السماوات والأرض. وعندها أيضاً ندرك أن ما نملكه من مال وجاه وطاقات ونفس إنما يجب علينا إنفاقه في سبيل الله.

والإنفاق فريضة واجبة مثل الصلاة والصيام. ونحن عندما ننفق في سبيل الله فإنما يعود النفع على أنفسنا وعلى المجتمع: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَنفُسِكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. والإنفاق في سبيل الله يكون في الجهاد، في التبليغ ونشر الدين، في رفع الفقر عن الناس، في حلّ مشاكلهم... فهذا هو سبيل الله. وإلا فإن الله سبحانه غنيّ عن العباد؛ وإنما الإنفاق هنا يكون مردوده على العبد وليس على الله، تماماً مثل الصلاة والصيام فإن فائدتهما تعود على المصلّي والصائم.

وهذه الآية الكريمة فيها من الدروس الاجتماعية والأخلاقية الكثير... فنحن إذا امتنعنا عن الإنفاق فإن المجتمع يُصاب بخلل كبير: يتحول المجتمع إلى طبقات تتسع بينها الهوة، وتتفجر عندئذ البغضاء والعداوة. فتتكون في المجتمع طبقات معدمة فقيرة بائسة لا تجد ما تأكله،

وبجانبتها وأمام أعينها طبقات موسرة غنية تتنعم بالخيرات والثروات.

ومن جهة ثانية فلإن عدم الإنفاق يوقع في الإسلام الضعف والوهن... ونحن علينا أن نأخذ العبرة من الآخرين في هذا المجال. فإذا نظرنا إلى اليهود والنصارى في العالم نجدهم ينفقون الأموال الطائلة في سبيل الدعوة لمبادئهم، ولذلك ترى كنائسهم ورجال الدين عندهم لا يحتاجون إلى شيء. والبابا يوحنا بولس الثاني رصد سبعة مليارات دولار لتنصير القارة الإفريقية!!

وأنا عندما أذهب إلى أفريقيا وأشهد ما ينفقه القسس والرهبان أصاب بالحسرة والمرارة من أحوالنا. ونحن نريد أن نعطي الفقراء هناك ونهديهم إلى الإسلام، ولكننا لا نملك المال!... وكثير من الناس كانوا يأتون إليّ ويقولون: نحن نريد أن نكون مسلمين، ولكننا فقراء، وإذا جاهرنا بالإسلام فإن هؤلاء الرهبان يمنعون عنا المساعدة فنموت من الجوع!!..

وفي أفريقيا أكثر من ستين إمام مسجد، وأسماؤهم مسجلة عندي، وهم منتشرون في عشر دول أفريقية... وكنت ألتقي دائماً أئمة المساجد هؤلاء وأدعوهم إلى القيام بواجباتهم، لأن مهمة إمام المسجد عظيمة وخطيرة. وكنت أقول لهم: عليكم القيام بواجبكم، وأن تقولوا كلمة الحق، وتدعوا إلى الإسلام وأهل البيت... ولا يجوز أن نهمل أهل البيت... ونركز في خطبة الجمعة على عمرو بن العاص وأمثاله... إن أول من دعا الأفارقة إلى الإسلام هو جعفر بن أبي طالب وأهل البيت وأنصارهم. وكان جعفر بن أبي طالب يحدث ملك الحبشة عن الرسول وأهل بيته، ويذكر أمامهم فضائلهم ومكانتهم السامية... وذكرت لأئمة المساجد أشياء كثيرة من هذا القبيل... ولما رأيت حاجتهم للمساعدة وشكواهم من الفقر وعدم الاهتمام بهم، قلت لواحد منهم: أنا أعطيك أجراً لستة أشهر، وهذا المال بيني وبينك لوجه الله، فاستعن به على حياتك

وتدبير معاشك. ولكن أطلب منك أن تحدّث الناس في هذه المدة عن أهل البيت عليهم السلام. قال: والله سأحدّث لسنة كاملة عن أهل البيت!!... وهكذا أخذ هذا الشيخ، ويدعى الشيخ علي، يحدّث الناس هناك عن فضائل أهل البيت ويبيّن لهم مصابهم والظلم الذي لحق بهم. ولما سمع الناس منه هذا الكلام الجديد، قالوا: يا شيخ علي، أين كان هذا الكلام الحلو الجميل، لماذا لم تحدّثنا به من قبل؟! قال: كنت في السابق فقيراً معدماً، وإذا حدّثكم بهذا الكلام كنت أموت من الجوع!... أما الآن فقد وصلنا شيء من المال، وإن شاء الله نحن وإياكم على هذا الطريق....

وهذا الشيخ الذي ذكرته لكم واصل دعوته لأهل البيت، ووفقه الله لهادية العديد من الأفارقة. وبالفعل زرته بعد سنة فوجدت الجامع يفضّ بالناس، وألقيت فيهم محاضرة عن الإسلام وأهل البيت. حتى أنه كان من بين الحاضرين حوالي المائتين من القاديانية المعروفين بعدائهم لأهل البيت... وبالفعل استطعنا أن نخفف من غلوّاتهم، وأن نستميل قلوبهم إلى محبة أهل البيت شيئاً فشيئاً.

وأنا ذكرت لكم هذه الأمثلة لأبيّن لكم أهمية الإنفاق في سبيل الله وفي طريق الدعوة. فانت إذا أردت أن تدعو الناس في كندا مثلاً يلزمك قاعة لاستقبالهم، ولكن ليس لديك الإمكانيات المادية، فما العمل؟! إنها مسؤولية الأغنياء من المسلمين، وخاصة التجار. فيجب أن يكون هناك من يدعمك ويمدّك بالعطاء حتى تستطيع أن تقوم برسالتك. ولذلك يقول الله عز وجل في الآية السابقة: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فالذين يذلون الأموال في سبيل الله يضاعف الله أجرهم ويزكي - أي ينمي - أموالهم. أما التجار عبید الدينار والدرهم الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقون شيئاً في سبيل الإسلام والدعوة الإسلامية فإن جباههم وجنوبهم ستُكوى بما كانوا يكتزون.

الامام الجواد عليه السلام

وقد قدّمنا لحديثنا بذكر الإنفاق، لأن موضوعنا الأساسي هذه الليلة هو الإمام الجواد. فالجواد هو الذي يجود بما عنده ويعطي. والإمام الجواد هو جواد الأئمة، لأن عطاءه كان بلا حدود.

إن ما قام به الأئمة الثلاثة: الجواد والهادي والعسكري كان شيئاً مميزاً ومتفرداً، لأنهم كانوا مقدمة لظهور الإمام الحجة (عج). ولذلك نلاحظ أن هؤلاء الأئمة الثلاثة قتلوا في سن مبكر: فالإمام الجواد قتل في سن الخامسة والعشرين، والإمام الهادي لم يصل إلى الأربعين، والإمام العسكري قتل وعمره سبعة وعشرون.

لماذا قتلوه؟... لقد كانت السلطات تلاحقهم بحثاً عن الإمام الحجة، الإمام المهدي... وقد بدأت إمامة الجواد وعمره سبع سنين. وكان هذا نهيةً للنفوس لتقبل إمامة المهدي المنتظر وغيبته.

والملاحظ أيضاً أن هؤلاء الأئمة الثلاثة قد تميزوا بالإنفاق والعطاء بهدف حفظ المجتمع. وقد انصرفوا إلى حماية الشريعة في الأمة وابتعدوا عن الحكام وقصورهم وإغراءاتهم. فالإمام الجواد كان متزوجاً من ابنة المأمون أم الفضل، فترك بغداد وتوجّه مع زوجته إلى المدينة ليعيش بجوار قبر جدّه رسول الله ﷺ.

ولما مات المأمون استلم الحكم بعده أخوه المعتصم. فاستدعى المعتصم الإمام الجواد إلى بغداد. وبعد أقل من سنة على مجيء الجواد إلى بغداد قتله المعتصم العباسي بأن دبر من يدسّ له السمّ في العنب. وفي بعض الروايات أن أم الفضل ابنة المأمون هي التي دسّت له السمّ بتحريض من عمّها المعتصم لما كان في نفسها من الحقد والغيرة بسبب عدم إنجابها أولاداً من الإمام الجواد، فحقّدت على الجواد لتفضيله زوجته الثانية أم أبي الحسن علي الهادي.

والمعتصم هذا كان من أسوأ خلفاء بني العباس. وفي أيامه أطلق العنان لغلماينه الأتراك، وصار الحكم بيد الصبيان والأتراك، وأخذت الانقلابات العسكرية تتوالى فتصدّعت الدولة الإسلامية وعمّت الفوضى. وصارت مواكب الأتراك تجوب الشوارع والأسواق، فتعتدي على الناس، وتندوس الحرمات، وتسرق البيوت.

وقد كان المعتصم العباسي يحقد كثيراً على الإمام الجواد ويخاف منه على ملكه وملك بني العباس، لما ظهر أمام الناس من فضل الجواد وعلمه ونبوغه المبكر. فخاف المعتصم وأهل البيت العباسي من أن تتكرر مسألة الإمام الرضا وتعلّق الناس به. ولما لم يستطيعوا أن يشنوا المأمون عن تزويجه بابنته، استغلوا فرصة موت المأمون ودبروا لقتل الإمام الجواد بالاتفاق مع خليفته المعتصم.

وبعد المعتصم جاء المتوكل العباسي ليكمل مسلسل التنكيل بأهل البيت. فهدم قبر الحسين عليه السلام ومنع الناس من زيارته، وطارد أهل البيت ومن يلوذ بهم.

ونحن نذكر كل هذا لنعرف الظروف الصعبة والقاسية التي عاش فيها كل من الأئمة الجواد والهادي والعسكري، ولنعرف فضلهم وبطولتهم في مواجهة الظلم والعسف، وقيامهم بمهمة حفظ الإسلام.

مقتل الإمام الجواد عليه السلام

ونحن نذكر الآن السبب المباشر في مقتل الإمام الجواد عليه السلام... جيء بسارق إلى مجلس المعتصم، وأراد المعتصم أن يقيم عليه حدّ القطع، فسأل الحاضرين من أعيان القضاة والفقهاء: من أين تُقطع يد هذا السارق؟ فقال بعضهم من الأصل، وقال آخر من المرفق، وقال ثالث من الرسغ... فالتفت المعتصم إلى الإمام الجواد الذي كان حاضراً، وسأله رأيه، فقال: رأيي هو رأي الإسلام. والإسلام يقول إن يد السارق

تقطع من الأشاجع، أي أطراف الأصابع، لقول رسول الله: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً». والمساجد سبعة، وهي: الجبهة واليدان والركبتان والرجلان.

وبما أن الله يقول: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾، وبما أن أعضاء السجود هي مساجد، فما كان لله لا يُقطع. فلذلك وجب القطع من أطراف الأصابع، أي الأشاجع...

لما سمع المعتصم هذا الجواب المفحم، ارتاح إليه وبدا عليه السرور، وأخذ يمتدح علم الإمام على مسمع كبار الفقهاء. وكان من بين الحاضرين قاضي القضاة ابن أبي دؤاد، فأغاضه ما سمع، وبيّتها في نفسه. وفي اليوم التالي جاء ابن أبي دؤاد إلى المعتصم وقال له: إني أنصحك نصيحة أعلم أنها تدخلني النار! قال المعتصم: وما هي نصيحتك؟ قال: رأيك تسفه رأي كبار العلماء والفقهاء، وتصوب رأي شاب من بني هاشم يقول نصف المسلمين بإمامته! وهذا لعمري سيشكل خطراً محققاً على عرشك وخلافتك!... تغير لون المعتصم، وأدرك الخطر الذي يتهدده، فقال للقاضي: وما الرأي؟ قال: الرأي أن تقضي عليه قبل أن يقضي عليك...

وهكذا دبّر المعتصم مكيده لقتل الجواد بأن دفع زوجته أم الفضل لتدس له السم... أحس الإمام الجواد بالسم يسري في بدنه، فأخذ يدور في غرفته... رآته أم الفضل فصاحت: لا غفر الله لك يا أم الفضل!! ثم هربت وتركته في غرفته. ومات الإمام الجواد، وبقي ثلاثة أيام في حجرته بلا غسل ولا كفن كجده الإمام الحسين عليه السلام.

لُذِّ إن دهمتكَ الرزايا والدهر عيشك نكُذ
بكاظم الفيظ موسى وبالجواد محمُذ!!

مجلس الإمام الحسين عليه السلام

وهنا نتذكر مصيبة الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته.

خرج الإمام الحسين وأخرج أهل بيته معه. وكان يعلم أنه مقتول في خروجه ذاك. - والبعض هنا يسأل: إذا كان الحسين يعرف أن أهل الكوفة سيخذلونه وأنه مقتول في خروجه، فلماذا خروجه إلى العراق؟! .

إن الإمام الحسين عليه السلام كان يعلم أنه مقتول سواء بقي في المدينة أو مكة، أو خرج إلى العراق. وقد قال عليه السلام لمحمد بن الحنفية: «لو كنتُ في بيت ضَبٍّ لاستخرجوني منه وقتلوني!». . . وهو يقول: «شاء الله أن يراني قتيلاً وأن يراهنُ سبايا!»

لقد كان الإمام الحسين يعلم أن بني أمية قد عزموا على قتله والتخلص منه، وأنهم أوكلوا المهمة إلى يزيد بن معاوية لعنه الله. فهو مقتولٌ خرج أو لم يخرج.

وقد عرف الإمام أن يزيد قد أرسل عصابة من ثلاثين رجلاً لاغتياله في الحرم الشريف. وكان الحسين وهو في مكة يقول: «كأنني بأوصالي هذه تقطعها عِسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سُغباً!». . . لا محيص عن يوم خُطَّ بالقلم! . . . رضا الله رضانا أهل البيت.

وقد أخرج الإمام الحسين عائلته معه حتى لا تقع في قبضة يزيد، فيودعهم السجون ويمارس عليهم أنواع المهانة والتعذيب. . . وقد أخرجهم معه أيضاً لأنه يعلم أن المظلومية تحتاج إلى دموع الأطفال وبكاء النساء. . . فهو لم يخرج لتشكيل حكومة في العراق، وإلا كان فعل كما فعل عبد الله بن الزبير. . . أخرج الحسين معه زينب وسكينة وفاطمة، وأخرج معه زين العابدين وبني هاشم. . . وبفضل هؤلاء توضحت الصورة

للعالم بأجمعه... لقد كانت العقيلة زينب اللسان الناطق باسم النهضة الحسينية، ولولا بطولتها وخطبها لانظمست معظم معالم النهضة الحسينية.

.... أحسَّ الإمام الحسين بالتعب، وهَوَّمت عيناه بالنوم.. استرجع قائلاً: إنا لله وإنا إليه راجعون!... التفت إليه عليُّ الأكبر وقال: أراك تسترجع يا نور عيني!! قال الحسين: نعم، لقد سمعت هاتفاً يقول: القوم يسIRON والمنايا تسير معهم... قال عليُّ الأكبر: ابتاه! أو لسنّا على الحق؟ قال: بلى، والذي نفوس العباد بيده! قال: إذن لا نبالي، أوقع الموت علينا أم وقفنا على الموت!

تقدّم القاسم بن الحسن. سأله الحسين: كيف تجد الموت دوني يا ابن أخي؟.. قال: يا عم! إنه أحلى من العسل!... نظر إليه الحسين ثم اعتنقه وبكىا حتى وقعا على الأرض....

... تقدّم القاسم وعلي الأكبر، إلى القتال... قدّم الإمام الحسين ولده وهو يقول: ابني هذا أقدمه في سبيل الله وفي سبيل الحق!...

يقول حميد بن مسلم: رأيت الحسين يقبل على ولده عليِّ الأكبر ويلقي بنفسه على جسده.. اعتنقه وقبله وقال: «بنيُّ عليّ! على الدنيا بعدك العفا!... لقد استرحت من هم الدنيا وغمّها وصرّت إلى روح وريحان وجنة ورضوان... وبقي أبوك الحسين لهمّها وغمّها فما أسرع اللحاق بك!.. يقول: وأراد الإمام الحسين أن يحمل جسد ولده القتيل إلى المخيم فلم يتمكن من حمله، التفت الإمام الحسين إلى بني هاشم وقال: يا بني هاشم! احملوا أخاكم علياً إلى الفسطاط، والله لا طاقة لي على حمله!!..

يقول أحد العلماء: اثنان يوم عاشوراء تركهما الحسين قتيلين في أرض المعركة: عليُّ الأكبر وأبو الفضل العباس، لأن جسديهما كانا مقطعين!!..

يوم الحادي عشر من المحرم خرجت عائلة الحسين بأسرها... كل
واحدة من النساء كانت تتلفّت وتسأل عن ابنها: الرباب تسأل عن عبد الله
الرضيع... ليلي تسأل عن عليّ الأكبر... رملة تسأل عن القاسم...
وأما الحوراء زينب فكانت تسأل عن كفيلها، عن أبي الفضل العباس...
اتجهت إلى أبي الفضل العباس وصاحت: أخي عباس! أنت الذي
أخرجتني من منزلي! أخي أنت الذي أركبتني في محملي! قم الآن وانظر
أختك!!

إلهنا تقبل أعمالنا. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الإمام علي بن محمد الهادي
- عليه السلام -

الإمام علي الهادي عليه السلام معنى التسبيح وأثره في النفس^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ..﴾^(٢).

سبحان الله، كل آية في القرآن الكريم فيها معنى التسبيح لله، وكل صيغ التسبيح وردت في القرآن بصيغة الماضي سُبِّحَ لله وبصيغة المضارع لأن فيه الديمومة.. يَسْبِّحُ لله ما في السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، والأمر منه سُبِّحْ اسم رَبِّكَ الأعلى. كما أنَّ مصدر التسبيح موجود ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾^(٣).

أقول: إن كل آية عندما تتحدث عن التسبيح، فإنها تريد من الإنسان أن ينزه الله سبحانه وتعالى عن كل ما يسمى عبثاً وفوضى في هذا الكون.

سبحان الله أي أسبحك، أي أنت منزّه يا رب عن الظلم والعدوان

(١) أُلقيت هذه المحاضرة ليلة التاسع من صفر سنة ١٤٠٩ هـ.

(٢) سورة الحديد؛ الآية: ١ - ٢.

(٣) سورة الإسراء؛ الآية: ١.

والعبيّة والفوضى، لأنك خلقت كل شيء فقدرته بحكمة وجعلته مقدراً بين السماء والأرض، لا يختلف عن إرادتك لحظة واحدة يا رب العالمين. هذا المنطلق هو الذي يصوغ نفس الإنسان صياغة ربانية. ومنطلق التسييح يتجسّد بالدخول في توحيد الله، في الإيمان بأن الله موجود وأن لهذا الكون خالقاً يدبّره. وأنه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

فعندما تجد نفسك أمام هذا الموضوع، فإنك تحس بالراحة والطمأنينة في أعماقك، ولذلك فإن الإيمان الصحيح يتبعه العمل الصّالح، لأنّ العمل الصّالح هو انعكاس للإيمان في النفس، وتثبيت لقواعده فيها.

ولذا فإنّ الإيمان ما وفر في القلب، ثم يترجمه العمل الذي ينبغي أن يكون من جنسه، وإلا فإن الأعمال تأتي مخالفة لحقيقة الإيمان الذي هو الصفة الملازمة للإنسان المؤمن.

أهمية الإيمان وأثره في حياة الإنسان

والإيمان هو شعبة من شعب الإسلام التي تحدّد هويّة الإنسان الملتزم بمبادئ هذا الدين القويم، إذ ليس المسلم ذاك الذي يلتزم بتلك المبادئ لمجرّد أنه مسلم، أو لأنه يتفوّه بالشهادتين. قال الإمام الهادي عليه السلام ما تحرك به اللسان، واستبيحت به المناكحة، أيّ العقد: هذا على صعيد التزويج. أما الإيمان فأمر أبعد من ذلك، لأن الإنسان المؤمن وانطلاقاً من صفاته الروحي بكمال إيمانه، فإنه يتحرك ضمن دائرة هذا الإيمان في كلّ ما يقوم به من عمل وما يتفوّه به من قول، من خلال مراقبة فعّالة للذات، ومن خلال دوام الاتصال المباشر مع الله تعالى: ونظراً لأهمية الإيمان ومنزلة المؤمن العظيمة عند الله، فإنّ الله عز وجل لم يترك الدنيا من غير حجة: نبيّ، إمام معصوم الخ...

وكل الطوائف الإسلامية تعرف ذلك جيّداً وفي ذلك يقول الرسول ﷺ:

«من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»: هذا لا يمكن أن يرفضه أحد من المسلمين العارفين. وبالنظر إلى هذا الأمر، فإنَّ عبد الله بن عمر وقع في مشلكة إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الأمر الذي اضطره للذهاب إلى الحجاج بن يوسف الثقفي، ولما دخل عليه، ذكَّره بما يقوله رسول الله ﷺ حول وجوب معرفة إمام الزمان.

وهنا طلب عبد الله بن عمر من الحجاج أن يعطيه يده ليبايعه وكان الحجاج مضطجماً، قال له: هذا الحديث لم تكن تعرفه أيام علي بن أبي طالب والآن جئت لتطبق الحديث، خذ رجلي واصفق بيدك عليها. أبايعك بقدمي وليس بيدي.

نعم هذا الذي يترك الحق يتعثر في ظلام الباطل والحيرة والارتباك، هذا الذي يرفض مبايعة عليّ أمير المؤمنين بيده، يبايع رجُلَ الحجاج.

من هنا نستطيع القول: إن إيمانَ المسلم المؤمن يبقى ناقصاً ما لم يؤمن بالإمام الحجة المهدي المنتظر، وبذلك يكون مسؤولاً عن هذا الأمر. ويموت ميتة جاهلية حسب قول رسول الله ﷺ. مع العلم أنَّ رسول الله لم يحدّد الإمامة في شخص معيّن أو زمن معيّن بل قال: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتةً جاهلية».

وبالنسبة للإمام المهدي المنتظر، فإنَّ إمامته بدأ التمهيد لها في عهد الإمام عليّ الهادي، كمسألة مهمة.

أما الأئمة المهديون فإنَّ رسول الله نصّبهم وهم اثنا عشر إماماً وقد ورد على لسان رسول الله أنه قال: «الخلفاء هم اثنا عشر خليفة كتنساء بني إسرائيل». وهؤلاء الأئمة هم حملة علم رسول الله ﷺ، إذ لا يمكن أن تغيب شمس العلم لمجرد غياب رسول الله وارتفاعه إلى الرفيق الأعلى. لأنَّ الدنيا هي بأمس الحاجة لهذا العلم، لأنه ما من حركة في الكون إلا وتحتاج إلى علم كما يقول الإمام عليّ عليه السّلام.

والدليل على أهمية العلم وشدة الحاجة إليه، أن الله تعالى لم يرسل رسولاً إلى شعب أو أمة إلا ومعه علمه لينير الطريق ويوضح السبل ويكشف المناهج للعمل وتحديد العلاقة بين العبد وربّه، والبرهان هو علم رسول الله ﷺ وعلم أهل بيته المكرّمين، ذلك العلم الذي لو كان الجن حساباً والإنس كتاباً والبحار مداداً والأشجار أقلاماً، لما تمكنوا أن يحصوه أبداً.

لكل نبي وصي

لو عدنا إلى التاريخ نتصفّحه، لما وجدنا نبياً إلا وله وصي.

سليمان بن داود عليه السلام - مثلاً - وصيه آصف بن برخيا. وهو لما طلب عرش بلقيس قال: ﴿أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين - قال عفريت من الجن: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين﴾^(١).

قال لا، فهذه مسافة طويلة. ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب﴾^(٢) وهذا هو وزير النبي سليمان الذي استطاع الإتيان بعرش بلقيس، والذي غدا فيما بعد خليفة ووصي النبي سليمان: هذا النبي الذي أراد أن يظهر وصيه للناس: وهو آصف بن برخيا قال تعالى: ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾^(٣). فأحضر عرش بلقيس.

وهناك من وقع في حيرة من أمره بالنظر إلى وصي رسول الله ﷺ. وهناك من يدّعي بأن رسول الله لم يوص بالخلافة لأحد من بعده، وهذا افتراء لا يجوز التصديق له أو الأخذ به، لأنه غير مقبول ولا معقول وبشهادة

(١) سورة النمل؛ الآيات ٣٨ - ٣٩.

(٢) سورة النمل؛ الآية: ٤٠.

(٣) سورة النمل؛ الآية: ٤٠.

القرآن: ثم كيف يكون لكل نبي وصي ولا يكون كذلك لخاتم النبيين وسيد المرسلين محمد ﷺ ؟

أجل! لقد ألقى رسول الله بمقاليد الحكم والمسؤولية لباب مدينة العلم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. وهو القائل: عَلَّمَنِي رسول الله ألف باب من العلم، يفتح لي كل باب ألف باب». .

وأما وصية رسول الله بقيادة وخلافة المسلمين للإمام علي عليه السلام من بعده فإنها مشهورة وقد كان هذا في آخر لحظة من حياته عليه السلام حيث كان الصحابة جالسين بجانبه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «عليّ بدواة حبر وقلم وقرطاس لأكتب لكم كتاباً لن تضلوا من بعده».

قال أحدهم: دعوه إن الرجل ليهجر أي النبي ﷺ أي أصابه الضياع واللاوعي - معاذ الله أن يصاب الرسول بمثل ما ادعوا به.

ومات علي بن أبي طالب عليه السلام، فهل مات العلم معه؟! لا بل إن هذا العلم انتقل منه إلى الأئمة الإثني عشر واحداً بعد واحد، وصولاً إلى الإمام المهدي المنتظر «عج».

وهذا الإمام محمد بن علي الجواد الذي استطاع أن يجيب عن أكثر من ثلاثين ألف مسألة فقهية في أحد المجالس الدينية.

أسئلة غايتها التعجيز والاحراج

قال له أحدهم: يا ابن الرضا إني أود أن أسألك، فقال سَلْ:

قال: أنتم تقولون: إن الإمام المعصوم يعلم الغيب، وأن رسول الله قد أعطاكم علوم الأولين والآخرين، فهل هذا صحيح؟..

قال الإمام الجواد: بلى!.

فقال الرجل: هل تعلم كم عدد قطرات نهر دجلة؟ لعمرى إن مثل

هذا السؤال ليدل على مدى الفقر الفكري ووقاحة النفس المريضة الجاهلة، وتفاهة السؤال، بسبب خروج هذا السؤال عن حدود الماديات، لأنه لا يعلم ذلك إلا الله تعالى أي بما يتعلق بعدد قطرات الماء في نهر دجلة.

علماً أنه باستطاعتنا أن نضع جهاز كمبيوتر أو عقلاً الكترونياً على شلال متدفق، ليعلمنا في خلال سنة، عدد قطرات الماء التي مرّت فيه. ومع ذلك فإن الإمام أجاب الرجل المتعنت قائلاً له: هل أنت مؤمن بالله؟ فقال الرجل: نعم! فقال له الإمام: هل تعتقد أن الله تعالى قادر على أن يجعل هذا العلم الذي تسألني عنه، في ذهن وعقل بعوضة صغيرة أم لا؟

قال الرجل: إن الله على كل شيء قدير. قال الإمام: إن الله إذن، قادر على أن يجعل بعوضة صغيرة تعلم عدد قطرات ماء دجلة، مذكراً لإياه بقول الله تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١).

قال الإمام عليه السلام: إذن فنحن أكرم وأعظم عند الله من البعوضة يا رجل.

وهذا سعد بن أبي وقاص يسأل الإمام علياً بن أبي طالب عليه السلام: كم من طاقة للشعر في رأسي ولحيّتي؟ فقال له الإمام: أنا أعلم كم طاقة للشعر، لأنّ حبيبي رسول الله أخبرني بذلك. ومع ذلك فإنني لو أجبتك بشكل دقيق وصحيح فإنك ستقول: تعالوا واحسبوا عدد الشعرات في رأسي أيها الناس، أي أنك لن تصدق أبداً. ولكن اعلم يا سعد - والكلام للإمام علي عليه السلام - إنه سيخرج من بيتك - نذل - يقتل ولدي الحسين يوم عاشوراء، وهذا النذل هو ابنك عمر بن سعد.

أما طريق أهل البيت فإنه طريق الهدى والإيمان - ولا ريب - وهو الطريق الموصول إلى الحق والخير من عدل وسلام وأمان وهذا هو جوهر

(١) سورة يس؛ الآية: ٨٢.

الإسلام الحضاري .

أما حكامه الآخرون بعد أهل البيت عليهم السلام فهم الأئمة الطاهرون الذين يحكمون باسم الرحمن والقرآن، لتذوق الأمة حلاوة الحياة الرغيدة، بعيداً عن البؤس واليأس والجهل والتخلف، وبالتالي تتمتع تلك الأمة بروح الاستقرار والكفاية والازدهار.

مسؤولية الحكام وسائر المسؤولين

إذا كانت حياة الأئمة عليهم السلام كلها عبادة لله تعالى، وأساسها الإيمان الصحيح وروحها الصدق في القول والعمل، فإن حكام الأمة ينبغي أن يسيروا على هديهم ويقتدوا بهم، ويستنبروا بنورهم، لأن مسؤولياتهم كبيرة أمام الله تعالى وكذلك فإن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، كذلك سائر شعوب العالم مروراً بسائر الملوك والوزراء فكل هؤلاء مسؤولون عن مصير سفينة الحكم السياسي في بحر الحياة المتلاطم الأمواج من مشاكل ومتاعب ومهمات إنسانية وإن أي تواكل أو خيانة للأمانة في الحكم، إنما يكون ذلك خيانة للأجيال وتضييعاً لهم.

لكن أهم وأقدس المهمات، بل وأوجب الواجبات إنما تكون في تلقين أجيالنا سيرة أهل البيت عليهم السلام وإمدادهم بزايد وفير من علوم الدين الإسلامي بالإضافة إلى العلوم الأخرى.

وهنا تأتي مسؤولية المعلم، تلك المسؤولية التي من أولى مهماتها توضيح الحقائق، لأن المعلم مسؤول أمام الله تعالى وليس فقط أمام القانون أو أمام ضميره المهني . وأما الحقائق التي نعنيتها، فهي الحقائق الدينية، التي تشكل بالنسبة لكل طالب علم سفينة النجاة له من عذاب أليم في الدنيا والآخرة، كي يبقى الإسلام منارة تشع بأنوار التقدم، ويبقى أيضاً بمنأى عن الضياع والنسيان.

وإذا كان الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام وأحباؤهم والأئمة

الظاهرين هم الذين حموا الإسلام وطبقوه، فإن الأمويين هم الذين سلكوا سبيل التفرقة، واعتمدوا روح البطش والظلم، وحكموا الناس بروح القبيلة والإرهاب الفكري والاضطهاد الجسدي والروحي قتلاً وتشريداً وملاحقةً، فقد قتلوا أبناء رسول الله ﷺ ومزقوا القرآن ودمروا بذلك الإسلام، وقتلوا الناس. فهذا بشر بن أرطاة - على سبيل المثال - يبعثه معاوية لليمن وللمدينة، فيدخل إليهما ويقتل النساء ويقر بطون الحوامل.

وبشر هذا، راح أيضاً يسأل عن عبد الله بن العباس، فقيل له: إنه هارب. فقال:

من بقي في البيت؟ قالوا: «زوجته، فدخل عليها وكان عندها طفلان صغيران يزحفان بين ركبتيها. فأخذ بشر هذين الطفلين من أمامها وضرب رأسهما في الجدار، وهذا هو البرهان الساطع على مدى شراسة الأمويين وإهانتهم الوحشية للإنسان في أضعف خلق الله».

أين هؤلاء العتاة الطففة من حكم ومسؤولية أهل العدل والرحمة، وذوي النزاهة والحنان والبر والتقوى والإيمان مثل الإمام عليّ، الذي يقضي أكثر الليل ساهراً من أجل مصلحة الناس والذي كان إذا رأى يتيمًا جائعاً يتقوس ظهره ويقول: «ما تأوّهت كما تأوّهت للأيتام في الصغر».

الإمام علي الهادي وحياته

أمّا الإمام العاشر عندنا، فهو الإمام عليّ بن محمد الهادي عليه السلام وهو جامعة إسلامية كبرى.

هذا الإمام كان يقيم في المدينة، بعد مصرع أبيه الجواد والذي بقي فيها إلى أن بلغ العشرين من عمره.

أما ولادته فكانت سنة مئتين وأربع عشرة، وكان مقتله سنة مئتين وأربع وخمسين هـ.

أما نقطة انطلاق الأئمة، فقد كانت المدينة، لأنها عاصمة الإسلام وفيها قبر الرسول ﷺ فهي كلها نور: علماً فقهياً وأدباً رفيعاً واجتهاداً. ثم إن معظم وأشهر الحكّام العباسيين، كانوا يفرضون الإقامة الجبرية على الأئمة الطاهرين، لا شيء إلا للخوف منهم على عروشهم أمثال: الرشيد والمأمون والمتوكل والمعتصم.

وحياة الإمام الهادي التي امتدت نحواً من عشرين سنة في المدينة، كانت حياةً ملؤها الإقدام والعلم والجهاد، إذ كانت هناك حلقات العلم والعلماء، رغبة في توضيح التفسير الصحيح والصادق للإسلام.

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى الأسماء التي كان يتخذها الحكام والخلفاء العباسيون لهم من مثل: المعتصم بالله والمتوكل على الله والواثق بالله، والمستعين بالله. إنها مجرد القاب أو أسماء يتخذونها شعاراً لهم، وهم يريدون بها خداع الناس، بأنهم يحامون عن دين الله وعن شريعة الله.

إنها محض افتراء على الله تعالى وعلى الناس من مسلمين عرب وغير عرب، لأنها ليست انعكاساً لبواطنهم المنطوية على الظلم وضعف الإيمان وفقدان روح الرحمة بالرعية، إرضاء للرحمن.

وإذا أراد القارئ صورة واضحة عن المعتصم، وكيف كان موكبهِ عندما كان يخرج إلى شوارع بغداد، فليراجع تاريخ المسعودي ومروج الذهب والطبري والكامل لابن الأثير البداية والنهاية، وأمثال هؤلاء المؤرخين، يعرف عندئذٍ الكثير الكثير عمّا كان يحدث من تساقط الأطفال والنساء والضعفاء تحت حوافر الخيل.

ومع جيروت المعتصم كله - ولكن على الضعفاء - فقد كان الحكم بيد الأتراك من الغلمان والنساء وكذلك بيد الأقباط الأمر الذي أخذت الدولة العباسية معه، تهتز وتسرّب إليها الضعف والانهيار بسبب الفساد الخلقي

وضعف الوازع الديني والظلم الاجتماعي، حتى حملت هذه الأوضاع السيئة كلها أحد الشعراء على القول:

خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ما لقنه كما تقول الببغا

ومعنى ذلك أن الخليفة العباسي أصبح خليفة إسمياً أي أن يحكم بالاسم لا بالفعل. وليس له أي دور أو تأثير.

وبعد، فما عليكم أيها الأخوة إلا أن تتأملوا هذا التاريخ المجبول بوحل الظلم والفساد، وذلك الزمن الرمادي الرديء الذي كان يعيش فيه أهل البيت عليهم السلام.

لذا وانطلاقاً من هذا كله، فإنه على المؤمن أن يعرف حقيقة ذلك التاريخ، ليعرف بالتالي موقفه، وإلا فما هي قيمة الإيمان، إذا كان أو بقي المؤمن يعيش ويمشي في ظلام الليل، وبقي جاهلاً طريقه وجاهلاً ما يمر به من أحداث.

شيخ ينهي المعتصم عن الظلم:

خرج مرةً شيخ كبير من بين الناس وهو يقول للمعتصم: يا أمير امنع غلمانك عنا لنسكن في بيوتنا آمنين فقال المعتصم:

وإن لم أمنعهم عنكم، فماذا تصنعون؟! قال: إذا لم تمنعهم عنا نحاربك بسهام الليل. فسأله المعتصم: ويلك وما سهام الليل؟! قال الشيخ: الدعاء. وراح يذكره بقول الشاعر:

لا تظلمنْ إذا ما كنت مقتدراً فالظلم آخره يأتيك بالندم
تنام عيناك والمظلوم متبه يدعوك عليك وعين الله لم تنم.

وتابع الشيخ قوله :

اتقوا دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب كما يقول الإمام علي عليه السلام . عندئذ فكر المعتصم لحظاتٍ ثم قال : «أما سهام الليل فلا طاقة لي عليها، ثم أمر غلمانه ووزرائه أن يخرجوا إلى «سامراء»، وبني فيها قصره .

وهكذا انتقلت الخلافة العباسية من بغداد إلى «سامراء» وبعد المعتصم جاء المتوكل الحاقداً على الإمام علي عليه السلام . والمبغض لأهل بيته، وهو بذلك معروف، ولديه مجموعة من الفسقة والخونة من الشعراء أمثال علي بن الجهم الذي يقول :

عيون المهايين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري
هذا الشاعر كان يقرأ مثل هذا الشعر الماجن للمتوكل، والمتوكل يضرب عباد الله بالحديد والنار.

المتوكل يأمر بإحضار علي الهادي من المدينة إلى سامراء

أرسل المتوكل في أيام خلافته، رسالة مع جماعة بقيادة يحيى بن هرثمة أحد قواده، طالباً إليهم الذهاب إلى المدينة لإحضار الإمام علي الهادي إلى «سامراء» .

قال يحيى بن هرثمة : لما دخلت المدينة كنت أتصور أن علياً الهادي موجود هناك وأنني أستطيع أن آخذه من بيته بسهولة . وأوهمت نفسي بأن لا علاقة بينه وبين الناس هناك . يقول يحيى بن هرثمة :

لما عرف أهل المدينة بالأمر، ضجّوا بالبكاء والنحيب، وكانت ضجّتهم تشبه ضجّة يوم مات رسول الله ﷺ . وهنا انبرى الناس شيوخاً

ونساء وشباباً يسألون ابن هرثمة بقولهم: يا ابن هرثمة ما تريد أن تصنع؟ هذا إمامنا ابن رسول الله وحجة الله في الأرض في عاصمة جده رسول الله ينشر الإسلام للعالم أجمع.

يقول ابن هرثمة: بدأت أسكن روع الناس وأحاول إخماد وتهدة ثورتهم، قائلاً لهم: صدقوني أنه لا بأس على الإمام - وإنما أنا مأمور بإحضاره إلى المتوكل ولن يناله أي سوء.

جاء ابن هرثمة إلى الإمام الهادي ومعه جنوده وقال له: إن المتوكل يطلبك إلى «سامراء» ويأمرني بالتالي بتفتيش بيتك عن أسلحة قيل إنها في حوزتك وبسبب اتهامك القيام بتنفيذ مؤامرة ضدنا. وبعد التفتيش لم يجد ابن هرثمة في بيت الإمام إلا شيئاً واحداً هو القرآن. وهل هناك أعظم من سلاح القرآن؟

ورغم اعتذار ابن هرثمة للإمام الهادي، فقد قال له الإمام: يا ابن هرثمة: تذكر قول الله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾.

وتابع الإمام قوله:

أنا حاضر للخروج إلى «سامراء» وهكذا كان بعد أن أخذ الإمام معه ملابسه للشتاء كأنما كان ينتظر عاصفة ثلجية ومطراً شديداً، وكان ذلك في شهر تموز.

وانطلق الإمام ومعه أصحابه وابن هرثمة حتى بلغوا منطقة في الصحراء بين مكة والمدينة.

فقال رجل من أصحابنا إنه ينقل عن علي ابن أبي طالب قوله:

«ما من بقعة من بقاع الأرض إلا ويملوها الله بالقبور» فصار الناس يضحكون من هذا الكلام. وأنا قلت في نفسي: هذه الصحراء أين هي من

القبور، فهل من المعقول أن تمتلىء بالقبور؟ يقول: إن هذه الكلمة بقيت في نفسي وذاكرتي ولما خرجنا من المدينة، وأنا أنظر للإمام، وقد أخذ معه الخيام و«البطانيات» وملابس شتوية. وصلنا إلى ذلك المكان وإذا بالسماء تشتد فتهب العواصف، وكذلك البرد يقوى، ويهطل المطر غزيراً كأفواه القرب، حتى مات نصف الجيش لهذه الأسباب. أما الإمام وأصحابه فلم يصابوا بأي سوء.

والتفت الإمام إلى يحيى بن هرثمة قائلاً له: ادفن أصحابك، وهكذا يملأ الله الصحراء قبوراً.

عند وصول الإمام إلى «سامراء» أسكنه المتوكل في خان اسمه خان الصعاليك أو «خان الفقراء»، استهاناً به، وبعد ذلك أفرده له داراً في «سامراء»، فكان بالطبع تحت سيطرة ورقابة الخليفة العباسي، حيث قضى زهاء عشرين سنة هناك، في التعبّد وقراءة القرآن.

طغيان المتوكل وحرقه على أهل البيت عليهم السلام

أثناء وجود الإمام الهادي عليه السلام في «سامراء» أرسل المتوكل جماعة إلى كربلاء فحرقوا قبر الحسين عليه السلام وهدموا، وهذا واحد من مواقف وأعمال المتوكل الحاكمة الخبيثة من أهل البيت عليه السلام والذي كان يفرض ضربه على كل من يزور قبر الإمام الحسين عليه السلام وبعد ذلك يُصرّح بأن من يذهب لزيارة القبر يتعرض لقطع يمينه وشماله، في المرة الأولى والثانية وفي الزيارة الثالثة يتعرض للقتل.

ومع ذلك فإن الإمام الهادي يشجع على زيارة قبر جدّه الإمام الحسين عليه السلام نظراً لعظيم ثواب الزيارة ولأن الإمام الحسين له فضله الأعظم في حفظ القرآن والدين، وإزاء هذا الوضع الخطير، كان نفر من أنصار الحسين عليه السلام إذا هم عجزوا عن الانتصار له بأبدانهم، يقول الواحد منهم مردداً: «ليكن داعي الله» إن كان لم يجبك بدني عند استغاثتك ولساني

عند استنصارك، فقد أجابك قلبي وسمعي وبصري .

وأما عن ملاحقة المتوكل للعلويين من أبناء عليّ وفاطمة ليملاً بهم
السجون ويتعرض لهم بشتى أنواع الضرب والقسوة، فحدث ولا حرج .

أما لماذا نطلق على الإمامين الهادي والعسكري «العسكريان» .
فلأن المتوكل أسكنهما في عسكر^(١) فالأول وهو الإمام الهادي
كان مسجوناً في عسكر السلطان وكذلك الإمام الحسن العسكري؛ وقبلهما
كان الإمام الجواد، مسجوناً عند المعتصم في داره، وهؤلاء الأئمة - ولا
ريب - كانوا ولا يزالون مصدر الفكر الإسلامي، فقهاً واجتهاداً، وتعليماً
وإرشاداً .

محبة ابن السكيت لأهل البيت وموقفه الشجاع من المتوكل :

ابن السكيت واحد من علماء النحو وأرباب الأدب، عند المتوكل،
كان من محبي أهل البيت عليهم السلام ومن حافظي أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم في فضل
الحسن والحسين .

وابن السكيت هذا، كان يؤدّب ويحسن تربية ابني المتوكل : «المعتز
والمعتصم» وفي تلك الأثناء، علم المتوكل أن ابن السكيت يحب الحسن
والحسين وكان هذا الأمر غريب عجيب . وفي مجلس كبير، سأل المتوكل
ابن السكيت بقوله :

أيهما أحب إليك : ولداي هذان أم الحسن والحسين؟ والجواب طبعاً
يحتاج إلى موقف شجاع من ابن السكيت الذي قال للمتوكل : «والله إن قبراً
خادم الحسن والحسين لأفضل منك ومن ولدك هذين .

فما فضلك أنت؟! إنسان غارق بدماء الأبرياء، ظالم وسفك مجرم .
فما قيمتك إلى جانب الحسن والحسين» عليهم السلام ففوجيء المتوكل ومن كان
في مجلسه، فقال : أخرجوا لسانه من فاه لتجرّته هذا، لكن ابن السكيت

(١) عسكر : مدينة كانت على شرقي دجلة بناها المعتصم وتسمى اليوم سامراء .

بقي في القلوب، وأين هو المتوكل العباسي؟

الهجوم على بيت الإمام وتفتيشه:

وعلى الرغم من وجود الإمام الهادي في السجن، وتحت سيطرة المتوكل وحراسه ومراقبة جنوده، فقد جاءت المتوكل افتراءات ضد الإمام زاعمة بوجود مال وسلاح في حوزته، وأنه بات يشكل خطراً على الحكم وحاكمه. وكان المتوكل في تلك الليلة في حالة من السكر، فأرسل سعيداً الحاجب طالباً منه الهجوم على بيت الإمام الهادي لتفتيشه ففعل، كما أمره بإحضار الإمام إليه مكبلاً بالحديد وكان ذلك في الهزيع الأخير من الليل، وإذا بالإمام الهادي يقول:

مكانك يا سعيد حتى يأتوك بشمعة كي تبصر طريقك. دخل سعيد الحاجب على الإمام فوجده واضعاً مصلاته على حصير بسيط مستقبلاً القبلة ويصلي صلاة الليل، وقرأ القرآن والدمع يجري على خديه، مشيراً إلى سعيد بتفتيش البيت، ففعل لكنه لم يجد سوى القرآن سلاحاً، وهل أعظم وأنجع وأقوى من هذا السلاح؟ وعاد سعيد الحاجب إلى المتوكل بالجواب حسب الحال الذي وجد فيه الإمام.

وعند وصول الإمام إلى المتوكل، طلب إليه هذا الأخير أن ينشده بعض الشعر، فقال الإمام: إني لقليل الرواية، ولكن باستطاعتي أن أنشدك الأبيات التالية:

باتوا على قلل الأجيال تحرسهم
غلب الرجال فما أغتتهم القُلُلُ
واستنزَلُوا بعد عَزٍّ عن معاقلهم
فأودعُوا حفراً يا بش ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد صرختهم
أين الأسرة والتيجان والحلل

أين الخدود التي كانت منعسمةً
من دونها تُضرب الأستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساء لهم
تلك الوجوه عليها الدود يقتل
وطالما أكلوا دهرًا وما شربوا
فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا
وطالما عمّروا دورًا لتحصنهم
ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا
أضحى مساكنهم قفرًا معطلة
وساكنوها على الأجداد قد رحلوا

لا شك أن الإمام كان مؤثرًا تأثيراً شديداً وعميقاً في نفس المتوكل
لدى إنشاده هذه الأبيات. وعند انتهائه من الإنشاد، رأى المتوكل وقد بدا
باكياً حزينا، قائلاً له:

لقد أزعجناك يا ابن رسول الله، عُدت إلى دارك مكرماً معزّزاً.

مرض المتوكل:

بعد مرور أيام أصيب المتوكل بمرض يعجز عنه الأطباء لكن وزيره
الفتح بن خاقان، أشار عليه بأن يسأل الإمام الهادي، لعله يملك الدواء
الشافى، وعلم الإمام بالأمر فوصف له العلاج الشافى، وهو علاج - لا
ريب - نافع من إمامٍ تقي عظيم.

وإذا كان من السهل معالجة وشفاء الأجسام، فإنه من الصعوبة
بمكان معالجة وشفاء القلوب والأفهام، خاصة تلك التي تمكنت منها
الشياطين وفتكت بها أدواء الجهل والظنّان والكفر والبهتان. وقديماً قيل:
الطبع غلب التطعّيع.

وتماثل المتوكل للشفاء فكافأت أمه الإمام الهادي بمبلغ من المال

على سبيل «النذر». أرسلته إليه في صرةٍ بقيمته عشرة آلاف دينار ومختومة باسم أم المتوكل (أي الصرة) نظراً لجميل صنيعه.

ومع ذلك، فقد أوعز المتوكل بعد فترة من الوقت، للحاجب بالهجوم مرةً أخرى على دار الإمام الهادي، لتفتيشها، وكان ذلك عند منتصف الليل، فوجد عند الإمام مالاً أخذه للمتوكل الذي تعجب من ذلك، لكنه أدرك وعرف أن ذلك المال هو نذر من أمه تقديراً ومكافأةً للهادي، فأعاده إليه. معذراً.

وهكذا أيها الأخوة، فإن المناق يسيء دائماً ثم يعتذر أما المؤمن فلا يسيء ولا يخطيء ولا يعتذر.

الإمام الهادي وعلم البيئة

يقول أبو هاشم الجعفري: كان الإمام الهادي، يتحدث إلينا عن علم البيئة والمناخ. هذا العلم الذي عالجه ويعالجه علماء البيئة منذ خمسين سنة تقريباً، علماً أن الإمام الهادي كان قد عالجه قبل ألف ومئتين وخمسين سنة. إذا قال، معبراً عن سروره لوجوده في سامراء نظراً لاعتدال مناخها، لأبي هاشم الجعفري:

«يا أبا هاشم أحبيت سامراء لطيب هوائها، وعلوية مائتها وقلة دائها» وهو أي الإمام الهادي يكره أن يخرج من «سامراء» كما كره أن يخرج من المدينة بالأمس لذلك فإن الإسلام والأئمة عليهم السلام، لم يهملوا جانب الاهتمام بالبيئة، ولطالما حذروا من أمور تضر بالصحة العامة.

يقول أبو هاشم الجعفري: كان الإمام يحدثني عن البيئة والجو الطيب وإذ بصبي من صبيان الإمام، يحمل بيده وردة ويقدمها له. يقول أبو هاشم:

رأيت الإمام عليه السلام قد أخذ الوردة وقبلها ثم وضعها بين عينيه، ثم

شمها وناولنيها. قائلاً: «يا أبا هاشم قبلها وضعها بين عينيك» وفعلت ذلك. وقال لي الإمام أيضاً:

«يا أبا هاشم من تناول وردة فقبلها ووضعها بين عينيه وصلى على محمد وآل محمد، كتب الله له حسنات بعدد رمال الصحراء، ومحا عنه من السيئات مثل ذلك» والحق أن لهذا الحديث منافع البدنية والروحية الأخلاقية.

أولاً: لأن الإمام أظهر احتراماً لمشاعر الطفل الصغير الذي قدّم له الوردة،

ثانياً: شارك الإمام ذلك الطفل في شمّ الوردة وضمها وتقبلها .

ثالثاً: قدّم الوردة لجليسه ليشركه في شمها وتقبلها ومن ثم الصلاة

والسلام على الرسول وعلى آله الطاهرين. والإمام إذن يريد أن يقدم صورة الإسلام الروحي، من خلال ذلك الجو.

هذا هو الإمام الهادي، العظيم الذي يقضي الليل مع الله تعالى

متعبداً، شاكراً، وداعياً إياه وسائلاً منه العون والتوجيه والرضا، وباكياً متضرعاً، طالباً رحمة ربه، مستغفراً لذنوبه.

ومن دعائه قوله تعالى: ﴿قل تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد

غير مكذوب﴾ وقد نقل أحد الموالى هذا الكلام لأحدهم في «سامراء» وفيه

تنبأ الإمام المهدي بوفاة المتوكل قبل ثلاثة أيام من نهايته، وهكذا حصل،

فقد قتلت مجموعة من الأتراك، المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان، وقد كانا

في الحمام. وجاؤوا بابه المتصنر وأجلسوه مكانه.

هكذا انتهت حياة المتوكل وحياة وزيره، يا لها من نهاية مؤلمة ومفجعة، وهكذا تنتهي حياة كل طغاة العالم، الظلمة الكافرين الفجرة من حكام وغيرهم وأمثالهم في كل زمان ومكان.

حكم المنتصر وموقفه من الهادي:

لما تبوأ المنتصر سدة الحكم، تيسر للإمام عليّ الهادي فرصة للتحرك، فلم يشأ المنتصر التصدي للإمام الهادي، لأنه اتخذ من حياة ونهاية والده المتوكل عبرة ودرساً، وبذلك فتح الطريق من جديد لزيارة الإمام الحسين عليه السلام، لأن المنتصر منح الزائرين الكثير من الحرية، فالحاكم العاقل العادل هو الذي يضمن الحريات لشعبه، والأمن والكفاية، وهذا كله هو الذي يقي الحكام في قصورهم وفي أماكنهم، ولأن العدل أساس الملك والمساواة دوامه والرحمة والإحسان بهاؤه، والحرية تعزز الثقة بين الحاكم وبين الرعية، ومن طال عدوانه زال سلطانه، ومن خلال هذا المعنى يبعث الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام إلى عامله مالك الأشتر كتاباً يقول له فيه:

يا مالك: «أشعر قلبك الرحمة للرعية واللطف بهم والحنان لهم ولا تكونن عليهم سبباً ضارياً تغتنم أكلهم فإنهم صنفان: «إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق».

وعادت للإمام الهادي قوّته وحرّيته، وتجلّد نشاطه في نشر الفكر الإسلامي ومبادئ الإسلام، الأمر الذي حمل الناس على الاتصال به والجلوس إليه طمعاً في الاستماع إلى أحاديثه والانتفاع بها.

ويحذّر الإمام الابتعاد عن الله، متحدثاً عن أناس ابتعدوا عن الله تعالى لأن نفوسهم هانت عليهم فيقول:

من هانت عليه نفسه فلا تأمن شرّه، لأنه لا يعرف قيمة نفسه، وهو بذلك يبيعها بالتافه. والإمام الحسين يقول:

«النفس لا تمن لها إلا الجنة فلا تبيعوها بغير الجنة». قال تعالى : ﴿إِنْ
الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم . بأن لهم الجنة﴾^(١) فالؤمن هو
البائع والمشتري هو الله سبحانه وتعالى والبضاعة هي النفس والمال ومن
كان بخيلاً بماله فبنفسه كان أبخل .

ومن لا يعطي المال في سبيل الله ولا يحرك نفسه فماذا تنتظر منه . ١٩
لذا فإنه على كل مسلم - إذا ما أراد الفوز برحمة ربه الواسعة
ويجته - عليه أن يهيئ نفسه بالإيحاء، يوحى لنفسه أنه مؤمن يعمل الخير
وأن يساعد الفقراء ويغيث الملهوف ويقضي حوائج الناس إذا ما استطاع
إلى ذلك سبيلاً .

وأن يدخل السرور على قلب أخيه المؤمن، وهذا من أفضل
العبادات، وحول هذه العبادة يقول الإمام :

يخرج المؤمن يوم القيامة من قبره، فتستقبله حوراء لو أطلت على
الدنيا، لمات أهل الدنيا من الدهشة لجمالها، يقول لها من أنت؟ تقول :

«أنا السرور الذي أدخلته على قلوب المؤمنين في الدنيا فهذا السرور
الذي أدخلته على قلوبهم، قضيت حوائجهم، دفعت الألم والأذى عن
أخيك الإنسان»، فهذا هو الإيمان وهو ما قر في القلب وطبقه العمل .
فعلينا تفريج كربة المكروبين وإغاثة الملهوفين .

العالم وازمة الفقر والجوع:

إنَّ هناك ما يتجاوز الألف مليون نسمة في العالم، ينامون بلا عشاء
كل ليلة، حسب إحصائيات دقيقة، كما أنَّ هناك حوالي ألف وخمسمائة
مليون نسمة، لا يعرف الشبع طريقاً لمعدة الواحد منهم أبداً .
وهذه الإحصائيات تعطيها منظمة اليونسكو . وإليكم مثلاً على ذلك .

(١) سورة التوبة، الآية : ١١١ .

رأيت شاباً يدرس في جامعة لمباشي في إفريقيا الوسطى في زائير
وهذا الشاب هو من المؤمنين الملتزمين. فاجأني ذات يوم بقوله: أنا أذهب
كلَّ يوم ساعتين سيراً على قدمي، حتى أصل إلى بيتي ومن ثمَّ أحتاج إلى
ساعتين لأصل إلى الجامعة، لأنني لا أملك قرشاً واحداً أو وسيلة للنقل،
قلت لهذا الشاب:

الحق أنك إنسان عظيم وعصامي وصبور، وأراد أن يكمل حديثه،
لكنه سكت وتملكه الخجل، وكان أستاذة واقفاً إلى جانبه، فقال:

أود أن أضيف إلى ما قاله، إنه لا يأكل في الأسبوع سوى وجبات
قليلة وهو يواصل دراسته بصبر وأناة وأما في الهند، فإنَّ هناك مدناً بكاملها،
من أبناء الإسلام كلُّهم سادة، يعانون الفقر وتعضهم الحاجة إلى الدَّهرم،
كما أن هناك فتيات علويات لا يملكن ثمن الطعام، الأمر الذي تضطر معه
لأن تبيع نفسها بثمن بخس لا يتجاوز العشرين دولاراً.

لأجل هذا كله، فإنه بات لزاماً علينا أن نعمل على نشر الإسلام لأنه
وحده المنقذ للبشرية من برائن التخلف والضعف، وهو وحده أيضاً - أيَّ
الإسلام - المخلص للإنسانية من مخالب الفقر والظلم والجوع.

وهنا نسأل: أين الغيارى على الإسلام، وهل نحن فقراء؟ وفي
الحقيقة، نحن أكثر الناس غنى في العالم، لكنَّ أكثرنا قد أصبحوا أسرى
أنانياتهم، وعبيد مصالحهم الشخصية والمنافع الذاتية.

ولماذا لا نتحرك باتجاه تحقيق الأهداف النبيلة الخيرة بروح التعاون
المخلص والصادق، وقد أمرنا الله تعالى بذلك في كتابه العزيز إذ يقول:
﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾^(١).

(٢) سورة المائدة؛ الآية: ٢.

وبذلك نستطيع أن نبني مجتمعاً قوياً ومعافى اقتصادياً وأخلاقياً واجتماعياً، ونؤمن للناس حقوقهم الشرعية ونذكرهم بواجباتهم المفروضة عليهم. قال تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم﴾^(١).

والمسؤولية أولاً تقع على الأغنياء من ذوي الأموال السائلة وعلى التجار المؤمنين. الذين ينبغي أن يتبرعوا وأن تبرع نحن جميعاً؛ كل حسب قدرته قال تعالى: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾^(٢) وإذا ما تحقق هذا الهدف النبيل واستطعنا توفير المال، باعتباره عنصراً أساسياً بعد الإيمان، فلنأنا نستطيع أن نقيم وننشئ المشاريع الإسلامية والأعمال الخيرة ونفتح بذلك المؤسسات الخيرية في العالم، ويتم بذلك نشر الكتب بعد طبعها، ونشر السيرة النبوية وفكر أهل البيت عليهم الصلاة والسلام.

ونحن نعرف كيف أن أهل البيت عليهم السلام قد بذلوا النفس والنفس في سبيل الله إحقاقاً للحق وإزهاقاً للباطل، لإقامة مجتمع العدالة والحرية والمساواة، على أساس من الحب الإلهي والرحمة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلماذا لا نتحلى بما تحلوا به ولا نتخلق بأخلاقهم ونسير على هديهم، لنكون بحق عباد الله المخلصين الصادقين والمؤمنين الصالحين والأبرار المتقين.

حدث أن كنت في غامبيا أي في إفريقيا، وفي طريقي إلى السنغال، كنت أريد أن أعبر ممرأ مائياً، مثل الخليج وبواسطة عبارة استطعنا أن نعبّر ذلك العمر المائي، من غامبيا، وكنا قد صلينا صلاة الجمعة بالمسلمين، والتقيناهم وكان الناس في حالة كما العطشان في الصحراء إذا استقبلته بماء بارد.

(١) سورة التوبة؛ الآية: ١٠٣.

(٢) سورة البقرة؛ الآية: ٢٨٦.

ألقينا بهم خطبة حول موضوع ديني مهم، فإذا هم يكون قائلين:

تذكرتمونا وجئتم إلينا، اذكرونا هكذا دائماً ولا تنسونا، فنحن بحاجة إليكم وإلى محاضراتكم لنعرف الكثير الكثير من النافع الشافي حول رسول الله ﷺ وحول الإسلام، ثم تابعوا يقولون: أيها المشايخ وأيها العلماء، تعالوا إلينا وانقلونا من المبشرين اليهود والمسيحيين. هذا هو نداؤهم.

وفي السنغال رأيت أطفالاً صغاراً، الكبير فيهم لا يتجاوز السنة الثامنة من عمره، عليهم ملابس رقيقة، وتبدو عليهم رقة الحال. بسبب ما يعانون من فقر شديد.

ومع ذلك، فقد وجدت بعض الذين يهتمون بهؤلاء الأطفال، فيعلمونهم قراءة القرآن.

ولقد أصغيت إلى بعضهم وهم يقرأون بعض سور القرآن ولا سيما «سورة الحمد» وجزء عم يتساءلون. وهنا لا بد من أن ندق أجراس التنبيه والتحذير، للاهتمام بأولئك الأطفال، وفاءً منا جميعاً لهم وللإسلام - كل حسب إمكاناته - كي لا ينبري الشيوعيون والمبشرون النصاري، ويأخذونهم منا. وساعتئذ على من تقع المسؤولية؟!

المسؤولية تقع أولاً على التجار الذين يملكون الأموال ولا يساعدون في نشر دعوة الإسلام.

وتقع ثانياً على المرشدين الروحيين من رجال دين وسواهم. خاصة وأن الإسلام اليوم يتعرض لأشرس حملة شعواء، لا شيء إلا لتشويهه وتزويره. وهنا لا بد من التذكير بالحديث الشريف لرسول الله ﷺ الذي يقول فيه:

«من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم» فهذا هو منطق أهل البيت.

والإمام الهادي عليه السلام يريد أن يعلمنا الإسلام بأسلوب صحيح وذلك بإغاثة الملهوفين، ونشر الإسلام على أن نحمل الحب لكل الناس.

والظاهرة الكبرى في حياة الإمام علي الهادي عليه السلام هي التركيز على زيارة أبي عبد الله الحسين عليه السلام لأن الإمام الهادي يعتقد أن زيارة الحسين عليه السلام هي التي تعمق الإيمان في القلوب.

زينب بنت علي بن أبي طالب عليه السلام:

وبالانتقال للحديث عن زينب عليها السلام أقول:

سألني أحد الشاميين فقال: مَنْ زينب؟ وربما كان سؤاله بدافع الإستهانة بقدر هذه السيدة العظيمة في تاريخ الإسلام وفي تاريخ الإنسانية. فقلت له:

«أفأنت تسأل عن زينب فقط؟»

هي نطفة طاهرة لعلي أمير المؤمنين، استقرت في أظهر رحم في الكون، رحم فاطمة الزهراء عليها السلام.

ثم عليك ألا تنسى أن زينب كانت في حجر جدّها رسول الله ﷺ ست سنوات ويوم وفاته ﷺ لم تكن لتجاوز هذا السن. وكان الرسول ﷺ يزقها العلم زقاً. وبعد ذلك هي في حجر أبيها أمير المؤمنين علي عليه السلام لها حجور طابت وأخلاق طهرت وأنوف حمية ونفوس آبية».

كان الإمام السجاد عليه السلام يقول لها: «عمة زينب أنت عالمة غير معلّمة، فهيمة غير مفهّمة» فهذه شهادة أعطيت لها من إمام معصوم.

أما زوجها فهو عبد الله بن جعفر الطيّار، وجعفر هو أخو الإمام علي عليه السلام، وإنما سمّي بالطيار، لأنه قطعت يمينه وشماله وهو يجاهد في سبيل الله، فأعطاه الله جناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنة.

عبد الله بن جعفر هو أكرم الناس وأشجعهم، إذن فهي ابنة قوم كرام
بررة هم خير البرية وقد قال فيهم الشاعر:

من معشر حُبهم دين ويغضهم كفر وقربهم منجى ومعتصم

وزيادة في الإيضاح دليلاً على عظيم فضل السيدة زينب أن الآلاف
من الناس يقومون بزيارة مقامها من جميع الأنحاء الإسلامية، ولا سيما من
لبنان الجنوبي، ويطلبون منها حوائجهم، في ليلة النصف من شعبان.

ويبقى الإيمان أيها الأخوة، فوق البرهان، فكلما زاد حب الإنسان
لأهل البيت عليهم السلام فإن اعتقاده يعظم وينمو ويتسع ويتعمق أكثر فأكثر.

هذه هي العظيمة زينب بنت فاطمة الزهراء عليها السلام ورغم تلك المزايا
الكريمة التي تتمتع بها، تجد نفسها مربوطة بحبل من عضدها إلى عضد
الإمام زين العابدين أثناء دخولهما الشام، والإنسان ذو النظر الثاقب يعرف
مدى العلاقة الروحية النقية التي تربط الأخت بأخيها.

زينب هذه عليها السلام كانت إذا نظرت إلى رأس أخيها أبي عبد الله
الحسين عليه السلام تتحدث معه وتجود بنفسها وتقوم بمهمة الحفاظ أيضاً على
أطفال أخيها من الضياع. وكيف ننسى أيضاً ما كانت تتمتع به
زينب عليها السلام من بلاغة وفصاحة وروعة أداء في الخطابة في الوقت المناسب
دفاعاً عن الحق، عن الإسلام بفكر سديد، وعقل رشيد، بحكمة دقيقة
المنفذ، حسنة المآخذ. وخير دليل على ذلك: تلك الخطبة التي ألقتها في
مجلس يزيد اللعين. وقد تحولت كلماتها إلى أحجار ملتهبة تقذف بها على
رأس يزيد وعلى رؤوس الطغاة الكفرة والظالمين المنافقين الفجرة، مع أنها
في مأزق حرج، وفي وضْع غاية في الصعوبة. فهي مجروحة الفؤاد، تعيش
أمر ساعات الألم الشديد، إذ تنهار لهوله الأوتاد وتنوء بثقله البلاد والعباد.

ولذلك فإن أول شيء قامت به زينب عليها السلام بعد رجوعها إلى المدينة، أنها ذهبت إلى قبر جدها رسول الله وهي تشكو له حالها، أخذت بباب المسجد النبوي ووقفت على قبر جدها تقول له: «يا جداه أنا جئت إليك ناعية أخي الحسين حبيب قلبك، قتلوه يا رسول الله، قتلوه عطشان وهؤلاء أطفاله يتامى معي».

وأما سكينه فإنها عندما رأت عمته زينب تخاطب الرسول هكذا، صاحت قائلة: يا جداه يا رسول الله! أشكو إليك ما أصابنا من البلاء. ثم قالت أيضاً: يا رسول الله وحق الذي أرسلك بالحق نبياً ما رأيت أكثر فسقا وخبثاً وبغضاً لنا من يزيد اللعين بن معاوية ولا أكفر منه. رأيت رأس أبي الحسين بين يديه، وكان يضربه بسوط كان في يده ويقول: ذق يا حسين من هذا الضرب.

أما الإمام زين العابدين عليه السلام فقد ضرب الخيام خارج المدينة وأرسل بشراً بن حذلم ناعياً، قال له: أدخل المدينة وانع أبي الحسين. يقول بشر:

ركبت فرسي ورفعت علماً أسود واتجهت إلى قبر رسول الله ﷺ. يقول لما وقفت هناك ناديت، وقد رفعت صوتي بالبكاء والنحيب، وأنشدت:

يا أهل يشرب لا مقام لكم بها قتل الحسين فأدمعي مدرار
الجسم منه بكر بلاء مضرّج والرأس منه على القنّاة يدار

يقول بشر: خرج الناس صغاراً وكباراً، وقد ألم قلبي أشدّ الألم طفلة للحسين إسمها فاطمة العليّة: وهذه الطفلة كانت جالسة في دار أبيها الحسين في المدينة تندب أباهما الحسين ليل نهار.

يقول: لما نظرت إليها أخذتها معي إلى أخيها الإمام زين العابدين.

في هذه الأثناء، كان محمد بن الحنفية في داره، ولما سمع الصيحة

سأل ما الخبر؟ قالوا له :

لقد رجع أخوك الحسين إلى المدينة .

ومحمد بن الحنفية لم يكن على علم بمقتل أخيه الحسين ، فخرج لاستقباله
وفجأة علا الصراخ والبكاء والصياح ، فسأل ما الخبر ؟ فقيل له :
ربما وصل خبر مقتل مسلم بن عقيل في الكوفة .

وعندما وصل محمد بن الحنفية إلى خيام الإمام زين العابدين ، ووقع
بصره على أخته زينب وعلى سكينه وعلى الأطفال والنساء ، إذا به يسمع
الجمع ينادي صارخاً :

واحسيناه واحبيب قلباه! وابعاساه! وإزاء هذا الموقف الأليم ، وقع
محمد بن الحنفية مغشياً عليه . أما الإمام السجّاد ، فقد جمع الناس ، وألقى
فيهم خطبة ، ثم جاؤوا إليه وقالوا :

يا ابن الحسين أدرك عمك محمد ، لقد وقع على الأرض وأغمي
عليه .

جاء الإمام السجّاد وأخذ برأس عمه . تأملوا آيها الأحبة هذا اللقاء
بعد تلك الفترة الطويلة من السفر .

وهنا لا بدّ من التذكير بأنه لما وقع بصر محمد بن الحنفية على الإمام
زين العابدين عليه السّلام ، قال مَنْ هذا؟ علي زين العابدين؟ قال : نعم يا
عم أنا ابن أخيك ، أنا علي زين العابدين : قال : ولدي أخبرني أين أبوك

الحسين؟! أين أبوك أبو عبد الله الحسين؟ قال: يا عم أخبرك إنني رجعت وليس معي إلا الأرامل والأيتام.

إنها والله لصفحات من كتاب الجهاد الأكبر في حياة أهل البيت عليهم السلام وقد سودها الحزن في ليل القهر والمعاناة والظلم والحقْد، لكنها عادت وأشرقت بنور الصبر والإيمان والطاعة للرحمن، ملونة بألوان زاهية من الشجاعة والحكمة والبطولة العظيمة، ليتنشر السلام في الأرض ويتنصر الإسلام؛ إسلام الحق والعدل والمساواة والوثام.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

الإمام الهادي عليه السلام
عقيدة وكفاح

الإمام الهادي عليه السلام

(١) الإيمان بالآخرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُجِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ (٢).

مقدمة

أقسام الناس

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعا عتباع كل ناعق».

يبيّن لنا أمير المؤمنين هنا أقسام الناس ومراتبهم في المجتمع والحياة. فالقسم الأول هم العلماء الربانيون الذين يحفظون في صدورهم وعقولهم العلم. والمراد بالعلم هنا العلم الإلهي، أي علوم الدين والشريعة، لأن بها يكون حفظ المجتمع والحياة. ولذلك فإن هؤلاء يأتون في المرتبة الأولى من

(١) أُلقيت هذه المحاضرة ليلة العاشر من صفر سنة ١٤١٢ هـ .

(٢) سورة محمد؛ الآية: ١٥ .

البشر، ولهم الصدارة والقيادة. ولذلك يقول الرسول: «العلماء وَرَثَةُ الأنبياء».

أما القسم الثاني من الناس فهم المتعلمون على سبيل النجاة. أي الذين يطلبون العلم من الفئة الأولى لتتضح معالم الطريق أمامهم فينجون من الضلال والجهالة التي تؤدي إلى النار. فهؤلاء بطلبهم العلم وسعيهم إنما أرادوا النجاة. وهؤلاء ليسوا أصحاب علم رباني، إنما هم متعلمون مقلدون. فإن طلبوا العلم من مصادره الصحيحة وانصاعوا لأوامر ونواهي الشرع صادقين، برئت ذمتهم ونجوا.

أما القسم الثالث فهم الكثرة الكاثرة، الهمج الرعاع. وأهم صفة في هؤلاء أنهم لا يميزون بين الحق والباطل، ولا بين الدعوة الصحيحة والدعوة الكاذبة. وهم كذلك لا يسمعون في طلب العلم ومعرفة الحقيقة فيرتاحون إلى جهلهم وجهالتهم، لذلك تراهم يتبعون كل ناعق... كل من سار أمامهم وهتف يسيرون خلفه ويهتفون مثله، لا يدرون إلى أين يسيرون!!

هذه الأقسام الثلاثة تنطلق في الحياة وتصل إلى القبر. وفي يوم الحساب ينقسمون أيضاً إلى ثلاثة أقسام: العالم الرباني والمتعلم على سبيل النجاة يذهبان إلى الجنة. والهمج الرعاع يذهبون إلى النار.

والقرآن الكريم في كثير من آياته يشير إلى هذه الأقسام الثلاثة من الناس ويحدد صفة وجزاء كل قسم منهم.

فالقسم الأول هم: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ: أولئك المقربون. في جنات النعيم. ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ. وقليلٌ مِنَ الْآخِرِينَ. عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ. مُتَكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ. يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وُلْدَانٌ مَخْلُودُونَ. بأكوابٍ وأباريقٍ وكأسٍ من مَعِينٍ. لَا يُصْذَعُونَ عنها وَلَا يُنْزِفُونَ. وفاكهةٍ مما يَتَّخِذُونَ. ولحمٍ طيرٍ مما يَشْتَهُون. وَخُورٍ عَيْنٍ. كَأَمْثَالِ اللَّوْلِيِّ الْمَكْنُونِ. جزاء بما كانوا يعملون﴾^(١).

والقسم الثاني هم أصحاب اليمين: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ

(١) سورة الواقعة؛ الآيات: ١٠ - ٢٤.

اليمن. في سِنْدٍ مَخْضُودٍ . . . وَظِلٍّ مَمْدُودٍ . وماءٍ مَسْكُوبٍ . وفاكهةٍ كثيرةٍ .
لا مقطوعةٍ ولا ممنوعةٍ . وفُرْشٍ مرفوعةٍ ﴿١﴾ .

أما القسم الثالث، الهمج الرعاع، فهم أصحاب الشمال: ﴿وأصحابُ
الشَّمالِ ما أصحابُ الشَّمالِ . في سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ . لا باردٍ
ولا كَرِيمٍ . إِنْهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ . وَكَانُوا يُصْرُفُونَ عَلَى الْجَنَّةِ
الْعَظِيمِ﴾ (٢) .

فالقسم الأول سابقون ونفوسهم مطمئنة . والقسم الثاني مؤمنون ونفوسهم
لَوامةٌ ترجعهم عن الذنوب فينجون . والقسم الثالث نفوسهم متوحشة أمانة
بالسوء . . .

الإيمان بالآخرة والجنة التي وعد المتقون

إن الآية المباركة التي افتتحنا بها هذا المجلس لا تريد أن تصف لنا
الجنة على وجه التحديد والتحقيق، وإنما تريد أن تمثل لها تمثيلاً يقرب
معناها من أفهامنا وصورتها من مخيلتنا . فلذلك قال سبحانه: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ . . .
ولتقريب المعنى والصورة كان التمثيل بأشياء محسوسة معروفة من حياة الناس
مثل: العسل واللبن والخمر والثمرات . . . والخمر هنا يعني العصير، ولا يعني
الخمرة التي تُذهب العقل .

أما الجنة على وجه الحقيقة فلإن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت
ولا خطر على قلب بشر .

والإيمانُ بالآخرة مقرون بالإيمان بالله . . . وربما تساءل البعض: ما هو
الدليل على وجود الآخرة؟؟ .

(١) سورة الواقعة؛ الآيات: ٢٧ - ٣٤ .

(٢) سورة الواقعة؛ الآيات: ٤١ - ٤٦ .

هناك أدلة كثيرة على وجود الآخرة، وأنا هنا أكتفي بدليل واحد، لاني ذكرت أدلة أخرى في مجالس سابقة، فأقول: إن أكبر دليل على وجود الآخرة هو وجود الجنين في بطن أمه.

فنحن إذا تأملنا في وضع الجنين وأحواله وتقلباته نستطيع أن نستنتج استنتاجاً قاطعاً بوجود الآخرة. . . يقول أمير المؤمنين: «ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله ومعه وبعده». أي أن التضرُّع والتأمل والتدبُّر تهدينا إلى وجود الله سبحانه وإلى وجود الآخرة.

دخل رجلٌ كافر يقال له الديصاني على الإمام الصادق وقاله له: ما الدليل على وجود الله؟ . . . أخذ الصادق بيضةً وقال له: «انظر يا ديصاني! . . . هذا حصن حصين عليه جدار غليظ، وتحت الجدار الغليظ جلدة رقيقة، وتحت الجلدة الرقيقة فضةٌ ذاتبةٌ وذهبةٌ مائعة، لا الفضة الذائبة تحتلط بالذهبة المائعة، ولا الذهب المائعة تحتلط بالفضة الذائبة، ثم تنفلق عن مثل ألوان الطواويس، لا يُدرى أَلِلذَكَر خَلقت أم لِلأنثى! . . . أترى لهذا مدبراً أم لا؟»، قال الديصاني: مُدَّ يَدُكَ، فإن أشهد أن لا إله إلا الله وأن جدُّك محمداً عبده ورسوله! . . .

والآن نحن نستدل بالجنين في بطن أمه على وجود الآخرة. . . فالجنين كائن مخلوق للتكامل. وتكامله يبدأ من رحم الأم وينتهي عند الله في الآخرة. أي أن التكامل لا يتم في حياته الدنيا، بل إن هذه الحياة الدنيا هي مرحلة على طريق التكامل.

لو نظرنا إلى تكوُّن الجنين في بطن أمه لوجدنا أن أعضاء كثيرة وأجهزة كثيرة تتكوَّن له لا يحتاجها في حياته الجنينية. ففي بطن أمه يتكوَّن الجهاز الهضمي، وتتكون العين والأذن واليدان والرجلان وغيرها. . . . وهو في حياته الجنينية تلك لا يحتاج إلى المعدة وأعضاء الجهاز الهضمي لأن غذاءه يصله مباشرة من الأم عن طريق المشيمة والحبل السُّري. وكذلك هو لا يحتاج إلى

العين والأذن ليرى أو يسمع، ولا إلى اليدين والرجلين لينتقل أو يتحرك. . . .
إذا لماذا وجدت هذه الأجهزة والأعضاء؟ . . . إنها وجدت لحياة أخرى هي
حياة ما بعد الولادة. . .

إن الله سبحانه لا يصنع العبث. فهو قد خلق الجنين وزوّده بالأعضاء
والأجهزة والطاقة لينتقل إلى حياة أخرى. وهذا الانتقال من حياة الجنين إلى
حياة الطبيعة التي نعرفها هو تكامل. وهذا التكامل الذي يظهر ويتبلور في
الحياة الثانية إنما يتأسس على المرحلة السابقة والحياة السابقة، ومقوماته لا بد
أن تنشأ وتتكوّن في الحياة السابقة. ونستطيع أن نصل إلى نفس النتيجة إذا
تأملنا في اللسان والجهاز العصبي والتفكير وسائر الأعضاء والملكات التي
يودعها الله في تكوين الجنين.

ثم يخرج الجنين مع الولادة إلى الحياة وتبدأ أعضاؤه وأجهزته وحواسه
وعقله وسائر ملكاته بالعمل. ثم في أثناء مسيرته طوال حياته ينمو ويتطوّر
ويتكامل مستخدماً هذه الأجهزة والملكات.

ولكن لتأمل أيضاً في حياة الإنسان ونشاطه وحركته وفعاليته في هذه
المرحلة الثانية. وهنا نسأل: هل يمتلك الإنسان أجهزة وأدوات ووسائل لا
يستخدمها كلياً أو جزئياً في هذه الحياة؟؟؟.

الجواب: نعم! . . . فالإنسان لديه حاسة اسمها حاسة الخلود. أي أنه
يميل إلى الخلود ويريد أن يعيش مليون سنة. ولكن حياته في هذه الدنيا
محدودة، فهي لا تتجاوز عادة ستين أو سبعين سنة. . إذا لماذا هذه الحاسة
عنده؟

كذلك نجد أن الإنسان يمتلك عقلاً. غير أن الإنسان لا يحتاج إلى هذا
العقل كله في الدنيا، بل يحتاجه أيضاً لعالم آخر، ويحتاجه ليحوّل الدنيا إلى
مزرعة للأخرة.

إذن كما أن الجنين يمتلك طاقات ووسائل وجدت فيه ليستخدمها في

حياة ما بعد الولادة، كذلك الإنسان في مسيرته على وجه الأرض مزوّد بملكات ووسائل معّنة ليستخدمها في تدبّر أمر حياة أخرى والإطلالة عليها. . . وهكذا نصل إلى حتمية الإيمان بالآخرة. . . وإلا فما هي وظيفة قوّة الأخلاق والضمير في الحياة الدنيا؟ هل الغاية من وجودها محصورة في الحياة على هذه الأرض ومع بقية الناس؟ إذا كان الأمر كذلك، ولا وجود لغاية أخرى هي الحساب والعقاب ومحكمة الآخرة، فإن الإنسان لا يكون بحاجة إلى الضمير وإلى الأخلاق، لأنه لن يُحاسب على عمل خيراً كان أم شراً. . .

ومن هنا نجد أن القرآن الكريم يؤكد على مسألة أساسية، وهي أن الأخلاق في الإنسان لا تنمو وتتكامل إلا في ظل الإيمان بيوم القيامة. . . فكما أن الشجرة لا تنمو وتتكامل إلا تحت مظلة الشمس والهواء، كذلك أخلاق الإنسان لا تنمو إلا تحت مظلة الإيمان باليوم الآخر.

وليس المقصود بالأخلاق هنا بعض المجاملات البسيطة السطحية، وإنما المراد بذلك تلك الصفات الأصيلة الخيرة التي تحفظ الإنسان وتقويه وتسمو به أفراداً وجماعات، مثل الكرم والحمية وحفظ الذمام ورفض الذل ومحبة الآخرين وحب الخير لهم. . . الخ.

والحقيقة أن الإيمان بالآخرة يحفظ الأمة عن طريق حفظ أخلاقها. ويقول عالم ألماني كبير: «ما رأيت أمة حفظت أخلاقها كالأمة الإسلامية». وهذا لأن الأمة الإسلامية آمنت بالله رباً وآمنت بالحساب معاداً وآخرة: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^(١).

أصل الظلم عدم الإيمان بالآخرة

إن عدم الإيمان بالحساب واليوم الآخر هو أساس الظلم الذي نراه في هذا العالم. فالحكام الذين لا يؤمنون باليوم الآخر هم عادة ظالمون. والظلم

(١) سورة المؤمنون ، الآية : ١١٥ .

ظلام، ولا شيء يهدم العروش مثل الظلم. ذلك أن الذنوب وأنين المحرومين وآهات المظلومين لها عُدٌّ وحساب؛ فهي إذا بلغت حدًّا معيناً تقلب العروش وتغيّر النعم وتدمّر الحياة.

يقول أمير المؤمنين لمالك الأشتر: «لا تقوّن حكماً بظلم أحد... وإياك وسفك الدماء في غير حلّها، فإنه ليس شيء أدعى لزوال ملك من سفك دمٍ حرام!».

ولذلك ترى الحاكم العادل في حالة يقظة دائمة لرفع الظلم عن الناس. فهو يستقصي أحوالهم ويشكل هيئات الشورى واللجان التي تستقصي الظلم وتحدد مواقفه ليُصار إلى اجتثاثه. ولذلك فإن الإسلام امتدح العدل ونوّه به حتى لدى الحكام غير المسلمين... ولكن هؤلاء يكونون عادة مؤمنين بالله وبالحساب. فالرسول ﷺ يقول لأصحابه: «اذهبوا إلى الحبشة، فإن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد».

والأنبياء عليهم السلام إنما جاؤوا لرفع الظلم عن الناس وتحريرهم من نير العبودية. ويخطئ من يظن أن وظيفة الأنبياء محصورة في تبليغ بعض الفرائض أو الهداية إلى الله تعالى: ﴿وَيُضِيعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾^(١).

والحاكم العادل هو الذي يكون قريباً من الناس، يتفقد أحوالهم وينظر في ظلماتهم وشكاواهم، أو هو الذي تكون عينه بين الناس، أي أعوانه ومساعدوه الصالحون المؤمنون. أما الحاكم الظالم فهو الذي يبتع عينونه بين الناس للتجسس عليهم وإنزال الظلم فيهم خوفاً على سلطانه. وهذا الحاكم الظالم يعيش في قلق دائم وخوف دائم، ولذلك تراه يزداد ظلماً كلما ازداد خوفاً. أما الحاكم العادل فهو الذي يطمئن إلى الناس فيثق بهم ويقترب منهم ولا تحجزه عنهم جيوش ودبابات، ولا حرسٌ خاص يتفق عليه ما لا يُحصى

(١) سورة الأعراف؛ الآية: ١٥٧.

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام كان يجول في الأسواق ويسأل الناس عن أحوالهم وحاجاتهم ومشاكلهم. وكان يسير على هيئة سائر الناس، لا يميزه عنهم إلا من يعرفه. رأى ذات مرة فتاة تبكي في الطريق، فسألها عن حالها، فقالت، وهي لا تعرفه: يا عبد الله، اشتريت لسيدي بعض الثمر من ذاك التاجر، فرفضها سيدي وأراد أن أرجعها فلم يقبل التاجر وقذفها في وجهي... وأنا لا أستطيع العودة إلى سيدي على هذه الحال!... جاء الإمام إلى البائع وقال له: يا عبد الله، لو أقلت هذه المسكينة، وأرجعت إليها دراهمها واسترجعت بضاعتك!... قال له التاجر، الذي لا يعرفه أيضاً: ما لك والدخول بيني وبينها! اذهب في طريقك!... ثم دفعه...

إن القرب من الناس ورفع الظلم عنهم هو ميزان عدالة الحاكم.

يقول عمر بن عبد العزيز للإمام الباقر: أوصني يا ابن رسول الله! قال الإمام: «يا ابن عبد العزيز! اتخذ صغير المسلمين ولداً لك، وأوسطهم أخاً، وكبيرهم أباً... فارحم ولدك، وانصف أخاك، وبرّ أباك».

وهناك حكامٌ كافرون، ولكنهم كانوا يعدلون في الرعية، فلذلك بقي ذكرهم... يُحكى أن في إيران القديمة، قبل ألفي سنة، كان هنالك حاكمٌ عادل يستقصي دائماً أحوال الرعية ويستمع إلى شكوى المتظلمين فينصفهم ويرفع الظلم عنهم. هذا الحاكم أُصيب يوماً بالصمم. دخل عليه وزيره فوجده يبكي. فسأله عن أمره فقال: إنما أبكي لأنني فقدت سمعي ولم أعد أستطيع سماع شكوى المظلومين!... قال له الوزير: إذا كنتَ قد فقدتَ سمعك فإن الله أعطاك بصرًا تستطيع أن تتعرفَ بواسطته إلى شكاوى الناس!... قال: وكيف؟ قال: «أن تُصدر أمراً إلى الشعب بأن يلبس كل من له ظلامة ثوباً أحمر. وهكذا تستطيع أن تسير بين الناس فتتعرّف إلى المظلومين»... وهكذا فإن الحاكم العادل لا يعدم وسيلة للوصول إلى الناس وإنصافهم... ونحن في هذه الأيام لو طلبنا من المظلومين أن يلبسوا ثياباً حمراء لغطى اللون

الأحمر كل أرض بلادنا!....

والحقيقة أن الإيمان بالآخرة هو الذي يدفع الإنسان حاكماً كان أو محكوماً إلى العدل. لأن العدل يأتي من محاسبة النفس. فانت إذا انتبهت إلى أن هذه الحياة زائلة، وأن القبر قريب، والمعاد قريب، والحساب آتٍ لا ريب فيه، عندها تزن أعمالك بميزان العدل، وتحاسب نفسك على ما بدر منك. فتستقيم أعمالك بين الناس.

والحقيقة أيضاً أن الظلم هو الذي يدك العروش ويزيل الأباطوريات... فانظروا مثلاً إلى الاتحاد السوفيتي كيف انهار بهذه السرعة الفائقة، فهو لم يعمّر أكثر من سبعين سنة. ففي الاتحاد السوفيتي مائة وخمسون مليون مسلم، أي خمس جمهوريات مسلمة من أصل خمس عشرة جمهورية. وهؤلاء المسلمون أكرهوا على الانضمام إلى الاتحاد السوفيتي وعاشوا مدة سبعين سنة تحت الظلم الشيوعي. ومن بين هؤلاء هناك تسعون مليوناً من الشيعة. والمسلمون هناك أحوالهم صعبة جداً ولا أحد يتحدث عنهم. هناك تعتيم كامل على أوضاعهم حتى في البلاد العربية فإنهم لا يسمحون بنشر الكتب التي تبين أحوال المسلمين في الاتحاد السوفيتي. إن كتاب «المسلمون في الاتحاد السوفيتي» لصادق حقي يتحدث عن أوضاعهم ويبين الظلم اللاحق بهم، ومع ذلك فإن هذا الكتاب ممنوع في البلدان العربية!... ما يهمنا قوله أن هذا الانقلاب والسقوط الذي حدث في الاتحاد السوفيتي إنما كان نتيجة الظلم ونتيجة عدم وجود الحرية والديمقراطية. وهذا الذي حدث في الاتحاد السوفيتي لا يحدث في أميركا لأن فيها حرية وديمقراطية... وأنا هنا لا أمتدح أميركا والغرب، فكلهم أعداؤنا، ولكن بعض الأمور يجب أن نقال... .

القرآن الكريم يشير إلى ديمقراطية بلقيس رغم أنها كانت مشركة.

فهي كانت تعتمد الديمقراطية والشورى : ﴿قالت يا أيها الملا أفتوني في أمري ما كنت قاطعةً أمراً حتى تشهدون﴾^(١) .

فالانقلاب يكون حيث يكون الإستبداد وختق الأصوات . وكل من يتكلم يسكتونه بالرصاص. غير أن عاقبة الإستبداد وخيمة، والظالم المستبد لا بد أن يسقط. لذلك علينا أن نتسلح بالإيمان ولا ندع الخوف والقلق يتسربان إلى نفوسنا. . . نحن بحمد الله مؤمنون، وهذه المجالس الحسينية تحفظنا وتحفظ عائلتنا وجميع من حولنا . ونحن في هذه الأيام العاصفة علينا أن نتمسك بإيماننا وبالروح الحسينية، ونمدّ يد المساعدة إلى بعضنا البعض، وخاصة إلى المحتاجين ، فليس كالصدقة والإحسان والانفاق في سبيل الله معين على مواجهة النكبات.

الإمام الهادي عليه السلام

لقد كانت أيام الإمام الهادي عليه السلام عاصفة ومشحونة بالاضطرابات. ولقد أحصيت الثورات التي وقعت في حياة الإمامين الهادي والعسكري فوجدت أنها زادت على مائتين وخمسين ثورة في جميع أنحاء العالم الإسلامي .

تلك الثورات والاضطرابات كان سببها ظلم الحكام العباسيين الذين أغرقوا الأرض بالدماء .

تسلم الإمام الهادي أمانة الإمامة وهو صغير السنّ مثل أبيه الإمام الجواد. فالجواد تسلم الإمامة وهو ابن سبع سنين، والهادي كان ابن ست سنين .

لما مات الإمام الجواد أرسل المعتصم العباسي إلى عامله على المدينة كي يختار مؤدباً للهادي . فاختار والي المدينة لتأديب الهادي رجلاً يدعى

(١) سورة النمل؛ الآية : ٣٢ .

الجنيدى . وهذا الجنيدى كان من أشدّ الناس عداوة لأهل البيت، ولذلك وقع اختيار الوالى العباسى عليه . وبعد مدة قليلة سأل الوالى الجنيدى : ما أحوال الغلام الصغير الذى تؤدبه؟؟ قال الجنيدى : وملك . لا تقل هذا الغلام، بل قل هذا الشيخ والمجتهد الكبير!! قال الوالى : بالله عليك، ماذا رأيت منه؟ . . . قال : والله لقد رأيت منه عجباً!! أطرح عليه المسألة فى الفقه فيفرّعها إلى مئات الأبواب . وأسأله عن آية من القرآن فيقرأ الأجزاء كلها . . إنه يحفظ القرآن عن ظهر قلب، ويحفظ السيرة النبوية والأحاديث الشريفة، ويحفظ الأدب . . . فكيف تأتى له ذلك وهو ابن ست سنين؟! إني لأعجب من ذلك!!

ولما علم المعتصم بأمره أمر بلحضاره إلى بغداد ليكون قريباً منه، وبذلك يستطيع الحؤول دون تفشي أمره .

وبعد موت المعتصم عاد الهادي إلى المدينة، وانطلق في تعليم الناس وتربيتهم حتى ذاع صيته فى المدينة وتعلّق به الناس تعلّقاً كبيراً، لما كان من إحسانه إليهم وتعليمهم، ولما رأوا من فضله وعلمه . . وبلغ ذلك المتوكل العباسى فخاف على سلطانه، خاصة وأن بعضهم أوحى إليه بأن الإمام الهادي يعدّ العدة للوثوب على السلطة . فبعث المتوكل إلى المدينة يطلب حضور الإمام الهادي إلى سرّ من رأى . ولما سمع أهل المدينة بالخبر غضبوا وأبدوا استياءهم، وتحركوا يريدون حماية الإمام الهادي . عندها بعث المتوكل برسالة إلى الإمام الهادي يمتدح فيها فضله ومنزلته وعلمه، ويخبره بعزل عبد الله بن محمد عن ولاية الحرب والصلاة بالمدينة لأنه هو الذى كان الواشى بالإمام زوراً وبهتاناً . وذكر فى الرسالة أيضاً أنه أمر الوالى الجديد بتبجيل الإمام ومعرفة حقه . ثم سأل المتوكل الإمام الهادي أن يحضر إلى سامراء بمن يريد من أهله وعياله وخاصته ليكونوا فى غاية الإكرام بالقرب من الخليفة، ليتنفع الخليفة بعلمه وفضله وشرف انتسابه

وهكذا حضر الإمام إلى سامراء . . ولكن هذا لا يعنى أن الإمام صدّق

مقالة المتوكل. فالمتوكل هذا كان من شرار بني العباس؛ فهو الذي حرث قبر الحسين سبع عشرة مرة ومنع الناس من زيارته... وهكذا كان شأن حكام بني العباس جميعاً، إذ كانوا يعيشون في حالة رعبٍ مستمرة من الأئمة عليهم السلام، لأن الأئمة من أهل البيت كانوا يذكرون الناس ما بين كل مطلع شمس وغروبها بظلم العباسيين وعسف الولاة، وكانوا فوق ذلك يقدمون للناس النموذج الأمثل للإمام القائد العادل.

ومع ذلك كله فقد كان المتوكل يتظاهر بإجلال واحترام الإمام الهادي ولم يستطع أن يجاهر بشيء ضده. وكان المتوكل أيضاً يرجع إلى الإمام الهادي في كل معضلة شرعية أو فتوى.

وقد أقام الإمام الهادي بسرّ من رأى عشرين سنة يعلم الناس ويهديهم ويرشدهم ويبيّن لهم طريق الإسلام الصحيح. وكان يقول للفقراء: تلك أموالكم عند المتوكل...

جاءه رجل يوماً وقال له: سيدي، والله عليّ دين ولا أستطيع الوفاء به! ولاني جئت أطلب منك المساعدة!... قال له الإمام: أنا الآن لا أملك شيئاً، ولكن أستطيع أن أعطيك كتاباً بأن لك في ذمتي ثلاثين ألف دينار، فإذا كنت في مجلس المتوكل تدخل علينا وتطالبني بالدين!... وبالفعل دخل الرجل إلى مجلس المتوكل وطالب الإمام بدينه أمام الحاضرين، فاضطر المتوكل أن يدفع للرجل مبلغ ثلاثين ألف دينار، فأخذها الرجل ومضى...

وكان المتوكل يرجع إلى الإمام في المشكلات التي تعترضه. فقد كان للمتوكل نديم نصراني يحبّه كثيراً ويكنّيه بأبي نوح. فاعترض الفقهاء على هذا الأمر وقالوا إنه لا يجوز أن يُكنّى نصراني بأبي نوح. احتار المتوكل في الأمر وعرض مشكلته على الإمام الهادي. فكان جواب الإمام الهادي أن كتب على ورقة: «بسم الله الرحمن الرحيم، قال الله العظيم: ﴿تَبَّتْ يُدَا أُمِّي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾». ثم أرسل الورقة إلى المتوكل...

وهذا يعني أن التكنية تجوز على الكافر، لأن أبا لهب كان كافراً، والله

سبحانه وتعالى كنَّاه فقال: «أبي لهب» ولم يقل مثلاً: «تُبَّت يدا الحكم...». . .
 فإذا كان الله يَكْنِي الكافر فلماذا لا تَكْنِي أنت هذا النصراني.

ومرض المتوكل يوماً مرضاً شديداً فنذر أنه يبذل أموالاً كثيرة من الدنانير والدرهم إذا شفي من مرضه. وشفي المتوكل من مرضه وكان عليه أن يفي بالنذر. ولكن الأموال الكثيرة ماذا تعني؟.. جمع الفقهاء وسألهم، فقالوا: هذا يعني أن عليك أن تبذل جميع أموالك... فقال المتوكل: هذا أمر مستحيل ولا يمكن أن أقدم عليه.. ثم أرسل المتوكل إلى الإمام يسأله في ذلك، فكتب الإمام على ورقة: «تدفع ثلاثة وثمانين ديناراً وثلاثة وثمانين درهماً»... ولما سئل الإمام عن هذا الاجتهاد وعلى أي أساس كان؟ قال: إن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾^(١) ولقد أحصينا المواطن التي نصر بها الله رسوله فوجدناها ثلاثة وثمانين موطناً، وهكذا فإن الكثرة تبدأ من هذا العدد فما فوق.

فضيلة المجالس الحسينية

هؤلاء هم أهل البيت عليهم السلام، فإن مشاكلنا تحلّ عندهم. ولقد كان الإمام الهادي عليه السلام يدعو الناس لعمل الخير ويدفعهم للدعاء والزيارة، وخاصة زيارة جدّه الحسين عليه السلام.

فإن النار ليس تَمَسُّ جسماً عليه غبارُ زوّار الحسين

رأيتُ والدي، رحمه الله، في ليلة من الليالي وهو يبكي، فسألته عن سبب بكائه، فقال: رأيتُ رؤيا في منامي أفزعتنني وأظهرت لي عظمة الحسين وفضيلة إحياء ذكره... رأيت جماعة قد جيء بهم ووضعوا في حجرة فرشت أرضها بالزفت المغلي. وكانوا يصرخون من الألم. ورأيت معهم واحداً تذكرت أنه حضر مرة مجلس الحسين وصعد المنبر وقرأ قصيدة في ذكر الإمام

(١) سورة التوبة؛ الآية: ٢٥.

الحسين... وفجأة رأيت في المنام أن بعض الملائكة يتقدمون من هذا الشخص ويقدمون له كرسيًا. ليجلس عليها حتى لا تحترق قدماء... فسألتهم عن السبب في اختصاص هذا الشخص بالكرسي، فقالوا: كرامة للحسين!!...

ويروى أيضاً عن كرامات الحسين عليه السلام أن «فطرس»، وهو أحد الملائكة، تلكأ في الاستجابة لأمر من أوامر الله، فغضب الله عليه وحطم أجنحته. ثم بقي هذا الملاك آلاف السنين معلقاً في جزيرة من الجزر... وفي ليلة مولد الحسين رأى فطرس أفواجاً من الملائكة تهبط من السماء للسلام على رسول الله، فسأل جبريل: يا جبريل، هل قامت القيامة؟ قال: لا، ولكن وُلد الحسين!... قال فطرس: إذا خذني معك يا جبريل، لعل الله يشفع لي بكرامة مهد الحسين... جاء به جبريل إلى مهد الحسين، وقربه منه حتى مسّت أجنحته المهد، فعادت إليه أجنحته وطار يصفق بها إلى السماء... سأله الملائكة: ما بالك يا فطرس تطير فرحاً؟ قال: من مثلي وأنا عتيق الحسين!!

لمهدك آياتٌ ظهرنَ لفطرسٍ وآيةٌ عيسى أن تكلم في المهدِ
فإن فاز في أمٍ فأنت ابنُ فاطمٍ وإن فاز في مهدٍ فأنت أبوالمهدِ

وقد كان الإمام الهادي يدعو الناس لزيارة الحسين ويقول: «من زار الحسين عارفاً بحقه كتب الله كذا وكذا حجة وعمره».

لذلك فإن أصحاب الحسين العارفين بحقه كانوا يتسابقون للقتال بين يديه، طالبين الشهادة بنفوس مطمئنة... حبيب بن مظاهر، مسلم بن عوسجة، برير وزهير، كل واحد منهم كان يتقدم ليأخذ الإذن بالقتال دون الحسين عليه السلام... استشهدوا واحداً تلو الآخر، وبقي الجندي الأخير: عبد الله الرضيع! هذا الذي يسلم عليه الإمام الحجة في زيارة الناحية المقدسة ويقول: «السلام على عبد الله الرضيع، المرمي الصريع، المتشخط دماً، المصعد بدمه إلى السماء، المذبح في حجر أبيه الحسين»... لعن الله قاتله

حرملة بن كاهل الأسدي وذويه... الإمام الحسين حمل طفله الرضيع وتوجه به نحو القوم ليسيقيه شربة ماء، فقتلوا الطفل على صدر أبيه!!!...

ورحم الله السيد حيدر الذي قارن في شعره بين أم الحسين التي عاد إليها ولدها مقتولاً، وبين أم إسماعيل التي وجدت الماء ينبع من تحت رجلي ابنها، وأم موسى التي ألفت ابنها في اليم فعاد إليها سالماً... يقول:

ورب مرضعةٍ منهنّ قد نظرت	رضيعها فاحصَ الرجلين في التّربّ
تشوَّط عنه وتأتبه مكابدةً	من حاله وظماها أعظم الكُربِ
فقل بها جر إسماعيل أحزنها	متى تشطُّ عنه من حرّ الظما كُوبِ
وما حكتها ولا أمّ الكلّيم أسيّ	غداة في اليمّ ألقته من الطلّبِ
هذي إليها ابنها قد عاد مرتضعا	وهذه قد سُقي بالبارد العذبِ
فأين هاتان ممن قد مضى عطشا	رضيعها ونأى عنها ولم يؤبِ
بل أب مذاب مقتولا ومتهلا	من نحره بدمٍ كالغيث منسكبِ



لما أحضروا حرملة بن كاهل، لعنه الله، إلى المختار الثقفي، قال له المختار: يا حرملة، ويحك! أما رُقّ قلبك لهذا الرضيع؟... قال: بلى رُقّ قلبي له!... قال: متى؟.. قال: كان الرضيع مغمى عليه من شدة الظما، وكان نائماً على صدر أبيه الحسين... وضعت السهم في كبِد القوس ورميت الرضيع، فوقع السهم في نحره وذبحه من الوريد إلى الوريد!.. ولما أحسَّ الطفل بحرارة السهم رفع يديه وعانق أباه الحسين، وصار يرفرف كأنه الطير المذبوح!... يقول: هنا تحرّك قلبي له ورقاً!!

قال له المختار: قاتلك الله يا حرملة.. أهكذا تبلغ بك القسوة!!!...

إلهنا تقبّل أعمالنا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الإمام العسكري،
رائد الحضارة.

الإمام الحسن العسكري عليه السلام^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمکنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾^(٢) - ﴿واقموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون﴾^(٣).

لقد سبق وتحدثنا عن الإسلام الحق كما يعرضه القرآن الكريم والرسول الأكرم ﷺ من خلال الأربعة عشر معصوماً عليهم . أما موضوعنا اليوم فهو مضمون الآيتين المباركتين (٥٥ و ٥٦) من سورة النور. إن الله تعالى يعد الذين آمنوا منّا وعملوا الصالحات بأن يستخلفهم في الأرض. وهو يؤكد وعده، وفي القرآن وعد ووعد، وعد بالجنة والثواب، ووعد بجهنم والعقاب. وقد استهلّت الآية الأولى بالوعد لأنها تخاطب المؤمنين، ولو كانت تخاطب

(١) ألفت هذه المحاضرة في الثاني من صفر سنة ١٤٠٩ هـ .

(٢) سورة النور؛ الآية : ٥٥ .

(٣) سورة النور؛ الآية : ٥٦ .

المشركين لبدأت بالوعيد كما في «براءة» التي بدأت وبدون بسملة، بقوله تعالى: «براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين». وفي قوله تعالى: «وعد الله الذين آمنوا منكم» خطاب للذين آمنوا دون غيرهم. وفي آيات أخرى كثيرة لا يقول «منكم» لأنه أراد بهذه الآية أن يخاطب القلة المؤمنة وليس الكثرة الغوغائية. «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله»^(١). ولا بد أن يترجم الإيمان إلى عمل صالح ليتحقق وعد الله. ووعد الله ثابت، لأن الله لا يخلف وعده وهو يؤكد ذلك بالمؤكدات من لام التوكيد إلى نون التوكيد الثقيلة إلى صيغة المضارع، فإذا أضفنا إلى ذلك أن الوعد هو وعد من الله كان لدينا أربعة تأكيدات، ثم يقول جلّ القائل «كما استخلف الذين من قبلكم». إذن إنها سنة الله في عباده. فمن نصر الله نصره الله وأظهر دينه على الناس أجمعين. ويمضي عز وجلّ في تأكيده لوعده فيقول: «وليمكّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم». وفضلاً عن التوكيد مجدداً بلام التوكيد، فهناك كلمة «الذي» التي تحدّد شيئاً معيّناً مقصوداً بعينه، وهذا نظير قوله تعالى: «أفرايتم الماء الذي تشربون أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون»^(٢). فكلمة «الذي» في هذه الآية تعني ماءً محدداً هو الماء السائغ للشرب وليس كلّ ماء.

فما هو الدين الذي ارتضاه الله تعالى لنا؟ لا شك أنه الإسلام الحقيقي؟ والإسلام الحقيقي هو الذي ارتضاه الله لنا في يوم الغدير حيث قال: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً»^(٣). وفي يوم الغدير بالذات كان حديث الرسول ﷺ في موالة علي بن أبي طالب عليه السلام. إذن فالإسلام الحقّ الذي ارتضاه الله لنا لا يكون إلا بولاية الإمام علي عليه السلام. ولعل إدراك العلاقة بين قوله تعالى «اليوم أكملت...» وحديث المسألة هو أدق ما في العقيدة الإسلامية. والإسلام الحقّ الذي

(١) سورة البقرة؛ الآية: ٢٤٩.

(٢) سورة الواقعة؛ الآية: ٦٨ - ٦٩.

(٣) سورة المائدة؛ الآية: ٣.

ارتضاء الله لنا سيعمّ العالم بهديه ونوره، يوم يخرج الإمام المهديّ (عج) ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً.

الإمام الحسن العسكري عليه السلام

يهيئ عليه السلام للإمام المهديّ (ع)

الإمام أبو محمد الحسن العسكريّ ، هو الإمام الحادي عشر ، والإمام المهديّ (عج) من نطفته الطاهرة. ولنفهم مسألة المهديّ المنتظر لا بدّ أن نفهم حديث الرسول ﷺ بهذا الخصوص، وهو حديث موجه إلى جميع المسلمين على حدّ سواء. وهذا ما سنعرض له في محاضرة لاحقة إن شاء الله.

إذن إنّ الدين الذي ارتضاءه الله لنا هو الإسلام الحقّ، والإسلام الحقّ لا يكون إلّا بولاية عليّ عليه السلام وعموم أهل البيت. وإذا رضي الله لنا هذا الدين! إنما يبدّلنا من بعد خوفنا أمناً ﴿وَلِيبدّلنهم من بعد خوفهم أمناً﴾ فالإسلام الحقّ هو دين الأمن والأمان والطمأنينة والسعادة. ولكنّ الله تعالى يبدّلنا من بعد خوفنا أمناً عندما نعبده ولا نشرك به شيئاً. ﴿يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾ والعبادة تكون بالقلب قبل اللسان. شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله، هي لفظة لسان إذا لم تنبع من القلب والعقل. قال الإمام الحسين عليه السلام: «... فالناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما درّت معاشهم، فإذا مُحُصوا بالبلاء قُلُ الدّيانون». شهادة أن لا إله إلّا الله عقيدة، وشهادة أن محمداً رسول الله تطبيق لهذا العقيدة، وتطبيق هذه العقيدة يعني الالتزام بالشرعة الإسلاميّة القائمة على ركيزتين أساسيتين هما كتاب الله وسنة الرسول وأهل البيت عليهم السلام. فهل يتقيد جميع المسلمين بهاتين الركيزتين الأساسيتين؟ أم أنّ هناك من يرسم الإسلام على هواه؟.

بعد هذه المقدّمة نأتي للحديث عن الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام. وهو واحد من الأئمة الطيّبين الطاهرين، حجج الله على الأرض. ولذلك نخطبهم في زيارتنا لهم بالقول: «أشهد أنكم كنتم نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة». وتخطب الواحد منهم بالقول: «أشهد أنّك نور الله في

ظلمات الأرض» .

لقد لقب الإمام الحسن بن الهادي بالعسكري ، نسبة إلى سامراء التي كانت تدعى العسكر .

وُلد الإمام حسن العسكري سنة ٢٣٢ هـ . وجاء مع أبيه إلى بغداد وعمره سنتان ، وقتله المعتمد العباسي ولمّا يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره . ومعظم الأئمة عليهم السلام قضوا شباباً ، والإمام جعفر الصادق عليه السلام وحده ذرّف على السبعين .

في أيام الإمام العسكري كانت الأرض مستعلة بالفتن والحروب ، وكانت السلطة العباسية مهترئة متداعية وما أسموهم خلفاء كانوا العوبة بيد المتنفذين الأتراك وقد صحّ فيهم قول أحد الشعراء :

خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالاً له كما تقول الببغا

(وصيف وبغا من المتنفذين الأتراك) . واشتعال الحروب والفتن في الأرض الإسلامية إنّما كان بإرادة الله تمهيداً لولادة الإمام المهدي (عج) الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً . ولعلّ أشرس تلك الفتن التي استعرت يومذاك فتنة صاحب الزنج في البصرة . هذه الفتنة ، وبأسلحة بدائية أودت بحوالي مليون مسلم ، وهذا رقم ضخم جدّاً بالنسبة لتلك الأيام ، ولم يكتف صاحب الزنج بسفك الدماء بل قرنه بهتك الأعراض وتدمير البيوت على رؤوس أصحابها . وفي أيام الفتنة هذه أقدمت السلطة على سجن الإمام العسكري ، والسجن ليس أمراً نادراً في حياة الأئمة المعصومين ، فأربعة منهم أدخلوا السجن ، الإمام جعفر صادق سجن مع ولده موسى ، ثم سجن الإمام موسى لمدة عشرين عاماً ثم الإمام الهادي ثم الإمام العسكري عليهم سلام الله أجمعين ولهم أسوة حسنة ليوسف الصديق عليه السلام .

بينما كانت فتنة صاحب الزنج تحرق الأخضر واليابس في البصرة ، جاء المهدي إلى السلطة ، وقد أظهر النسك والتدين وأراد أن يوهم الناس بأنّه

صورة ثانية لعمر بن عبد العزيز . ولكنّ الناس عرفوا نفاقه وخيانتة عندما أمر بحبس الإمام العسكري عليه السلام . ووكل به في السجن عليّ بن أتابش وأوصاه أن يضيّق عليه ، وابن أتابش هذا لم يكن بحاجة للتوصية ، فهو من الأتراك الغلاظ القساة ، وقد عُرف عنه عداؤه الشديد لأهل البيت .

ولكنّ ما حدث بعد ذلك يثير العجب ، فقد تحوّل ابن أتابش من النقيض إلى نقيضه ، فصار دأبه تمرغ ناصيته وجبهته وخدّيه بالتراب الذي يدوسه الإمام العسكري عليه السلام . فقالوا له : « وملك ماذا حدث لك ؟ ! فقال : إنكم لا ترون ما أرى . فقالوا : وماذا ترى . . ؟ قال : « أني أرى العجب العجيب من هذا العبد الصالح ، أرى النور يشع من وجهه فيضيء ظلمات وغياب السجن ، وأشعر أنّ الجدران تبكي لصوته عندما يقرأ القرآن ، فلم أتمالك نفسي حيال نوره وهيبته وإيمانه وقد هداني الله إلى ما ترونه » .

فلما علم المهدي بذلك استبدل عليّ بن أتابش بصالح بن وصيف ، وكان هذا لا يقلّ عن أبيه الذي أسلفنا ذكره غلظة وشراسة ، فالقى بالإمام العسكري في زنزانه لا يعرف فيها الليل من النهار ، ووكل به شرطيّين من أقسى وأشرس خلق الله ، وأمرهما بأن يمنعا عنه الطعام والشراب ما أمكن ذلك ، بعد أسبوعين جاء بعض العباسيّين إلى صالح بن وصيف وسألوه قائلين : ماذا صنعت بابن الرضا ؟ (وابن الرضا تطلق على ثلاثة من الأئمة هم الجواد والهادي والعسكري) ، قال : لقد وكلت به اثنين من شرّ خلق الله ، ولكنهما وبعد عشرة أيّام تحوّلوا إلى الصلاة وقراءة القرآن وقد غلبت الوداعة عليهما وبدا نور الإيمان في وجهيهما ، فماذا أصنع ؟ قالوا : « لا شك أن ابن الرضا هذا ساحر » . فقال ابن وصيف : هذا قول لا يقبله الناس ، فقد اتّهم المشركون جدّه رسول الله بالسحر قبل أن يتّهموه ، ثم استدعى الشرطيّين الموكّلين بالإمام العسكري وسألهما قائلًا : ويل لكما ماذا صنع بكما ابن الرضا ؟ فقالا : ماذا تقول في رجل يصوم نهاره ويقوم ليله ، ولا يتشاغل في سجنه إلّا بعبادة الله وذكره . ماذا تقول في رجل ترتعد الفرائص لهيبته ويخفق القلب لدعوته ؟ لقد دخل الإيمان إلى قلوبنا عن طريقه . ف شعرنا أن الله يريد أن ينقذنا ببركاته ، وسواء تركتمونا معه أم أبعدتمونا عنه . فنحن مخلصون له أشدّ الإخلاص ،

مستعدون أنتم الإستعداد للتضحية بأنفسنا في سبيله.

أيها الاخوة والأبناء شيوخاً وشباباً، إنني لا أسرد وقائع تاريخية، وإنما أضع الوقائع التاريخية أمام أعينكم وفي مسامعكم لتعرفوا شخصية الإمام الحسن العسكري عليه السلام وكيف أثر على شر خلق الله بهديه ونوره. ومن هنا نفهم لماذا كانت السلطات العباسية تعزل الأئمة وتحول بينهم وبين الاتصال بالناس ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

الإمام الحسن العسكري عليه السلام والفيلسوف الكندي

لقد نشطت حركة التأليف وازدهرت الكتابة في أيام الإمام الحسن العسكري عليه السلام، وكان عليه السلام يشجع على الكتابة قائلاً: «اكتبوا فلنكم لن تحفظوا العلم إلا بالكتابة، اكتبوا فإن القلب يتكل على الكتابة». وبينما كان رجال السلطة العباسية ومن لف لفهم وارتمى سيرتهم منغمسين في الفسق والفجور والفتن، كان الإمام الحسن العسكري عليه السلام في تلك الأيام العصية، يوجه الناس ويهيء علماء مؤمنين أتقياء يحملون الفكر الإسلامي الصحيح، فكر رسول الله ﷺ وفكر أهل البيت عليه السلام وينشرون الإسلام في أرجاء المعمورة. ولو استعرضتم تلاميذ الأئمة الطاهرين منذ الإمام علي عليه السلام إلى الإمام العسكري عليه السلام لوجدتموهم بالآلاف وقد نقلوا إلى الأجيال والشعوب تراث أهل البيت وفكرهم وما فيهما من هداية وعظمة، فأين وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية التي تتحدث عنهم؟ ولماذا لا نسمع بتفسير الإمام العسكري عليه السلام للقرآن الكريم. هذا التفسير الرائع الذي ينقله العلامة المجلسي في كتابه «البحار». وأكتفي الآن بمثلين من ذلك التفسير المحكم الدقيق. قال الله تعالى: ﴿جعل لكم الأرض فراشاً﴾^(١) - ﴿جعل لكم الأرض ذلولاً﴾^(٢) -

(١) سورة البقرة؛ الآية: ٢٢.

(٢) سورة الملك؛ الآية: ١٥.

وقد فسر الإمام الحسن العسكري عليه السلام ذلك بقوله: «إِنَّ الله جعل الأرض ملائمة لطبائعكم وموافقة لأجسادكم، فلم يجعلها شديدة الحرارة فتحرقكم، ولا شديدة البرودة فتجمدكم، وإنما جعلها بحيث يتمتع عليها الإنسان» تأملوا هذه الدقة في التفسير الذي يرتبط بالعلوم الجغرافية والجيولوجية أشد الارتباط.

يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾^(١). فيفسر الإمام العسكري هذا القول تفسيراً دقيقاً فيقول: «الأمي، المنسوب إلى أمه. فكما يخرج الطفل من بطن أمه وهو لا يعلم شيئاً، لا يقرأ ولا يكتب، فهو أمي نسبة إلى بطن أمه». ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾^(٢). هذان أنموذجان من تفسير الإمام العسكري عليه السلام للقرآن الكريم، وقد ذكرتهما لكم لتدركوا عمق علم أهل البيت وما فيه من درر الفكر الثمينة.

لقد عاصر الإمام الحسن العسكري عليه السلام الفيلسوف الشهير أبو إسحاق الكندي. ومن شأن الفلاسفة أن يجمدوا عندما تصل إليه نظرياتهم وتحليلاتهم لأنهم يعتبرونه نهائياً. ولذلك أخفقوا في قيادة الشعوب. ويُروى أَنَّ الفيلسوف اليوناني سقراط التقى بالنبي موسى عليه السلام فقال له: يا موسى، أصحيح أنك تدعي بأنَّ الروح العليا تحدثك؟ فقال موسى: «بلى». فقال سقراط: «وكيف تحدثك؟ وفي أيَّ الأوقات؟ ومن أيَّ الجهات؟». فقال موسى: «في كلِّ الأوقات ومن كلِّ الجهات». قال سقراط: «صدقت» ثم انصرف. فلو قال موسى: إن الروح العليا تحدثني في وقت ومن جهة محددين لكان قوله باطلاً لأنَّ الله أكبر من الأوقات والجهات.

لقد تأثر الكندي بالفلسفة اليونانية إلى حدٍّ كبير، ولذلك فإنه ادَّعى أن القرآن الكريم مليء بالأخطاء والمتناقضات، وهو بادِّعائه هذا يدلُّ على جموده عند معطيات الفلسفة اليونانية التي غسلت دماغه. فكيف له بعد ذلك أن يفهم

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٨.

(٢) سورة النحل، الآية: ٧٨.

القرآن؟ وفهم القرآن يحتاج إلى قلب مؤمن وعقل متحرّر من المسلّمات الفلسفيّة المسبقة الجامدة. ولو قرأ الكنديّ القرآن على ضوء الفلسفة الإسلاميّة لما وقع في ذلك الخطأ الشنيع. فالفلسفة الإسلاميّة واضحة على ما فيها من عمق ودقّة. لاحظوا مثلاً عندما يعرض القرآن لأدقّ فلسفة في حركة المحرك الأصلي والشامل للكون فيطلق عليه اسم «الكرسيّ» في قوله تعالى: ﴿وسع كرسیه السموات والأرض﴾^(١).

فهل هناك أوضح من كلمة «كرسيّ» في أذهان الناس جميعاً؟ إنّ المفاهيم والعقائد الإسلاميّة واضحة بيّنة، فإذا سمعتم عن الإسلام مفهومًا غامضاً أو عقيدة تثير اللبس، فاعرفوا أنّ ذلك المفهوم وتلك العقيدة لا يمتّان إلى الإسلام بصلة. والشيء بالشيء يذكر. يُروى أنّ فيلسوفاً أراد أن يعبر بحيرة طامية. فركب قارباً يقوده ملاح مسكين يرتزق بنقل الناس في قاربه بين ضفتي البحيرة. بعد قليل التفت الفيلسوف إلى الملاح وقال له: «أتحسن الفلسفة الإغريقيّة؟» فقال الملاح: «لا» فقال له الفيلسوف: «لقد أضعت معظم حياتك سدى». فحزن الملاح لهذا القول وتابع تجذيفه. بعد برهة سأله الفيلسوف قائلاً: «ولدي، أتحسن علوم المنطق؟ منطلق أرسطو». فقال الملاح: «أنا لا أعرف المنطق، ولكنني أعرف كيف أعبر بك النهر». فقال الفيلسوف: «لقد ذهب معظم حياتك سدى، وموتك خير من حياتك» وتوالى أسئلة الفيلسوف على الملاح: أتعرف المعادلات الثيولوجيّة؟ أتعرف الرياضيات العليا؟ أتعرف البديهيّات الطبيعيّة؟ أتعرف؟.. أتعرف؟ «واستمر الملاح في الإجابة بالنفي. وفي كلّ مرّة يعلّق الفيلسوف قائلاً: «لقد ذهب معظم حياتك سدى، وموتك خير من حياتك». فلمّا وصلا إلى وسط البحيرة هبّت عاصفة هوجاء، فتلاطمت الأمواج، وتدفقت المياه إلى داخل القارب المترنّح على هدير الرياح وزمجرة

(١) سورة البقرة؛ الآية: ٢٥٥.

الأمواج. وأخذ الملاح والفيلسوف يحاولان إفراغ الزورق من المياه. ولكن جهودهما ذهبت سدى وبدأت اللجة في ابتلاع الزورق. فالتفت الملاح في هذه اللحظة الحرجة وسأل الفيلسوف قائلاً: هل تحسن السباحة يا مولاي؟ فقال الفيلسوف، «لا» فقال الملاح: «لقد ذهبت كل حياتك سدى» ثم قفز إلى الماء، وبينما كانت اللجة تبتلع الزورق والفيلسوف، كان الملاح يسبح بمهارة ودراية نحو شاطئ السلامة، قلنا أن الكندي كان واقعاً تحت تأثير الفلسفة اليونانية وتنظيراتها ومسلّماتها الجامدة. وتحت هذا التأثير ألف كتاباً في متناقضات القرآن، وكان العالم الإسلامي يعاني من الفتن والاضطراب وتسلط الأتراك أشدّ المعاناة. وكان الإمام العسكري محاطاً بجلاوزة السلطة التي جهدت في منع الناس من الاتصال بالإمام وفي التعتيم على الفكر الإسلامي عامّة وفكر أهل البيت خاصّة. في هذا الجو وفي هذه الظروف يؤلف الكندي كتاباً في متناقضات القرآن مستشهداً بآيات لم يفهمها على حقيقتها. وصل الخبر إلى الإمام العسكري عليه السلام. فاستدعى رجلاً من مريديه وخواصه وقال له: اذهب حالاً إلى أبي إسحاق الكندي، هذا الفيلسوف الأبله الذي لا يعرف أيّ طرفيه أطول، وقل له: «ألا تعتقد أن الله سبحانه وتعالى ربّما قصد في كلامه معاني غير المعاني التي استنتجتها أنت؟». فذهب الرجل فوراً إلى الكندي ونقل إليه سؤال الإمام. فأطرق الكندي برأسه إلى الأرض، وبعد أن فكّر ملياً رفع رأسه وقال: «نعم، أعتقد أن الله ربّما أراد معاني غير المعاني التي استنتجتها». فقال له الرجل: «إذن تخلّص من كتابك ولا تفصح نفسك أمام الناس». فقال الكندي للرجل: «قل لي من علّمك هذا الكلام؟» فقال الرجل: «إنه من عندي». فقال الكندي: لا، هذا كلام من أجرى الله على ألسنتهم نور الحكمة، هذا ليس بكلام إنسان عاديّ، بل هو كلام عالم كبير، قل لي من هو؟ قال الرجل: «إن أخبرتك من هو صاحب هذا الكلام، فهل ترضى به؟». فقال الكندي: «إي والله أرضى به». فقال الرجل: هذا كلام سيدي الإمام أبي محمد الحسن العسكري. فقال الكندي: «فذلك هو الحق». ثم قام فجمع أوراق كتابه وأحرقها.

تصوّروا العواقب الفظيعة لكتاب الكندي، لو لم يتدارك الإمام العسكري الأمر لكان هناك أتباع للكندي يقولون بمذهب يرمي القرآن الكريم بالخطأ والتناقض . والله وحده يعلم الفتن التي يجرّ إليها هذا الزعم الباطل . والله وحده يعلم سيول الدماء التي حقنها الإمام العسكري بقطعه حجّة الكندي وبعبارة واحدة .

من جوامع الكلم التي قالها الإمام الحسن العسكري عليه السلام

إن علم الإمام الحسن العسكري المستمدّ من القرآن ومن سنة الرسول وأهل البيت عليهم السلام . فاض على لسانه جوامع كلم تشكّل بعدّها ذاتها نظريّات في علوم الاجتماع والسياسة والاقتصاد والنفوس .

مما قاله عليه السلام:

«ما أقبح بالمؤمن أن تكون له رغبة تذلّه». فالمؤمن حقّاً ينزّه نفسه عن الرغبات التي تذلّه وتقتل العزّة في نفسه. ﴿وَاللَّهُ الْعَزِيزُ الْمُرْسِلُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) - والذلّ بمعنى اللين والتعاطف له موضعه. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَهْزَأَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٢). ويقول جلّ من قائل في أمره بالمعروف مع الوالدين. ﴿وَاخْفَضْ لَهَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾^(٣).

● - «جعلت الخباثت في بيت وجعل الكذب مفتاحها». فالكذب مفتاح كلّ الخباثت. ولعلّ الكذب في الأسرة هو أخبث الكذب، بل هو جريمة لا تغتفر، لأن الأب الكذاب يعلم أبناءه على الكذب، كما يشجّع زوجته عليه. وفي ذلك ما فيه من خطر على سلامة العلاقات والمصالح الفردية

(١) سورة المنافقون؛ الآية: ٨.

(٢) سورة المائدة؛ الآية: ٥٤.

(٣) سورة الإسراء؛ الآية: ٢٤.

● - «إذا وعدتم الصبيان فأوفوا لهم». فعلى الإنسان أن يفي بوعده

حتى ولو كان الوعد لصبي. فما بالك بالوعد والعهد التي يقطعها للكبار؟ فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾^(١) - وكثيراً ما لا يأبه الكبار بوعودهم للصغار، لأنهم يعتبرون الإخلاف بهذه الوعود أمراً بسيطاً. كم من أب طلب إلى ولده الصغير أن يلبس ثيابه الجديدة ليصطحبه في سفر أو نزهة أو زيارة، وبينما يشغل الولد بإعداد نفسه، يتسلل الأب من البيت وكأن شيئاً لم يكن. يأتي الولد وقلبه جلدان فرحاً، ولكنه يجد أن أباه قد مضى إلى شأنه. فنصّروا الإحباط الذي يصيب هذا الولد، وتصوروا إلى أي مدى تهتز مصداقيته أبيه في نفسه. علماً بأن الأب هو المثل الأعلى لولده في الصدق والوفاء والتضحية. وهناك ما هو أمرٌ وأدهى. قد يُطلب الوالد على الهاتف، أو يسأل عنه طارق، ويكلّ بساطة يطلب هذا الوالد إلى ولده أن ينفي وجود أبيه في البيت. فيقع الولد في حيرة من أمره، كيف يقول أن أباه غير موجود في البيت وهو يراه ويكلّمه، فهو موجود؟! وهذا الموقف يشكّل ضغطاً هائلاً على نفسيّة الطفل، الذي يقف ممزّقاً بين فطرته الخيرة التي تلحّ عليه في الصدق، وبين أوامر أبيه بالكذب. ولكنّ خوفه من أبيه يدفعه إلى الكذب. فيردّ على الهاتف أو على الطارق بالقول: «أبي غير موجود». وهكذا يكون الأب قد عوّد ولده على الكذب من حيث لا يحتسب. هذا في الكذب مع الصغار، أمّا الكذب مع الكبار فإنّه وكما هو معلوم، سبب لمأس ومشاكل تكاد لا تحصى. وكما تشغل المحاكم في قضايا الافتراء والتزوير وإنكار التوقيع وما شاكل؟ فلا تكذب على أحد، صغيراً كان أم كبيراً، قريباً لك أو غير قريب. فالكذب حرام إلا في معنى خير. كأن تسعى في مصالحة، فلك لتحقيق هذه

(١) سورة الإسراء؛ الآية: ٣٤.

المصالحة، أن تنسب إلى الطرفين قولاً لم يقوله ولكن من شأنه أن يقرب بينهما وبالتالي يزيل ما بينهما من جفاء وبغضاء، فيلتقيان ويتصافيان ويتصالحان. وفي غير ذلك، فإن الكذب، وكما قال الإمام العسكري عليه السلام مفتاح الرذائل، فعلى المؤمن أن يكون صادقاً شجاعاً، يقف مسؤولاً عن كلمته، ملتزماً بوعده وعهده.

● - «أشدّ الناس حسرة الحقود». فالحقود في عذاب نفسي دائم، والحقّد أشجع من الحسد، والعياذ بالله. فالحقود لا ينام الليل إذا رأى نعمة على غيره، وكثيراً ما يدفعه الحقّد إلى إفساد سعادة الآخرين وإتلاف أو تخريب ممتلكاتهم. يُروى أنّ رجلاً كان في زيارة لذي نعمة، وقد استقبل هذا الزائر في قاعة مفروشة بالسجاد الفخم. وقبل أن يحضر صاحب البيت لاستقبال الزائر، لاحظ الخادم أن الزائر قد أخرج من جيبه سكّيناً وراح يمزّق السجادة التي جلس عليها. فذهش الخادم لذلك وسأل الزائر عن سبب تصرفه المستنكر. فقال له الزائر: «لم أستطع تحمّل رؤية هذه السجادة عند غيري وأنا لا أملك مثلها». إنّ المؤمن حقّاً لا يكون حقوداً لأنّه يحبّ الخير لكلّ من يستحقّ الخير، وليس أحلى على قلب المسلم المؤمن من أن يرى جميع المسلمين المؤمنين في نعمة من الله ورضوان، وفي هذا يقول الإمام العسكري عليه السلام :

● - «من الخير أن تحمل الخير لكلّ الناس».

وكما عالج الإمام العسكري عليه السلام الحقّد، فإنّه تصدّى لمرض نفسي آخر هو البخيل مستدلاً بقول جده الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام : «عجبت للبخيل، يستعجل الفقر الذي منه هرب، ويفوته الغنى الذي إياه طلب، فيعيش في الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء». أي أنّ البخيل يهرب من الفقر فيقع فيه. والغنى بعيد عنه بالرغم من الأموال التي يملكها، لأنّه لا ينفقها في سعادة الدنيا ولا في سعادة الآخرة.

ومن ينفق الساعات في جمع ماله
مخافة فقر فالذي فعل الفقر

والإنسان مفطور على الحرص والحذر، والتريه والوراثه، إمّا أن نهذب
هذه الفطرة التي تتطوّر إلى فضيلة الوسط بين البخل والتبذير، وإمّا أن تتأصل
في النفس فتتطور إلى رذيلة البخل والتقتير، كان لحاتم الطائي أخ شديد
البخل، وقد سأل أمّه يوماً عن سرّ هذا التباين بينه وبين أخيه، فقالت له أمّه:
«والله يا ولدي لا أدري، ولكنني أذكر أن حاتماً عندما كان رضيعاً كان يدني
الثدي الذي يرتضعه لأيّ طفل يراه قربه. أمّا أنت فكنت عندما ترضع من أحد
الثديين، تسرع إلى وضع يدك على الثدي الآخر حالما ترى طفلاً آخر قريباً
منك».

لقد عالج الإمام العسكريّ الأمراض التي تنتاب النفس البشريّة، من
بخل وحقد وجبن وحسد، فرأى أنّ هذه الأمراض تستفحل ويعظم شرّها عندما
ينطفئ نور الإيمان في النفس الإنسانيّة. أمّا إذا أضاء نور الإيمان قلب
الإنسان ونفسه فإنّ تلك الأمراض تزول من النفس إلى غير رجعة.

● - «من سمع رجلاً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه، فليس بمسلم».
فالذي يسمع استغاثة مستغيث ولا يغيثه ليس بمسلم.

● - «من نصّح أخاه سرّاً فقد زانه، ومن نصّح أخاه علانيّة فقد شانه».
وفي هذا القول فهم دقيق وعميق للنفس الإنسانيّة. فالنصيحة على رؤوس
الأشهاد تخجل من وجّهت إليه وتحرجه، أما النصيحة في السرّ فإنّها تحفظ
قدره وكرامته وتصون ماء وجهه.

● - «اجلبوا لنا كلّ مودّة، وابتعدوا عنّا كلّ قبيح، كونوا لنا زيناً ولا
تكونوا شيناً». أي حبّوا الناس بنا وكونوا بسيرتكم من مفاخرنا.

● - «تجلسون وتحدّثون، إني لأحبّ تلك المجالس، فأحبوا أمرنا.
رحم الله من أحبّنا أمرنا». فعقد المجالس في ذكر أهل البيت عليهم السلام، وفي

إحياء أمرهم خير وبركة وسعي في مرضاة الله ورضوانه.

● - «حافظوا على النعم بحسن مجاورتها». أي لا تفرطوا بما أنعم الله عليكم.

● - «إنسان ليس فوقهما شيء، الإيمان بالله ونفع الأخوان». لاحظوا كيف قرن الإمام العسكري عليه السلام بين الإيمان بالله ونفع الأخوان. فلا إيمان مع الإضرار بالأخوان.

● - «إذا أردت الراحة والتوجه إلى الله، وأن تكون سعيداً في حياتك، فانظر إلى من هو دونك في الدنيا، وانظر إلى من هو فوقك في الآخرة». بهذا القول العميق الغور عالج الإمام العسكري عليه السلام حالة شخص جاء يشكوه كآبة شديدة يعاني منها. وقد أدرك الإمام بشاقب نظره أن الرجل يعاني ما يعانيه بسبب افتقاره إلى القناعة التي تبعث الطمأنينة في النفس والراحة للبال. فقال له ذلك القول البعيد الغور، وفيه علاج نفسي لكل من يعيش لاهناً وراء حطام الدنيا ويهرجها.

الإنسان في هذه الحياة أمام خيارين: الإيمان بالله وفيه سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة. والإيمان بالمادة وفيه شقاء الإنسان في الدنيا والآخرة. فالذي يؤمن بالمادة وبالرفاه المادي لا يكف عن التطلع إلى من هو أغنى منه وأكثر رفاهاً. إنه لا يقتنع ببيت صغير يملكه بل ينظر إلى القصور وناطحات السحاب، فيعيش لذلك في قلق وشقاء دائمين. أما لو نظر إلى ملايين الناس الجائعين، الذين يعيشون في أكواخ من الصفيح أو القش، فإنه يحمد الله على بيته الصغير المتواضع. إن من يحسن نفسه محروماً لأنه لا يأكل أطيب المأكول ولا يلبس أفخر الملابس، ينسى ملايين الناس من رجال ونساء وشيوخ وأطفال السودان وبنغلادش وباكستان والهند يموتون جوعاً ومرضاً. إن من لا ينظر إلا إلى من فوقه يعيش في شقاء مقيم، لأن فوق كل غني أغنى، وفوق كل قوي أقوى.

هذا على صعيد الدنيا، أما على صعيد الدين فالتنظر إلى الأعلى هو

المطلوب. فعلى من يصلي في شهر رمضان أن ينظر إلى من يصلي فروض الصلاة في أوقاتها، وعلى من يصلي فروض الصلاة في أوقاتها أن ينظر إلى من يصلي النوافل، وعلى من يصلي صلاة الليل أن ينظر إلى من يحيي ليله في الصلاة والتهجد وقراءة القرآن. إن الإمام الحسن العسكري عليه السلام يقول لنا: لا تجعلوا المادة مقياسكم للسعادة. وانظروا في الأمور الدنيوية إلى من هو دونكم تعيشوا في طمأنينة وراحة بال. اجعلوا الإيمان بالله والتوجه إليه مقياسكم في الدنيا والآخرة، وانظروا في الأمور الدينية والإيمانية إلى من هو فوقكم تناولوا رضى الله ورضوانه.

ميلاد الإمام المهدي (عج)

إن أهم ما في حياة الإمام الحسن العسكري عليه السلام أنه هيا لولده المهدي المنتظر (عج). كما هيا الناس لغيته (عج) قال في هذا الصدد: «إن الإمام القادم سيغيب عنكم ولا يخرج إلّا بعد أن تملأ الأرض ظلماً وجوراً، فيخرج ليملاها قسطاً وعدلاً».

وقد بدأ التدبير الإلهي لولادة المهدي. عندما استدعى الإمام الهادي والد الإمام الحسن العسكري عليه السلام أبا هاشم الجعفري وقال له: «يا أبا هاشم، تحرك فوراً إلى بغداد، فتصلها في ضحى الغد إن شاء الله، أقصد نخاساً على الجانب الأيمن من الجسر، تجد عنده أربع جوار، عدّ ثلاثاً واشتر الرابعة. سوف يتردد النخاس في بيعك إياها ويتعلّل بأنها مريضة وغالية الثمن. فادفع له هذه الصرة. وسوف ترفض البنت المجيء معك، فادفع إليها هذا الكتاب». فنفذ أبو هاشم ما طلب الإمام الهادي، وروى كيف أنه في سفره من سامراء إلى بغداد لم يصادف أمراً لم يذكره الإمام الهادي عليه السلام. فقد تمنع النخاس عن بيع البنت التي قصد أبو هاشم شراءها، وعلّل رفضه بأنها مريضة وأنها باهظة الثمن. ولكن أبا هاشم أصرّ على شرائها. ولما حدّد النخاس ثمنها دفع إليه أبو هاشم الصرة التي تسلمها من الإمام الهادي، ففكّ النخاس الصرة وعدّ النقود فكان مقدارها مساوياً للثمن الذي طلبه بدون أي زيادة أو

نقصان. فلما طلب أبو هاشم إلى الجارية أن ترافقه رفضت، فدفع إليها رسالة الإمام الهادي، فلما فضتها وقرأت ما فيها جرت دموعها، وبعد أن فرغت من قراءتها قبلتها ووضعتها على رأسها ثم سجدت شكراً لله. فاصطحبها أبو هاشم إلى سامراء حيث زوجها الإمام الهادي عليه السلام من ابنه الإمام الحسن العسكري عليه السلام، ورواية أبي هاشم لا يرقى إليها الشك فهو معروف بصدق إيمانه وشدة تقواه. إن تلك الجارية هي نرجس أم الإمام الحجة (عج). وهي بنت ملك من ملوك الروم. خطبت لابن عمها، وعندما انتقلت إلى الكنيسة لعقد إكليلها وحضر القس والرهبان وكبار القوم هبت على الكنيسة ومن فيها عاصفة شديدة أطفأت الشموع وبعثرت الأثاث، وقد حدث ذلك أربع مرّات دخل بعدها جيش المسلمين إلى أرض الروم وكانت نرجس من أسراه. ماذا كتب لها الإمام الهادي في ذلك الكتاب؟ لا ندري. لعد روت نرجس عن رؤيا صادقة رأت فيها فاطمة الزهراء عليها السلام التي قالت لها: إن زوجك الحسن العسكري ولدي. وسيخرج الله منكما ولداً يملأ الدنيا بنوره.

أيها الأخوة والأباء. إن علم أهل البيت من عند الله ورسوله. وأنا لا أحدثكم عن معجزاتهم، وإنما أحدثكم عن حياتهم الطبيعية، أما باب الحديث عن معجزات أهل البيت فواسع جداً. وإذا كان الناس يتناقلون الأخبار عن كرامات لبعض الناس الصالحاء الأتقياء، فما بالك بكرامات أهل البيت عليهم السلام؟

هكذا تزوّج الإمام الحسن العسكري من نرجس. وفي ليلة منتصف شعبان من سنة ٢٥٥ هـ وكانت ليلة جمعة، أرسل الإمام العسكري في طلب عمته (حكيمه) وهي من معادن العلم والمعرفة وقبرها في سامراء مع قبر نرجس عليها السلام. في تلك الأثناء كانت الفتن والاضطرابات والحروب مشتعلة في كل مكان من الدولة العباسية. وكان الحديث عن المهدي المنتظر الذي سيملا الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً، على كل شفة ولسان. ففضية المهدي المنتظر قضية إسلامية، والإمام زين

العابدين ^{عليه} يصعد على المنبر في الجامع الأموي، والجامعة في عنقه والدماء تسيل منه، فيخطب قائلاً مبشراً: «ومناً مهديّ هذه الأمة». فلما صارت السلطة إلى العباسيين كان هاجسهم الأكبر هو الجبلولة دون ظهور المهديّ المنتظر. لذلك قام المعتمد العباسي فبثّ العيون في كلّ مكان، وزيادة في الاحتياط سجن الإمام الهادي وابنه الإمام الحسن العسكري ^{عليه} فكانت العسكر، حتّى إذا ولد المهديّ قتلوه. ولكنّ الله تعالى أخفى الحمل بالإمام المهديّ كما أخفى الحمل بالنبيّ موسى عليهما السلام.

تقول حكيمة، تساءلت لماذا أرسل الإمام العسكري بطلي؟ فالحمل لا يبدو على نرجس. ولكنّ الإمام أصرّ على بقائي عنده قائلاً: «يا عمّة لا تركينا هذه الليلة، فإن نرجس ستحتاجك قبيل الفجر» فقلت فيم ستحتاجني يا سيّدي؟. فقال: «قبيل الفجر ستلد نرجس حجة الله في الأرض، الإمام المهديّ الذي سيملاّ الله به الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً».

تقول حكيمة، كان الوقت ليلاً، وكان الإمام العسكري في حجرة عالية في الدار، أمّا أنا ونرجس فقد كنّا في صحن الدار، قمت فصليت صلاة الليل. وقامت نرجس فصلت ثم نامت. وكنت أتبع حركاتها فلم ألحظ عليها حبلاً ولم يبد على وجهها وفي تصرفاتها أيّ أثر للمخاض. وبينما كنت أحدث نفسي بذلك، إذا بصوت الإمام العسكريّ يخاطبني قائلاً: «يا عمّة، لا يذهب بك الشيطان، وكوني واثقة من أمر الله، فالأمر كما قلت لك، وستضع نرجس حجة الله قبيل الفجر، فكوني إلى جانبها» فلما سمعت كلامه، قمت فسجدت شكراً لله تعالى، واعتذرت عمّا ساورني من هواجس، وقبيل الفجر قامت نرجس من نومها فأسبغت الوضوء وصليت ركعتين. وبعد قليل جاءها الطلق، فقالت: اسديني يا عمّة، فأسندتها، وبعد لحظات رأيت حجة الله في الأرض الإمام محمّد المهديّ - أرواحنا فداء - يولد مغطى بملاءة من نور، وقد استقبلته الأرض ساجداً لله سبحانه وتعالى.

آيها الأخوة والأبناء، في يوم قريب إن شاء الله، ستسمعون بظهور

المهديّ (عج)، وما ذلك على الله بعزيز، وقد شاء الله أن يورث الأرض لأهل البيت. ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾^(١).

الإمام الحسن العسكري عليه السلام يهبيء لغيبية الإمام المهدي عليه السلام

أولم الإمام العسكريّ وليمة مختصرة تكريماً لولادة المهديّ، وكان قصده إخفاء خبرها ليعود الناس على تقبّل فكرة غياب الإمام، فلأول مرة في تاريخ البشرية يغيب إنسان عن أنظار الناس، وهو معهم يراهم ولا يرونه، ويسمعهم ولا يسمعون، إنه قائم حيّ، لأنّ الله لا يخلي الأرض من حجة، وكلّ صحاح الحديث تأكّد على وجود الإمام المهديّ (عج). . . ويذهب بعضهم إلى القول بأن الإمام المهديّ سيولد في آخر الزمان، وهذا قول مناقض للتاريخ والواقع، فالأئمة اثنا عشر، والإمام الحسن العسكريّ عليه السلام هو الإمام الحادي عشر، فمن سيلد الإمام الثاني عشر وقد مات الإمام العسكريّ عليه السلام ؟

كان للإمام العسكريّ عليه السلام أخ اسمه جعفر، وكان منحرفاً ومعروفاً باسم جعفر الكذاب تميّزاً له عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام. ولا غرابة في أن يكون جعفر الكذاب هذا ابناً للإمام الهادي، فليس لازماً أن يكون ابن الصالح العالم صالحاً عالماً. وشأن جعفر الكذاب شأن ابن نوح. ﴿ونادى نوح ربّه فقال ربّ إنّ ابني من أهلي وإنّ وعدك الحقّ وأنت أحكم الحاكمين﴾. ﴿قال يا نوح إنّك أنت أهلك إنّك عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنّني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾^(٢). وهناك روايات تأكّد أنّ جعفر الكذاب ليس من صلب آل محمّد. وكما يمكن أن ينحرف ابن النبيّ أو ابن الإمام شأن كنعان بن نوح وسأنا جعفر الكذاب، فإن زوجة النبيّ قد تنحرف.

(١) سورة الأنبياء؛ الآية: ١٠٥.

(٢) سورة هود؛ الآيتان: ٤٥ و ٤٦.

والانحراف هنا ليس انحرافاً أخلاقياً بالمعنى المعروف . وإنما يكفي أن تنحاز زوجة النبي إلى أعدائه حتى تكون منحرفة وخائنة . والقرآن يتحدث عن اثنتين من نساء الأنبياء خانتا زوجيهما . ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾^(١) . ويبدو أنّ عملاء السلطة العباسية نجحوا في دس السم للإمام الحسن العسكري عليه السلام . لقد مات الإمام العسكري ، والإمام الحجة غائب . لكن أصحاب الإمام العسكري وهم من أجلة العلماء الأتقياء يعرفون أن صاحب الأمر هو محمد بن الحسن العسكري عليه السلام وقد غيبه والده عن الأنظار ليعود الناس على غيبته . وعندما قام الناس ليصلوا صلاة الجنازة على الإمام العسكري ، تساءلوا عن يؤمهم في الصلاة وهي لا تصح إلا وراء إمام معصوم فهو وحده الذي يحق له أن يصلي على الإمام الذي اختاره الله إلى جواره . وانتهزها المعتمد العباسي فرصة ، فدفع جعفر الكذاب إلى الصلاة على الإمام العسكري ، فكيف يجوز هذا وجعفر الكذاب معروف بانحرافه وبمعاقرته للخمرة . وبينما كان المسلمون مصطفين لصلاة الجنازة ، تقدم جعفر الكذاب ليؤمهم ، وفجأة خرج على الناس صبي في السابعة من عمره ، اختلطت سمرته بالهيبة والجلال والنور ، وانسدل شعره الأسود على كتفيه فزاده هيبة وجلالاً . تقدم بجرأة من جعفر الكذاب وجذبه من ردائه قائلاً : «تأخريا عم ، فأنا أولى منك بالصلاة على أبي» وقد تعمد أن يقول له «يا عم» ليثبت أنه ابن الإمام العسكري عليه السلام . وأنه هو الإمام الحجة الذي سيغيب عن أنظار الناس الغيبة الصغرى فالغيبة الكبرى ، وستحدث عنهما إن شاء الله .

«يا أبطال الصفاء ويا فرسان الهيجاء»

كان الإمام الحسن العسكري يحرص أشد الحرص على إقامة المجالس الحسينية ، شأنه في ذلك ، شأن سائر الأئمة عليهم السلام . وكان لا ينفك عن زيارة

(١) سورة التحريم؛ الآية : ١٠ .

قبر الإمام أبي عبد الله الحسين. وكان يقول: «من زار جدي الحسين عارفاً بحقه أوجب الله له الجنة». وكثيراً ما كان يتحدث عن أصحاب الحسين عليه السلام فيقول: «إنهم خير أصحاب أنجبهم الإسلام» وقد سبقه إلى هذا الرأي الإمام الحسين عليه السلام حين قال: «والله ما رأيت أصحاباً أكرم ولا أعز ولا أوفى من أصحابي». وقد صدق الإمامان عليهما السلام، ويوم عاشوراء خير برهان، فقد أثبت أصحاب الإمام الحسين عليه السلام أنهم حقاً ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلاً^(١). وما كم أيها الأخوة والأبناء صوراً لبعض ما فعله أصحاب الحسين عليه السلام من بطولات وما أقدموا عليه من تضحيات في يوم عاشوراء، وهي غيض من فيض.

مسلم بن عوسجة وهو أكبر أصحاب الحسين عليه السلام يقاتل بين يدي الحسين عليه السلام حتى يخرّ صريعاً، وهو في النزاع لا يظن لأهله وأطفاله عندما سأل حبيب بن مظاهر وصية لهم، بل قال: «يا حبيب، ليس لي وصية بأهل وأطفال ولا بدار وأموال. إنما وصيك بهذا الغريب أبي عبد الله الحسين، أوصيك أن تقاتل دونه، وتبذل نفسك في خدمته، هذه هي وصيتي». ثم أسلم الروح بعد أن ترك وصية لا مثيل لها في تاريخ الاستشهاد.

أنس الكاهلي، كان أيضاً شيخاً طاعناً في السن، كان يعصب حاجبيه عن عينيه ثم يندفع في القتال، دون الحسين عليه السلام.

عمرو (وقيل وهب) بن عبد الله الكلبي كان نصرانياً قبل أن تدركه الهداية ببركات الحسين عليه السلام. وعندما صمّم على أن يكون من رجال الحسين في كربلاء وكان لا يزال عريساً، تصدّت له عروسه قائلة: «إنني حديثة العهد بالزواج، فلا تفجعني بنفسك وتتركني أرملة لا حول لي ولا قوة». إلا أن عمراً لم يأبه لقول زوجته بل اقتحم المعركة بشجاعة وتصميم. وبينما كان في قلب

(١) سورة الأحزاب؛ الآية: ٢٣.

المعركة سمع صوتاً يقول له: «قاتل دون الطيبين، فداك أبي وأمي». كانت يمينه قد قطعت، فحمل السيف بشماله ليدافع عن الدين وعن حُرْم رسول الله ﷺ. التفت إلى ورائه، وإذا به يرى زوجته تحضه على القتال. فقال لها: «ويلك، قبل لحظات كنت تنهيني عن القتال، والآن ها أنت تقاتلين معي؟!». فقالت: «يا عمرو، لا تلمني، إن دعوة الحسين كسرت قلبي». قال عمرو، وماذا رأيت منه؟. قالت: «رأيت بباب الخيمة ينادي قائلاً: «واقلة ناصرا، ألا هل من ناصر ينصرنا».

إن نداء الحسين ﷺ في كربلاء لا يزال يتردد في قلوب المؤمنين وأسماعهم، وسيظل كذلك ما دام في الأرض ظالم ومظلوم وحق مضيع مهضوم.

إن ذلك النداء الذي دفع زوجة عمرو بن عبد الله الكلبي إلى القتال دفع الكثير من الأمهات إلى حمل أولادهن ولو وحيداً والمحيء بهم إلى الإمام أبي عبد الله ﷺ طالبات إليه السماح لأولادهن بالقتال معه، وكُن يقرن له: «أبا عبد الله أتشكل أمك الزهراء بولدها ولا تشكل بأولادنا؟... أبا عبد الله دع أولادنا يقاتلون بين يديك».

في ليلة عاشوراء يقول الحسين -روحي فداء- لأصحابه: «هذا الليل قد غشاكم فاتخذوه جملاً لكم». فيردّ بعضهم قائلاً: أبا عبد الله، كيف نتركك؟ ماذا نقول لجذك رسول الله يوم القيامة؟ ويردّ بعضهم الآخر قائلاً: فلتأكلنا السبع إن نحن تركناك يا بن رسول الله. كيف نتركك ومعك بنات رسول الله والأطفال الصغار من أهل البيت يدورون حولك؟».

وقد عزّ على أبي عبد الله ﷺ أن يرى أصحابه الطاهرين وأهل بيته الأطهار قد انتشروا في أرض المعركة. بين قتيل وجريح، فخطبهم قائلاً: «يا أبطال الصفاء، ويا فرسان الهيجاء، أين حبيب بن مظاهر؟ وأين مسلم ابن عوسجة؟ وأين برير بن خضير؟ يا فلان... ويا فلان... أين أنتم؟ ما لي أناديكم فلا تجيبون، وأدعوكم فلا تسمعون، أنتم نيام؟ أم

حالت مودّتكم عن إمامكم، قوموا من نومتكم أيّها الكرام، وادفعوا عن حُرْم رسول الله هؤلاء الطغاة اللثام. ولكن والله صرّعكم ريب المنون، وغدر بكم الدهر الخؤون، وإلا لما كنتم عن نصرتي تقصّرون، ولا عن دعوتي تحتجبون. فإنا لله وإنا إليه راجعون».

فالتفت إليه الحوراء زينب عليها السلام وقالت : أخي أبا عبد الله، نور عيني، ابن أُمّي، لمن تنادي والحماة على الثرى صرعى ؟ ١.

نعم أيّها الأخوة والأبناء انثر أصحاب الحسين عليه السلام في أرض المعركة قتلى وجرحى دفاعاً عن الحق وإعلاء لكلمة الإسلام.

ما عابهم أنهم في الأرض قد نشروا
فالشهب منشورة مذ كانت الشُّهب

الدولة العالمية فجد ظل
الامام المهدي عليه السلام

الدولة العالمية في ظل الإمام المهدي عليه السلام^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ولقد كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ
الصَّالِحُونَ﴾^(٢)

هذه الآية الكريمة تشير إلى مجموعة من القضايا الهامة؛ هناك أولاً
نقطتان أساسيتان يجب أن نوليها اهتمامنا لتوضّح صورة البحث أمام
أعيننا:

النقطة الأولى: أن الأرض لا بدّ في نهاية المطاف أن يرثها
الصالحون من عباده؛ وهذا الأمر سيحدث لا محالة لأن الله سبحانه أخبر
أنه سيقع في هذه الآية وفي آيات أخرى من كتابه العزيز، منها قوله في
سورة الحج: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ
وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^(٣). وقوله في سورة

(١) أُلقيت هذه المحاضرة في السابع عشر من المحرم سنة ١٤٠٠ هـ .

(٢) سورة الأنبياء؛ الآية: ١٠٥ .

(٣) سورة الحج ؛ الآية : ٤١ .

النور: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾^(١). فالله تعالى لم يخلق الإنسان ليتعذب ويشقى فقط، بل خلقه ثم أرسل الأنبياء تترى ليدلّوه على سبيل الحياة الكريمة دنيا وآخره إن أطلع هذا الإنسان أوامر ربّه ونواهيه؛ وإن لم يُطع هذه الأوامر وأعرض عنها كان مصيره ما نراه الآن في مختلف بقاع الأرض من تسلط الظلمة على مقدراته وأموره. فالإنسان في عالمنا اليوم فاقد الكرامة مسحوق الإرادة مسلوب الحرية، حتّى عقيدته لم يعد باستطاعته أن يمارسها أمام الأَشهاد. قد يقول البعض إن بلداناً عديدة تمارس فيها الحرية بشكل مُرضٍ وكافٍ، ولكن آية حرية يتحدثون عنها؟ هل هي حرية تناول الطعام وتنشّق الهواء؟ نعم قد تكون حرية تناول الطعام - وهي من أبسط ما يمكن التفكير فيه - موجودة في معظم أنحاء العالم، ولكن ليس في كل بقاع العالم، فأنتم تعرفون بدون شك أن ملايين الأطفال يموتون جوعاً سنوياً، وأن هناك أكثر من ٥٠٠ مليون طفل في العالم يبيتون جوعاً كل ليلة في أفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية وغيرها من دول العالم الفقير. وكلنا نسمع ونرى من هذه المآسي ما يقطع نياط القلب ويدفع إلى اليأس من هذا الإنسان الظالم نفسه الذي يتخمد بطنه ويدع أخاه يموت جوعاً. وأكثر ما يدعو إلى الأسف أن نرى قسماً كبيراً من هؤلاء الجوعى في العالم هم من المسلمين، بينما نرى الذهب الأسود يتدفق في معظم البلاد الإسلامية، ونرى تلك الأراضي الشاسعة التي إن زرع قسم صغير منها فقط لأشيع العالم بأسره وليس فقط أفريقيا وآسيا. وأنا لا أتكلّم هنا عن دولة معينة، لأن منطقي هو منطق الإسلام، والإسلام عالمي ليس حكراً على هذه الدولة أو تلك، بل هو ملك لجميع البشر. وإذا تكلمت

(١) سورة النور، الآية : ٥٥.

عن الأراضي الإسلامية فقط فانا أرى ألف مليون مسلم يعيشون فوق أراضٍ زراعية تكفي العالم إن اعتُني بها وزرعت كما هو المفروض أن يحصل. ولكن الذي أراه أنهم لم يزرعوا فلم يحصلوا؛ وقد يتساءل بعضهم : لماذا لا يزرعون؟ أو ما الذي يمنعهم من القضاء على جوعهم بزراعة أرضهم، مع العلم أن الزراعة لا تكلف مجهوداً هائلاً لا مالياً ولا جسدياً؟ أقول لكم: لم يزرعوا لأنهم ليسوا أحراراً، فلو كانوا أحراراً لاكتفوا بتطبيق قانون إسلامي واحد يمكنهم ليس فقط من إطعام أطفالهم بل من تصدير خيراتهم إلى الدنيا بأسرها؛ وهذا القانون الذي أتكلّم عنه ورد على لسان رسول الله ﷺ حيث قال: «من أخيا أرضاً مِيتَةً يملكها بالإحياء، وهذا يعني باختصار أن الأرض لله، ومن يحييها ويعمرها بعد أن كانت جرداء فإنه يملكها بقول النبي الذي لا ينطق عن الهوى. فأنت عندما تزرع أرضاً مِيتَةً، فإنك - حسب القانون الإسلامي - تستطيع أن تسجلها باسمك من دون أن يعترض عليك أحد، شريطة أن تستمرّ بإحيائها، يعني بزراعتها.

الإنسان في عصرنا مسلوب الإرادة والحرية

هذا القانون لو طُبّق في جميع أنحاء العالم، لوجد حلاً ليس فقط للمشكلة الغذائية، بل أيضاً لآلاف مشكلة ومشكلة؛ مشكلة البطالة، مشكلة السكن، مشكلة الحرية الفردية... وغيرها. ولكن جميع هذه المشكلات تجثم على أعناق المسلمين أينما تواجدوا، لماذا؟ لأنهم رضوا بإحلال القوانين الوضعية الكافرة موضع القوانين الإسلامية التي بين أيدينا. القرآن أماننا، فلماذا لا نطبّق شرائعه بحذافيرها؟ الرسول ﷺ قال: «الأرض لله ولمن عمرها» لماذا لم نلتزم بهذا التشريع؟ ألم يقل سبحانه في محكم كتابه: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾^(١) وقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾^(٢)؛ فهل تستطيع

(١) سورة الأعراف؛ الآية: ١٠.

(٢) سورة الملك؛ الآية: ١٥.

يا أخي أن تمشي في مناكب الأرض كما أباح لك الله تعالى؟ الله سبحانه قال في هذه الآية إن الأرض له، فهي بالتالي مفتوحة أمام كل من يرغب في الانتقال في أرجائها، فهل هذا الحق المشروع مؤمن لك أيها المسلم في ظل القوانين الوضعية؟ قد يسمح لك جواز سفرك بالسفر إلى هذه الدولة أو تلك، ولكن هل يمكنك أن تحصل على تأشيرة تسمح لك بالانتقال إلى أي بلد تشاء؟ طبعاً لا! وهذا الواقع المؤلم لا يعيشه المسلم فقط، بل كل إنسان على وجه الكرة الأرضية يشعر أن حريته مُجَهَّضَة، سواء كان مما يسمّى دول العالم الثالث أو من الدول المتطورة صناعياً. وهذا الواقع الذي أسرده لكم لا يستطيع أحد أن يعترض على صحته، لأنكم جميعاً تقرأون عنه يومياً في الصحف والمجلات وتسمعون عنه في الإذاعات، فليس هو من الخيال أو مجرد كلام يُلقى على عواهنه، بل هو حقيقة واقعة.

المهدي المنتظر

هل يبقى الإنسان في هذا الوضع المُزري الذي ذكرناه؟ لا! لأن القرآن يقول: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(١) وَوَعَدُ اللَّهِ حَقًّا. والآية تعني بتعبير آخر أن الأرض سيتولّى قيادتها الصالحون من عباده. فالعالم إذا يتطلّع إلى الخلاص من أزمته، ينتظر منقذاً ينتشله من بؤرة الظلم التي يتخبط فيها. هذا المنقذ هو المهدي المنتظر الذي ركّز عليه الإسلام؛ عَجَّلَ الله تعالى فرجه وجعلنا من أنصاره وأعوانه!.

المهدي المنتظر فكرة إسلامية عامة وليست شيعية فقط

يظنّ بعض الجُهاَل أو المتجاهلين أن فكرة المهديّ المنتظر مختصّة بالشيعية فقط؛ وهذا كلام من لا يعرف شيئاً من الشريعة ولا من التاريخ، ففكرة الإمام المنتظر تضرب بأعماق الإسلام من جذورها، ولا يستطيع أن

(١) سورة الأنبياء ١ الآية : ١٠٥ .

ينكرها أي مسلم يتمتع بقدر قليل من العلم والموضوعية، شيعياً كان أو سنياً. وإذا كان الشيعة يوردون مائة حديث تتعلق بالإمام المهدي، فإن السنة في المقابل يذكرون في صحاحهم ألف حديث عن المهدي المنتظر، وهذه كتب السنة أمامك فانظر فيها إن أردت، تصفح صحيح البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وأبي داود، وابن ماجه، وسنن البيهقي، ومسند أحمد بن حنبل، وموطأ مالك بن أنس، ومسند أبي حنيفة... وغيرها وغيرها من الكتب التي لا تسع الصفحات لاستقصائها. كل هذه الكتب السنية ناهيك عن كتب الشيعة تؤكد أن الإمام المهدي لا بدّ سيظهر وسيقود العالم ويملا الأرض عدلاً بعد أن ملكت ظلماً وجوراً.

المهدي المنتظر فكرة عالمية موجودة لدى كل الشعوب

والمهدي المنتظر، وتعبير آخر المنقذ الذي سيظهر فيحقق شريعة الله في الأرض، ليس فكرة إسلامية فقط، بل هو موجود تقريباً لدى كل شعوب الأرض، والعالم كله ينتظره. قد تختلف التسمية ولكن المضمون واحد «المخلص». اليهود ينتظرونه ويسمونه المسيح الذي لم يظهر بعد (لأنهم أنكروا أن يكون المسيح ابن مريم عليه السلام هو الذي كانوا ينتظرونه، فاتهموه بالرجل وأنه ادّعى أنه هو المنتظر). والمسيحيون بعد أن أرسل عيسى عليه السلام لا يزالون ينتظرون ملكوت الله. والبوذيون يرتلون صلواتهم في معابدهم ويتضرعون لبوذا ليعود إلى الأرض فيطهرها من الدنس والفساد. والشيعيون الملحون ينتظرون مخلصاً - ولست هنا في موقف التقييم للنظرية الماركسية، ولكن فقط أسرد واقعاً - فالشيعيون أنفسهم يقولون بأن طبقة البروليتاريا سوف تنصر وتقود العالم، وهذه الطبقة لا بدّ لها من شخص يقودها، وهذا الشخص لا يُعرف اسمه عندهم ولكنه لا بدّ سيظهر ليحقق المقولة الماركسية. فهؤلاء رغمًا عنهم يعتقدون بالمهدي المنتظر وإن كان

يختلف اسمه وصفته عندهم، كما يختلف اسمه وصفته لدى كل طائفة وكل شعب، ولكن القاسم المشترك بين الجميع هو كونه «مخلصاً» و«منقذاً» وبتعبيرنا «المهدي» و«المتنظر» و«صاحب الزمان». فهذه الفكرة إذن عالمية وليست حكراً على دين واحد أو شعب واحد. وهذه كانت النقطة الأولى التي أشرنا إليها في بداية البحث.

ظهور الإسلام على كل الأديان

النقطة الثانية: إن القرآن الكريم يؤكد أن الإسلام سيظهر على جميع الأديان الأخرى، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾^(١). ووعد القرآن حقاً؛ وهذا يعني أن الإسلام سيلف الكرة الأرضية بنوره وسيعلو على كافة الأديان والمعتقدات الأخرى. ولا يحدث ذلك إلا تحت ظل قائد هو لا شك المهدي المتنظر. فإن الآية لم تتحقق حتى الآن، فلم يظهر الإسلام على جميع الأديان والمعتقدات في كل بقاع الأرض لا في زمن الرسول ﷺ ولا في زمن الخلفاء الراشدين ولا في أي عصر من العصور اللاحقة؛ وهذا يعني أن الله تعالى قدر ظهور الإسلام في زمن آخر، لأن الآية الكريمة أشارت إلى عالم واحد موحد يسوده نظام واحد وتشريع واحد هو نظام وتشريع الإسلام. ﴿ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾^(٢)، ويقول في آية أخرى: ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾^(٣)، وفي آية أخرى: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾^(٤) تأملوا قوله تعالى: ﴿ولو كره الكافرون﴾، ﴿ولو كره المشركون﴾! العالم الآن يتنازع الكفار المشركون، المعسكر الشيوعي الكافر وعلى رأسه الاتحاد السوفياتي، والمعسكر الرأسمالي المشرك وعلى رأسه الولايات المتحدة الأميركية. ومعظم دول العالم تدور في فلك إحدى هاتين

(١) سورة التوبة؛ الآية: ٣٣ وسورة الصف؛ الآية: ٩.

(٢) سورة التوبة؛ الآية: ٣٢.

(٣) سورة الصف؛ الآية: ٨-٩.

الدولتين العظيمين؛ وهذا يعني أن الكرة الأرضية بأسرها اليوم بين قوة الكفر وقوة الشرك. والإمام المهدي سيظهر بإذنه تعالى في هذا الوقت، ليرغم الكفار والمشركين، فيحقق قوله عز وجل بإظهاره على الدين كله ولو كره المشركون والكافرون، فلن يتم الأمر صلحاً أو بالإقناع بل بالإكراه رغماً عن القوتين المسيطرتين الآن. هذه القضية مهمة جداً، والفكرة واضحة لا تحتمل اللبس أو التأويل؛ الإمام المهدي (عجل الله فرجه) سيقود دولة واحدة ذات حكومة واحدة ونظام واحد وتشريع واحد.

كيف يمكن للمهدي عليه السلام أن يكون حياً حتى اليوم

هنا قد يُطرح أمامنا سؤالان يلخصان البحث كله. السؤال الأول: كيف يمكن للإمام المهدي الذي وُلد منذ قرون عديدة أن يستمر حياً حتى يومنا هذا من دون أن تصيبه الشيخوخة أو تناولته يد المنية؟. والسؤال الثاني: كيف يمكن أن تُقام دولة عالمية واحدة ينضوي تحت لوائها آلاف الشعوب المختلفي الألوان والمشارب والمذاهب والملل والعادات والتقاليد؟.

فلنبحث أولاً في مسألة الأعمار، فنقول: ما هي الموانع التي تقف في وجه أن يعمر أحدنا مئات السنين، بل وآلاف السنين؟ فهل يرفض العلم الحديث مثلاً فكرة أن يعيش إنسان أكثر مما هو مشاهد في أكثر الأحوال؟ ثبت بالتجارب والأرقام أن العلم قد توصل إلى إطالة عمر الخلية إلى عشرات السنين بعد أن كانت بعض هذه الخلايا لا تستمر أكثر من ثوانٍ معدودة، وبعضها لا يعيش سوى دقائق أو ساعات. وإذا استطاع العلم أن يطيل عمر الخلايا، فباستطاعته أن يطيل عمر الإنسان بالمحافظة على فيزيولوجية جسمه، لأنه عندما تنهدم وظائف الإنسان الفيزيولوجية تنهدم بنيته؛ فبالمحافظة على الإستمرارية الفيزيولوجية يمكن المحافظة بالتالي على الإستمرارية البيولوجية. وهذا الأمر ليس خارجاً عن إرادة الله. وقبل أن أستطرد في البحث أرغب أن أوضح هذا الجانب بشكل أدق، لأن بعض الأخوة قد يستغرب الأمر ويقول:

الم يقل عز وجل في كتابه: ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(١). نعم هذا صحيح، والآية واضحة ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾، ولكن من قال إن أجْلهم هو ستون سنة أو سبعون أو مائة؟ فالأجل هنا سبق بمقدمات تكون مسببات له، فإذا قادت سيارتك بسرعة ١٢٠ ميلاً في الساعة فهذا يعني أن احتمال تعرضك لحادث قد ازداد زيادة كبيرة، فإذا تعرضت لهذا الحادث فهذا يعني أن أجلك قد حان بسبب لم يكن خارجاً عن إرادتك. وقد لا تأتي أسباب الأجل فجائية ودفعة واحدة كما يحدث في السيارة المنطلقة بأقصى سرعتها، بل تأتي هذه الأسباب أيضاً متراخية فتتراكم على مر الزمن لتسبب في النهاية حلول الأجل، كما يحدث مثلاً عند من يصابون بأمراض غالباً ما تكون بسبب سوء الغذاء أو تناول أكثر مما يحتاجه جسمه من الغذاء؛ يعني أن الموت قد يحدث إما جوعاً أو تخمةً. يقول ألكسيس كارلايل: «الناس يحفرون قبورهم بأسنانهم». وهذا الذي نراه بالفعل. ونحن نرى الطب قديماً وحديثاً يجهد في إيجاد الصفات المناسبة والعلاجات الناجعة للأمراض المختلفة التي تصيب الإنسان، بينما نرى قاعدة واحدة في الإسلام تؤدي - إذا ما طبقت كما يجب - إلى حفظ صحة الإنسان وتأمين الوقاية له من معظم الأمراض المعروفة؛ هذه القاعدة هي التي تقول «كلوا واشربوا ولا تسرفوا»، فالأكل والشرب باعتدال هو الذي يؤدي إلى إطالة عمر الإنسان. وليست التخمة فقط هي التي تنقص من الأعمار، بل السكر والعريضة وتناول المخدرات، والتدخين أيضاً. وقد ثبت علمياً أن السجارة الواحدة تنقص ساعة من عمر الإنسان، وهناك من يؤكد أنها تنقص يوماً من عمره. وسواء كانت هذه السجارة الواحدة تنقص ساعة أو يوماً أو أسبوعاً حسب الإحصاءات الحسائية، فإنها إذا نظرنا إلى المسألة من وجهة نظر أخرى قد تنقص من عمر الإنسان خمسين سنة كاملة أو أكثر بسبب التكدسات والترسبات التي تحدثها

(١) سورة يونس؛ الآية: ٤٩.

في الدورة الدموية، وقد تؤدي أحياناً إلى جلطة دموية في الدماغ فتحدث الوفاة .

كل الذي ذكرناه لا يعني أن الإنسان يتدخل بما كتبه الله له أو يغير المصير الذي قدره الله له في كتابه منذ الأزل . فكما سبق وقلنا فإن حكمة الله قضت بين البشر أن لا تحدث الأسباب إلا بمسبباتها . وهكذا فعندما نقول : فلان مات قبل أوانه ، فهذا يعني أنه استعجل أسباب موته . فليس الموت في النهاية شبحاً قابلاً في أعماق النفس لا يظهر إلا عندما يبلغ الفرد منا سبعين أو ثمانين سنة ، بل الموت يظهر عندما تظهر أسبابه ، وأسبابه في الأساس خارجية : الإفراط في الأكل ، الإرهاق المتواصل ، الإنهيارات العصبية ، التصرفات المتهورة . . . وغيرها كثير مما لا يغيب عن ذهن أحد منكم . يقول بروفييسور إنكليزي : لولا سيف عبد الرحمن بن ملجم لكان علي بن أبي طالب من الخالدين في الحياة ؛ لأنه كان يتبع في حياته اليومية نظاماً في الأكل والشرب يتيح له ذلك . وليس الإمام علي وحده في هذا الأمر ، بل الرسول وأهل البيت أيضاً كانوا كذلك ، حتى قيل على لسانهم : « ما منّا إلا مسموم أو مقتول » . وقد صدّق الواقع هذا القول ، حتى إن أحداً منهم لم يمت مorte طبيعية ؛ والرسول نفسه لم يمت مorte طبيعية ، ويمكنكم أن تراجعوا التاريخ لتأكدوا من ذلك ؛ فالروايات المختلفة عند جميع المذاهب الإسلامية تشير إلى أن رسول الله ﷺ دُس له السم في طعامه أكثر من مرة ، وخاصة من قبل اليهود . وقد سرى السم في بدنه الشريف ، مما يؤكد أن الرسول وإن لم يمت في أثر السم في اللحظة ، ولكن لا بد وأن هذا السم كانت له يدٌ طويلة في التسبب بوفاته ﷺ .

كيف يمكن إطالة عمر إنسان؟

ولكي نجيب بشكل أوضح على السؤال التالي ، وهو كيف يمكن أو كيف يتم إطالة عمر الإنسان؟ فنقول : إن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون الشاسع ووضع له قوانين وأنظمة يسير عليها ؛ فكل شيء في هذا

الكون خاضع لهذه القوانين والأنظمة، ومن ضمنها إطالة عمر الإنسان. ولا يمكن لشيء أن يخرج عن إرادة الله ومشيته كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(١)، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَوْفَنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٢)، والإذن المذكور في الآية الكريمة هو القانون الذي تكلمنا عنه، إذن الله يعني قانون الله. ولتوضيح الفكرة أكثر نشير إلى ما يذكره العلماء من أن الأحياء التي تضم الإنسان والحيوان والنبات، تتكوّن جميعها من خلايا، فالخلية هي العنصر الأولي المشترك بين هذه الأحياء الثلاثة. وأعمار هذه الأحياء الثلاثة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بأعمار الخلايا التي تتكون منها؛ فموت إنسان ما يعني أن خلاياه قد ماتت وتوقفت عن العمل، وكذلك في الحيوان والنبات. ثم إنكم تلاحظون أن أعمار بعض الحيوانات قد لا تزيد على الثواني المعدودة، بينما هناك حيوانات أخرى قد تعيش مئات السنين، وهي خاصة من فئة الحيوانات ذات الصدفيات. ويبدو هذا الأمر أكثر وضوحاً في عالم النبات، فإن العلماء يقولون إنه في الوقت الذي توجد فيه أشجار تنبت في قاع المحيطات لا تتجاوز أعمارها الدقائق المعدودة، هناك بالمقابل أشجار تنبت في الغابات تعمّر آلاف السنين. وقد قرأت مؤخراً تقريراً في مجلة «ريدلز دايجست» (القارئ الواعي) يشير إلى أن هناك شجرة عمرها الآن يزيد على الثلاثة آلاف سنة. ومؤخراً نشرت الصحف هنا وفي جميع أنحاء العالم أنه تم اكتشاف سمكة تعود إلى أكثر من عشرة ملايين سنة. وعندما قرأت هذا الخبر التمتعت في رأسي الآية الكريمة التي تتحدث عن يونس عليه السلام: ﴿فالتقمه الحوت وهو مليم﴾^(٣)، وقصة

(١) سورة التكويد؛ الآية: ٢٩.

(٢) سورة الإنسان؛ الآية: ٣٠.

(٣) سورة يونس؛ الآية: ١٠٠.

(٤) سورة الصافات؛ الآية: ١٤٢.

يونس عليه السلام معروفة؛ ركب في الفلك المشحون، فاعترضه حوت عظيم هدد بإغراق الفلك ومن فيه، فما كان من البحارة إلا أن رأوا أن يلقوا إلى هذا الحوت بواحد من ركاب السفينة لينشغل فيه فيدعهم وشأنهم، فاقترعوا ثلاث مرات وقعت كلها على يونس عليه السلام، فألقي إلى الحوت. وقد ذكر الله تعالى قصته في القرآن الكريم حيث قال: ﴿وإن يونس لمن المرسلين، إذ أتى إلى الفلك المشحون، فساهم فكان من المذحذين، فالتقمه الحوت وهو مليم، فلولا أنه كان من المسبحين، للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾^(١). الله تعالى يشير في هذه الآيات إلى حقيقة واضحة ﴿البث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾، يعني أن يونس عليه السلام لو لم يتداركه الله برحمته للبث في بطن الحوت، ليس فقط سنة أو ألف سنة أو مليون سنة، بل إلى يوم البعث؛ وبكلام آخر: يعني أن جسم هذا الحوت، وجسم الحيوان بشكل عام، له قابلية العيش إلى الأبد. والعلم الحديث يقول إن الإنسان شأنه شأن كل حي آخر من الحيوان والنبات، فهذا يعني أن الإنسان قابل أن يعيش إلى الأبد إذا لم تطرأ عليه ظروف توقف مسيرة حياته.

ولكي نبرهن على هذا الأمر عقلياً نقول: جميع القضايا تدور في فلك الإمكان، والإمكان له ثلاث دوائر: الدائرة العملية، والدائرة العلمية، والدائرة المنطقية. فإذا أردنا أن نبحث في وقوع شيء ما نعرضه على هذه الدوائر الثلاث فنقول: هذا الأمر هل هو واقع عملياً؟ الجواب نعم أو لا، ثم نقول: هل هو واقع علمياً؟ الجواب نعم أو لا، ثم نقول: هل هو واقع منطقياً؟ الجواب أيضاً نعم أو لا. وأضرب لكم أمثلة بسيطة جداً متعلقة بهذا الموضوع: عبور المحيط الهادئ بالطائرة أو بالباخرة واقع ضمن دائرة الإمكان العملي، يعني أن الإنسان استطاع واقعياً وعملياً عبور المحيط سواء بالطائرة أو بالباخرة. والصعود إلى سطح القمر من الأمور الواقعة

(١) سورة الصافات؛ الآيات: ١٣٩ - ١٤٤.

أيضاً، لأن الإنسان وضع قدمه فعلاً على سطح القمر، فهذا أيضاً مما دخل في دائرة الإمكان العملي. أما المثال على الإمكان العلمي، فهو أن الإنسان لم يصل بعد إلى كون الزهرة عملياً، ولكنه يستطيع ذلك علمياً، وكذلك الأمر في الكواكب الأخرى كالمشتري وعطارد وغيرها، كلها واقعة ضمن دائرة الإمكان العلمي. ويبقى المثال على الإمكان المنطقي، وهو الشمس. فالوصول إلى الشمس لم يحدث فعلياً، فهو إذاً خارج عن الإمكان العملي. ثم إن الوصول إلى الشمس خارج أيضاً عن دائرة الإمكان العلمي، لماذا؟ لأن هناك في علم الفيزياء قاعدة معروفة تقول: «الحرارة تسرّب من الجسم الأكثر حرارة إلى الجسم الأقل حرارة حتى يتساوى الجسمان» وهذا يعني أن الإنسان لو فرض أنه ذهب أو اقترب من هذه الكتلة العملاقة فإنه سيذوب في أقل من لمح البصر. إذاً فقد أدرجنا الشمس هنا ضمن دائرة التحليل المنطقي، فاستتجنا منطقياً أن الوصول إليها متعذر عملياً ومتعذر أيضاً علمياً؛ فهو بالتالي متعذر منطقياً حسب مقاييسنا. ولكن إذا كان ذلك متعذراً حسب مقاييسنا فإننا نبحت حيثث في ناحية أخرى لكي نبين أن الشمس ممكن الوصول إليها ضمن دائرة الإمكان المنطقي؛ وهذا يحدث إذا ما افترضنا أن حرارة الشمس انطفأت وخبّت أو ستنطفئ وتخبو في يوم من الأيام. وهذا جائز منطقياً؛ والقرآن الكريم يحدثنا عن تعطيل الله سبحانه لبعض القوانين من أجل حكمة ما، كما عطل قانون الإحراق بسبب النار في قصة إبراهيم عليه السلام، فعندما ألقى عليه النار خاطبها الله تعالى قائلاً: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾^(١)، وهذا يعني بعبارة أخرى أن قانون سريان الحرارة من الجسم الأكثر حرارة إلى الجسم الأقل حرارة قد تعطل وتوقف عن العمل؛ فلماذا عطله الله تعالى هنا؟ عطله الله تعالى لأجل هدف أعلى من القانون الطبيعي،

(١) سورة الأنبياء؛ الآية: ٦٩.

فإبراهيم عليه السلام حجة الله على الأرض، فمن أجل إبقاء حجة الله قائمة عطل القانون الطبيعي؛ فتعطيل القانون الطبيعي لا يحدث إلا لهدف أسمى ربما نعلمه وربما يبقى في علم الله.

وكما عطل الله تعالى قانون الإحراق في قصة إبراهيم، كذلك عطل قانون السوائل في قصة موسى عليه السلام، فانفجر البحر أمام موسى وبني إسرائيل ثم عاد وانطبق على فرعون وجنوده: ﴿فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى﴾^(١)، فانفلق البحر اثنتي عشرة فرقة كل فرقة كالطود العظيم، لكل سبط من أسباط بني إسرائيل فرقة؛ ﴿فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم﴾^(٢)، فمر موسى بقومه، حتى إذا عبر آخر رجل منهم عاد البحر وانطبق على من فيه من فرعون وجنوده. إذا هنا أيضاً عطل الله سبحانه قانوناً آخر من قوانين الطبيعة، وهو قانون السيولة، إبقاء على حجته في الأرض موسى عليه السلام.

مثال آخر: تعلمون أن الأذن وظيفتها التقاط الأصوات، والسمع مقدّم على البصر في جميع آيات القرآن الكريم إلّا في آية يوم القيامة يقدّم البصر على السمع، لأن صور يوم القيامة تنطبع يومئذ في عيني الإنسان قبل أن يسمع أصواتها. فالسمع إذاً مقدّم غالباً على البصر لأنه أكثر أهمية، وأحد أسباب ذلك أن عملية الإبصار تتوقف عند النوم، بينما تبقى عملية السمع مستمرة منذ ولادة الإنسان إلى حين وفاته. وقد ثبت علمياً أن جهاز السمع يلتقط الموجات الصوتية وينقلها إلى الدماغ حيث يتلقى منه الأوامر لإصدار ردّة الفعل المناسبة، وهذه العملية مستمرة ودائمة ولا تتعطل لحظة واحدة، قد تضعف خلال النوم ولكنها لا تتوقف كما يحدث مثلاً في عملية الإبصار التي تتوقف نهائياً عن العمل عند النوم. فعملية السمع إذاً وظيفتها

(١) سورة طه؛ الآية: ٧٧.

(٢) سورة الشعراء؛ الآية: ٦٣.

الطبيعية هي العمل الدائم؛ ولكنه تعالى عطل أيضاً هذه الوظيفة الطبيعية لدى أصحاب الكهف: ﴿إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى﴾^(١)، لما خرجوا وأراد الله أن يلقي عليهم النوم عطل وظيفة السمع عندهم فقال: ﴿فضربنا على أذانهم في الكهف سنين عدداً﴾^(٢)، ﴿وليشوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا﴾^(٣). ولم يعطل سبحانه أسماعهم فقط خلال نومهم الطويل، بل عطل أيضاً وظائف أخرى في أجسامهم، فيقول تعالى في تعبير قرآني رائع الجمال: ﴿وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال﴾^(٤)، فعندما ينام المرء ثلاثمائة سنة فهذا يعني أن وظائف عديدة في جسده قد توقفت عن أداء وظائفها الطبيعية، كعملية الهضم وبعض وظائف الكليتين والكبد وغير ذلك من الوظائف الجسدية المطردة للعمل.

ومثال آخر نضربه على تعطيل القوانين الطبيعية؛ الرسول الأكرم ﷺ لما خرج من مكة إلى يثرب مع صاحبه أبي بكر الصديق، وترك الإمام علياً سلام الله عليه يرقد على فراشه، والمشركون يحيطون بالبيت من كل نواحيه. أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب وألقاها على وجوههم، فتعطلت أبصارهم عن بعض وظائفها الطبيعية، فكانوا يرون كل شيء أمامهم إلا الرسول الذي مرّ أمام أعينهم فلم يروه. وهناك أمثلة أخرى عديدة عن تعطيل الله سبحانه للقوانين الطبيعية لا مجال لإحصائها هنا.

وكما أنه تعالى عطل ويعطل هذه القوانين الطبيعية التي ذكرنا أمثلة عنها، فما المانع أن يعطل قانون الشيخوخة في الإمام المنتظر؟ المهدي عليه السلام يبلغ من العمر الآن ١١٦٠ أو ١١٧٠ سنة، ومن المستحسن

(١) سورة الكهف؛ الآية: ١٣.

(٢) سورة الكهف؛ الآية: ١١.

(٣) سورة الكهف؛ الآية: ٢٥.

(٤) سورة الكهف؛ الآية: ١٨.

هنا أن نقيم مقارنة بسيطة بين رجلين عظيمين امتدَّ بهما العمر، الرجل الأول نبي الله نوح عليه السلام الذي قال الله فيه: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾^(١)، والثاني الإمام المهدي المنتظر الذي لا يزال حيًّا إلى الآن. ووجه المقارنة بينهما أن نوح عليه السلام أرسل ليقم مجتمعًا إنسانيًّا جديدًا بعد الطوفان، والإمام المنتظر وظيفته إقامة مجتمع جديد بعد الحرب العالمية الثالثة.

كيف يمكن للإمام المهدي عليه السلام أن يقيم دولة عالمية واحدة؟

هذا الذي سبق كان جوابنا عن السؤال الأول المطروح، وهو كيف يمكن للإمام المنتظر أن يعيش كل هذه الفترة الزمنية الطويلة؟ أما السؤال الثاني فهو: كيف يمكن للإمام أن يقيم دولة واحدة موحَّدة تضم العالم أجمع؟ وكيف يمكن لمختلف الأمم والشعوب أن تنضم تحت راية واحدة؟ هذا السؤال نترك جوابه لعلماء الاجتماع وعلماء النفس الذين يقولون: كلما ازداد نضوج الإنسان ووعيه ازداد تقبُّله لأن يعيش تحت ظلِّ حكومة واحدة. ويضربون أمثلة على ذلك، فيقولون: الإنسان في العصور الحجرية كانت ثقافته معدومة وكان تطوُّره الفكري ونضوجه العقلي في بدايته، فلم يكن بالتالي يدرك أهمية الاجتماع وضرورته، حتى الأسرة لم يكن يدرك ما هي. قابيل الذي قتل أخاه هابيل كان الغراب أكثر وعياً منه، فلم يدرك قابيل كيف يدفن جثَّة أخيه حتى أراه الغراب ذلك، كما قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سُوَاءَ أَخِيهِ﴾^(٢). إذاً كان الإنسان في العصور الحجرية الأولى في أدنى مراتب الوعي، فكان يعيش منفرداً، ثم مع مرور الزمن أدرك أهمية الأسرة

(١) سورة العنكبوت؛ الآية: ١٤.

(٢) سورة المائدة؛ الآية: ٣١.

التي هي في الواقع حكومة مصفّرة ودولة بدائية؛ ثم فيما بعد اندمج في حكومة القبيلة، وبعد القبيلة انتقل إلى سلطة العشائر المجتمعة في مكان واحد، إلى أن توصل إلى فكرة الدولة الكبرى التي تضم مجموعات ذات قواسم مشتركة ثقافية وأتينية وعريقة وجغرافية، وهذا هو ما عليه العالم الآن؛ ولكن الإنسان لم يتوصل بعد إلى تمام نضجه الفكري ووعيه، فما يزال أمامه فكرة تقبل الدولة العالمية الموحدة، وهذا لا شك سيحدث مع مرور الزمن كما يشير إليه علماء النفس وعلماء الاجتماع؛ وعندما يحدث هذا الأمر فهذا يعني أن الإنسان قد كمل نضجه واستتم وعيه.

وأشير هنا إلى حديث ورد عن الإمام الباقر صلوات الله وسلامه عليه، يقول: «إذا خرج قائمنا أهل البيت وضع الله يده على رؤوس العباد فجمع بها عقولهم وكملت به أحلامهم»، يعني أن عقول البشر قد أصبحت ناضجة إلى درجة تقبلهم لفكرة الانضواء تحت لواء المهدي في ظلّ دولة واحدة. وأنتم بدون شك تلاحظون عظمة هذا الحديث وأهميته لما فيه من محتوى علمي سبق به جميع علماء الاجتماع وعلماء النفس الذين لم يقولوا في الحقيقة إلا ما قاله الباقر عليه السلام قبل ألف سنة، ولكن بعبارات أخرى.

عناصر الدولة العالمية

ولنرجع الآن إلى نظرية علماء الاجتماع، ولكي نوضح هذه النظرية لا بدّ من التفصيل التالي: فالتطور اللازم لتقبل الحكومة العالمية الواحدة يحتاج إلى ثلاثة عناصر أساسية:

العنصر الأول: العامل الاقتصادي، الذي له الأثر البناء في بناء الدولة الموحدة.

العنصر الثاني: الثقافة الواحدة التي تجمع رعايا هذه الدولة الموحدة.

العنصر الثالث: التحوّل التلقائي في المجتمعات المتعددة لكي تنصهر في النهاية ضمن مجتمع واحد.

هذه العناصر الثلاثة التي يصرّ عليها علماء الاجتماع من أجل تحقيق المجتمع الواحد، هي نفسها التي يعرفها القرآن بعبارات أخرى؛ فالعامل الاقتصادي يبرز في قصة يوسف عليه السلام، عندما أرسل الملك في طلبه قائلاً: ﴿اتّوني به أستخلصه لنفسي﴾ فأخرج يوسف من السجن ﴿فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين﴾^(١). عندها رأى يوسف سلام الله عليه الفرصة سانحة ليؤدي دوره كما أمره الله، فقال: ﴿اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾^(٢). يقول: اجعلني مسؤولاً عن الأمور المالية والاقتصادية. وهنا إشارة إلى الصفات التي يجب أن تتوفر في كل من يتولى مسؤولية حفظ اقتصاد الدولة، وهذه الصفات تتلخص بعنصرين، العنصر الأول: الأمانة والنزاهة، والعنصر الثاني: المعرفة اللازمة من أجل التخطيط المناسب. وقد أشارت الآية الكريمة إلى هذين الجانبين بقول يوسف عليه السلام: ﴿إني حفيظ عليم﴾ يعني: أحفظ ما ائتمنت عليه، وأعلم موارده ومصارفه. وبهذه الصفات المتوفرة في نبي الله يوسف سلام الله عليه مكن في الأرض، قال تعالى: ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء﴾^(٣). فهذا هو العامل الاقتصادي الذي أشار إليه القرآن الكريم.

أما عنصر الثقافة الواحدة فهو متضمّن في قوله تعالى: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر﴾^(٤). لم يقل «إن المؤمن» أو: «إن المسلم» أو: «إن الذي يتشهد الشهادتين» بل قال: «إن الإنسان»، وآل التعريف في قوله

(١) سورة يوسف؛ الآية: ٥٤.

(٢) سورة يوسف؛ الآية: ٥٥.

(٣) سورة يوسف؛ الآية: ٥٦.

(٤) سورة العصر؛ الآيتان: ١ و ٢.

«الإنسان» هي للاستغراق، يعني أنها تشتمل على كل الجنس البشري، فـ«الإنسان» هنا جميع بني آدم في ألوانهم وأشكالهم ومذاهبهم ومشاربهم. يقول تعالى: إن جميع البشر في خسران، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾^(١)؛ وهذه هي الثقافة الواحدة المشار إليها، ثقافة الإيمان والعمل الصالح، ثقافة الإسلام هي الثقافة التي ستجمع البشر في دولة واحدة. فعندما يكون جميع البشر مسلمين لن يعارض أحد منهم أن يكون ضمن هذا المجتمع الواحد؛ لأن الثقافة الواحدة موجودة. والذين يستطيعون الاستمرار في الحياة ضمن مجتمع واحد هم فقط الصالحون من عباد الله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.

أما العنصر الثالث، وهو التحول التلقائي، فلإننا نلاحظ أن جميع الأنبياء إنما بُعثوا في مجتمعات حدث فيها تحول تلقائي؛ وهذا التحول التلقائي إنما حدث غالباً نتيجة لوجود سلطة غاشمة تتمثل بالحاكم المستبد الظالم الذي يتعدى على الحقوق ويتسلط على العباد فيهلك الأعراض ويلقي الأحرار في السجون ويأخذ الجميع بميزان واحد. وفي هذا الظرف يظهر النبي الذي يضرب على يد الظالم ويعيد الأمور إلى وفق إرادة الله تعالى. ومثال القرآن على ذلك فرعون: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكَ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكَ﴾^(٢). موسى عليه السلام ظهر عندما استبد فرعون في الأرض فأصاب المجتمع بسبب ظلمه تحول فجائي. وكذلك جميع الأنبياء يظهرون عندما تحول المجتمعات بسبب استعلاء سلطة فاسدة، فرعون... نمرود... أبو سفيان... أبو جهل... الخ. عندها يحدث الضغط على الفرد الذي

(١) سورة العصر؛ الآية: ٣.

(٢) سورة البقرة؛ الآية: ٤٩.

يعيش ضمن هذا المجتمع، فيتولد الانفجار، فيظهر النبي ليصحح الأوضاع. هذا هو منطق القرآن، التحول التلقائي الذي يحدث بسبب سلطة غاشمة يلزمه علاج يتمثل بسلطة مضادة صالحة، ويجب أن تكون هذه السلطة الصالحة أقوى من السلطة الغاشمة ليتحقق أمر الله من أن الأرض يرثها عباده الصالحون.

ونقل لكم هنا الحادثة التالية تأكيداً لما ذكرته: في معركة اليرموك بين المسلمين والروم أيام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب - واليرموك تقع بين الأردن والجزيرة العربية - التقى الجيشان، وكان تعداد جيوش الروم يفوق ضعفي جيوش المسلمين، فدارت الدائرة على الروم وانتصر المسلمون بعد معارك استمرت قرابة أربعة أشهر. بعد الهزيمة خاطب القائد الروماني جنوده معتفاً وهو يقول: ويلكم! المسلمون وهم لا يزيدون على أربعين ألفاً أوقعوا بكم الهزيمة وأنتم تزيدون على المليون مقاتل؟ فدخل في تلك الأثناء أحد الخدم فخاطب القائد قائلاً: لا تتعب نفسك أيها القائد في محاولة رفع معنويات جيشك، فأنتم مهزومون لا محالة! فقال القائد: ويلك! ومن أين تعرف هذا؟ قال: اعلم أيها القائد أنني قلت ما قلت بناءً على حادثة حصلت معي قال: وما هي هذه الحادثة؟ قال: كنت أملك مائتي رأس من الغنم، فبينما كان ولدي الصغير وعمره عشر سنوات يرعى هذه الأغنام إذ مرَّ به ضبَّاطك وجنودك، فما كان منهم إلا أن سلبوه جميع الأغنام ولم يتركوا له سوى خمسة منها، فبدأ طفلي في الصياح، فما كان من أحد ضبَّاطك - وهو موجود معنا هنا - إلا أن أخذه فقتله، فلما أتيت ورأيت الذي فعلوه بابني أخذت أصيح وأولول، فما كان منهم إلا أن ضربوني ضرباً مبرحاً ثم قَيَّدوني، وأخرجوا زوجتي من خيمتها واعتدوا على شرفها أمام عيني، ثم ذبحوا طفلها الذي في حجرها، ورحلوا بعد أن أحرقوا خيمتنا وتركونا أنا وزوجتي في العراء. وقد هامت زوجتي على وجهها ولا أدري حتى الآن أين هي، أما أنا فقد قادني ترحالي إلى

بلاطكم حيث أصبحت كما تراني الآن خادماً لكم. فيا أيها القائد إن جيشاً كهذا يعامل شعبه هذه المعاملة لا يمكن أن ينتصر أبداً إلا على شعبه. فقال له القائد: أشر إليّ أيها الرجل إلى هذا الضابط لكي أعاقبه! فقال: لا أستطيع، لأنني إن فعلت فلن أعيش حتى الصباح. وهذا الذي حدث، ففي الصباح التالي وجدوا الرجل مقتولاً ليفنوا السرّ معه.

فما الذي يمكن أن نعتبره من هذه القصة؟ نأخذ منها أن القيادة والسلطة عندما تكون ظالمة فإن الرعايا يتفككون ويتشرذمون، فيحدث التحوّل التلقائي، وتظهر الحاجة إلى وجود مخلص ينقذهم مما هم فيه. والعالم يعيش اليوم في حالة من التفكك لا مثيل لها، والأدلة والأحاديث الموجودة لدينا تشير إلى أن الإمام المنتظر سيظهر بعد طوفان الحرب العالمية الثالثة عندما يصبح العالم في حالة يرثى لها من التفكك والضياع. هل تعرفون كمية الأسلحة المخزونة في مستودعات الدول العظمى؟ هل عندكم فكرة عن قدرتها التدميرية؟ تشير التقارير العسكرية إلى أن ما يوجد من الأسلحة اليوم يكفي لتدمير الكرة الأرضية مائة وعشرين مرة. وبالفعل فإنه إذا ما نشبت الحرب العالمية الثالثة فإن النار ستحيط بالإنسان من جميع النواحي، من الأرض ومن البحر ومن الجو. الشاحنات البرية تحمّل بالأسلحة النووية، والطائرات كذلك، والغوامات قابعة في قعر المحيطات وعلى متنها مئات الصواريخ النووية الجاهزة للإطلاق عند كبسة زرٍّ، وإذا أُطلقت ينتهي الأمر خلال ساعات، بل يقولون أنه خلال ساعة أولى من بدء الحرب سيمحى نصف الكرة الأرضية من الوجود؛ هذا هو الوضع المتصور بعد نشوب الحرب العالمية الثالثة، ولن يبقى بعدها سوى شراذم من الناس متفرقين هنا وهناك لا يدرون ماذا يفعلون؛ وهذه الشراذم هي التي سيظهر لها المهدي ليجمعها وينشيء من أجلها الدولة الإلهية الموعود بها. والأحاديث الموجودة عندنا تشير إلى أن القائم سيظهر بعد فناء ثلثي أهل الأرض، والثلث الباقي هو الذي سيندمج في دولة واحدا يقودها حجة الله

على الأرض. وهناك حديث عن الرسول ﷺ يقول: «أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج»، يعني أن انتظار المهدي هو عمل من أفضل الأعمال، وانتظار الإمام معناه أن ترفض الظلم والفساد في الأرض، وترفض الطاغوت، وتنادي بحكم الله وحكم القرآن؛ معناه أن تتأمل بكل جوارحك أن يظهر المهدي ليقم حكم القرآن في الأرض وينشيء حكومة الله. والانتظار لا يعني أن تقبع في دارك وتبقى فيه إلى أن يظهر المخلص، بل يعني أن تعبّر بالصوت الجمهوري عن كل ما ترفضه من قانون ظالم، أو سلطة فاجرة، أو حتى حفلة داعرة أو أغنية ساقطة أو منظر مسيء؛ يعني بكلمة واحدة أن ترفض كل ما هو منافٍ للإسلام. انتظار الإمام لكي يكون عملاً صالحاً يجب أن يكون انتظارك إيجابياً لا سلبياً. وسيظهر لا محالة من مكة ويسمعه العالم أجمع ويرويه بأم أعينهم، وسيملا الأرض عدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً، ولن تقوم الساعة حتى يحقق الدولة الإسلامية الواحدة على ما بقي من أجزاء الأرض. فانظر يا أخي أين أنت في ذلك اليوم الموعود، وزن أعمالك بميزان نفسك، وتأمل أن تكون من جنود الإمام المهدي عجل الله فرجه.

رَبَّنَا تَقَبَّلْ أَعْمَالَنَا وَارْضَ عَنَّا إِنَّكَ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

الإمام المهدي صوت الحق
والحرية والعدالة الاجتماعية

الإمام المهدي المنتظر (عج)

بسم الله الرحمن الرحيم

الكون ينشد والطيور ترنم	بُشراكم ولَدَ الإمام الأعظم
الحجة المهديّ مصباح الهدى	أمل الشعوب ونصرها المتحتم
فربوع سامراء تزهبهجة	بوليدها، نعم الوليد الأكرم
والعسكريّ ونرجس وحكيمة	بالحمد للباري الودود ترنّما
والله يكلؤه بلطفٍ سابغ	حنماً فيوم ظهوره متحتم
وليملأن به البلاد عدالة	ويقوم باسم الله فيها يحكم
وتباشرت بالخير شيعة أحمد	وبه تهلّل وجه من هو مسلم
يا ناصر الإسلام أنت ملاذنا	عجل فإنك للجراح البلسم

مات التمسّبر في انتظارك يا أيّها المحيي الشريعة

كَمْ ذِي الْعُقُودِ وَدِينِكُمْ	هُدِمَتْ قَوَاعِدُهُ الرَفِيعَةُ
تَنْعَى الْفُرُوعَ أَصُولُهُ	وَأَصُولُهُ تَنْعَى فُرُوعَهُ
فِيهِ تَحَكُّمٌ مِنْ أَبَاحِ الْيَوْمِ	حَرَمَتُهُ الْمُنِيعَةُ
مَاذَا يَهْجُجُكَ إِنْ صَبَرْتَ	لَوْعَةُ الْطُفِّ الْفَظِيعَةُ
أُتْرَى تَجِيءُ فَجِيعَةُ	بِأَمْضٍ مِنْ تِلْكَ الْفَجِيعَةِ؟
حَيْثُ الْحُسَيْنِ عَلَى الثَّرَى	خَيْلُ الْعَدَى طَحَنَتْ ضُلُوعَهُ
قَتَلَتْهُ آلُ أُمِّيَّةٍ	ضَامٍ إِلَى جَنْبِ الشَّرِيعَةِ
وَرَضِيعَهُ بَدَمُ الْوَرِيدِ	مَخْضَبُ فَاطِلِبِ رَضِيعِهِ

إِنَّا لَهِ وَأَنَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾^(١)، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ.

قَالَ اللَّهُ الْعَظِيمُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَفْضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾^(٢).

لِمَنْ أَوَّجَهُ الْحَدِيثُ؟ تَعْلَمُونَ جَمِيعاً أَنَّنِي لَا أَتَحَدَّثُ إِلَى الْفُغْوَءِ وَالْدَهْمَاءِ، وَلَا إِلَى الَّذِينَ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مُصْرِينَ إِصْرَاراً عَلَى الضَّلَالِ وَالْعَمَى، وَلَا إِلَى الَّذِينَ سَارَوْا عَلَى طَرِيقٍ لَمْ يَرْسُمِهَا اللَّهُ لَهُمْ. وَلَا إِلَى الَّذِينَ لَمْ يَحْرَكُوا ذَرَّةً وَاحِدَةً، لَا مِنْ شَعُورِهِمْ وَوُجْدَانِهِمْ، وَلَا مِنْ عَقُولِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ.

إِنَّنِي أَتَحَدَّثُ إِلَى الْأَحْرَارِ الشُّرَفَاءِ، إِنَّنِي أَتَحَدَّثُ إِلَى الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ، أَتَحَدَّثُ إِلَى الَّذِينَ يَبْحَثُونَ عَنِ الْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ وَيُؤْمِنُونَ بِهِمَا، لَا يَهْتَمُّ فِي ذَلِكَ لَوْمَةٌ لَأَنَّهُمْ.

(١) سُورَةُ الشُّعَرَاءِ؛ الْآيَةُ: ٢٢٧.

(٢) سُورَةُ الْقَصَصِ؛ الْآيَةُ: ٥.

أنت تؤمن بالله . وهناك ملايين البشر يكفرون بالله . ولكن كفر هؤلاء لا يمنعك من الإيمان بالله سبحانه وتعالى . إننا نؤمن بالقيامة ، وملايين من الناس لا تؤمن بها . إلا أن عدم الإيمان بها لا يلغيها وبالتالي لا يوصد أبواب الجنة وأبواب النار لأنها حقائق يؤمن بها كل عاقل حقاً .

إن القضية التي نعرض لها في حديثنا ليست خاصة بطائفة دون أخرى ، ولا بدين دون آخر ، فهي قضية الإنسان في كل زمان ومكان . إنها قضية الأنبياء ابتداء بنوح عليه السلام وانتهاء بالرسول محمد المصطفى ﷺ . فما من نبي إلا وبشر بمصلح يأتي من بعده ليظهر الأرض من الظلم والفساد .

أيها الأخوة والأبناء اقرأوا تاريخ الأنبياء لتروا أن آدم بشر بنوح عليه السلام . وتروا كيف أن نوحاً عليه السلام طهر الأرض من الظلم والفساد بطوفان قيضه له الله ، ذلك الطوفان الشامل الذي طهر الأرض من الكفر والأوثان والطغيان . وقد بشر نوح بإبراهيم ، وبشر إبراهيم بموسى ، وبشر موسى بعيسى ، وبشر عيسى بخاتم الأنبياء محمد ﷺ الذي وقف على منبره وخاطب العالم قائلاً : «أيها الناس ، لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد ، لطول الله ذلك اليوم ، حتى يخرج فيه رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي فيملا الله به الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً» . فالإمام المهدي (عج) ، اسمه محمد ، وقد قال الرسول ﷺ : «أولنا محمد ، وأوسطنا محمد ، وآخرنا محمد» .

إنها حكمة الله سبحانه وتعالى التي قضت بخلاص البشرية من الفساد والفجور والظلم والجور . فالأرض يرثها عباد الله الصالحون . ودولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة ، فمهما صال الفسقة الظالمون وجالوا فإن الحق لا بد أن ليزهق الباطل . «قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً»^(١) . ولن تنسى الأجيال قول الحوراء زينب عليها السلام للطاغية

(١) سورة الإسراء ١ الآية : ٨١ .

يزيد. «وהל رأيك إلّا فند، وآيامك إلّا عدد، وجمعك إلّا بدد، يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين». إن الله الذي كتب على نفسه الرحمة لن يترك العالم في دياجير الظلم والفساد، وهو لم يرسل الأنبياء إلّا ليهدوا الناس إلى طريق الخلاص. فكان كلّ نبيّ يمهد لمن بعده، وجميعهم مهّدوا لرسول الله وأهل البيت عليه السلام. وكما هو ثابت أنّ الله سبحانه وتعالى خلق أنوار الرسول وأهل البيت عليه السلام قبل أن يخلق العالم بآلاف السنين. وقد جاء في كلّ كتب الصحاح وكتب التفسير أنّ جابر بن عبد الله الأنصاريّ سأل الرسول عليه السلام عن أول ما خلق الله تعالى. فقال له الرسول عليه السلام: نور نبيّك يا جابر، خلق الله نور النبيّ، وخلق نور أهل البيت. فرسول الله محمد عليه السلام وعليّ وفاطمة والحسن والحسين كانوا أنواراً محدقة بعرش الله تعالى. فهل يُعقل أن يخلق الله محمداً وأهل بيته قبل أن يخلق الكون، ثم يختم به الأنبياء والرسل، فقط لتطبّق شريعة محمد لأربعين عاماً؟ هل يُعقل أن يخلق الله محمداً وأهل بيته قبل أن يخلق الكون ليحكموا في الأرض لأربعين سنة فقط، أليس هذا بخلاف حكمة ربّ العالمين؟. لقد انتهى حكم الإسلام باستشهاد الإمام عليّ عليه السلام سنة أربعين للهجرة، ثم جاء معاوية فالغى الإسلام وحول دولته إلى ملك عضوض، ألغى الإسلام كأساس للدولة وميزان للعلاقات السياسيّة والاجتماعيّة. فهل يُعقل أن تقتضي حكمة ربّ العالمين ذلك وهو القائل في كتابه العزيز: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون﴾^(١). فمتى ظهر الإسلام على الدين كلّه؟ وأين؟ التبشير بالمسيحية والصهيونيّة والشيوعيّة قائم على قدم وساق في أفريقيا خاصّة وفي العالم عامّة، هذا ما رأيته بأمّ عيني، ولولا قوّة الإسلام الذاتيّة لما تجاوز في انتشاره الحدود التي وصل إليها في الفتوحات الإسلاميّة الأولى. فمتى

(١) سورة التوبة؛ الآية: ٣٣.

يظهره الله على الدين كله؟. إن الله لم ينزل القرآن لأمة معينة بل أنزله للناس جميعاً وفي كل زمان ومكان. فهل حدث وحتى عصرنا هذا أن غطى القرآن الأرض كلها. إن آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ وأحكام المنطق، كلها تحفزنا للإيمان بالإمام المهدي (عج). لأنه هو الذي سيطبق القرآن على الناس كافة. وهنا لا بدّ من ملاحظتين بالغتي الأهمية.

الملاحظة الأولى: إن فكرة ظهور مصلح يطهر الأرض من الفساد والفجور والظلم، ويجمع العالم، تحت لواء حكومة عادلة قويّة واحدة مبنية عند كل الشعوب، لقد رأيت في نيجيريا الناس يخرجون يوم الأحد ويسالّون إلى شاطئ البحر يقرأون الأدعية وينادون المصلح المنتظر قائلين: «أخرج إلينا نحن بانتظارك، العالم كله ينتظرك لتطهر الأرض من الظلم والفساد». وهم لا شك يضمرون في أنفسهم رجلاً معيناً يخاطبونه وينادونه، وفي لندن رأيت في الشارع ذات يوم مجموعة من الشباب قد حلقوا شعورهم إلّا ذؤابة تنوس على أكتفاهم وقد حملوا الطبول يقرعونها ويرددون أبياتاً من الشعر. أخرجت من جيبي ورقة وقلماً ودوّنت ما يقولون وترجمته فكان يعني ما يلي: أيها الرجل العظيم، الغائب عن أنظارنا، اخرج بحق المسيح عليك، اخرج لتطهر الأرض من الظلم والفساد، فالتفت إلى تاجر كويتي كان معي فقلت له: لاحظ فكرة الإمام المنتظر والإيمان بظهوره، إنهما قضيتان فطريتان. لو اهتدى هؤلاء الشباب إلى الإسلام لقرأوا دعاء الندبة بدلاً من هذا الشعر. ودُعاه الندبة يقرأ يوم الجمعة. وبه تندب الإمام الحجة صاحب الزمان قائلاً: «أين معزّ الأولياء ومذلّ الأعداء، أين جامع الكلمة على التقوى».

وهناك جمعيات مسيحية تنتظر رجوع المسيح، وأخرى بوذية تنتظر عودة بوذا، وثالثة يهودية تنتظر ظهور موسى وعزير. ففكرة الرجل المخالص فكرة عالمية.

لقد قلت وسأظل أقول: إنني لا أعتقد بوجود سنة وشيعة، فكُلُّنا مسلمون على سنة النبي وأهل بيته، وكُلُّنا من شيعة الرسول وأهل بيته. فالمسألة لغوية. وكلمة شيعة من شايع يشايح مشايعة. جاء في القرآن الكريم: ﴿فاستفائه الذي من شيعته على الذي من هدوه﴾^(١) ﴿وإن من شيعته لإبراهيم﴾^(٢). والمشايع تعني المتابعة والمناصرة. فأَيُّ مسلم لا يتابع ويناصر رسول الله وأهل بيته؟ وأيُّ مسلم يرفض سنة رسول الله وأهل بيته؟ وإذا كان علماء الشيعة يحتجّون لظهور المهديّ (عج) بمئة حديث للنبي. فإن علماء السنة يحتجّون لذلك بخمسة آلاف حديث. أقول هذا الكلام وأنا مسؤول عنه. ومن أراد التحقق منه فليعد إلى كتب الصحاح والتفسير والسير. فالبخاري مثلاً، يفرد في صحيحه فصلاً كاملاً يتحدث فيه عن صاحب الزمان الإمام المهديّ (عج). وهو يرى أن مسألة الإمام المهديّ (عج) من القضايا الإسلامية المسلّم بها، وهي لا تحتل أي نقاش أو جدال. إذن مسألة المهدي لا خلاف فيها، وإذا صادفت مسلماً لا يؤمن بالإمام المهديّ فهو مسكين محدود المعارف قليل الاطلاع على الحقائق الدينية، يجهل أن الإيمان بالمهديّ المنتظر (عج) والإيمان برسول الله ﷺ شيء واحد.

الملاحظة الثانية:

إن الذين يشكّون في أمر المهديّ (عج) يطرحون تساؤلات يمكن حصرها في ثلاث:

- ١ - كيف يمكن أن يظهر المهديّ وقد مرَّ على مولده أكثر من ألف ومئة وخمسين سنة. وعمر الإنسان الأقصى هو مئة سنة ولنقل مئتي سنة. فكيف لإنسان أن يعيش أكثر من ذلك؟ ومهما طال عمره.

(١) سورة القصص؛ الآية: ١٥.

(٢) سورة الصافات؛ الآية: ٨٣.

٢ - كيف سيتصر الإمام المهدي، في حال ظهوره، على عالم مدجج بالأسلحة الذرية والنووية والجرثومية والكيميائية؟! وبكسبة زرّ واحدة، إن في البتساغون وإن في الكرملين، يتحوّل العالم، وبلحظة واحدة، إلى جحيم.

٣ - كيف يمكن لرجل واحد أن يجمع تحت سلطته وفي دولة واحدة جميع الملل والنحل والدول والشعوب؟ وكيف له أن يوحد الحضارات والثقافات؟

لن أستفيض في الردّ على هذه التساؤلات، لأنّ ذلك قد يؤدي بنا إلى استطرادات تخرجنا عن الموضوع الأساسي. وإنما سأقتضب في ردودي معتمداً على ذكاء وثقافة الذين يولون الأمر الأهمية التي يستحقّ.

١ - بالنسبة للتساؤل الأول أقول: إنّ العلم الحديث لا ينفي إمكانية العيش لأكثر من مئة وخمسين عاماً. بل العكس هو الصحيح. فإذا عدنا إلى المقالات العلمية التي تدور حول الموضوع وهي متوافرة بكثرة في المجلّات المتداولة كالمقتطف والهلal والعربي والمختار وغيرها، هذا بالإضافة إلى الألوف المؤلفة من الكتب العلمية والطبية. كلّها تؤكّد أن عمر الإنسان يمكن أن يمتدّ إلى آلاف السنين. وفي ذلك نظريات وآراء علمية تؤكّد أنّ أجهزة البدن يمكن أن تمارس وظائفها لآلاف السنين. وقد أثبت العلماء أنّ العين مثلاً يمكن أن تستمرّ في وظيفتها لخمسين ألف سنة. هذا من جهة العلوم الدنيوية، أمّا من الناحية الدينية، فالقرآن الكريم لا يحدّد عمر الإنسان فهو أمر متروك لإرادة الله سبحانه وتعالى، وماذا يمنع أن يعيش إنسان بقدر ما عاش النبي نوح عليه السلام أي ثلاثة آلاف سنة. ونوح إنسان، والقرآن الكريم يذكر أن نوحاً لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين، وهذه المنة هي فترة الرسالة والدعوة إلى الله، فهي جزء من عمره وليست عمره كلّ. والكتب حافلة بأخبار المعمرين كسلمان الفارسي وأمثاله. ولقد أثبت

العلم أن معدّل متوسط الأعمار كان قديماً أطول بكثير مما هو عليه اليوم . وفي هذا يقول الإمام زين العابدين عليه السلام في إحدى خطبه : «الذين كانوا أطول منكم أعماراً وأكثر منكم آثاراً» . أما سبب هذا التفاوت في متوسط العمر بين القدماء والمحدثين فعائد إلى الحضارة المادية الاستهلاكية التي طغت على الإنسان المعاصر فأرهقت بضغوطها المتنوعة قلبه وأعصابه ، ويرى كثير من العلماء أنه من الممكن أن يمتدّ عمر الإنسان إلى آلاف السنين إذا تقيّد بمنهج علمي دقيق في مأكله ومشربه ، وملبسه ومسكنه ، ونومه ويقظته . وليس في إطالة العمر ما يخالف إرادة الله تعالى الذي خلق الإنسان ليعبده ويعمر الأرض التي سخّرها وما فيها له . ولا شك أن الرسول ﷺ وأهل البيت عليهم السلام كانوا يعرفون هذه الحقائق . ومن مات منهم ، لم يمت ميتة طبيعية . وفي هذا يقول الرسول ﷺ : «ما منّا إلّا مسموم أو مقتول» . وفي الحديث الوارد عن رسول الله ، أن السمّ دسّ في طعامه وشرابه أكثر من عشرين مرّة . كان آخرها محاولة امرأة يهوديّة ، فلمّا اكتشف الرسول ﷺ هذه المحاولة استدعى المرأة اليهوديّة وسألها عن سبب فعلتها فأجابته قائلة : إنك لا تعدّو حاليّن ، فلمّا أن تكون نبيّاً فتنبأ بالمحاولة وتفشلها ، وإما أن لا تكون نبيّاً فيرحنا الله منك» . فعفا عنها الرسول ﷺ على جسامته ومحاولتها الآثمة . وقد أراد بذلك أن يعطي درساً في العفو . صحيح أنّ واحدة من محاولات تسميم الرسول ﷺ لم تقتله مباشرة . ولكن تراكم تأثير تلك المحاولات : أضعفته بعض الشيء .

قال عالم بريطانيّ في مقالة له عن الإسلام ورجال العلم فيه : لولا سيف عبد الرحمن بن ملجم لكان علي بن أبي طالب من الخالدين في الحياة . وقد نشرت هذه المقالة في مجلّة المقتطف المصريّة .

إذن من الناحية العلميّة لا إشكال في إمكانية العمر الطويل . أما من الناحيتين التشريعيّة والتاريخيّة ، فالقرآن الكريم ، كما ذكرنا يتحدث عن نوح وغيره من المعمّرين . فيقول عن يونس عندما حبسه الله في بطن الحوت :

﴿فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾^(١). ويعني هذا أنه من الممكن أن يعيش كل من يونس والحوت إلى يوم القيامة. وبهذا يؤكد الله تعالى أن أنسجة الإنسان يمكنها الاستمرار في وظائفها البيولوجية والفيزيولوجية لملايين السنين. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الراسخين في علم الأحياء يرون أن الأحياء الثلاثة؛ الإنسان والحيوان والنبات، لديها القدرة على البقاء إلى ما شاء الله. ففي عالم النبات، هناك في أميركا، وفي بريطانيا، وفي أفريقيا أشجار يزيد عمر الواحدة منها على ألفي عام، وفي عالم الحيوان قرأت عن حوت صيد في أعماق البحر وأخرج إلى اليابسة فانكبَّ العلماء على دراسة أجهزته وخلاياه فتبين لهم أنها تعود إلى ملايين السنين. وقد ذكرني هذا بالآية الكريمة التي نزلت في يونس والحوت ﴿للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾. إذن مسألة طول العمر لا إشكال فيها. ونحن نؤمن أن الله على كل شيء قدير و﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾^(٢). وجميع المسلمين يعتقدون بأن أربعة من الأنبياء لا يزالون أحياء وبإذن الله. اثنان منهما في السماء هما عيسى وإدريس، واثنان منهما على الأرض وهما إلياس والخضر.

وكَلْنَا نعرف أن إبليس من الخالدين في الحياة وقد طلب منه الله أن ينظره إلى يوم يبعثون، فاستجاب الله تعالى لطلبه: ﴿قال انظرني إلى يوم يبعثون، قال: إنك من المنظرين﴾^(٣). فإذا كان الله تعالى يعطي إبليس عمراً يمتد إلى يوم القيامة، وإبليس كما نعلم عدو مبين لله وللإنسان. أفلا يعطي عمراً طويلاً لوليه وحبته على الأرض؟!

عزيز نبي من الأنبياء وقد نزلت فيه الآية التالية: ﴿أو كالتذي مر على

(١) سورة الصافات؛ الآية: ١٤٣ - ١٤٤.

(٢) سورة يس؛ الآية: ٨٢.

(٣) سورة الأعراف؛ الآية: ١٤ - ١٥.

قرية وهي خاوية على عروشها، قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها، فأما
الله مئة عام ثم بعثه، قال كم لبثت، قال لبثت يوماً أو بعض يوم، قال بل لبثت
مئة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه، وانظر إلى حمارك ولنجعلك
آية للناس، وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً، فلما تبين له،
قال أعلم أن الله على كل شيء قدير^(١).

لقد أمارت الله العزيز مئة عام ثم بعثه، فحسب العزيز أنه نام لبضع
ساعات. ونظر إلى حماره فرآه هيكلاً عظيماً. وإذا بهذا الهيكل العظمي
يكسي لحماً وحياة ويقف حماراً حياً يقول له: «هذا طعامك لا يزال حاراً
كما تركته، وهذا شرابك لا يزال عذباً كما كان قبل أن يملكك الله قبل مئة
عام» وإنما فعل الله بعزير ما فعل كي لا يتساءل مرة أخرى أنى يحيي الله
القرية بعد موتها.

٢ - أما بالنسبة للتساؤل بالقول: كيف للإمام المهدي (عج) أن يواجه
عالمًا مُدججاً بالأسلحة الذرية والنووية والكيميائية والجراثيمية وغيرها من
أسلحة الإفناء والتدمير؟ فأقول: إن الأنبياء بعد آدم بشرُوا بقدوم نوح ليظهر
الأرض من الفسق والفساد، فتساءل الناس أنى يكون ذلك لنوح وأسلحة
الأنبياء قبله لم تؤد إلى نتيجة. فقيض الله لنوح طوفاناً شاملاً لا عاصم منه
إلا الله. «يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين، قال ساوي إلى
جبل يعصمني من الماء، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رَحِمَ وحال
بينهما الموج فكان من المفترقين»^(٢).

ثم جاء بعد نوح إبراهيم الخليل عليه السلام. وتساءل الناس أنى لإبراهيم
أن يواجه النمرد وجيوشه؟ لقد كان الطوفان سلاح نوح فماذا سيكون
سلاح إبراهيم؟ ها هو نمرد العراق يأمر بإحراق إبراهيم حياً. ويجمع

(١) سورة البقرة؛ الآية: ٢٥٩.

(٢) سورة هود؛ الآية: ٤٢ - ٤٣.

الحطب وتضرم فيه النار ويلقى إبراهيم فيها. ولكن النار تتحول بإرادة الله إلى برد وسلام على إبراهيم. ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾^(١). وإذا بجبريل يخاطب إبراهيم قائلاً: ولا تأخذك الوحشة يا إبراهيم، أنا معك، اخرج الآن إلى الشام. فيخرج إبراهيم من العراق منتصراً ويفاجئ العالم بجيش عظيم ينتصر في الشام انتصاراً ساحقاً. ثم يمضي إلى الحجاز فيبني الكعبة المكرمة في واد غير ذي زرع. ويأخذ ولده ليزبحه هدياً للكعبة والله سبحانه وتعالى فافتداه الله بذبح عظيم. ﴿وناديناه أن يا إبراهيم﴾ ﴿إنّا كذلك نجزي المحسنين﴾ ﴿وفدیناه بذبح عظیم﴾^(٢) - هكذا انتصر إبراهيم ﷺ في العراق والشام والحجاز وأصبح بطل التوحيد.

بعد إبراهيم جاء موسى ﷺ. فكيف له أن يواجه جيوش فرعون الجراءة وسحرته الماكزين؟ والجميع كان ينتظر الخلاص على يد موسى. ﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكله موسى﴾^(٣) وإذا كان لموسى أن يواجه جيش فرعون فأئى له أن يواجه سحرته وقدر ﴿وجاؤاوسحر عظیم﴾^(٤) - ووقع الناس في حالة من اليأس شبيهة بالحالة التي تعترى بعضنا عندما يتساءل قائلاً أنى للمهدي المنتظر (عج) أن يواجه أسلحة الدمار الشامل؟

جابه موسى ﷺ فرعون وسحرته بعصاه. وإذا بهذه العصا تتحول إلى حية بإذن الله ﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾^(٥) - وألقى سحرة فرعون عصيهم وحبالهم فإذا هي حيات تسعى. ولكن عصا موسى لفتت كل تلك

(١) سورة الأنبياء؛ الآية: ٦٩.

(٢) سورة الصافات؛ الآيات: ١٠٤ و ١٠٥ و ١٠٧.

(٣) سورة القصص؛ الآية: ١٥.

(٤) سورة الأعراف؛ الآية: ١١٦.

(٥) سورة الأعراف؛ الآية: ١٠٧. والشعراء الآية: ٣٢.

الْحَيَاتِ . ﴿فَإِذَا حَبَالَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يَخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْمَى﴾^(١) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾^(٢) - ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾^(٣) - وَإِذَا بِالسَّحَرَةِ يَسْجُدُونَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . فَيَغْضِبُ فِرْعَوْنَ وَيَقُولُ لَهُمْ : ﴿آمَسْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ ، إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾^(٤) - ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافِ ثُمَّ لَا صُلْبَ لَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٥) - إِنَّهُ مَنْطِقُ الطُّغَاةِ وَالظُّلْمَةِ ، هَدَّاهُمْ بِقَطْعِ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ مِنْ خِلَافِ ، أَيِ بَقْطَعِ الْيَدِ الْيُمْنَى وَالرَّجْلَ الْيُسْرَى ، أَوْ بِالْعَكْسِ . وَهَدَّاهُمْ بِالصُّلْبِ عَلَى جَذْوَعِ النَّخْلِ . إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَزْعِرْ الْإِيمَانَ الَّذِي تَغْلُغِلُ إِلَى نَفْسِهِمْ فَقَالُوا لَهُ : ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾^(٦) ﴿وَمَا نَقْمُ مَنْآ إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا ، رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ﴾^(٧) - فَلَمَّا أَرَادَ مُوسَى الْخِلَاصَ بِشِيعَتِهِ ، لَاحَقَتْهُمْ جِيُوشُ فِرْعَوْنَ الْجَزَارَةِ فَلَمَّا وَصَلَ مُوسَى وَشِيعَتُهُ إِلَى الْبَحْرِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِمُوسَى مُوحِيًا لِنَبِيِّهِ ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّوْدِ الْعَظِيمِ ، وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ، وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾^(٨) فَمَنْ كَانَ يَحْسِبُ أَنَّ مَعَ مُوسَى كُلَّ هَذِهِ الْأَسْلِحَةِ ؟

وَبَعْدَ مُوسَى جَاءَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَلَمْ يُوَاجِهْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ جِيُوشًا وَسَحَرَةً بَلْ وَاجِهَ أَطْبَاءَ بَارِعِينَ يَتَّخِذُهُمُ الْفِرَاعْنَةُ وَالنَّمَارِدَةُ وَاسْطَةُ لِبْسَطِ سُلْطَانَهُمْ وَجَبُرُوتَهُمْ عَلَى النَّاسِ . وَالْأَطْبَاءُ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ يَتَعَاطَلُونَ مَعَ أَعَزِّ

(١) سورة طه ؛ الآية : ٦٦ .

(٢) سورة الأعراف ؛ الآية : ١١٧ .

(٣) سورة الشعراء ؛ الآية : ٤٥ .

(٤) سورة طه ؛ الآية : ٧١ .

(٥) سورة الأعراف ؛ الآية : ١٢٤ .

(٦) سورة الأعراف ؛ الآيات : ١٢٥ و ١٢٦ .

(٧) سورة الشعراء ؛ الآيات : ٦٣ و ٦٤ و ٦٥ و ٦٦ .

وأعلى ما عند الإنسان ألا وهو الحياة. فواجههم عيسى بسلاح من نوع سلاحهم ولكنه أشدّ وأمضى، فإذا كانوا هم يشفون المرضى بالعقاقير، فإنّ عيسى يحيي الموتى، ويشفي المرضى بإذن الله وبمجرد مسحة من يده المباركة. يمرّ على القبر وقد تحوّل الميت فيه إلى عظام رميم، فيشير بيده إلى القبر قائلاً: «قم يا فلان». فيقوم الميت حيّاً يسعى. كما أنّه بمسحة من يده الطاهرة، وإذن الله يبرئ الأكمه والأبرص والأعمى. ويصنع من الطين كهنة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله. وقد انتصر عيسى بهذا السلاح الذي لم يكن في حساب أحد.

وكما بشر كلّ نبيّ بنبيّ يأتي بعده، فقد بشر عيسى بالنبيّ المصطفى محمد بن عبد الله ﷺ. «وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدّقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشّراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين»^(١). وقد قرأت في إنجيل برنابا قول عيسى: «سيأتي من بعدي رسول اسمه أحمد، فإذا أدركته فإنّي أتشرّف بوضع الحذاء أمام قدميه، وأتشرّف بنفض الغبار عن بدنه الكريم».

وقد يقول قائل: «لِمَ لم يذكر هذا القول في بقيّة الأنجيل؟ أقول إن التحريف والتزييف طرأ على تلك الأنجيل، وكيف يكون هناك إنجيل ليوحنا وآخر لمتّى وثالث للوقا ورابع لمرقص. ولا يكون هناك إنجيل للمسيح؟ أين إنجيل المسيح؟

عندما جهر الرسول ﷺ بالدعوة، كان العالم كلّ في انتظاره. وكانت الأحداث والظروف في جزيرة العرب خاصّة تمهّد لظهور الرسول ﷺ. وكان في جزيرة العرب سلاحان، سلاح البلاغة الفائقة، وسلاح الفوضى المسلّحة التي تنشر القتل وتهتك الأعراس وتسفك الدماء

(١) سورة الصف؛ الآية: ٦.

في طول الجزيرة وعرضها. وكانت البلاغة العربية في أوجها متمثلة في الخطب والحكم والأمثال والشعر الذي وصل إلى ذروة تطوره في المعلقات. وتساءل الناس كيف للرسول متى ظهر أن يسيطر على جزيرة العرب وبأي سلاح؟

كان العرب مأخوذون بالمعلقات إلى درجة أنهم على ما يروى كتبوها بالذهب وعلقوها على الكعبة، ومن هنا كانت تسميتها بالمعلقات، وقيل هي سبع، وقيل هي عشر: وما إن نزلت سورة الحمد وهي فاتحة الكتاب، وسمعاها الناس، حتى هرعوا إلى المعلقات فأنزلوها إذ وجدوها عاراً على بلاغة العرب عندما سمعوا بلاغة سورة الفاتحة. وكانت بنت امرئ القيس أول من ازدرى ببلاغة الشاعر الجاهلي عندما سمعت بلاغة القرآن. وقد سخرت من قول أبيها:

دنت الساعة وانشق القمر
عن غزال ناش قلبي ونفر
فلما سئلت عن سبب استهزائها بقول أبيها قالت : «لأن في كتاب محمد سورة تقول : اقتربت الساعة ، وبين اقتربت ودنت ، من حيث البلاغة ، كما بين الثريا والثرى» .

أما الفوضى المسلحة التي كانت تضرب أطناها في جميع أنحاء الجزيرة العربية . فقد واجهها الرسول ﷺ بسيف وضعه الله في يده ، لا للاعتداء والظلم ، وإنما للقضاء على العدوان والظلم . فالسيف كأني سلاح . يمكن استعماله للعدوان والظلم ، ويمكن استعماله للقضاء عليهما . وفي جميع حروب النبي ﷺ وغزواته لم يصل عدد القتلى إلى الألف ، وقيل في إحصاء دقيق أنهم سبعة وأثنى عشر قتيلاً فقط . وعندما فتح الرسول ﷺ مكة سمع أحد المسلمين يتغنى بالنصر مردداً :

«اليوم يوم الملحمة اليوم تُسبى الحرمة»
فقال الرسول لعلي عليه السلام : «أسكت هذا وغير النداء» .
فصاح علي عليه السلام قائلاً : «اليوم يوم الرحمة ، اليوم تصان الحرمة ، اليوم أعز الله قريشاً بالإسلام» .

فالرسول عليه الصلاة والسلام، حمل السيف لرفع الظلم عن الناس وتوفير الأمن والاستقرار لهم. والرسول ﷺ لم ينتصر بالسيف، بل انتصر بقلبه الرحيم، انتصر بقرآنه العظيم. هذه المعجزة الخالدة التي أذهلت الناس.

والآن ما هو سلاح المهدي الذي سيتغلب به على أسلحة الدمار الشامل. لقد ذكر الرسول ﷺ في حديثه عن المهدي أن سلاحه هو السيف، والرسول ﷺ إذ يذكر السيف إنما يذكره لأنه سلاح ذلك العصر. وربما لو ذكر الرسول اسماً آخر لسلاح المهدي لما نقله رواة الحديث ولما ذكروه. فالسيف في حديث الرسول ﷺ رمز لسلاح المهدي (عج).

يقول أحد أصحاب الإمام عنه أنه يحمل السيف بيده، فإذا ضرب به الجبل دكّه دكّاً. فهل يدك السيف الجبل؟ لا ريب أن سلاح المهدي (عج) سلاح خاصّ وغير معروف في الأسلحة. وعن رسول الله ﷺ أن المهدي (عج) إذا خرج توقفت الأسلحة التي تواجهه، لماذا؟ لأنّ سلاحه أقوى منها، فسلحه مستمدّ من حضارة الإسلام وعلوم القرآن: أما الأسلحة التي ستواجهه فهي من صنع حضارة مادية عجزت حتّى الآن عن مواجهة كثير من الأمراض التي تفتك بالإنسان كالسرطان والإيدز. وحتّى الروماتيزم وهو مرض غير عضال لما يتوصّلوا بعد إلى علاج ناجع له.

الإمام المهدي يوحد العالم

سئل الإمام الصادق عليه السلام عما سيصنع المهدي (عج) عند ظهوره فقال: «يصنع كما صنع جدّه رسول الله ﷺ، يهدم ما كان قبله ويبنى الإسلام من جديد». فكما قضى الرسول ﷺ على الجاهلية ونشر الإسلام، فإن الإمام المهدي (عج) سيقضي على الجاهلية المادية، جاهلية القرن العشرين وينشر الإسلام وعلوم القرآن في أرجاء العالم الذي سيوحده في دولة واحدة ترفرف عليها راية واحدة هي راية الإسلام، راية الإمام

المهدي (عج): لقد جزأ الاستعمار الدولة الإسلامية إلى دويلات متناحرة متنافرة. وحتى لبنان هذه الدولة الصغيرة حاولوا تفتيته إلى ستّ دويلات. ونحن على عادتنا نضع مسؤولية تقصيرنا على الاستعمار بدلاً من أن نعيد للمسلمين وحدتهم رغم مكائيد الاستعمار ومؤامراته، أليس ديننا واحداً وقرآننا واحداً؟ أليس إلهنا واحداً وقبلتنا واحدة؟! وهنا يتساءل البعض إذا كنّا عاجزين عن توحيد المسلمين في دولة واحدة فكيف للإمام المهديّ (عج) أن يوحد العالم كلّ في دولة واحدة؟ ولهؤلاء نقول: إنّ ماوتسي تونج وحد أكثر من مليار إنسان يتوزعون في مئة ولاية وجمعهم في دولة واحدة، وإنّ الولايات المتحدة مؤلفة من اثنتين وخمسين ولاية. وإنّ الاتحاد السوفياتي كان مؤلفاً من خمس عشرة جمهورية وعدداً من الأقاليم ذات الاستقلال الذاتي: وفيه ستّ جمهوريات إسلامية يقطنها مئة وخمسون مليون مسلم خضعوا للطغيان الشيوعي وهم يتحفّزون اليوم للاستقلال عن أمبراطورية القياصرة الجدد. ثم ما لنا ولكلّ هذه الأمثلة ألم يوحد الرسول ﷺ قبائل العرب وإماراتهم المتناحرة في دولة واحدة. فأصبح العرب بنعمة الله إخواناً؟ ألم يوحد الإسلام العرب والعجم والبربر والزنوج والأكراد والأتراك والهنود والسرّيان وبعض الروم وبعض الصينيين في دولة واحدة ترفرف عليها راية القرآن؟ فهل لنا بعد كلّ هذه الأمثلة أن نتساءل كيف يستطيع الإمام المهديّ وهو مؤيد بإرادة الله أن يوحد العالم كلّ في دولة واحدة هي دولة الإسلام؟!

كيف يخرج الإمام المهدي وما هي مواصفات دولته؟

الإمام المهدي، هو صاحب الأمر، وهو حجة الله على الأرض، وهو الإمام المنتظر، الذي يتطلّع العالم إلى ظهوره بشوق بالغ كي يخلّصه مما يتخبّط فيه من ظلم وفسق وفساد واستكبار. إننا نقرأ في بعض أدعيتنا: «اللهمّ إنّنا نرغب إليك في دولة كريمة». إنّ الدولة الكريمة التي ندعو الله

كي يحققها لنا هي دولة الإمام المهدي (عج). إنها دولة كريمة سياسة واقتصاداً وتقدماً تكنولوجياً، إنها دولة كريمة عدلاً وقسطاً وعزّة. دخل أبو حنيفة يوماً على الإمام الصادق عليه السلام. فقال له الإمام: «يا أبا حنيفة ما تفسير قوله تعالى: ﴿سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّاماً آمِنِينَ﴾»^(١) فالقرآن يقول سيروا فيها، فأين هذه الأرض المعينة بقوله سيروا فيها؟. فقال النعمان بن ثابت (أبو حنيفة): «يا بن رسول الله، أحسبها بين مكّة والمدينة». التفت الإمام الصادق إلى أصحابه وقال: «يا أبا حنيفة ألا نعلم جميعاً أن الناس بين مكّة والمدينة يتعرّضون للسلب والقتل؟». فسكت أبو حنيفة وأجاب الحاضرون قائلين: بلى. فقال الإمام الصادق عليه السلام: «إذن أين تلك الأرض الآمنة؟». قال أبو حنيفة: «والله لا أدري يا سيدي». فقال الإمام الصادق عليه السلام: «إنها دولة قائمتنا أهل البيت، ففي ظلّ الإمام المهدي سيسير الناس أياماً وليالي آمنين». فالإمام الصادق شأن باقي الأئمة عليهم السلام كانوا لا يفتأون يبشرون بدولة الإمام المهدي (عج).

إنّ حديث الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في دولة المهدي (عج) معروف. قال فيه الإمام عليه السلام: «وإنما المرأة لتمشي من العراق إلى الشام فلا تطأ قدماها إلّا على النبات والعشب». لماذا يقول الإمام عليه السلام المرأة ولم يقل الرجل؟ إنّ قوله هذا يشير إلى مدى الأمن والأمان الذي سيتنشرون في دولة المهدي (عج) ويستقرّ لدرجة تسمح للمرأة أن تسافر وحدها آمنة مطمئنة. أمّا قوله: «لا تطأ قدماها إلّا على النبات والعشب». فهو إشارة واضحة إلى الازدهار الاقتصادي الذي سيعمّ العالم تحت راية الإمام المهدي (عج). إنّها دولة الإسلام التي يتطلّع إليها المؤمنون بفارغ الصبر ويسألون الله أن يعجّل بظهور صاحبها. وحينئذ لا مكان لليهود وصهيونيتهم في هذه الدولة، فالنصر للحق في نهاية المطاف.

(١) سورة سبا، الآية: ١٨.

ذلك بالنسبة للأمن والاقتصاد، فما هي الحال بالنسبة للرشد والهداية في دولة المهدي المنتظر (عج)؟. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «وإن المرأة لتقضي في بيتها بكتاب الله وسنة النبي». فالمرأة المسلمة تصل إلى مستوى من الاجتهاد ويسمح لها بأن نقضي بكتاب الله وسنة النبي. ثم يقول الإمام الصادق عليه السلام: «ويسأل الرجل عن مسألة فيقول له صاحبه: اقرأ الإجابة بكفك، فينظر إلى كفّه فيقرأ الإجابة». وهذا يعني أن حضارة الإمام المهدي (عج) ستجعل في متناول يد كل مسلم جهازاً فيه جميع المسائل الشرعية والأحكام الإسلامية.

أما بالنسبة لحال العقل في دولة الإمام المهدي (عج) فإن الإمام الباقر عليه السلام يقول: «إذا ظهر قائمنا أهل البيت وضع يده على رؤوس العباد فكملت به عقولهم وتكاملت أحلامهم». وهذا يعني أن الناس يصلون إلى مستوى من العقل والرشد والإيمان بحيث لا تنطلي عليهم المفاهيم الفاسدة أبداً. هكذا تكون دولة الإمام المهدي (عج) دولة النعمة والرحمة والسلام. ولكن ذلك لا يتحقق إلا بعد أن يضرب الإمام المهدي (عج) بسيفه الفقهاء الفسقة الفجرة من أمثال شريح القاضي ويحيى بن أكثم وبلعم بعورا وما أكثرهم. وبعد أن يقضي على الدجالين والظلمة في كل مكان. بعد ذلك يعطي الحرية والأمن والرشد والازدهار والطمأنينة لجميع الشعوب.

من أين سينطلق الإمام المهدي (عج)؟

يقول الإمام الصادق عليه السلام لفُضَيْلٍ وللمفضل «والله يا فضيل كأنّي أنظر إليه يدخل البيت الحرام وعليه بردة جدّه رسول الله ﷺ، وعمامة النبي على رأسه، وأمامه شويحات عجاف يسوقهنّ بعصا خفيفة بيده، فلا يعرفه أحد، فيقف بين الركن والمقام فيعلن بصوته. حيث لا يبقى أحد في العالم إلا ويسمع صوت الإمام المهدي ويرى شخصه. بعد إعلانه تبدأ الصيحة من السماء ويجتمع أصحابه وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر، بعدد أصحاب

بدر، فيوزعهم على العالم وكلاء له. ويطلق جبرائيل صيحة من السماء يسميها كل إنسان بلغته، يقول جبرائيل في هذه الصيحة: «ألا يا أهل العالم لقد ظهر مهديّ آل محمّد فاسمعوا له وأطيعوا». ثمّ يتحرك الإمام المهديّ (عج) من مكّة المكرّمة إلى بيت المقدس فيصليّ فيه. وفي هذا بشرى بزوال دولة العصابات الصهيونيّة، وعندما يقف للصلاة فإن ذرّات الضوء والهواء تنقل إلى العالم صورته وصوته، ولا تتوهّموا أنّ ذلك يتمّ عبر التلفزيون، لا، فلا قيمة للتلفزيون في حضارة الإمام المهديّ، حيث كلّ شيء يعكس صورته وينقل صوته فيراه ويسمعه كلّ إنسان وفي أيّ مكان. ويكفي أن ينوي الإنسان في أيّ مكان أن يكون مع الإمام فلمّنه في نفس اللحظة يكون معه. بآية وسيلة يتمّ ذلك، العلم عند الله.

يقف الإمام المهديّ (عج) للصلاة في بيت المقدس، وقبل أن يكبّر ينزل المسيح من السماء الرابعة إلى الأرض، فيتراجع الإمام المهديّ عن المحراب قائلاً لعيسى: «تفضّل يا روح الله، صلّ بنا». فيأخذ عيسى بعقد المهديّ عليه السلام قائلاً له: «بكم تقام الصلاة يا بن رسول الله». فيصليّ الإمام الحجة ويصليّ عيسى وراءه. بعد الصلاة، وبطلب من الإمام الحجة يخرج عيسى إلى الناس فيحيي الموتى ويشفي الأكمه والأبرص والأعمى بإذن الله، ويرى المسيحيون كلّ ذلك فينضوون تحت لواء الإمام المهديّ عليه السلام. ولا يشتر إلا شرار الخلق، فيضع الإمام المهديّ عليه السلام السيف في أعناقهم. وهكذا يقضي على الظلمة والطواغيت والمجرمين. ويعقد محاكمة خاصّة لبعض الفقهاء الذين خانوا الله والرسول وأهل بيته. ثم يحاكم الدجال وهو رجل يُظهر الإسلام ويُظنّ الكفر، فهو عدوّ لدود للإسلام لذلك يحاكمه المهديّ ويقتله وفي هذه الفترة يخرج السفينائيّ يقود جيشاً أمويّاً فينتصر الإمام عليه بإذن الله. والسفينائيّ هذا منسوب إلى سفيان من بني أميّة، ومدة ظهوره لا تتعدّى تسعة أشهر.

بعد ذلك كلّه ينصاع العالم أجمع لحكم الإمام المهديّ عليه السلام الذي

يستمرّ سبعة آلاف سنة يُقتل بعدها المهديّ - أرواحنا فداء - وتفصيل ذلك سيكون في وقت آخر إن شاء الله .

هكذا تعيش الإنسانية في سعادة مطلقة لسبعة آلاف سنة يسود فيها حكم الإسلام . ويتعطل سلطان الشيطان إلّا على بعض النفوس الضعيفة الأماطة بالسوء . ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾^(١).

علامات ظهور الإمام المهدي (عج)

لظهور المهديّ المنتظر (عج) علامات . واعتقد أنّ أغلب هذه العلامات قد تحقّق . وكلّنا نعرف ما يتخبّط فيه العالم من فسق وفوضى وفساد . وما يعانيه الإنسان من ظلم وجور . قال رسول الله ﷺ : «كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً؟» قالوا : «أو يكون ذلك يا رسول الله؟» قال : «وشرّ من ذلك ، كيف بكم إن أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف» . إنّ علامات كثيرة لظهور الإمام المهديّ (عج) تتراقص أمامي ولا أريد أن أذكرها الآن ومن الأفضل أن تبقى سرّاً في ستر الله .

إن ظهور الإمام المهديّ (عج) حقيقة وضرورة ملحة لا بدّ منها لخلاص الإنسانية . والإمام المهديّ (عج) يعيش معنا بلحمه ودمه ونوره . وما علينا إلّا انتظار الفرج بظهوره . قال رسول الله ﷺ : «أفضل أعمال أمّتي انتظار الفرج» . إلّا أنّ هذا الانتظار لا يعني أن نقعد عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وكما قلت لأحد الشباب يوماً . الانتظار بظهور الإمام المهديّ (عج) لا يعني أن نتعطل عن عمل كلّ ما فيه رضا الله تعالى وفيه عزّة وسعادة المسلمين . فانتظارك لطلوع الشمس لا يعني استسلامك لظلام الليل ، بل عليك أن تبدّد الظلام أو بعضه على الأقلّ بالأضواء . وهل

(١) سورة الحجر ، الآية : ٤٢ .

يحصد الفلاح إذا لم يزرع؟ وهل يحصل الطالب على شهادته إذا لم يدرس؟

إنَّ ما نراه من فتن وحروب بين المسلمين مناف للإسلام فالإسلام دين السلام. الإسلام الصحيح نزل في ليلة القدر، وليلة القدر سلام هي حتى مطلع الفجر. فانتظار الفرج بظهور الإمام المهديّ (عج) لا يعني أن نفق متفرجين على دماء المسلمين وهي تُسفك وديارهم وهي تدمر. بل علينا أن نسعى لحقن تلك الدماء وإعمار تلك الديار بجمع كلمة المسلمين وعدم الانجرار وراء السفهاء والمضللين. فالسلام شعار كلِّ مسلم وتحيته. وأنت عندما تصلي وتسلم على الرسول، لا تسلم على شخص ميت. فالرسول ﷺ يرث السلام لمن سلم عليه.

الإيمان بظهور الإمام المهديّ (عج) يبعث الأمان في النفوس، ويعطي القلوب الرجاء ويقتل اليأس والقلق. فعلينا أن لا نكفَّ عن التبشير بهذا الظهور، وعلينا أن لا تقعد عن نشر الإسلام في كلِّ أنحاء العالم. وعلى كلِّ منا أن يكون المثل الصالح لسيرة الإنسان المسلم، ولتوجه إلى الله تعالى ولنردّد مؤمنين: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ... وبذلك أُمِرْتُ وأنا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١).

نعم إنَّ ظهور الإمام المهديّ (عج) محتم وقريب، وأذان: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله». سيعمّ العالم. فعلينا أن نمهد لذلك بإحياء التربية الإسلامية ونشر الأخلاق الإسلامية في جميع أمم الأرض. ولا يكون هذا إلا بترجمة القرآن الكريم ودعم المؤسسات الإسلامية المتواجدة في أفريقيا وأميركا وأوروبا وسائر أنحاء العالم. لا يكون ذلك إلا بمسارعتنا لعمل الخير ﴿ويسارعون في الخيرات﴾^(٢). وخير

(١) سورة الأنعام؛ الآيتان: ١٦٢ و ١٦٣.

(٢) سورة آل عمران؛ الآية: ١١٤.

ما نفعه هو التقيّد بتعاليم القرآن الكريم . قال الرسول ﷺ : « لا يسبقكم بالعمل به غيركم » . وقال الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام : وفي آخر لحظة من حياته : « عليكم بنظم أمركم ، الله الله في نظم أمركم ، الله الله في الأيتام ، الله الله في الصلاة ، الله الله في القرآن » . فعلينا جميعاً أن نفهم هذه الوصايا الكريمة العظيمة وأن نتقيّد بها في سيرتنا وسلوكنا . والإنسان الذي لا يستجيب إلّا لفرائذه وشهواته الحيوانية أضلّ من الحيوان . ﴿ ولقد فرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضلّ ﴾ (١) .

والإمام المهديّ (عج) كجده رسول الله ﷺ يحزن لحزننا ويفرح لفرحنا ، ولا شيء يؤلم قلبه كتفرّق كلمتنا وتنازعنا . ولا شيء يفرح قلبه كوحدةنا ووافقنا . فلندع كلّ يوم ، بل كلّ ساعة ليعجل الله ظهور الإمام المهديّ عليه السلام . وعلينا في كلّ يوم جمعة أن لا ننسى دعاء الندبة ، فنقف ضارعين أمام الله قائلين : « ليت شعري ، أين استقرّ بك النوى ، بل أيّ أرض تقلّك أو ترى ، أبرضوى أم غيرها أم ذي طوى ، عزيز عليّ أن أرى الخلق ولا تُرى . . . أين الحسن ؟ أين الحسين ؟ أين أبناء الحسين صالح بعد صالح وصادق بعد صادق ، أين معزّ الأولياء ومذلّ الأعداء ، أين جامع الكلمة على التقوى ؟ » .

الإمام الحجة (عج) في الكوفة وكربلاء

بعد صلاته في بيت المقدس ينتقل الإمام المهديّ عليه السلام إلى الكوفة ومنها إلى كربلاء وفيها يقف على ضريح جده الإمام الحسين عليه السلام . فيسلم عليه ، فيردّ الإمام الحسين عليه السلام . ويسمع العالم كلّ صوت الحسين

(١) سورة الأعراف؛ الآية: ١٧٩ .

حبيب الله وحبيب رسول الله وهو يرّد السلام قائلاً: «وعليك السلام، يا ولدي وقرّة عيني». فيمدّ الإمام المهديّ يده ويُخرج من القبر الشريف عبد الله الرضيع؛ هذا الطفل الذي قتل في حجر أبيه الحسين عليه السلام. يخرجوه والسهم الذي قتل به لا يزال في نحره. ثم يقول: «ألا يا أهل العالم، ما ذنب هذه الطفولة البريئة؟ ما ذنب هذا الطفل حتّى يقتل عطشان على صدر أبيه؟». ثمّ يسلم عليه قائلاً: «السلام على عبد الله الرضيع، المرمي الصريع، المشحط دمًا، المذبوح في حجر أبيه الحسين، لعن الله راميّه حرملّة بن كاهل الأسديّ وذويه».

والإمام الحجة عليه السلام يرمي بذلك إلى تبيان التضحيات الكبرى التي قدّمها الرسول وأهل بيته في سبيل الإسلام. وما حدث للإمام الحسين عليه السلام في كربلاء، لم يحدث لإنسان. هذا الذي يسقي أعداءه الماء، يقف بينهم عطشان وطفله الرضيع عطشان في حجره ولا يستطيع أبوه أن يوفرّ له قطرات من الماء يبلّ بها شفتي ولده الرضيع. لقد حال الأعداء بينه وبين الماء. ثمّ قتلوه ورفعوا رأسه الطاهر على سنان الرمح. وأطفاله وحرمة بين الخيل والنار يعانون من العطش والجوع. فهل بعد ذلك من تضحيات وجهاد؟

خبر السيد حيدر الحلبي رحمه الله

السيد حيدر الحلبيّ من الحلة في العراق، وكان رحمه الله من العلماء الأجلاء وله حوليات في الشعر. كان في كلّ سنة ينظم قصيدة في مأساة أهل البيت ولا ينشدها إلّا في أربعين عاشوراء وعلى ضريح الإمام الحسين عليه السلام. ذات يوم كان خارج الحلة في جمع من أصحابه، فاستأذنهم في التأخّر عنهم لقضاء حاجة ووضوء. يقول السيد الحلبيّ، بعد أن فرغت من وضوئي ركبت جوادي وتابعت السير في إثر صحيبي. وفي الطريق التقاني شابّ على خدّه شامة، وعلى وجهه سيماء الأنبياء ونور

الصالحين». فسَلَّمَ عليّ قائلاً: «السلام عليكم يا سيّد حيدر». فقلت: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته». قال الشاب: «يا سيّد حيدر، بالله عليك أسمعني قصيدتك الحوليّة التي ستشدها على ضريح الإمام الحسين في الأربعين من كربلاء جرياً على عادتك كلّ عام». يقول السيّد حيدر فأخذتني الدهشة، لقد نظمت الحوليّة إلّا أنّني لم أخبر أحداً بأمرها. وبناءً على طلب الشاب أخذت أنشدها وأحرّك يدي في وجهه الشريف. قلت:

مات التصبّر في انتظارك	يا أيّها المحيي الشريعة
كم ذي العقود ودينكم	هُدَمَتْ قواعده الرفيعه
تنعى الفروع أصوله	وأصوله تنعى فروعه
فيه تحكّم من أباح اليوم	حرّمته المنيعه

ثم تابعت إلى أن وصلت إلى قولتي:

ماذا يهيجك إن صبرت لوقعة الطفّ الفظيعه

فرايت الدموع تسيل على خدي الشاب فتابعت قائلاً:

أُتْرى تجيء فجيعه	بأَمْضٍ من تلك الفجيعه؟
حيث الحسين على الثرى	خيل العدى طحنت ضلوعه

فلَمّا وصلت إلى قولتي:

قتلته آل أميّة	ضامٍ إلى جنب الشريعة
ورضيّعه بدم الوريد	مخضّب فاطلب رضيّعه

قال الشاب: «لا تكمل، بالله عليك يا سيّد حيدر، فليس لي طاقة على سماع كلّ أخبار هذه المصيبة».

قلت له: «من أنت يا سيّدي؟ فقال: «أنا إمامك صاحب الأمر، إنني ذاهب لزيارة جدّي الحسين». قلت له: «متى يكون الفرج يا سيّدي؟».

قال: «يا سيّد حيدر اطلبوا من الله أن يعجّل به، فالأمر ليس بأيدينا، إنّما هو بيد الله سبحانه وتعالى».

هذا ما رواه السيّد حيدر الحلّي، وهو كما قلنا من العلماء الأجلاء الأفاضل. إذا كان الإنسان صادق الإيمان قوي النفس تقياً، فإنّ الله يكشف عن بصره الحجب فيتمكن من رؤية الإمام الحجة (عج) ويتشرف ببقائه، كما حدث للسيّد حيدر الحلّي. أمّا نحن، فإنّ ذنوبنا تحول بيننا وبين رؤية الإمام المهديّ (عج) والتشرف ببقائه. فلنراجع أنفسنا ولنطهّرها من أدران الخطيئة ووساوس الشيطان ليكون لنا ذلك الشرف العظيم.

ربنا تقبل أعمالنا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الإمام المهدي عليه السلام
حضارة العالم في عصر الظهور

(١) حضارة الإسلام في عصر الظهور

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم
تطهيراً﴾ (٢).

حديث أهل الكساء صلوات الله وسلامه عليهم

قالت فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها: دخل علي أبي
رسول الله ﷺ في بعض الأيام فقال: السلام عليك يا ابنتي! فقلت:
وعليك السلام يا أبتاه! قال: يا فاطمة إني أجد في بدني ضعفاً، فقلت:
أعيزك بالله من الضعف يا أبتاه! قال: اتبني بالكساء اليماني فخطبني به!
قالت: فأتيته بالكساء اليماني فغطيته به، ثم نظرت إلى وجهه فإذا به يتلألأ
نوراً كأنه البدر في ليلة تمامه. قالت فاطمة رضي الله عنها: فما هي إلا ساعة فإذا
بالحسن قد أقبل، فقال لي بعد أن سلّم: يا أمّاه إني أشمّ عندك رائحة
طيبة كأنها رائحة جدّي رسول الله ﷺ، فقلت: إي يا قرّة عيني، إن

(١) القيت هذه المحاضرة في الثاني عشر من صفر سنة ١٤١٢ هـ .

(٢) سورة الأحزاب؛ الآية: ٣٣.

جَدُّكَ مُسْتَلَقٍ تَحْتَ ذَلِكَ الْكِسَاءِ . فَأَقْبَلَ الْحَسَنُ نَحْوَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ لَهُ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا جَدَّاهُ ، أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَدْخُلَ مَعَكَ تَحْتَ الْكِسَاءِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : نَعَمْ يَا وَلَدِي وَصَاحِبُ حَوْضِي قَدْ أَذْنْتُ لَكَ ! فَدَخَلَ مَعَهُ تَحْتَ الْكِسَاءِ . قَالَتْ : فَمَا كَانَتْ إِلَّا سَاعَةٌ فَلِذَا بِالْحُسَيْنِ قَدْ أَقْبَلَ ، فَقَالَ لِي بَعْدَ أَنْ سَلَّمَ : يَا أُمَّاهُ إِنِّي أَشَمُّ عِنْدَكَ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ كَأَنَّهَا رَائِحَةُ جَدِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَقُلْتُ : نَعَمْ يَا قَرَّةَ الْعَيْنِ إِنَّهُ جَدُّكَ وَأَخْوَكُ تَحْتَ ذَلِكَ الْكِسَاءِ . فَدَنَا الْحُسَيْنِ ﷺ مِنْ جَدِّهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : أَتَأْذَنُ لِي يَا جَدَّاهُ أَنْ أَكُونَ مَعَكُمْ تَحْتَ الْكِسَاءِ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ يَا وَلَدِي قَدْ أَذْنْتُ لَكَ ! فَدَخَلَ الْحُسَيْنُ مَعَهُمَا تَحْتَ الْكِسَاءِ . قَالَتْ فَاطِمَةُ ﷺ : فَلِمَ تَكُنْ إِلَّا هَنِيئَةً إِذْ أَقْبَلَ أَبُو الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنُ عَلَيَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا ابْنَةُ رَسُولِ اللَّهِ ! قُلْتُ : وَعَلَيْكَ السَّلَامُ يَا أَبَا الْحَسَنِ ! قَالَ : إِنِّي أَشَمُّ عِنْدَكَ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ كَأَنَّهَا رَائِحَةُ أَخِي وَابْنِ عَمِّي رَسُولِ اللَّهِ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ يَا أَبَا الْحَسَنِ هُوَ مَعَ وَلَدِيكَ تَحْتَ ذَلِكَ الْكِسَاءِ . فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولُ اللَّهِ ، أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَكُونَ مَعَكُمْ تَحْتَ الْكِسَاءِ ؟ قَالَ : وَعَلَيْكَ السَّلَامُ يَا أَخِي وَوَصِيِّي وَحَامِلَ لَوَائِي ، قَدْ أَذْنْتُ لَكَ ! فَدَخَلَ عَلَيَّ مَعَهُمُ تَحْتَ الْكِسَاءِ . قَالَتْ فَاطِمَةُ ﷺ : فَدَنَوْتُ مِنْهُمْ وَقُلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : أَتَأْذَنُ لِي يَا أَبْتَاهُ أَنْ أَكُونَ مَعَكُمْ تَحْتَ الْكِسَاءِ ؟ قَالَ : قَدْ أَذْنْتُ لَكَ يَا ابْنَتِي ! فَدَخَلْتُ مَعَهُمْ تَحْتَ الْكِسَاءِ قَالَتْ : فَلَمَّا صَرْنَا جَمِيعًا تَحْتَ الْكِسَاءِ أَخَذَ أَبِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَطَرْفِيهِ وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ الِیْمَنَى نَحْوَ السَّمَاءِ وَقَالَ : االلَّهُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءَ أَهْلَ بَيْتِي وَخَاصَّتِي وَحَامَتِي ، لِحَمَمِهِمْ لِحَمِي وَدَمِهِمْ دَمِي ، يُوَلِّمَنِي مَا يُوَلِّمُهُمْ وَيَحْزَنُنِي مَا يَحْزَنُهُمْ ، أَنَا حَرْبٌ لِمَنْ حَارَبَهُمْ وَسَلَمٌ لِمَنْ سَالَمَهُمْ ، فَاجْعَلِ اللَّهُمَّ صَلَوَاتِكَ وَبَرَكَاتِكَ وَتَحِيَّاتِكَ وَرَحْمَتِكَ عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ وَادْهَبْ عَنْهُمْ الرَّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا ! قَالَتِ الزَّهْرَاءُ ﷺ : فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مَلَائِكَتِهِ وَأَهْلِ سَمَاوَاتِهِ قَالَ : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي ، إِنِّي مَا خَلَقْتُ سَمَاءً مَبْنِيَّةً وَلَا أَرْضًا مَدْحِيَّةً وَلَا قَمَرًا مَنِيرًا وَلَا شَمْسًا مُضِيئَةً وَلَا فَلَكًا

يدور ولا بحراً يجري ولا فُلْكَاً تسري إلا لمحبة هؤلاء الخمسة الذين هم تحت الكساء! فقال الأمين جبريل ﷺ : ومن تحت الكساء يا رب؟ قال: هم أهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة، فاطمة وأبوها ويعلمها وبنوها. فقال جبريل: أتأذن لي يا رب أن أكون سادسهم؟ فقال سبحانه وتعالى: قد أذنتُ لك! فهبط جبريل ﷺ ، فدنا من الكساء وقال: السلام عليك يا رسول الله! إن الله العليّ الأعلى يقرئك السلام ويخصّك بالتحية والإكرام ويقول لك: وعزّي وجلالي إني ما خلقت سماءً مبنية ولا أرضاً مدحية ولا قمراً منيراً ولا شمساً مضيئة ولا فُلْكَاً يدور ولا بحراً يجري ولا فُلْكَاً تسري إلا لأجلكم أنت وأهل بيتك يا رسول الله؛ وقد أذن لي سبحانه وتعالى أن أهبط إلى الأرض لأكون سادسكم، فهل تأذن لي يا رسول الله؟ قال: نعم قد أذنتُ لك يا أمين وحي الله! قالت فاطمة ﷺ : فدخل الأمين جبريل معنا تحت الكساء وهو يتلو ما أنزل الله تعالى على لسانه: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾^(١). فقال علي: يا رسول الله ما لوجودنا تحت هذا الكساء عند الله من الفضل؟ قال ﷺ : والذي بعثني بالحق نبياً واصطفاني بالرسالة نجياً ما ذكر خبرنا هذا في محفل من محافل أهل الأرض وفيهم جمع من شيعتنا ومحبينا إلا وحفت بهم الملائكة ونزلت عليهم الرحمة إلى أن يتفرّقوا! قال علي: إذا والله فرزنا وسعدنا نحن وشيعتنا في الدنيا وفي الآخرة! قال رسول الله ﷺ : يا علي، والذي بعثني بالحق نبياً واصطفاني بالرسالة نجياً ما ذكر خبرنا هذا في محفل من محافل أهل الأرض وفيه جمع من شيعتنا ومحبينا وفيهم مهموم إلا فرّج الله همّه، ولا مغموم إلا كشف الله غمّه، ولا طالب حاجة إلا قضى الله حاجته! قال علي ﷺ : إذا والله فرزنا وسعدنا نحن وشيعتنا يا رسول الله في الدنيا والآخرة!

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٣٣

حديث أهل الكساء متفق عليه بين جميع المسلمين

افتتحنا مجلسنا أيها الأحبة بهذا الحديث المبارك على دعاء أهل الكساء يصيبننا فنكون من شيعتهم ومحبيهم فنفوز ونسعد في الدنيا والآخرة بفضل الله ومنه وجزيل عطائه. وأحب أن أشير هنا إلى أن هذا الحديث لم يذكره الشيعة فقط، بل ذكرته جميع الطوائف الإسلامية الأخرى في صرحهم لكن بصيغ مختلفة وإن كان المضمون واحداً. ومضمون هذا الحديث الذي يبين أن الآية الكريمة نزلت في هؤلاء الخمسة أهل الكساء سلام الله عليهم، مذكور في صحاح أهل السنة بشكل مسهب وواضح، فهو في صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وفي مسند الإمام أحمد وموطأ الإمام مالك، وفي غيرها من الكتب المعتمدة؛ ولكن للأسف لا نكاد في يومنا هذا نسمع لهذا الحديث ذكراً في الإذاعات أو على المنابر، فالنفوس ضعفت والإيمان تزعزع والعلاقة بأهل البيت تزلزلت، والزمن تغير، وهذا أيها الأحبة مما يحز في نفوسنا ويجعلنا نتضرع إلى الله تعالى أن يهدي الجميع إلى الحق وينير طريقهم.

إذاً النقطة الأولى التي أحببت أن أشير إليها هي أن هذا الحديث لا تجدونه فقط في مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي، ولكن تجدونه أيضاً في جميع الكتب التي ذكرت وفي كتب أخرى لم أذكرها.

بيان معنى حديث الكساء

أما النقطة الثانية أيها الأخوة فهي بيان معنى هذا الحديث.

من الطبيعي أننا كلما سمعنا هذا الحديث فإننا نشعر بنور أهل البيت يفيض علينا، ونحن عندما نقرأه أو نسمعه فإننا نفعل ذلك تبركاً بذكرى آل بيت رسول الله ﷺ؛ وهذا جانب. أما الجانب الآخر فهو تقصينا عن المحتويات الحضارية لكل حديث يرد عن أهل البيت، وخصوصاً هذا الحديث. ففي حديث الكساء يتبين لنا أول ما يتبين أن جميع الكائنات

مدينة بخلقها من ناحية ما لأهل البيت، حيث يقول فيه سبحانه وتعالى :
 «وعزتي وجلالي إني ما خلقت سماءً مبنيةً ولا أرضاً مدحيةً... الخ»
 الحديث. فمن هنا نرى أنه ليس فقط شيعة أهل البيت هم المعنيون بهذا
 الحديث، بل كل البشر أيضاً مرتبطون ارتباطاً وثيقاً بهذا الحديث من حيث
 مضمونه.

ثم إذا ما تابعنا قراءة الحديث نجد فيه لفظة حضارية تلخص الإنسان
 وتلخص الهدف الذي خلق من أجله، ألا وهو مشاركته لإخوته من بني آدم
 في كل ما ينوبهم؛ ففي سياق الحديث أن أمير المؤمنين علي عليه السلام يلتفت
 إلى النبي ﷺ فيسأله: «يا رسول الله ما لوجودنا تحت هذا الكساء عند الله
 من الفضل؟» فيجيبه النبي ﷺ: «والذي بعثني بالحق نبياً واصطفاني
 بالرسالة نجياً ما ذكر خبرنا هذا في محفل من محافل أهل الأرض وفيهم
 جمع من شيعتنا ومحبينا إلا وحفت بهم الملائكة ونزلت عليهم الرحمة إلى
 أن يتفرقوا». ثم يعيد عليه أمير المؤمنين السؤال كرهة أخرى، فيجيب
 رسول الله ﷺ قائلاً: «والذي بعثني بالحق نبياً واصطفاني بالرسالة نجياً ما
 ذكر خبرنا هذا في محفل من محافل أهل الأرض وفيه جمع من شيعتنا
 ومحبينا وفيهم مهمومٌ إلا فرج الله همُّه، ولا مغمومٌ إلا كشف الله غمُّه، ولا
 طالب حاجة إلا قضى الله حاجته».

حتى وهم تحت الكساء خمسة سادسهم جبريل يفكرون بهموم الناس
 ويدعون الله تعالى أن يزيلها ويفرجها. فنحن عندما نرى هذا المعنى نفهم
 بوضوح ماذا تعني الحضارة الإسلامية، ونعرف أهمية أهل البيت بشكل
 مباشر، نعرف أنهم رحمة للعالمين ونفهم حيثذ معنى قوله ﷺ: «إني
 تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن
 تضلوا أبداً». فكما القرآن أنزل رحمة للعالمين، كذلك أهل البيت.

الحضارة تقوم بأهل البيت عليهم السلام

لولا أهل البيت أيها الأحبة لما قام للإسلام قائمة ولما بقي له باقية، والإسلام لا يزال عظيماً رغم كل الظروف والمحن التي مرّت به بفضل أهل البيت وفكر أهل البيت. فأهل البيت هم الذين حفظوا الإسلام في وجود الحكام الظلمة الفساق الفجرة كيزيد وعبد الملك بن مروان وابن زياد والحجاج؛ وأهل البيت هم الذين حفظوا القرآن وأوصلوه إلى كل بقاع الدنيا، وبفكر أهل البيت حكم المسلمون الأندلس طيلة ثمانية قرون، وعندما بدأ الناس يبتعدون عن أهل البيت أخذ الصليبيون الأندلس فحولوها إلى إسبانيا.

أنتم أيها الأخوة تملكون الإسلام والقرآن وأهل البيت، فأَيُّ شعب من الشعوب لديه ما لديكم؟ هل المسيحيّ أو اليهوديّ أو البوذيّ كُرمَ بقرآن كقرآنكم؟ هل لدى هؤلاء مفكرون أو عظماء كعظماائكم؟ التقيت مرة بأحد الإنكليز فسألته عن أعظم مفكر عندهم، فقال لي: شكسبير؛ وكان في حوزتي نسخة مترجمة إلى الإنكليزية من «نهج البلاغة» فأطلعته على بعض محتواها، فذهل؛ ثم قدمت له الكتاب وقلت له: طالعُه حتى تعرف من هو علي بن أبي طالب. فأخذ الكتاب وقراه ثم اعتنق الإسلام بعده، فسئل: كيف آمنْتَ برسول الإسلام؟ فقال: آمنْتُ به من خلال عليٍّ؟ قيل له: كيف ذلك؟ قال: الذي يرَبِّي مثل علي بن أبي طالب لا شك أنه أعظم العظماء ولا شك أنه موحى من ربِّ العالمين.

هذا أيها الأخوة رجل بحث عن الحقيقة فوجدها في الإسلام من خلال عليٍّ. والذي يعتنق فكر عليٍّ لا شك أنه على بصيرة من أمره وهدى من ربه. لقد آمن هذا الرجل بعد أن اطلع على فكر أهل البيت الذي هو فكر النبوة، والمؤمن لا شك منسجم مع نفسه كما هو منسجم مع الكون والكون منسجم معه، فعندما يحصل الإيمان يتضح كل شيء ويتناغم مع

كل شيء؛ لذلك فإن المؤمن عندما يصلي تستغفر له الأرض التي يصلي عليها، وقد كان الإمام زين العابدين عليه السلام يصلي عند كل نخلة ركعتين حتى تكثر البقاع التي تستغفر له وتشهد أنه صلى خاشعاً. وإذا ما مات المؤمن بكاه موضعان: موضع في الأرض وموضع في السماء، في الأرض موضع صلاته، وفي السماء مستقر عمله الصالح. فإذا كان كل ما في الكون ينسجم مع المؤمن فما بالك بالمعصوم؟ وما بالك بأهل الكساء؟ لماذا يذكر سبحانه وتعالى أنه ما خلق أرضاً ولا سماءً ولا شمساً ولا قمرًا ولا بحرًا ولا فلوكًا إلا من أجل هؤلاء الخمسة؟ يريد سبحانه أن يبين لكل ذي عقل أنه ما خلق هذا الكون إلا ليقوم على الحق والعدل، فربط خلقه للكون بأهل البيت ليضع أمام أعيننا الفكرة واضحة، وهي أن أهل الحق والعدل هم أهل البيت. فالحق معهم وهم مع الحق، كما قال رسول الله ﷺ: «عليّ مع الحق والحق مع عليّ» يدور معه حيثما دار، فلا فصل هنا بين الحق وبين عليّ كأنهما شيء واحد.

انطلق الإسلام بفضل الخمسة أصحاب الكساء، واستمر الإسلام بفضل أبناء فاطمة من الأئمة المهديين، ويعم الإسلام العالم اليوم بفضل أحد هؤلاء الأبناء وهو المهدي المنتظر سلام الله عليه. ولأدخل معكم الآن بشيء من التوضيح للبحث الذي أريد أن أخرج بنتيجة منه.

الزمن موجود داخل الإنسان

كل إنسان يرتبط بإطار زمني ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الماضي والحاضر والمستقبل. ولا أحد يستطيع أن يقلت من واحد من هذه الأزمان الثلاثة. بعض الناس يتعثرون فيخسرون أعمالهم فتكون النتيجة ضياع أنفسهم، وبعضهم يملأون ماضيهم وحاضرهم بالأعمال الصالحة فيربحون مستقبلهم وأنفسهم. فالمستقبل يحدده الماضي والحاضر. وأشير هنا إلى أن للزمن وجوداً داخلياً في الإنسان، وهذه حقيقة يجب أن نعرفها، وقد

حدثتكم مرة أن الذرة لها مدخلة بحياة الإنسان، لأن الله تعالى يحاسبنا على مقدارها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(١)، وكما قال: ﴿يَا بَنِي إِدْرَا إِنَّ تَك مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾^(٢)، وقال: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُفًى بِنَا حَاسِبِينَ﴾^(٣). فإذا كانت الذرة وحبة الخردل معتبرة في الحساب وداخلة في حياتنا فلا شك أن الزمن أيضاً داخل في حياة الإنسان. ووجود الزمن الداخلي حقيقة لم يستطع أينشتاين أن يتوصل إليها في نظريته النسبية، جُلَّ ما توصل إليه أن الزمن هو البعد الرابع، ولم يتعرف إلى حقيقته في داخلنا؛ لأن أينشتاين بحث في نظريته من وجهة نظر فيزيائية مادية بحتة، ولم يتطرق إلى الجوانب الروحية من المسألة، وكيف يتطرق إليها وهو لم يتلق علمه من أهل البيت؟ فنحن إذا كنا نعلم المسألة من كل جوانبها فليس ذلك إلا لأننا تعلمناها من أهل البيت. وأوضح لك الآن كيفية وجود الزمن في داخلك.

كل إنسان لديه منهج في الحياة، في تمضية أوقاته وساعاته، فعندما يقصر أحد منا في ساعة من تلك الساعات يشعر بالغم في أعماقه، وذلك لأن الزمن موجود في داخلنا، فعندما نرى أن ساعة ما قد ضُيِّعت في غير ما رسمناه لها نشعر بأن شيئاً قد نقص في داخلنا، وهذا الشعور يظهر بشكل خاص عند المؤمن الذي يملأ ساعة من ساعاته في غير طاعة الله، عندها يشعر بأن نقصاناً ما قد أصابه فينبى إلى طاعة الله ويستغفره. فالزمن إذاً داخلي، والساعات قسم من الإنسان نفسه، وإذا كان الأمر كذلك فإن ساعة

(١) سورة الزلزلة؛ الآيتان: ٧ و ٨.

(٢) سورة لقمان؛ الآية: ١٦.

(٣) سورة الأنبياء؛ الآية: ٤٧.

نمضيها في غير ما يرضي الله تشكّل عامل نقصان في إنسانيتنا. فإذا أمضيت ساعة في الغيبة والنميمة نقصت شيئاً، وإذا أمضيت ساعة أخرى بمجالسة سلطان ظالم نقصت شيئاً؛ والسلطان الظالم لا يريد منك سوى أن تتابعه في ظلمه حتى ييسّر لنفسه عمله. وأهل البيت شدّدوا في الظلم وأوعدوا عليه وعلموا شيعتهم تجنبه؛ دخل طاوس اليماني على المنصور، فقال له: يا طاوس ناولني المحبرة! قال: لن أفعل ذلك، قال: لماذا؟ قال: أخشى أن تستعملها لكتابة أمر بظلم العباد فأكون أنا شريكك في ذلك، فقال المنصور مهدداً: أنقول هذا بحضرتي يا طاوس؟ قال: إي والله هكذا علمني جعفر بن محمد. نعم هكذا علمه الإمام الصادق عليه السلام أن العامل بالظلم والساعي به والراضي به يحشر مع الظلمة في سراقق من نار حتى يأمر بهم الله تعالى بأن يلقوا في جهنم.

وليس ظلم النفس في الأمور العظيمة فقط، بل هو في الأمور الصغيرة اليومية أيضاً؛ ويتضح ذلك أكثر ما يتضح في نطاق الأسرة، في تعامل الأب مع زوجته وأولاده، وتعامل الأم مع بعلمها وأولادها، وتعامل الأولاد بعضهم مع بعض، فالأسرة مقياس حقيقي للإنسان ليعرف ما إذا كان قد أمضى هذه الساعة في عمل يرضي الله أو في عمل يسخطه. فالزمن بما أنه في الحقيقة موجود في داخل الإنسان فهو فرصة عظيمة علينا أن نغتنمها لنكتسب رصيداً في ميزان الأعمال؛ يقول الله تعالى: ﴿فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب﴾^(١)، يعني اتّجه إلى العمل بما يرضي ربك، ولا تترك نفسك فارغاً من ساعة تقتنصها في العمل الصالح.

لاحظوا أيها الأخوة، بما أن الزمن داخلي في الإنسان، فإن المؤمن فقط هو الذي يشعر بأهميته الحقيقية؛ فكما قلنا عندما تمر ساعة في حياة المؤمن يشعر فيها أنه أغضب الله سبحانه، فإن هذا المؤمن ينبس إلى ربه

(١) سورة الشرح؛ الأيتان: ٧ و ٨.

ويستغفره لأنه أحسَّ بفقدان شيء منه، بينما الإنسان المجرد من الإيمان يعيش في الحاضر فقط ولا يهتم الزمن الماضي، فتكون النتيجة أنه لا يتعلم من التجارب الماضية ولا يستفيد منها، فيبقى على غيِّه وضلاله ويفرق في شرِّ أعماله. يقول رسول الله ﷺ: «المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين»، هذا يعني أنه يتعلَّم من تجاربه السابقة ويأخذ العبرة من كل ما ساءه مرة فلا يكرّر نفس الخطأ مرتين، وإذا ما كرّر الخطأ يندم ويستغفر. والمؤمن يلتزم بالماضي لأنه يؤمن بالمستقبل، والجاحد بما أنه يعيش في الحاضر فقط فإن الماضي لا يعني له شيئاً والمستقبل لا وجود له عنده.

المستقبل للإسلام

لقد تكلمنا عن الماضي والحاضر فلنتنقل الآن إلى الكلام عن المستقبل.

نحن نعيش اليوم على كرة أرضية تكاد تسيطر عليها قوة عظمى وحيدة، هي الولايات المتحدة الأميركية؛ وهذه الدولة التي هي أقوى دولة اليوم لا تملك رؤية واضحة ومتكاملة للمستقبل، لذلك فإننا نرى أن المرض المستشري اليوم في المجتمع الأمريكي هو مرض «القلق»، فكل مواطن أمريكي قلق على المصير وخائف من المستقبل؛ وحكومة الولايات المتحدة بكل عظمتها وقوتها لا تستطيع أن تسمح الخوف والقلق من عيون النساء والأطفال والشباب والشيوخ، لماذا؟ لأن الاطمئنان لا ينبع إلا من فطرة سليمة وعقيدة راسخة؛ وهنا بيت القصيد، فإذا رجعت إلى القرآن وإلى أهل الكساء أدركت تماماً ماذا يعني المستقبل، وأيقنت تماماً أن المؤمن لا يمكن أن يملكه هاجس القلق بالمعنى الذي وصفنا. فالمسلم يعلم أن المستقبل بيد الله، فيعلم بالتالي أن المستقبل خير إذا ما أطاع الله، وهذا ما يسمى في الإسلام «التوكل»، فلا خوف هنا ولا قلق. ومن ناحية أخرى فإن القرآن يبشِّرنا أن الحق هو الذي سيتصرّ مهما علا الطاغوت وعظم،

ولذلك فإن المؤمن يدرك بشكل قاطع أن المستقبل له وليس للظلمة الكفرة؛ لأن الله وعده بذلك ووعد الله حقاً. وإذا ما رأينا طاغية ما من هنا أو من هناك يسحق جيشاً أو شعباً بواسطة سلاحه، فهذا لا يعني أنه انتصر، والدليل الأكبر على ذلك الإمام الحسين عليه السلام الذي واجه سيوف يزيد وأعدائه، ولكن العالم كله أدرك عندها ويدرك اليوم أن الحسين هو الذي انتصر ويزيد هو الذي انهزم، لأن مبادئ الحسين هي التي بقيت، واعتنقها كل المؤمنين، بينما فسق يزيد قبول ولا يزال يقابل بالاشمئزاز من الجميع. واليوم بعد ١٣٥٠ سنة يأتي غاندي محرر الهند فيقول: إنني تعلمت من الحسين بن علي كيف أكون مظلوماً فانتصر؛ وانتصر غاندي في معركته لأنه اعتنق المبدأ. فإذا اعتبرنا أيها الأخوة أن الميزان هو السلاح فهذا يعني أن كل الأنبياء قد هزموا، وليس هذا الواقع، بل الحقيقة أن كل الأنبياء انتصروا لأن مبادئهم انتصرت.

اقتراب زمان ظهور الإمام الحجة عليه السلام

إيماننا بالمهدي يعني الإيمان بالمستقبل؛ لأن المستقبل له ولكل المسلمين. وقد تحدث الرسول ﷺ عن المهدي وعن علامات ظهوره، وأشار أهل البيت إلى قرب ظهور المهدي. وأنا الآن أشعر أن زمن ظهوره قد قرب، ونحن الآن نعيش في عصره. أقول هذا لأن أكثر من ٩٠ بالمئة من علاماته قد تحققت، راجعوا بحار الأنوار للعلامة المجلسي (المجلد ٥١)، وتصفحوا الكتب الأخرى: كتاب يوم الخلاص، كتاب كلمة الإمام المهدي، كتاب الإمام المهدي من المهد إلى الظهور، وغيرها من الكتب التي وضعها علماؤنا الأبرار الملتزمون بنهج أهل البيت. كل هذه الكتب تذكر بوضوح علامات الظهور، وجزء كبير من هذه العلامات تحقق، ولم يبق إلا الجزء اليسير.

ومن هذه العلامات التي ذكروها: خسف في البيداء وحريق في

الصحراء - ولست هنا بصدد ربط هذه العلامات بعملية درع الصحراء التي حدثت مؤخراً في الجزيرة العربية - ولكن لا بد من تفسير معنى قوله خسف في البیداء وحريق في الصحراء، والحريق يكون عادة في الغابات أو في الأماكن القابلة للاحتراق، ولكن في الصحراء؟! الإمام زين العابدين عليه السلام يذكر قسماً من الذنوب التي تسبب ظلاماً في الهواء بسبب الدخان، وهذه الذنوب هي التي تحبس الدعاء وتقطع الرجاء. ونحن عندما نذكر الإمام زين العابدين نقول: اللهم اغفر لنا الذنوب التي تظلم الهواء! فما هي هذه الذنوب التي تظلم الهواء؟ إنها الظلم؛ لأن الظلم ظلمات يوم القيامة، ونحن إذا لم نقف في وجه الظلم نكون خائنين في حق أنفسنا وحق الآخرين. فالظلم من أبشع الذنوب، فهو يؤدي إلى زوال طهارة النفس وزوال الأسرة وزوال الدول والأمم والشعوب. والظلم بمعناه اللغوي والشرعي هو وضع الأمور في غير مواضعها المناسبة، فيندرج تحت الظلم كل الموبقات، من الزنا وشرب الخمر ولعب الميسر والربا والكذب والنفاق والغيبة والنميمة... كل ما ذكر ظلم؛ ولكي نطهر أنفسنا علينا أن نزيل هذه الأوباق منها. ولا أدعي هنا أنه بإمكاننا تحويل مجتمعنا إلى مجتمع ملائكي خالٍ تماماً من الذنوب صغيرها وكبيرها؛ ولا أدعي ذلك لأنه ليس بالإمكان، فالشيطان موجود والنفس الأمارة بالسوء موجودة؛ ولكن لنخفف على الأقل من غلواء الشيطان فنحاول قدر طاقتنا استغلال أوقاتنا فيما يرضي الله، ولنحاول قدر طاقتنا مساعدة المظلومين ولو بقلوبنا إذا لم نستطع ذلك بأيدينا. فنحن نعلم أن الظلم مهما تمادى فإنه لا بد وأن ينتهي لأن الله يمهّل ولا يمهّل. وما فعله صدام الظالم بشعب الكويت دليل على ما أقول. وبالمناسبة أذكر لكم هذه الحادثة التي تؤيد ما ذكرته لكم. ففي اليوم الذي حصلت فيه الضربة الجوية ضد صدام كنا في طهران بضيافة أحد الأخوة الأفاضل، وكان من جملة الموجودين في المجلس آنذاك الشيخ الشهرودي والحاج علي الصالح. وبعد تناول الطعام جرى ذكر حديث

طاغية بغداد، فتساءل بعض الحضور هل صدام سيضرب أم لا؟ فأجمع الحاضرون غيري على أن المؤشرات تدلّ على أن الطاغية لن يُضرب، لأنه يمثل مصالح الدول المستكبرة في المنطقة؛ ولكنني خالفت الجميع في رأيهم هذا وقلت لهم: سينهزم صدام الطاغية خلال ساعات ويخرج من الكويت بإذن الله. قالوا: وكيف تجزم بذلك؟ قلت: لأمرين، أحدهما لثقتي بالله وثقتي أن الظلم لن يطول أمده، والأمر الثاني أنني سمعت هذا الصباح برنامج «شؤون الساعة» من إذاعة لندن فكان استنتاجي بعد استقراي للأحداث أن الضربة أصبحت وشيكة.

وهكذا كان، فلم تمض ساعات إلا وجميع الإذاعات تنقل إلى العالم نبأ ضرب صدام وخروج قوّاته من الكويت. فلم تسعني الفرحة حيثئذ، فاتصلت بالشيخ مرتضى الشهرودي فبشرته بالخبر السعيد فلم يكتم سعادته، وقد أبدى الحاج علي الصالح أيضاً سروره للنبا السعيد.

وأنا أيها الأخوة لست قارئاً للفنجان ولا منجماً؛ ولكن أعرف بكل بساطة أن المستقبل للإسلام وأن الله تعالى مع الحق، ولذلك أستطيع بكل يقين أن أبشركم أن الظلمة سينتهون من هذه المنطقة ومن كل مناطق العالم، وهذا اليوم قريب إن شاء الله؛ لأن علامات ظهور المهدي عليه السلام قد تحققت معظمها كما ذكرت لكم؛ خسف في البیداء وحريق في الصحراء... ولكن أهم علامة من علامات الظهور هي التي ركّز عليها النبي ﷺ وأهل بيته، وهي انتشار الظلم والجور في العالم، وحيث يظهر الإمام ليملأ الدنيا عدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً. ثم عندما يظهر سيكون له أصحاب بعدة أصحاب يوم بدر، ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً؛ يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «يتجمعون كما يتجمع قزع الخريف» - والقزع يعني السحاب - وقد أشار عليه السلام إلى أنهم يتجمعون كما يتجمع سحاب الخريف، ولم يقل سحاب الشتاء، لأن سحاب الشتاء يكون متراففاً بعضه فوق بعض، بينما سحاب الخريف يكون متباعداً ومتناثراً ثم يتجمع. وهكذا

يتجمع أصحاب المهدي عليه السلام ، يكونون متناثرين في بلاد الله الواسعة ثم يجتمعون كما يتجمع قزح الخريف. يجتمعون تحت لواء الإمام الحجة في مسجد الكوفة. وقبل أن يخرج الإمام الحجة سيخرج رجل من الشام يقال له السفياي، فيتبعه خلق كثير. حينئذ يتحرك المهدي عليه السلام مع أنصاره إلى مكة المكرمة، فيطوف بهم بين الركن والمقام، ثم يسند ظهره إلى الركن ويتكلم، فيسمعه العالم كله ويرون شخصه. فتوجه إليه جميع القلوب المؤمنة في العالم، ليس فقط المسلمون منهم، بل النصارى أيضاً؛ وذلك لأن أم الإمام المهدي نرجس -روحي فداها- أبوها أحد أحفاد يوشع من حواربي عيسى عليه السلام.

وقصة زواج الإمام العسكري والد المهدي عليه السلام من نرجس وصلتنا من أهل البيت، ومختصر هذه القصة: أن نرجس كانت تعيش في بلاد الروم، وكانت مخطوبة لابن عمها. وفي الليلة الموعودة لعقد قرانها على ابن عمها في الكنيسة، إذا بريح صرصر عاتية تضرب المدينة، فتعطل حفل الزفاف. فارتأى الناس تأجيل الحفل إلى موعد آخر. وفي الموعد المنتظر تهبّ ريح أخرى فتعطل الحفل وتلغي المراسيم، فيقوم أحد كبار الرهبان فيخطب الجمع قائلاً: إن وراء هذا الأمر سرّاً من الأسرار. وفي تلك الليلة تشاهد نرجس في نومها فاطمة الزهراء عليها السلام برفقة مريم العذراء أم المسيح عليه السلام، ومعهما الإمام العسكري عليه السلام. فتقول فاطمة لنرجس: هذا ابني وأنا أخطبك له. فتقول نرجس: وكيف أصل إليه؟ تقول الزهراء عليها السلام: ستصل جيوش المسلمين إليكم فيقع أسر وسبي، فعليك أن تنكري بشباب عامة الشعب حتى لا يعرفوا أنك من بنات الملوك، فستبين بين السبايا، ثم تغفلين إلى بغداد، وعلى جسر بغداد تأتيك رسالة من ولدي علي بن محمد الهادي يخطبك لولدي هذا الحسن العسكري، وستحملين حجة الله في الأرض المهدي الذي سيخلص العالم من الظلم والجور.

وهكذا كان، فبعد أن سُببت نرجس ونقلت إلى بغداد وصلها كتاب

الإمام الهادي عليه السلام يخطبها فيه إلى ابنه الحسن العسكري عليه السلام ، فقُبِلَت الكتاب ، ثم انتقلت إلى دار الإمام الهادي حيث تم قرانها على الإمام الحسن العسكري ليلة النصف من شعبان سنة ٢٥٥ هـ .

انتصار المهدي عليه السلام

وانتصار حضارة الاسلام

إذا ، يتوجه الإمام الحجة عليه السلام مع أصحابه إلى مكة ، فيخاطب العالم من هناك ، فتبعه جميع الأمم المسيحية لسببين : السبب الأول أن أمه نرجس كما ذكرنا ، والسبب الثاني أن عيسى عليه السلام ينزل من السماء فيصلّي خلفه . فلا يبقى مسيحي على وجه الأرض إلا ويؤمن به ؛ ولا يجحده حينئذ إلا اليهود ، فيفنيهم عن بكرة أبيهم كما ورد في الأحاديث والأثار حتى إن الحجر ينادي المسلم قائلاً : يا مسلم خلفي يهودي مختبئ تعال فاقتله .

حينئذ ينير الإمام الحجة عليه السلام بطلعته البهية وتشرق حضارته التي هي حضارة الإسلام على كل بقاع الأرض . فاجعلنا اللهم من الذين يرون هذا اليوم العظيم ! وهذا اليوم قريب أيها الأخوة ، وأنا والله أراه أمام عيني ، صدّقوا هذا ولا تشككوا فيه ! وأنتم ترون أن العالم قد تغيّر تغيّراً جذرياً خلال عشر سنوات ، وستتغيّر خلال السنوات المقبلة تغيّراً أكثر جذرية ، ففي عصر الظهور وانتصار الحق سيصبح العالم على صورة غير ما نراها اليوم ، سيتفني الظلم وينتهي الجهل والمرض وسيعمّ الأمن والأمان والسلام ، وسيطبق القرآن كما أنزل ، وستقام حكومة الله على الأرض ، ونرى أماني أهل بيت النبي قد تحققت .

اللهم انصر الإسلام والمسلمين واخذل الكفر والكافرين يا أرحم الراحمين ، واكشف اللهم هذه الغمة عن هذه الأمة وأرنا الطلعة الرشيدة والفترة الحميدة ، إنك سميع مجيب .

اللهم إنا نرغب إليك في دولة كريمة تعز بها الإسلام وأهله وتذل بها

النفاق وأهله وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك والقادة إلى سبيلك وترزقنا
بها كرامة الدنيا والآخرة .

إلى هنا نكون قد أتينا على آخر محاضرة من المحاضرات التي دارت
حول هذا المحور المقدس ونسأل الله التوفيق لكم ولنا .

محتويات الكتاب

٥	مواقف رائعة من حياة الامام علي بن الحسين (ع)
٧	مواقف من سيرة الامام زين العابدين (ع)
١٠	العلم يتوجه نحو الإسلام لأنه يرى فيه طريق الخلاص
١١	الإمام زين العابدين (ع) يحفظ الإسلام وينشره
١٢	الزمن الذي عاشه الإمام السجّاد (ع)
١٦	كيف كان الإمام زين العابدين ينشر الإسلام
٢١	الإمام زين العابدين (ع) ربط الناس بالله تعالى
	الإمام زين العابدين (ع) يضع قواعد الأساس لمدرسة الإمام
٢٨	الصادق (ع)
٢٨	المزيد من أنوار الإمام زين العابدين (ع)
٣٢	خطبة الإمام زين العابدين (ع) في مجلس يزيد بن معاوية
٣٧	الامام السجّاد رجل الفكر والعقيدة
٣٩	زين العابدين (ع)
٣٩	مصير الإنسان بيده
٤١	بالمعقل نعرف الله

٤٣		على التنبؤ بالمستقبل
٤٧		إنما يحتاج إلى الظلم الضعيف
٥١		الإمام زين العابدين (ع) يهز جماهير المؤمنين
٥٥		دعنا نتزود ونشبع وداعاً
٥٧		الامام الباقر (ع) محبوب الرسول (ص)
٥٩		الامام الباقر (ع)
٦٣		الإمام الباقر : إمام العلم والإيمان
٧٠		بعض مواقف الإمام الباقر (ع)
٩١		الامام محمد بن علي الباقر (ع) صوت الحضارة الاسلامية
٩٣		الامام الباقر (ع) صوت الحضارة الاسلامية
٩٣		مقدمة
٩٥		العلم لا يكمل إلا بالإيمان
٩٧		ضرورة تقليد المجتهدين
٩٩		تتلذذ أئمة المذاهب الأربعة على الإمام الصادق (ع)
٩٩		العالم الإسلامي قديماً وحديثاً
١٠٠		فضل صلاة الليل
١٠١		الإمام الباقر (ع)
١٠٣		وصية الإمام الباقر (ع) لعمر بن عبد العزيز
١٠٤		الإمام الباقر (ع) يقترح نظاماً نقدياً جديداً
١٠٥		الباقر (ع) يجيب على بعض الأسئلة والألغاز
١٠٧		الباقر (ع) يعظ محمد بن المنكدر
١٠٧		الوقوف في وجه الظلم من الإيمان
١١١		في جامعة الامام جعفر بن محمد الصادق (ع)
١١٣		الامام الصادق (ع)

١١٩	من مناظرات الإمام الصادق وأجوبته
١٢١	أجوبة الإمام الصادق للمنصور العباسي
١٢٣	الإمام الصادق وأبو حنيفة
١٢٥	الإمام الصادق وعمرو بن عبيد
١٢٩ و ١٣١	الدين والحضارة عند الإمام الصادق (ع)
١٤١	الإمام وسفيان الثوري
١٤٥	شيء من سيرة الإمام موسى بن جعفر (ع)
١٤٧	من سيرة الإمام موسى بن جعفر (ع)
١٥٧	جهاد الإمام موسى بن جعفر
١٨٠	مواقف موسى الهادي العباسي الشائنة
١٨٤	الرشيد وحديث السجون
١٨٩ و ١٩١	حضارة الغيب والشهادة عند الإمام موسى بن جعفر (ع)
١٩١	عالم الغيب وعالم الشهادة
١٩٥	حياة أهل البيت (ع) مسيرة واحدة
١٩٩	المزيد من أنوار الإمام موسى بن جعفر (ع)
٢٠٨	من أدعية الإمام موسى بن جعفر (ع)
٢٠٩	حياة الإمام علي بن موسى الرضا (ع)
٢١١	الإمام الرضا (ع)
٢١١	الإمامة ضرورة بشرطها
٢١٤	الآخرة غير منفصلة عن حياة الدنيا
٢١٥	كيف نعرف أننا إلى جنة أو نار
٢١٧	نحن أمام محكمة دائمة
٢٢٠	مصرف الخمس
٢٢١	عودة إلى الإمامة وشروطها

٢٢٢	الإمام الرضا (ع) جامعة علمية متنقلة
٢٢٣	حقيقة العلاقة بين الإمام (ع) والمأمون
٢٢٦	بعض مواقفه
٢٢٦	تسامحه
٢٢٨	تواضعه
٢٢٨	هيئته وتأثيره على الناس
٢٢٩	يوم خروجه لصلاة العيد
٢٣٠	دأبه (ع) على إقامة مجالس العزاء الحسينية
٢٣٢	مقاطع من تائية دعبل في حضرة الإمام (ع)
٢٣٤	نهايته بالسم على يد المأمون
٢٣٥	موقف كربلائي
٢٣٧	الإمام الرضا (ع) رجل الحضارة الاسلامية
٢٣٩	في مدرسة الأنقة المعصومين : الإمام الرضا (ع) رجل الحضارة الاسلامية
٢٤٠	مقدمة
٢٤٢	سيرة الإمام الرضا (ع)
٢٥٠	مصرع الإمام الرضا (ع)
٢٥٣	السيرة الذاتية للإمام محمد بن علي الجواد (ع)
٢٥٥	الإمام الجواد (ع)
٢٥٥	أهل البيت والقرآن كل لا ينفصل
٢٥٧	الإمام الجواد سلام الله عليه
٢٥٨	عزم المأمون على تزويجه من ابنته ومعارضة بني العباس
٢٥٩	المناظرة بين الجواد (ع) ويحيى بن أكثم
٢٦٠	تفصيل الجواد (ع) في حكم المحرم الذي قتل صيداً
٢٦١	الجواد يمتحن يحيى بن أكثم
٢٦٣	لا يشترط في زوجة الإمام الصلاح

٢٦٤	 بعض مزايا الجواد (ع)
٢٦٤	 بعض الصور من علمه وفكره : صورة أولى
٢٦٥	 صورة ثانية
٢٦٥	 صورة ثالثة
٢٦٦	 صورة رابعة
٢٦٦	 صورة خامسة
٢٦٦	 مدرسة الجواد
٢٦٧	 مع المعتصم
٢٦٨	 حسد أحمد بن أبي دؤاد وحفده
٢٦٩	 أم الفضل تضع له السم في اللبن
٢٧٠	 المجلس الحسيني
٢٧٣ و ٢٧١	 الامام الجواد (ع) والتحدي الحضاري
٢٧٣	 مقدمة : نظرة الإسلام إلى الإنسان
٢٧٧	 البذل والتضحية صفة الإنسان المؤمن . وأنفقوا في سبيل الله ...
٢٨٢	 الإمام الجواد (ع)
٢٨٣	 مقتل الإمام الجواد (ع)
٢٨٥	 مجلس الإمام الحسين (ع)
٢٨٩	 الامام علي بن محمد الهادي (ع)
٢٩١	 الامام الهادي (ع) : معنى التسبيح وأثره في النفس
٢٩٢	 أهمية الإيمان وأثره في حياة الإنسان
٢٩٤	 لكل نبي وصي
٢٩٥	 أسئلة غايتها التعجيز والإحراج
٢٩٧	 مسؤولية الحكام وسائر المسؤولين
٢٩٨	 الإمام علي الهادي وحياته
٣٠٠	 شيخ ينهي المعتصم عن الظلم

٣٠١	المتوكل يأمر بإحضار علي الهادي من المدينة إلى سامراء
٣٠٣	طغيان المتوكل وحقده على أهل البيت (ع)
٣٠٤	محبة ابن السكيت لأهل البيت وموقفه الشجاع من المتوكل
٣٠٥	التهجوم على بيت الإمام وفتيشه
٣٠٦	مرض المتوكل
٣٠٧	الإمام الهادي وعلم البيثة
٣٠٩	حكم المنتصر وموقفه من الهادي
٣١٠	العالم وأزمة الفقر والجوع
٣١٤	زينب بنت علي بن أبي طالب (ع)
٣١٩	الإمام الهادي (ع) عقيدة وكفاح
٣٢١	الإمام الهادي (ع) . الإيمان بالآخرة
٣٢١	مقدمة . أقسام الناس
٣٢٣	الإيمان بالآخرة والجنة التي وعد المتقون
٣٢٦	أصل الظلم عدم الإيمان بالآخرة
٣٣٠	الإمام الهادي (ع)
٣٣٣	فضيلة المجالس الحسينية
٣٣٧	الإمام العسكري رائد الحضارة
٣٣٩	الإمام الحسن العسكري (ع)
٣٤١	الإمام الحسن العسكري (ع) يهيء للإمام المهدي (عج)
٣٤٤	الإمام الحسن العسكري (ع) والفيلسوف الكندي
٣٤٨	من جوامع الكلم التي قالها الإمام الحسن العسكري (ع)
٣٤٨	مما قاله (ع)
٣٥٣	ميلاد الإمام المهدي (عج)
٣٥٦	الإمام الحسن العسكري (ع) يهيء لفية الإمام المهدي (عج)
٣٥٧	يا أبطال الصفاء ويا فرسان الهيجاء

الدولة العالمية في ظل الامام المهدي (عج)	٣٦٣ و ٣٦١
الإنسان في عصرنا مسلوب الإرادة والحرية	٣٦٥
المهدي المنتظر (عج)	٣٦٦
المهدي المنتظر (عج) فكرة إسلامية عامة وليست شيعية فقط	٣٦٦
المهدي المنتظر (عج) فكرة عالمية موجودة لدى كل الشعوب	٣٦٧
ظهور الإسلام على كل الأديان	٣٦٨
كيف يمكن للمهدي (عج) أن يكون حياً حتى اليوم ؟	٣٦٩
كيف يمكن إطالة عمر إنسان ؟	٣٧١
كيف يمكن للإمام المهدي (عج) أن يقيم دولة عالمية واحدة ؟	٣٧٧
عناصر الدولة العالمية	٣٧٨
الامام المهدي (عج) صوت الحق والحرية والعدالة الاجتماعية	٣٨٥
الامام المهدي المنتظر (عج)	٣٨٧
الإمام المهدي (عج) يوحد العالم	٤٠١
كيف يخرج الإمام المهدي (عج) وما هي مواصفات دولته	٤٠٢
من أين سينطلق الإمام المهدي (عج)	٤٠٤
علامات ظهور الإمام المهدي (عج)	٤٠٦
الإمام الحجة (عج) في الكوفة وكربلاء	٤٠٨
خبر السيّد حيدر الحلبي رحمه الله	٤٠٩
الامام المهدي (عج) حضارة العالم في عصر الظهور	٤١٣
حضارة الاسلام في عصر الظهور	٤١٥
حديث أهل الكساء صلوات الله وسلامه عليهم	٤١٥
حديث أهل الكساء متفق عليه بين جميع المسلمين	٤١٨
بيان معنى حديث الكساء	٤١٨
الحضارة تقوم بأهل البيت (ع)	٤٢٠

٤٢١	 الزمن موجود داخل الإنسان
٤٢٤	 المستقبل للإسلام
٤٢٥	 اقتراب زمن ظهور الإمام الحجة (عج)
٤٢٩	 انتصار المهدي (عج) وانتصار حضارة الإسلام